

أدب الرحلات الأندلسية والمغربية

حتى نهاية القرن التاسع الهجري

د. نوال عبد الرحمن الشوابكة

تقديم

أ.د. صلاح جرار



أدب الرحلات الأندلسية والمغربية
حتى نهاية القرن التاسع الهجري

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

**حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٨ - ٢٠٠٨ م**

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٧/٦/١٧٥٢)

٩١٠,٤

ال Shawabka, Nawal Abd Al-Rahman
أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى القرن التاسع الهجري / نوال
عبد الرحمن محمد الشوابكة. - عمان: وزارة الثقافة، ٢٠٠٧.
ص. (٣٣٥) .
ر. أ. : (٢٠٠٧ / ٦ / ١٧٤٠).
الوصفات: أدب الرحلات // الرحلات // التاريخ الإسلامي // السفر //
الرحلة /

❖ أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه "أو"
تخزيقه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن
خطي مسبق من الناشر.

أدب الرّحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري

د. نوال عبد الرحمن الشوابكة



دار المامون للنشر والتوزيع



طبع بدعم من وزارة الثقافة

الآراء الواردة في هذا الكتاب
لا تعبّر عن رأي الجهة الداعمة



أ. علاء الدين شوقي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

أمضى الأندلسيون نحو ثمانية قرون بين عدوين: عدو نأمهما يتمثل بأوروبا، وعدو من خلفهم يتمثل بالبحر، وهما أول عدوين واجها طارق بن زياد وهو يعبر إلى الأندلس وأمام هذا الانقطاع وراء البحار والأخطار المتابعة التي كانت تهدّد الوجود الإسلامي في الأندلس ظلت الروح الأندلسية تتوقّى إلى الشرق الإسلامي وإلى مهد الإسلام في مكّة المكرمة والمدينة المنورة كي تستمدّ من هناك روح العبر والصمود، وكان حُلم أيّ أندلسي، عاماً كان أو غير عام، لا يتعدّى أداء الرحلة إلى الشرق، وزيارة قبر الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه، وأداء فريضة الحجّ، ولقاء العلماء في حاضر العالم الإسلامي كله والاقتباس من حلمهم ومعارفهم، والتطاويف بمنازل الأجداد.. فكان ذلك كله أهم عامل من عوامل كثرة الرحلات الأندلسية حتى بلغ تعدادها المئات من خلال ما نقلته لنا المصادر الأندلسية، وكان بعض الرحالات يكتفي بالزيارة وأخذ العلم، وكان بعضهم يضيف إلى ذلك تدوين ما شاهده وما أخذه من أقطاب العلم في المشرق والمغرب. وقد خلّف الأندلسيون لذلك عشرات كتب الرحلات ما زالت بعضها حبيس الخزائن وقد كثير منها ووصلنا بعضها مثل رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة ورحلة ابن رشيد ورحلة القلصادي وغيرها كثيرة.

وعندما تصدّت الباحثة النشيطة نوال الشوابكة لاستقصاء هذه الرحلات ودراستها فإنّها تكون بذلك قد وقعت على موضوعٍ مهمٍّ جدير بالدراسة والبحث، لما تحمله هذه الرحلات من قيمة علمية ومعرفية جمّة، إذ تمثل هذه الرحلات جزءاً مهماً من التاريخ الاجتماعي للشعوب العربية والإسلامية وغيرها خلال مراحل تاريخية مختلفة، كما أنها تمثل وسيلة من وسائل التواصل الثقافي والفكري والتبادل العلمي المعرفي بين الشعوب، وقد أدى الرحالات دور السفراء والممثلين لبلدانهم ومجتمعاتهم في البلدان التي زاروها أو زاروها. كما أنّ هذه الرحلات تعكس مجالات اهتمام الأندلسيين وقراءاتهم الحضارية لما كانت تقع عليه عيونهم خلال هذه الرحلات.

والذي يطالع هذا الكتاب فإنه يقف على الجهد الذي بذلته الدكتورة الشوابكة في استقصاء الرحلات الأندلسية من مصادرها المختلفة، والوقت الذي استغرقه في قراءة هذه الرحلات وتفحّصها ونقدّها وبيان قيمتها وموضوعاتها وغرائب أخبارها، فضلاً عن اللغة السليمة الناصحة والرصينة التي استخدمتها في إعداد هذا الكتاب، كما بدت الباحثة في هذا الكتاب نقاداً اجتماعية بالإضافة إلى نقدّها الأدبي لنصوص الرحلات التي درستها، وكانت في نقدّها الاجتماعي تملّك عيناً فاحصة دقيقة الملاحظة، وبرزت شخصيتها واضحة في ما كانت تضيفه على قراءتها من أحکام وتعليقات علمية.

لقد كان هذا الكتاب في أصله رسالة دكتوراه أعدّتها المؤلفة، وقد سعدت بالإشراف على تلك الرسالة لما وجدته لدى الباحثة من تعاون واستجابةٍ وسرعة فهم واستيعاب حرصٍ على أن تكون رسالتها متميزة ونافعة.

وفي الختام أدعو مؤلّفة هذا الكتاب بالتوفيق الدائم والنجاح الموصول في أبحاثها ودراساتها المقبلة، و الله ولي التوفيق.

أ.د. صلاح جرار

المحتويات

٠	المقدمة
١٧	التمهيد
١٧	أ. بواعث الرحلة:
٢١	أولاً : الضرورة
٢٦	ثانياً: العامل الديني
٣٣	ثالثاً: العامل الثقافي (طلب المعرفة)
٤٠	رابعاً: السفارة
٤٦	خامساً: العامل الاقتصادي
٥٠	سادساً: العامل السياحي
٥١	سابعاً: العامل الشخصي
٥٢	ب. أهمية الرحلة
٥٠	ج. من أبرز الرحلات
٥٠	- رحلة العذري
٥٦	- رحلة أبي عبيد البكري الأندلسي
٥٦	- رحلة الإدريسي
٥٨	- رحلة أبي حامد الغرناطي

٦١-	رحلة بنiamين التطيلي	-
٦٢-	رحلة ابن جبير	-
٦٤-	رحلة ابن سعيد المغربي	-
٦٦-	رحلة أبي محمد التجانى	-
٦٦-	رحلة ابن بوطة	-
٦٨-	رحلة ابن الحاج الغرناطى	-
٦٨-	رحلة لسان الدين بن الخطيب	-
٧٠-	رحلة التّعريف بابن خلدون	-
٧١-	رحلة القلصادى	-
٧١-	رحلة أبي عصيدة البحائى	-
٧٢-	رحلة صالح بن يزيد الرندي	-
٧٥-	الفصل الأول: السّياقات المعرفية في الرّحلات	
٧٧-	أ. السّياق الثقافي	
٧٨-	أولاً: المراكز التعليمية ودور الكتب	
٩٥-	ثانياً: اللغة والأدب	
١١١-	ثالثاً: النشاط الاقتصادي:	
١١٣-	أ. الحاصلات الزراعية وموارد المياه	
١٢١-	ب. المعادن والصناعات:	
١٢٣-	أولاً: صناعة المنسوجات الكتانية والحريرية والقطنية والصوفية	

١٣٦	ثانياً: صناعة السفن
١٢٨	ثالثاً: صناعة الورق
١٢٩	رابعاً: صناعة السكر
١٣٠	خامساً: صناعة الأسلحة
١٣١	سادساً: صناعات أخرى
١٣٣	ج. التجارة ووسائل النقل :
١٣٦	أولاً: الأسواق والسلع التجارية
١٤٢	ثانياً: التنظيمات المالية
١٥١	رابعاً: النشاط العمراني
١٥٩	ب. السياق الاجتماعي والديني:
١٦٠	أولاً: العادات والتقاليد والملابس
١٦٦	ثانياً: الأطعمة والأشربة
١٦٨	ثالثاً: صورة المرأة
١٧٢	رابعاً: الأعياد والأعراس والاحتفالات الشعبية
١٧٧	خامساً: صورة الآخر
١٨٠	الفصل الثاني: الرحلات والتّفاعل الثقافي-
١٨٩	أولاً: الحياة الاجتماعية والدينية:
١٨٩	أ. المظاهرات
١٩١	ب. الأعياد والاحتفالات

١٩٥	ج. الأطعمة والأزياء
١٩٩	د. الحجّ وزيارة الأماكن المقدسة
٢٠٥	ثانياً: الحياة الثقافية والسياسية:
٢٠٥	أ. التأثيرات اللغوية والترجمة
٢١٦	ب. السّفارات والاستفادة من ثقافة الآخر
٢٢٣	ج. الحياة الاقتصادية والنشاط العماني
٢٢٩	الفصل الثالث : الرحلة والسيرة الذاتية
٢٣١	أ. السيرة الذاتية المفهوم والنشأة
٢٤٢	ب. مبررات كتابة السيرة الذاتية
٢٤٣	ج. علاقة الرحلة بأ Formats كتابة السيرة
٢٥٩	الفصل الرابع: الدراسة الفنية لأدب الرحلات
٢٦٢	أولاً: الأسلوب واللغة والمنهج
٢٨٤	ثانياً: الوصف
٢٩٦	ثالثاً: البناء الفني، والسردي
٣١٧	الخاتمة
٣١٩	المراجع

أدب الرّحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري

تقوم هذه الدراسة على تتبع الرّحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، وتتبع السياقات المعرفية والثقافية التي تضمنتها الرّحلات، كما تعنى بإبراز دور الرّحلات في التفاعل الثقافي، وعلاقتها بالأشكال الأدبية الأخرى، وتحديد سماتها الفنية في ضوء ما يعزّزها. وجاءت الدراسة في تمهيد وأربعة فصول:

عرض التمهيد لتعريف الرحلة ونشأتها ودوافعها وأهميتها، ثم أشهر الرحالة ورحلاتهم، وإبراز الدور الذي قامت به في الحضارة العربية.

وتناول الفصل الأول، السياقات المعرفية والثقافية، والاجتماعية والدينية التي تضمنتها الرّحلات، كما أبرز صورة المرأة وصورة الآخر في مختلف المجتمعات التي زارها الرحالة.

أما الفصل الثاني، فقد تناول الرّحلات والتفاعل الثقافي وبين عوامل ذلك التفاعل، وصور التبادل والترابط بين مختلف العناصر والطوائف.

وعرض الفصل الثالث، علاقة الرحلة بأنماط كتابة السيرة الذاتية: اليوميات، والمذكرات، والاعترافات.

وأُفرد الفصل الرابع، لدراسة البناء الفني، والأساليب التي استخدمها الرحالة في وصف مشاهداتهم، والتعبير عن مشاعرهم، ودراسة البناء القصصي. لبعض تلك الرّحلات.

وقد توصلت الدراسة إلى نتائج من أهمها، ما يلي:

- كان خروج الرحالة الأندلسيين والمغاربة أساساً للحج، وزيارة الأماكن المقدسة، وطلب العلم، فاشتهروا وذاع صيتهم بما حققوا من علم، وما قاموا به من رحلات، فتأهلو لشغل المناصب العلمية والدينية، وتصدروا عند عودتهم إلى موطنهم للتدرис وتولي القضاء أو الكتابة لدى بعض أمراء الأندلس أو المغرب.
- رصدت الرحلات تنوع المعامِل الحضارية في مختلف الجوانب الحياتية في البلدان التي قصدها الرحالة، وعكست صورة واضحة عن أحوال الشعوب: مأكلهم وشربهم، ولباسهم، وخصائصهم النفسية والبدنية، والعادات والتقاليد، وصادراتهم، ووارداتهم، وفنونهم المعمارية، ولعل ما نقله الرحالة من أخبار ومشاهدات وأوصاف، مهد لنشوء علوم تبحث في الدراسات الاجتماعية.
- مثلت بعض الرحلات سرداً، ذا طابع أدبي؛ مثل رحلات السفارات، أو اليوميات، أو المذكرات، أو السير الذاتية، حيث التقت هذه الأشكال عند وصف السفر، والارتحال من موضع إلى آخر، وما تقع عليه أبصار الرحالة من مشاهدات، وما نقلوه من أخبار وحكايات تحمل جذوراً قصصية.
- الكشف عن الانتماء إلى ثقافة الذات، والفهم لثقافة الآخر، والانفتاح عليه.
- دور الرحلات في التفاعل الثقافي، والتبادل والتدخل والترابط بين كل العناصر البشرية والثقافية في البلدان التي زارها الرحالة، وتبين مدى تفاعل الرحالة مع غيرهم في المجالس العلمية والمناظرات، والمعارضات الأدبية.

مقدمة

عرف الإنسان الرحالة منذ ولادته، وكان في ارتحال دائم حسب الظروف ومتطلبات الحياة والتشكيل الاجتماعي، واتسعت الرحلات على مر الزمان، فكان للعرب قبل الإسلام رحلتا الشتاء والصيف، وأما بعد الإسلام فقد انفتحوا على العالم برحلاتهم وتنقلاتهم وفتحوا لهم حتى غدت الرحلة مظهراً من مظاهر الحركة العلمية والثقافية في مختلف عصور التاريخ الإسلامي، فقدم الرحالة مساهمات واضحة في التراث العلمي والثقافي الإسلامي، حيث رصدوا أحوال الناس، ووصفوا بعين بصيرة ما يزورون من بلدان، ومن هنا كانت الخصوصية التي تتجسد في التواصل بين شرق العالم الإسلامي وغربه، مما يضفي عليه سمة الشمول، فقد نقل الرحالة جوانب مضيئة تتصف بالدقة أحياً عن بلدان المشرق والمغرب، لا سيما أنَّ الأندلسيين كانوا أكثر شغفاً بالرحلة من غيرهم، الأمر الذي أتاح لهم أن يسجلوا انطباعاتهم، ويصفوا مشاهداتهم وينقلوها بصورة حية للناس.

إنَّ الرحلات الأندلسية والمغاربية كثيرة، غير أنَّ ما وصلنا منها قليل، إذا ما قيس بالإشارات الواردة في المصادر التي رصدت عظم الدور الذي قام به الرحالة الأندلسيون والمغاربة، خدمة للعلم، وتعريفاً بالملامح الإنسانية والثقافية والاجتماعية والجغرافية للأماكن التي حلوا بها، فالرحلة تعكس النهضة والحضارة العربية، وهي إلى جانب ذلك تقدم لنا صورة للآخر، لتثير فينا الشعور بالمنافسة والرغبة بالتفوق.

وُعدت الرحلات لهذا كله مادة خصبة للدراسة، فيما أنجزه الرحالة والجغرافيون الأندلسيون والمغاربة جدير بأن يلقى الاهتمام، ويعاد البحث فيه، فعلى الرغم من الدراسات العديدة للرحلة، فإنَّ هذه الجهود ما تزال بسيطة ومحدودة، فيما يخص الرحالة باعتبارها فناً أدبياً يحوي في أعماقه جذور البنية السردية القصصية في أدبنا العربي، ومحاور الالقاء الثقافي التي تشتمل واقعاً للرحلة الأندلسية والمغاربية للتوجه إلى الشرق، هذا

بالإضافة إلى العلاقة بين الرحلة والسيرة الذاتية، كما نجدها عند ابن خلدون في "التعريف". ومن الرحلات، أيضاً، على سبيل المثال: رحلة ابن جبير، وهي مكتوبة بشكل مذكرات يومية، فقد كان ابن جبير يسجل تاريخ دخوله أية مدينة وتاريخ خروجه منها باليوم والشهر، وعلى الرغم من أن هذه الرحلة يغلب عليها الطابع الوصفي الجغرافي، فإنها قد كتبت بأسلوب أدبي رشيق ينمّ عن موهبة ابن جبير الأدبية.

ومنها أيضاً، رحلة ابن بطوطة التي تبرز تفاعله مع الأحداث، فضلاً عن الفائدة العلمية التي تزود القارئ بمعلومات عن طبيعة البلاد التي زارها وأحوالها وطبائع عادات أهلها. لقد كان ابن بطوطة مدفوعاً بحب السفر والترحال، حيث قضى سنتين طويلة من عمره متوجولاً بين مدن العالم متحملًا في سبيل ذلك ألواناً من المشقة والصعاب.

ولأهمية الدور الذي قام به الرحالة، جاءت هذه الدراسة محاولة لاستيفاء بعض جوانب النقص في الدراسات السابقة، إذ لا توجد دراسة سابقة تصدت لأدب الرحلات بشكل تفصيلي، أو دراسة جامعة تكشف للقارئ والباحث عن السمات الفنية لها، ولأهم موضوعاتها، وأهميتها الأدبية والعلمية، فالدراسات التراثية السابقة كانت جزئية، أفضلت في الحديث عن جانب وأوجزته عن آخر، متناهية في طيات تلك الكتب، مثل "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، للمقرري، و"الإحاطة في أخبار غرناطة" للسان الدين بن الخطيب، و"المُغرب في حُلِّي المغرب" لابن سعيد المغربي، وغيرها.

أما الدراسات الحديثة، فهي دراسات عامة، اهتمت بالرحلة، إلا أنها لا تمثل أكثر من محاولات محدودة، ومنها كتاب "أدب الرحلة في التراث العربي" لفؤاد قنديل، وفيه أبواب كثيرة، تحدث فيها عن تقاليد السفر وأداب الرحلة، وأفرد أبواباً خاصة بالرحلة العرب، ورحلاتهم وفق الترتيب الزمني، وهو مع ذلك لم يقدم حدثاً مستفيضاً بل أوجز. ومنها أيضاً "الرحلات المغربية والأندلسية" لعواطف نواب، تحدثت فيه عن أنواع الرحلات، والخصائص العامة والخاصة للرحلات المغربية والأندلسية، وترجمت لمجموعة من الرحالة الأندلسيين والمغاربة، إلا أنها أولت اهتماماً كبيراً للمضمون المتعلق بالحجاج.

وهناك دراسة لعلي محسن مال الله بعنوان "أدب الرحلات عند العرب في المشرق، نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجري"، ناقش فيها موضوعات الرحلات، والتعريف بأصحابها، وأفرد فصلاً لدراسة الأسلوب واللغة، إلا أنها دراسة سريعة لم يتبع فيها الباحث أدب الرحلات بالتفصيل، فجاءت إشارات عامة بحاجة إلى استقصاء وبحث يُتم ما يعترف هذا النوع الأدبي من نقص في الدراسة.

ومن الدراسات الحديثة العامة التي تضمنت إشارات تؤيد اعتبار الرحلة فنًّا أدبيًّا قصصيًّا، كتاب "الرحلات" للدكتور شوقي ضيف ومجموعة من الأدباء، وكتاب حسين فهيم "أدب الرحلات".

ويمكن القول، إنْ إفادتي من الدراسات السابقة، تركَّزت في الاطلاع على نشأة الرحلة، وأنواعها، وموضوعاتها بشكل عام، إذ إنَّها لا تقدم صورة كاملة لهذا الأدب، ولأنَّ ما قدَّمه الرَّحَّالة في الأندلس والمغرب جدير بالاهتمام، بحيث يلقي الضوء على غaiات الرحلات، ويكشف عن أبعادها المختلفة وسياقاتها الفكرية والحضارية، ودورها في التفاعل الثقافي، وسماتها الفنية، وعلاقتها بالتقنيات الفنية الحديثة للعمل القصصي، جاءت هذه الدراسة للإحاطة بمختلف الجوانب التي تميَّط اللثام عن الرحلات، من حيث هي فنًّا أدبيًّا له سماته وأساليبه، التي تشير إلى أساليب أدب الرحلات وسمات العصر والمجتمعات، وعقدت العزم على أن أحارُّ مُشتات هذا البناء ودراسته دراسة تبرز الطاقة الأدبية والقصصية والإبداعية، وتتبع المساحات الواسعة للعديد من القضايا اللغوية والنقدية، التي يمتلكها هذا الفن.

ولعلَّ من الصعوبات التي واجهت الدراسة، ندرة الدراسات التي ترى في الرحلات أدباً وفنًّا قصصيًّا، كما شَكَّلت بعض الرحلات التي حُقِّقت حديثاً صعوبة أعادت مسار رحلتي قليلاً؛ لعدم توافرها في أثناء مدة الدراسة، إلى أن تمكنت من الحصول على بعضها أخيراً، ومنها رحلة أبي عصيدة البجائي "رسالة الغريب إلى الحبيب"، تحقيق أبي القاسم سعد الله، أما رحلة عبد الله بن الصباح الأندلسي الموسومة بعنوان: "منْشَاب الأخبار وتذكرة الأخيار"، فلم أستطع الوصول إليها، ولم أقف إلا على دراسة بسيطة نُشرت في

مجلة "دراسات أندلسية" للدكتور جمعة شيخة، الذي أبلغني من خلال الاتصال الشخصي به، أنَّ رحلة ابن الصبَّاح مخطوطة كبيرة الحجم، موجودة في دار الكتب الوطنية بتونس، ولم يتم تحقيقها حتى الآن.

وقد بذلت جهدي في سبيل تجاوز تلك الصعوبات، بالدرس والاستنتاج بما توافر لي من مصادر عربية في التاريخ والأدب والترجمة واللغة، ومراجع حديثة، إضافة إلى نصوص الرحلات نفسها، وكلي أمل أن تسهم هذه الدراسة في إغناء المكتبة العربية، وتوسيع معرفة القراء بأدب الرحلات الأندلسية والمبرية.

أما المنهج الذي اتبعته الدراسة، فقد كان ينبع من طبيعة مادة البحث، حيث اعتمدت منهجه تضاد المعرف، فالدراسة معنية بالكشف عن نشاط الرحلة ودراواعها خلال مدة زمنية محددة، والمنهج التاريخي ضرورة لا غنى عنها عند تتبع هذا الجانب. أما المنهج التحليلي الوصفي، فقد استخدم لرصد الظواهر المختلفة في الرحلات وتفسيرها وتحليلها، لإدراك عناصر العمل الأدبي والقصصي.

وقد جاءت الدراسة في تمهيد وأربعة فصول :

ففي التمهيد، تناولت التعريف بالرحلة ونشأتها، ودراواعها وأهميتها، ثم أهم الرحلة ورحلاتهم، وإبراز الدور الذي قامت به في التعريف بالحضارة العربية. أما الفصل الأول، فقد عرضت فيه للسياقات الثقافية والمعرفية، والاجتماعية، والدينية، وصورة المرأة، والآخر كما ظهرت في الرحلات.

وفي الفصل الثاني، بحثت أبعاد التفاعل الثقافي، ودور الرحلات في إبراز هذه الأبعاد وأثرها في مختلف السياقات الثقافية والمعرفية والاجتماعية والدينية. وخصصت الفصل الثالث، لدراسة علاقة الرحلة بالسيرة الذاتية، والمذكرات واليوميات، والكشف عن نقاط التلاقي والاختلاف بين هذه الأنواع الأدبية.

وتناول الفصل الرابع، دراسة جماليات التشكيل الفني لأدب الرحلات، في محاولة لإثبات العلاقة بين الرحلة والقصة.

وفي نهاية رحلتي هذه ، فإنّ كُلّ ما توصل إليه البحث، لا أدّعي بلوغه درجة الكمال وخلوه من العلل، بل هو عمل قابل للزيادة والنقص في ضوء ما يستجد من آراء وأفكار وما يُكتشف من مخطوطات وآثار، شأنه شأن أي عمل دراسي آخر، فإنّ أصبت القصد من هذه الدراسة، بفضل الله أولاً وفضل أستاذي الدكتور صلاح جرار ثانياً الذي أشرف عليها، وبذل لي من وقته وجهده، وسدد خطاي على الدرب الصحيح، فلم ألق عصا التسيير، وما حطّطت الرحل، وإن زلت قدمي فعذرني أنّي ما زلت طالبة علم، والله من وراء القصد، إياه أسأل الهدى والتوفيق، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آلله وصحبه أجمعين.

تمهيد

كانت الرّحلة مجالاً رحباً، ينطوي على علاقات إنسانية، ضاربة في جذور التّاريخ السّحيق لهذا الكون، منذ المحاوّلات الأولى للكائن البشريّ في السيطرة على الطبيعة، وهي محاوّلات نرى فيها صوراً صادقة لحياة الإنسان القديم، وصفحات من جهاده، إذ ينفض عنه ثياب الدّعّة ويرتدي ثوب الارتفاع والتجوال، ليخرّ عباب البحار، ويتجشّم أعظم المشاق، ويسلّر أخبار العرب والعجم، ويجمع التلّيد والطريق مما يقع عليه بصره من مشاهدات، ويسلّج تراث أمّة تشيد به صرح الحضارة.

ومن خلال الرّحلة، نرى العالم، والعديد من مظاهر الحضارة الإنسانية، ونسافر مع الرّحالة، فالإنسان رحال بطبيعته، تواقد أبداً إلى المعرفة وارتياح المجهول، وحبّ الاكتشاف، فالرّحلة هدف يتمناه العقل وتسعى إليه الروح، ولكن ليس منْ رأي وأخذت الأسفار من عمره، كمن قرأ أو سمع فقط.

والرّحلة بعد كلّ هذا فيها من المعلومات ما ينتفع بها كلّ باحث، وهي منابع غنية بمختلف مظاهر حياة المجتمعات البشرية بما فيها من صور وأخبار ومغامرات، و المعارف وعلوم، إنّها خزائن تحفل بالملادة الثّرية، لا في مجال الجغرافيا أو التّاريخ وحسب، بل تلّم بالحضارة وتمثل تجربة تعكس صورة الإنسان عبر العصور.

أ. بواطن الرّحلة:

عرف العرب الرّحلات منذ أزمنة قديمة تعود إلى ما قبل الإسلام حيث كانت حياتهم تقوم على الحلّ والترحال، إذ لا يكاد يستقرّ بهم المقام في منطقة حتى يرحلوا عنها إلى أخرى بحثاً عن الكلأ والماء، وقد أشار القرآن الكريم إلى رحلتي قريش التجاريتين في الشّتاء والصّيف إلى الشّام واليمن ﴿لِيَلَافِ قُرْيَشٍ (١) إِيَلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشَّتَاءِ وَالصَّيفِ﴾ (٢)

فَلَيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَمَهُمْ مِنْ حَوْفٍ (٤) ﴿١﴾ فضلاً عن الحركة الدائمة للرعي والصيد "فقد مارس الإنسان الصيد والطرد منذ دهور سحرية باحثاً عن قوته، أو مدافعاً عن نفسه، أو ناشداً الرياضة والمتعة" ^(٢). "فطبيعة المجتمع البدوي القائمة على القلة والرعي وحماية مواطن الغيث، وما يتصل بذلك من حروب تقطع وشائج الدُّم والحلف والحب، جعلت من الجاهلي إنساناً عالقاً بالأرض في شؤون حياته جميعاً - بما في ذلك الدين - فكانت شؤونه الاقتصادية صورة عن علاقته بالأرض أو نتيجة لها، وكانت علاقاته الاجتماعية - بدورها - مرهونة بشؤونه الاقتصادية، وببوحى منها ربما رحل وانتجع" ^(٣).

إلى جانب ذلك أصبحت الرحلة عنصراً أساسياً من عناصر القصيدة الجاهلية ^(٤). وتحددنا كتب الشعر الجاهلي، وتراجم الشعراء عن رحلات بعض الشعراء داخل الجزيرة العربية أو خارجها، إلا أنها لم تدون على نحو أدب الرحلة كما نعرفه، وإنما وصلتنا ضمن مضمون الشعر الجاهلي، أو ضمن تراجم بعض الشعراء" ^(٥).

وفي العديد من النصوص الجاهلية نجد ذكرًا للدوال المعبرة عن الرحلة، يقول الأعشى ^(٦):

(١) سورة قريش: آية ١ - ٤.

(٢) الصالحي، عباس مصطفى، (١٩٧٤). الصيد والطرد في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ص ١٤.

(٣) رومية، وهب، (١٩٧٩). الرحلة في القصيدة الجاهلية، ط ٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، ص ١٩.

(٤) انظر رأي ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، (ت ٢٧٦ هـ). في بنية القصيدة الجاهلية: الشعر والشعراء، مطبعة بربيل، طبع في مدينة ليدن، ١٩٠٢، ص ١٤ - ١٦.

(٥) صحراوي، عبد السلام، (١٩٨٧). أمين الريحاني، الأديب الرحالة، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة دمشق، دمشق، ص ٢٧٧.

(٦) انظر ترجمته في، ديوان الأعشى، دار صادر، بيروت، لبنان، ص ٦-٥، والأصبhani، أبو الفرج، (ت ٣٥٦ هـ). الأغاني، دار الفكر، مجل ٣، ج ٨، ص ٧٤-٧٤.

عَلَى ظَهْرِ طَاوِيٍّ أَسْفَعَ^(٤) الْخَدَّ أَخْثَمَا^(٥)

كَانَىٰ وَرَحْلِيٰ وَالْفِتَانَ^(١) وَمُرْقِي^(٢)

عَلَى قَارِحٍ^(٦) مَمَّا تَضَمَّنَ عَاقِلُ^(٧)

كَانَىٰ شَدَدُ الرَّحْلَ يَوْمَ تَشَدَّرَتْ^(٨)

ويقول النابغة الذبياني^(٩):

وتكثر مثل هذه الإشارات في النصوص الجاهلية الدالة على حضور الرحلة
ومستلزماتها وأدواتها ومحيطها، وليس هذا مجال التعرض لها.

(١) الفتان: غشاء يكون للرجل من أدم، ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، (ت ٧١١هـ). لسان العرب، دار صادر، بيروت: ٣٢١/١٣.

(٢) نمرقي: الوсадة، المصدر نفسه: ٣٦١/١٠.

(٣) طاوٍ: يقصد الثور الوحشي، ديوان الأعشى، ص ١٨٧.

(٤) أسفع: الثور الوحشي الذي في خديه سواد يضرب إلى الحمرة قليلاً. انظر، ابن منظور، لسان العرب: ١٥٧/٨.

(٥) أخثاماً: أنف عريض الأرببة، وقيل الخثم غليظ الأنف كله، وقيل قصر في أنف الثور. انظر، المصدر نفسه: ١٦٥/١٢.

(٦) ديوان الأعشى، ص ١٨٧.

(٧) انظر ترجمتها، ديوان النابغة، جمعه وشرحه، ابن عاشور، الشيخ محمد الطاهر، الشركة التونسية للتوزيع، والشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ١٩٧٦، ص ١١-٢٣، والأصبهاني، الأغاني، ١٦٢/٩، والبغدادي، عبد القادر بن عمر، (ت ٩٣٠هـ). خزانة الأدب ولدت بباب لسان العرب، عني بنشره المطبعة السلفية ومكتبتها، وإدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، ١٩٢٨: ١١٦/٢.

(٨) تشدّرت: التشدّر: النشاط والسرعة في الأمر، وتشدّرت الناقة إذا رأت رعيًا يسرّها فحركت برأسها مرحاً وفرحاً. انظر، ابن منظور، لسان العرب: ٤/٣٩٩.

(٩) قارح: الفرس إذا تم حملها، أو الناقة أول ما تحمل. انظر، المصدر نفسه: ٢/٥٠٩. وفي ديوان النابغة: القارح هو: حمار وحش في قوة سنة، ص ١٨٥.

(١٠) عاقل: اسم جبل يكثُر فيه حمر الوحش. انظر، ابن منظور، لسان العرب: ١١/٤٦٥.

(١١) ديوان النابغة، ص ١٨٥.

وما جاء الإسلام، وتوهّج نور الدّعوة الإسلامية، أخذ المسلمين يجوبون البلاد، وانداحوا في أرجائها وميادينها، جهاداً في سبيل الله وإعلاء لكلّمته، ففاقت العرب الأمم التي سبقتهم فيما خلّفوه من آثار في ميدان الرّحلات، وساعدتهم على ذلك اتساع رقعة الدّولة الإسلامية، فلقد كانت رحلة العرب المسلمين في فتوحاتهم الكبرى، من الرّحلات الهامة التي امتدت لتشمل أصقاعاً واسعة من الأرض، ليكون بعد ذلك هذا الاتساع في حدود العالم الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية من أكبر الدّواعي إلى إمتلاء نفوس المسلمين على اختلاف طبقاتهم بحبّ الأسفار إلى الأمصار وامتداد أنظارهم إلى الآفاق البعيدة، والتّوغل فيها، وشقّ قلب الصحراء، الأمر الذي يؤكّد الخبرة البرية والبحرية والجغرافية للعرب وغيرهم من الشعوب المجاورة التي أسلمت، إذ تتطلّب إدارة شؤون البلدان والمناطق المفتوحة معرفة تامة لأحوالها المختلفة، وبالتالي، فقد كان دور المؤرّخين والكتّاب وصف تلك المناطق والبلدان ووضع المعاجم الخاصة بها.

وقد أذكى القرآن الكريم العزائم في مواطن مختلفة؛ ليحملها على اقتحام القفار والبحار، والتّوغل في الصحراء والارتحال، والاستطلاع للعجبات، وكشف الجديد.

يقول الله عزّ وجلّ داعياً إلى السّير والضرب في جوانب الأرض: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ دُلُوًّا فَامْشُوا فِي مَا تَكِبُّهَا وَكُلُّوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾^(١). وقال تعالى: تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبُهُ الْمُكَذِّبُونَ ﴾^(٢). وقال الله تعالى أيضاً: ﴿ وَلَهُ الْجَوَارُ الْمُنْشَأُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾^(٣). وقد نشأت الحاجة كذلك إلى تدوين السنة الشريفة، والرّحلة من أجلها.

وهكذا، فإنّ أغراض الرّحلات تختلف باختلاف الأغراض الإنسانية، التي زادت بعد مجيء الإسلام الذي وسّع بدوره آفاق الرّحلة العربية، وعدّد دوافعها، وبهذا بلغت

(١) سورة الملك: الآية ١٥.

(٢) سورة الروم: الآية ٤٢.

(٣) سورة الرحمن: الآية ٢٤.

الرّحلات ذرّوتها وارتَّفَعَ شأنها وقيمتها، خاصّةً خلال فترة الفتوحات الإسلاميّة وما تلاها من عصر الاستقرار والمعارفة والحضارة، ممّوراً بِراحتِ الخصوص والاستسلام لمحٌّل قويٍّ، وحقب مليئة بالقلق السياسي وبنشاط علمي وأدبي على الصعيد الثقافي.

وقد كثُرت الرّحلات الأندلسية والمغاربية إلى المشرق، إذ يرى نقولا زيادة أنَّ "رحلة المغاربة إلى المشرق كانت على وجه العموم أكثر من رحلة المغاربة إلى الغرب، فمركز الحجّ في المشرق ومدن العلم الأولى فيه، فكان من الطبيعي أن يزور المغاربة الشّرق أكثر من زيارة المغارقة لبلادهم"^(١). ولم تكن الرّحلات مقتصرة على جانب واحد أو طريق واحد، وإنما كانت تتم بين المدن الأندلسية نفسها المعروفة بالنشاط العلمي والحركة الثقافية الواسعة مثل قرطبة، وإشبيلية، وبلنسية، وخارج الأندلس والمغرب.

ويمكن أن توجز^(٢) أسباب رحلة المغاربة والأندلسيين في العوامل التالية:

أولاً: الضرورة:

عرف الإنسان الرحالة منذ أن عرف الحياة على الأرض، وحملته اليابسة، وارتبط بها وأحبّها لما وفرت له من أمن واستقرار، إلا أنه قد يتعرّض لعارض يدفعه لهجر وطنه فيغادره؛ بحثاً عن الكلاً والماء، وهرباً من مصيبة كظم حاكم أو أمير، أو يأساً من المجتمع، وما قد حلّ به من حروب ونزاعات محلية، وظروف اجتماعية قاسية، وويلات ونكبات.

(١) زيادة، نقولا، (١٩٦٢). الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت: مكتبة المدرسة، دار الكتاب اللبناني، ص ١٦٧.

(٢) انظر، تقسيم الرحلات عند، المكناسي، محمد بن عثمان، الأكسير في فكاك الأسير، حقّقه وعلق عليه، محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ١٩٦٥، المقدمة، ص، خ، ٥، ذ، ر. وانظر في تفصيل أسباب الرحلات عموماً، نصار، حسين، (١٩٩١). أدب الرحلة، ط١، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان: مكتبة لبنان، ص ٤٩-٤٦، حيث يورد أسباباً عديدة، دينية، واقتصادية، واجتماعية، وعلمية، ... إلخ.

فالغرض أو الدافع لرحلة أبي بكر بن العربي^(١)، يبدو واضحاً، من خلال موضع متفرقة وردت في نص الرحلة في "قانون التأويل"، "فَدُعِتُ الْحَاجَةُ إِلَى الرَّجْلَةِ، فَخَرَجْنَا

(١) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري (٤٦٨-٥٤٣ هـ / ١٠٧٦-١١٤٨ م)، ولد بإشبيلية، ولكن لم يلبث أن غادرها إلى المشرق بصحبة والده بعد زوال دولة آل عباد، تلقى على يد الغزالى، ولقي أبو بكر الطرطوشى في بيت المقدس، وتلقى العلم عليه، وبرع في الفقه والحديث والأدب، وقد سُجِّل أبو بكر بن العربي أحداث رحلته في كتاب مفقود "ترتيب الرحلة للتغريب في الملة"، وقد وردت الإشارة إلى هذا الكتاب في كلام ابن العربي في نفح الطيب عند الحديث عن المائدة في القدس، حيث يقول: "وقد شرحت أمرها في كتاب "ترتيب الرحلة" بأكثر من هذا". غير أن هذه الرحلة لم تصلنا، إنما وصلتنا بعض المقتطفات منها في كتابيه "أحكام القرآن" و"قانون التأويل"، وهناك دراسة للدكتور عباس، إحسان، (١٩٨٦). عنوانها "رحلة أبي بكر بن العربي كما صورها قانون التأويل"، مجلة الأبحاث الجامعية الأمريكية، بيروت، السنة ٢١، العدد ٤-١، ص ٦١-٩٢. وانظر ترجمة ابن العربي: ابن خلkan، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، (ت ٦٨١ هـ). وفيات الأعيان وأئمـاء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢/٤، ٢٩٧-٢٩٦، وابن بشكول، أبو القاسم خلف بن عبد الملك، (ت ٥٧٨ هـ). الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩/٢، ٥٩٠، وابن عماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي، (ت ٨٩٠ هـ). شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط ١، تحقيق مصطفى عبد القادر عطاء، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨/٤، ٣٠٨-٣٠٩، وابن خاقان، الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الإشبيلي، (ت ٥٢٩ هـ). مطعم الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، ط ١، تحقيق محمد علي شوابكة، دار عمار، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٩٧، والمقرى، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمessianي، (ت ١٠٤١ هـ). أزهار الرياض في أخبار عياض، صندوق إحياء التراث الإسلامي، الرباط، ١٩٧٨، ٩٥-٨٦/٣؛ ١٩٧٨، ص ٤٣-٢٥/٢، وابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى، (ت ٦٨٥ هـ). المغرب في حل المغارب، ط ٣، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، القاهرة، ١٩٥٣-١٩٠٠، ٢٤٩/٢، وكراتشوكوفسكي، أغناطيوس بوليانوفس، (١٩٨٧). تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله عن الروسية، صلاح الدين عثمان هاشم، ط ٢، بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ص ٣٣٢-٣٣١.

والأعداء يشمون بنا^(١)، "فخر جنا مكرمين أو قل مكرهين"^(٢). وكل هذه العبارات تشير إلى أن الرحلة كانت وسيلة للنجاة، عندما تغيرت الأحوال في الأندلس بزوال الدولة العابدية^(٣).

ويبدو جلياً أن أبي بكر بن العربي، من خلال رحلته "ترتيب الرحلة" التي لم يعثر عليها حتى الآن، قد وضع حجر الأساس لأدب الرحلات^(٤)، حيث استطاع أن يرسم مراحل تطور العقلية الأندلسية شكلاً وروحأً على صفحات أسفار عظيمة، نصينا منها الآن التراثي والإضافات الواردة في كتب الترجم، وقد صور مشاهداته في البلاد التي زارها، وذكر من لقيهم من العلماء والفقهاء والمحاذين في مصر والشام وبيت المقدس، فعكس لنا صورة الحركة العلمية في تلك البلاد.

وقد نقل حسين مؤنس خطبة أو رسالة لابن العربي من مخطوط صوره محمود علي مكي من مكتبة القرويين في فاس، يقول فيها ابن العربي: "وما سبق خير القضاء برحلتي إلى تلك المشاهد الكريمة وحلولي في تلك المقامات العظيمة، دخلتها وال عمر في عنفوانه، والغصن مائس بأفاناته والكتاب محظوظ ...، وافتقرت من كل فن فقرة حسبما فسرته وأوضحته وشرحته وبينته، وقررته وزرّته في كتاب "ترتيب الرحلة للتّرغيب في الملة" وذكرت فيه لقاء الأعيان لنا، وسير الفضلاء معنا ولحظهم لجانبنا بمناظر التعظيم، وم مقابلتهم... وأتبعناهم جملاً من طرائفهم..."^(٥).

(١) ابن العربي، قانون التأويل، ط٢، تحقيق محمد السليماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٠ ص ٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٧.

(٣) عباس، إحسان، رحلة أبي بكر بن العربي كما صورها قانون التأويل، مجلة الأبحاث، السنة ٢١، العدد ٤ - ٦١٦، ص ٤.

(٤) انظر، كراتشوكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٣١.

(٥) مؤنس، حسين، (١٩٦٧). تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط١، مدريد: معهد الدراسات الإسلامية، ص ٤٠٧-٤٠٦.

وقد عانى بعض الأدباء الأندلسيين كغيرهم من ظروف أحاطت بهم، وأرغمتهم على مغادرة البلاد مكرهين، وهم يحملون وطنهم في قلوبهم، حيث لا يغرب عن البال ما للظروف السياسية الداخلية والخارجية من أثر في إقامة شخصيات مغربية وأندلسية في المشرق، بل وحتى البلاد المسيحية عبر العصور، فهذه الانقلابات والدسائس والحروب والمؤامرات داخل الأسرة الواحدة، وبين أسرة حاكمة وأخرى تتطلع إلى الحكم، دفعتهم إلى الخروج من الديار، فالمؤامرات والسعيات التي دبرها أعداء لسان الدين بن الخطيب^(١) أتت أكلها، حين نجحوا في الإيقاع بينه وبين مليكه الغني بالله^(٢)، بعد ما كان بينهما من ود وصداقة، وبذلك لم يعد البقاء في غرناطة آمناً وسط هذا الجو المشحون بالتحامل والكره، ولذا يتوجه ابن الخطيب إلى المغرب.

(١) هو محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد التلمساني، يكنى أبا عبد الله، ولسان الدين، والطائر الصيت، ولد في لوحة قرب غرناطة ٧١٣ هـ وتوفي في أوائل ٧٧٦ هـ - ١٣١٣ م)، أنسد إليه الخليفة الغني بالله الكتابة والوزارة وسمّاه ذا الوزارتين، انظر ترجمته: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، (ت ٨٠٨ هـ). تاريخ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط ١، جديدة منقحة، تعليق تركي فرحان المصنطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٩: ٣١٩-٣٢٤، وابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، بدون ط، تحقيق محمد عبد الله عنان، دار المعارف، مصر، ١٩٥٠: ١/ مقدمة المحقق، ٤٥٧-٤٣٨، واطقري، أزهار الرياض: ١٨٦/١، ٣٢٠، وفي مواطن متفرقة من الأجزاء، ٤، ٤٦٠، والمقربي، نفح الطيب: ٧ أجزاء، وفي صفحات متفرقة. وتاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٤٧٤، ٤٩٣.

(٢) محمد الخامس بن يوسف الأول، ولـي الملك بعد أبيه، وكان عفيف النفس. انظر ترجمته، ابن الخطيب، الإحاطة: ١٤/٢ وما بعدها، وتاريخ ابن خلدون: ٣٧٨/٧، والمقربي، نفح الطيب: ٥٠٧، ٤٥٢، ٣٢١/١، ٥١٣، والأجزاء، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، في صفحات متفرقة، والسلاوي، أحمد بن خالد الناصري، (ت ١٣١٥ هـ). الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، بدون ط، أشرف على النشر، محمد الحجي، وإبراهيم أبو طالب، وأحمد التوفيق، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، المغرب، ٢٠٠١: ٤٨٢.

من هنا ندرك أنّ الرّحلة ضروريّة في حياة الأندلسيِّ والمغربيِّ، فرضتها عليهم مساحة الأندلس الواسعة، وبعدها الشّاسع عن المشرق، وتکالب الأعداء عليها، لاحتلالها، وتبغًا لذلك تعددت دواعي الرّحلة وأنواعها، وهذا ما أكّدَه محمود سالم محمد في قوله: "وكان لحنين المغاربة وتشوّقهم للأ مكان المقدّسة، لون خاصٌ نبع من بعد بلادهم عن الحجاز، وما يتجلّشُونه في الرّحلة إليها، فكان الوصول إلى الأماكن المقدّسة عندهم غاية الإدراك وأمنية الأمانى .."^(١).

ولعلَّ ما نجده من مشاهد الوداع والمواضيعات الوجданية -فيما يكتبه الأدباء- وثيق الصّلة بالإنسان الأندلسيِّ- الذي رحل عن وطنه، إذ تتجلّ في رحلاتهم معاني الاغتراب القاسية، واللحظات الفاصلة بين فرح اللقاء الطويل ملئ ممكّن من العودة، ومراارة الفراق المديد ملئ قصى ما تبقى من حياته حالاً بالإياب.

فقد ارتحل ابن سعيد المغربي^(٢) طلباً للعلم وللحجّ إلى المشرق، ولكن هيهات أن تنسيه الرّحلة الأندلس وأن يسلوها، فقد قال: "ولما قدمت مصر والقاهرة أدركتني فيها

(١) محمد، سالم، محمود، (١٩٨٧). المدائِن النبوية في نهاية العصر المملوكي، رسالة دكتوراه، غير منشورة، جامعة دمشق، ص ٢١٤.

(٢) أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي (٦١٠هـ-٦٧٣هـ / ١٢١٣-١٢٧٤م) الأديب، والرّحالة، الإخباري، العجيب الشأن في التجول في الأقطار، أخذ عن أعلام إشبيلية كأبي علي الشلوبين، وأبي الحسن الدباج، وتواليفه كثيرة، منها: "المرقصات والمطربات" و"المغرب في حلى المغرب" و"المشرق في حلى المشرق". انظر ترجمته، ابن سعيد المغربي، المغرب: ١٧٢/٢، ١٧٩-١٧٢/٢، وابن عبد الملك المراكشي، محمد بن عبد الملك الأنصارى الأوسي، (ت ٧٠٣هـ). الذيل والتكميلة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥، السفر الخامس، القسم الأول، ص ٤١، والكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد، (ب ٧٦٤هـ). فوات الوفيات، حقّقه وضبطه وعلق عليه محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة السعادة، مصر، ١٩٥١: ١٧٨/٢-١٨١، والسيوطى، جلال الدين عبد الرحمن، (ت ٩١١هـ). بغية الوعاة في طبقات اللغويين والتحاة، ط ٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة، ١٩٧٩: ٢٠٩/٢. والمقرى، نفح الطيب: ٢٦٢/٢، ٢٩٢-٢٦٢/٢، والسلامي، الاستقصا: ١٦٠/٣، وبالثانية، آنخل جنثالث، (١٩٥٠). تاريخ الفكر الأندلسى، نقله عن الإسبانية، حسين مؤنس، ط ١، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ص ١٣٥-١٣٦.

وحشة، وأثار لي تذكر ما كنت أعهد بجزيرة الأندلس من المواقع المهجورة، التي قطعت بها العيش غصاً خصياً وصاحت بها الزمان غلاماً ولبس الشباب قشياً، فقلت^(١):

مُدْ نَأْيَ عَيْ دُمُوعِي تَسْكُبْ	هَذِهِ مِصْرُ قَائِنَ الْمَخْرِبْ ؟
ثُمْ صَارَتْ فِي فُؤَادِي تَغْرِبْ	مَعْ شَمْسِ طَلَاعِتْ فِي نَاظِرِي
فِي ذَرَا مِصْرَ فَفَكَرْ مُتَعَبْ	هَذِهِ حَالِي وَأَمَّا حَالَتِي

فهو في غربته يحاول رسم صورة لوطنه في مخيّله ليظلّ قريباً منه. ويمكن القول إنّ من أهم الأسباب التي أجبرت الأندلسين على النزوح عن أرضهم، هي الفتن والحروب الداخلية والخارجية، فقد "أصيب المجتمع بتموجات متحركة كانت أحياناً تخلّ من توازنه، وتترك فيه آثاراً نفسية عميقة، وقد بدأ هذا الجلاء الذي يضرّب على المستقررين بيد الشّتات في حادثة الفتنة الأمازيغية أولاً، وانسياح كثير من أهل قرطبة فراراً بأرواحهم في نواحي الأندلس المختلفة. ثم تزايدت حركة الجلاء إثر سقوط بعض المدن في الحروب الداخلية، وكان على أشدّ أحواله عندما تسقط مدينة في يد العدو الأجنبي".^(٢).

ثانياً: العامل الديني:

يمثل هذا العامل السبب الرئيسي والأول لأغلبية المتوجهين إلى المشرق الإسلامي^(٣)، فهو العامل الذي يقضي بشدّ الرجال من كلّ حدب وصوب إلى الحجّاج والأمكنة المقدّسة،

(١) المقرري، نفح الطيب: ٢٨٣-٨٢١/٢، وبالثانية، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ١٣٦-١٣٧.

(٢) عباس، إحسان، (١٩٦٢). تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمغاربيين، ط١، بيروت، لبنان: دار الثقافة، ص ٣٢.

(٣) هناك إشارة لرحلة مخطوطة لعبد المجيد بن علي الزيادي المنافي الفاسي، (ت. ٢٠٩هـ / ١٧٩٤م) سماها (بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام)، وتوجد منها نسخة في المكتبة العامة بالرباط، رقم ١٨٤. في ١٨٤ ورقة تضمنت قصيدة رائعة في ١٢٩ بيّناً جامعة لراحل الرحلة من مصر إلى مكة مع مناسك الحجّ عليها شرح اسمه "اتحاف المنسكين الناسك ببيان المراحل والمناسك". انظر، البلوي، خالد بن عيسى، (ت ٧٦٥هـ). تاج المفقري في تحلية علماء المشرق، بدون ط، تحقيق الحسن السائج، طبعة فضالة المحمدية، المغرب، د.ت: ٧٦١.

لأداء فريضة الحجّ، الواجبة على المسلم ما لم يعقه عائق من ضعف أو قلة مال. قال تعالى: ﴿ وَأَدْنِ فِي النَّاسِ بِالْحَجَّ يَأْتُوكَ رِحَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجِّ عَمِيقٍ ﴾^(١).

ويقتضي هذه العامل أيضاً زيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، والمزارات الدينية الأخرى، كالمسجد الأقصى أولى القبلتين، وثالث الحرمين وقبور الأنبياء والصحابة والأولياء، في كلّ من بغداد ودمشق والقاهرة وغيرها، ويعدّ هذا العامل من أقوى البواعث على الرّحلة فهو مبعث الحنين في نفوس الأندلسين والمغاربة على ارتياح البلد الحرام، فالحجّ من أهم الوسائل التي ربطت بين المشرق والمغرب، وعملت على توحيد الثقافة فيسائر أنحاء البلاد الإسلامية، على الرغم من المسافات الشّاسعة التي تفصلها عن الحجاز، ولم تستطع هذه المسافات أن تحول دون توجّه الأندلسين والمغاربة للحجّ وزيارة البقاع المقدّسة، حيث يدفعهم الشّوق إليها، وإلى منبئهم الأصلي في المشرق، فما أن يصل أحدهم هذه الديار حتى يطفح قلبه فرحاً وتفيض مشاعره إكباراً وإجلالاً، كما هو حال ابن جبير^(٢) حين شارف المدينة المنورة التي أضاء نور الإيمان عتمة الليل فيها:

(١) سورة الحج: الآية ٢٧.

(٢) أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكتاني اللبناني، (٥٤٠ - ٦١٤ هـ / ١١٤٥ - ١٢١٧ م). كان أحد فرسان البلاغة، بارعاً بليغاً، شاعراً مجيداً، قام بثلاث رحلات، وعن سبب رحلته الأولى، فإنّ حاكم غرناطة أبو عثمان سعيد بن عبد المؤمن سمع بابن جبير فأمر أن ينضمّ إلى كتاب ديوانه، وما جلس إليه أحبّه وقربه، وكان يدعوه إلى مجلس شربه فيأبى أبو الحسن، وفي إحدى المرات، طلب إليه الحاكم أن يشرب معهم، فاعتذر ابن جبير، فأقسم الأمير أن يشرب أبو الحسن سبعة كؤوس، فاضطر ابن جبير أن يشرب على مضض كأساً بعد كأس ... ومملاً له الأمير الكأس التي شرب فيها بالدنانير الذهبية، وأفرغها في حجره سبعاً. ومع ذلك ظلل ابن جبير غاضباً بسبب ما فعله، فقرر أن ينفق هذه الدنانير على رحلة حج إلى بيت الله الحرام، فيجعلها كفارة شربه. أمضى أكثر سنوات حياته متنقلًا في الديار الإسلامية بين مكة وبيت المقدس والقاهرة إلى أن وافته المنية بالإسكندرية. انظر ترجمته، المقرى، نفح الطيب: ٣٨٢-٣٨١/٢، والتّجبيي، القاسم بن يوسف، (ت ٧٣٠ هـ). مستفاد الرحلة والافتراض، تحقيق عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبية، تونس، ١٩٧٥، ص ٢٤٣، وابن سعيد المغربي، المغرب: ٣٨٣/٢، وكراشكونوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٣٥، الأنباري، عبد القدس، (١٩٧٧). مع ابن جبير في رحلته، بدون ط، القاهرة: المطبعة العربية الحديثة، ص ١٦.

أَقُولُ وَأَنْسَتُ بِاللَّيلِ نَاراً
لَعَلَّ سَرَاجَ الْهُدَى قَدْ أَنَّارَا^(١)

أَقُولُ وَأَنْسَتُ بِاللَّيْلِ نَارًا

ويصف ابن جبير رحلته الطويلة الشاقة إلى هذه الديار المباركة: إِلَيْكَ إِلَيْكَ نَبِيُّ الْهُدَى رَكِبْتُ الْبَحَارَ وَجُبْتُ الْقَفَارَا

وَفَارَقْتُ أَهْلِي وَلَا مِنْهُ^(٢)
وَرُبَّ كَلَامٍ يَجْرِيْ عَتِيْدًا

فقد كان أساس خروج ابن جبير ورحلته إلى المشرق، أداء فريضة الحجّ، فحجّ وسمع من بعض علماء الشام ثم عاد إلى المغرب، وكان له أكثر من رحلة إلى المشرق.
أمّا العبدري^(٣)، صاحب الرحلة المغربية، وهي رحلة حجازيَّة قيمة، تميّز بأنّها قسمت عبر البرّ، فلم يركب البحر كما فعل غيره من الرّحالة، وهذا يعطينا صورة حيّة عن قوافل الحجّ البريَّة، وكيف كانت تسير عبر الطريق والمحطات التي كانت على امتداد الطريق، ويتوقف فيها الرّكب طلباً للراحة، أو للتزوّد بماله ومالهُنّ، كما وصف البلاد التي

(١) ابن الخطس، الإحاطة: ٢٣٥/٢

٢٣٦/٢) المصدر نفسه:

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري، حاد الطبع، وقوي الشخصية، أصله من بلنسية، وكان من سكان حاجة الواقعة على شاطئ المحيط الأطلسي في المغرب الأقصى، وكان خروجه من بلاده سنة ٦٨٨ هـ فمر على منطقة سوس قاطعاً الجنوب المغربي من الغرب إلى الشرق إلى تلمسان، وتونس، والقيروان، ثم قابس، وطرابلس، وبيرقة والإسكندرية، ثم القاهرة ومنها قصد مكة المكرمة لقضاء فريضة الحجّ، وتوجه بعد ذلك إلى المدينة المنورة ثم مدينة الخليل وبيت المقدس، ومنها إلى القاهرة، ثم شرع في الرجوع إلى بلاده عن طريق تونس والجزائر، ووصل إلى مدينة تازا في فاس، ثم رحل منها إلى أن وصل إلى مدينة أزمور ثم إلى مدينة أسفي. لا يعرف ميلاده، وتوفي نحو (٧٠٠ هـ). وقد نشرت رحلته في المغرب عام ١٩٦٨ م بقديمة محمد الفاسي. انظر ترجمته، المقرري، نفح الطيب: ٤٨٣/٢، ٥٨٩، والزركلي، خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، بدون ط، دار العلم للملائين، بيروت، لبنان، ١٩٨٤: ٣٢٧، وبالنسبة، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٣١٨، وكراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي،

مرّ بها موضحاً الحال الاجتماعية والعلمية والثقافية السائدة في تلك البلدان في القرن السابع الهجري.

ويذكر ابن بطوطة^(١) في فاتحة رحلته سبب خروجه من وطنه إلى المشرق "كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رب جمادى عام خمسة وعشرين وسبعينه، معتمداً حجّ بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضّل الصلاة والسلام"^(٢).

ولعلّ هذا العامل ينطوي على عامل نفسي، نلحظه في شدّة تعلق الأندلسيين والمغاربة بزيارة المقدّسة والمجاورة بها، إلى أن تحضرهم الوفاة، فيدفنون في أرض طيبة بجوار الصحابة والتّابعين وأرض الأنبياء، فأبو عصيدة البجائي^(٣) في رحلته المسماة

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (٧٠٣ - ٧٧٩ هـ / ١٣٧٤ - ١٣٠٤ م). تنسب أسرته إلى قبيلة "لواثة" وهو رحالة مؤرخ، ولد ونشأ في طنجة بال المغرب الأقصى، وطاف مختلف البلاد واتصل بكثير من الملوك والأمراء، وعاد إلى المغرب فانقطع إلى السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين، فأقام في بلاده. ترجمت رحلته إلى لغات عديدة منها: البرتغالية والفرنسية والإنجليزية، ومات في مراكش. انظر ترجمته، مقدمة ابن خلدون، ١٤٤٣-١٤٤٠، والزركلي، الأعلام: ٢٣٥-٢٣٦، وكراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٤٥٦-٤٧٢.

(٢) رحلة ابن بطوطة المسماة "تحفة الناظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، تحقيق دوريش الجويدى، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ٢٠٠٤: ٢٠١.

(٣) أبو عصيدة، أحمد بن أحمد البجائي المنشاوي والدار، الغساني الأصل (ت. ٨٦٥ هـ)، عاش في القرن التاسع الهجري في الجزائر وتونس أثناء العهد الحفصي، وكان زاهداً في الدنيا، ولم يعثر على ترجمة له في كتب التراجم سوى النبذة التي ساقها أبوعصيدة نفسه في رسالته إلى صديقه أبي الفضل المشدالى. انظر رسالة الغريب إلى الحبيب، ط١، عرّفها وعلّق عليها، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٣، ص ٢٥-١٨.

"رسالة الغريب إلى الحبيب"، "نجده وقد حقق ما كان يصبو إليه بنزوله بالحجاج، وبالمجاورة في الحرم المدنى، وأنه حقق الراحة النفسية واطمئنان البال، وقضى أوقاته في التدريس"^(١).

ومن اللافت للانتباه أن بعض الرحالة اتّخذ رحلته الحجازية لغاية الوعظ والتعلّم، فالرحلات أكثر المدارس تثقيفاً للإنسان وإغناء لفكرة، وتأملاته عن نفسه وعن الآخرين، مهما اختلفت دوافعها وتبينت وسائل السفر وتنوعت مادتها. فعبد الله بن الصّبّاح الأندلسي^(٢)، يسرد أخبار رحلاته في رحلته المسمّاة "منشاب" لل المسلمين الذين بقوا في الأندلس بعد سقوطها في يد النّصارى (الإسبان)، فالتعريف بأرض

(١) انظر، رسالة الغريب إلى الحبيب، ص ٦-٥، دراسة أبي القاسم سعد الله، (١٩٩٠). "رحلة أبي عصيدة البجائي من بجاية إلى الحجاز"، مجلة العرب، ج (٩، ١٠)، ص ٦٢٣-٦٢٧.

(٢) لم يعثر على ترجمة له في كتب التراجم، ويقول جمعة شيخة في بحث له بعنوان "بعض المظاهر الدينية في رحلة عبد الله بن الصّبّاح الأندلسي": "إنه لم يوجد ذكراً له في كتب التراجم لأنّه لا ينتسب إلى طبقة العلماء أو الفقهاء أو الأدباء، وكلّ ما نعرفه مقتبس من رحلته، فهو من سكان إمرية، واستمر في الإقامة بها حتى سقطها في يد فردیناند الأرغونفي سنة ٨٩٥ هـ وهو ينتمي إلى قبيلة عربية قحطانية من الجنوب، هي قبيلة الصّبّاحين اليمانية، وهي إحدى القبائل التي دخلت الأندلس عند فتحها في نهاية القرن (١ هـ). انظر، مجلة دراسات أندلسية، العدد (١٢)، ص ٢٥.

(٣) تبيّن لنا من خلال المراسلة مع الكاتب جمعة شيخة أن الرحلة مخطوطه موجودة في المكتبة الوطنية بتونس، ولا يتوفّر عنها سوى ما ورد في المرجع السابق، حيث يذكر جمعة شيخة أنه قد بدأ في تحقيقها منذ عام ١٩٩٤م، وهي رحلة جعلها ابن الصّبّاح بعنوان "منشاب الأخبار وتذكرة الأخبار". ويقول: "كلمة منشاب من تشَبِّه ينشَبُ نشباً ونشبة الشيء في الشيء: أي علق، والصيغة التي جاءت عليه الكلمة صيغة مبالغة "مفعلن": لقد قصد المؤلف أن تكون رحلته كالآلة التي يعلق بها كل شيء، وبالتالي تلتقط كل الأخبار، وقد أملأها من ذاكرته، وهو بين الستين والسبعين من عمره، وقد ضعف بصره، ويرجح أنه قام بهذه الرحلة في أواخر النصف الأول من القرن التاسع الهجري، وببداية النصف الثاني منه بالاعتماد على الغاية من الرحلة، والاعتماد على بعض أسماء السلاطين الأتراك ك مراد الثاني (ت. ٨٥٠ هـ / ١٤٥٢ م) وأسماء بعض العلماء ك بدر الدين البلقيني (ت. ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م). انظر، المراجع السابق، ص ٣٧. وفي معنى "منشاب" انظر، ابن منظور، لسان العرب: ٧٥٧/١.

الإسلام المترامية الأطراف لتعزيز الروح الدينية في نفوس المدجنين بالأندلس، غاية قصد المؤلف بلوغها، لذا فقد عمد صاحب الرحلة إلى التأكيد على بعض المظاهر الدينية، لتمجيد الإسلام وتعزيزه في نفوس أهله من (المدجنين)^(١) باتباع منهج تلقيني تعليمي، يظهر من خلال كثرة الاستشهاد بالآيات القرآنية والسنّة النبوية، والتذكير بواجبات المسلم الدينية كالصلة والزكاة والحجّ، وكان ابن الصّبّاح أثناء وصفه لرحلته يتعرض إلى بعض القضايا الدينية، ومن هذه القضايا: قضيّة الجهاد والعبادة، أيهما أفضّل؟ وقضيّة بقاء المسلم تحت حكم النصارى بالأندلس^(٢)

وتبدو النزعة التعليمية في رحلة ابن الصّبّاح من الصور التي رسمها للأماكن المقدّسة: مكّة المكرّمة، ومسجد الرسول بالمدينة، والمسجد الأقصى ببيت المقدس، وحرم الخليل، ولا تخلو الرحلة من فوائد كثيرة تتعلق بالعمان والاقتصاد، وتقدم لنا كذلك صورة عن المستوى الثقافي السائد في القرن التاسع الهجري.

ويبرز حضور المكان المقدّس، كذلك، في رحلة محيي الدين بن عربي^(٣)، التي يصف فيها رحلته الوجданية وخروجه من الأندلس قاصداً بيت المقدس، فيقول: "وقال السالك:

(١) وهم الأندلسيون الذين عاشوا في ظل الحكم الإسباني بعد سقوط مدنهم، وكذلك الأسرى المسلمين والسبايا الأندلسية في قصور الملوك والنبلاء الأوروبيين، انظر، ابن الخطيب، الإحاطة: ١٤٠/٢، وأعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، ط٢، تحقيق إ. ليفي، بروفنسال، دار المكتشف، بيروت، ص ٢٢١، والمقرري، نفح الطيب: ٢٩٠-٢٩٠/١.

(٢) انظر، شيخة، جمعة، "بعض المظاهر الدينية في رحلة عبد الله بن الصّبّاح الأندلسي"، مجلة دراسات، العدد ١٢، ص ٣٧-٣٩.

(٣) هو محيي الدين بن عربي، محمد بن علي بن عبد الله ولد في مُرسِيه سنة ٥٦٠ هـ / ويُمتد نسبه إلى قبيلة حاتم الطائي. من مؤلفاته: "الفتوحات المكية" و "فصوص الحكم" و "ديوان شعره" "ترجمان الأشواق". ارتحل إلى المشرق ودخل مصر، وأقام بالحجاز مدة، ودخل بغداد وملحقاً ببلاد الروم، ومات بدمشق سنة ٦٣٨ هـ / ولم تقدم الدراسات صورة جلية واضحة شافية عن رحلة ابن عربي، غير أن هناك إشارات لابن عربي عنها أثبتتها في مراجعه الموسوم بـ "كتاب الإسرا إلى مقام الأسرى" ضمن رسائل ابن عربي، وإشارات أخرى له عن رحلته في كتابه "الفتوحات المكية". انظر، ترجمته، ابن الأبار، التكملة، ص ١٥٢، وشذرات الذهب: ١٩٠/٥٢-٢٠٢، والمقرري، نفح الطيب: ١٦١-١٧٠/٢، وبلاطوس، آسین، ١٩٧٩. ابن عربي: حياة ومذهبة، ترجمة عن الأسبانية، عبد الرحمن بدوي، الكويت، بيروت: وكالة المطبوعات، دار القلم، ص ٥.

خرجت من بلاد الأندلس أريد بيت المقدس، وقد اتخذت الإسلام جواداً، والمجاهدة مهادداً، والتوكّل زاداً^(١) ...، ويشير ابن عربي إلى غايتها من رحلته إلى بيت المقدس: "قال السالك: "وسرت على سواء الطريق، أبحث عن أهل الوجود والتحقيق، رجاء أن أتبرّز في صدر ذلك الفريق ...".

والقدس بعد ذلك رمز الارتفاع عند ابن عربي، إذ يقول:

فَعَائِنْتُ مِنْ عِلْمِ الْغَيْوِبِ عَجَابِاً

وَمِنْ قَائِمِ بِالحَالِ فِي بَيْتِ مَقْدِسٍ

أما مكة المكرمة، فقد ختم ابن عربي رحلته بها، وكان كتابه *الفتوحات المكية* تتوياجاً لرحلته إلى القدس، وتأكيداً على قيامه بتلك الرحلة، إذ يقول: "فإني وصلت أم القرى، بعد زيارتي الخليل الذي سن القرى"^(٤).

ويبدو جلياً أن رحلة ابن عربي لم تكن مجرد رحلة، بل جاءت سياحة صوفية ورحلة بحث وكشف عن أهل الوجود والتحقيق، وهم كبار المتصوّفة الذين أفنوا حياتهم في العرفان^(٥). وكان سفره، سفراً في الحقّ جلّ وعلا، بقوة إلهية لا يدركها العقل، وفي ذلك يقول: "وأماماً امسافرون فيه فطائفتان، طائفة سافرت فيه بأفكارها وعقولها، فضللت عن الطريق .. وهم الفلاسفة، ومن نحا نحوهم، وطائفة سافرت بها فيه وهم الرسل والأنبياء والمصطفون من الأولياء كالمحققين من رجال الصوفية ..."^(٦).

(١) كتاب الإسرا إلى مقام الأسرى، ضمن رسائل ابن عربي، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ج ١، ١٩٤٨: ٣/١.

(٢) المصدر نفسه: ٣/١.

(٣) المصدر نفسه: ٤/٦.

(٤) *الفتوحات المكية*، دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة: ٤٢/١.

(٥) انظر، بلاطيوس، آسين، ابن عربي حياته ومذهبه، ص ٦٣، ٦٢، ٦١، ٦٩.

(٦) كتاب الإسفار عن نتائج الأسفار، ضمن رسائل ابن عربي: ٧/٢.

وقد استطاع ابن عربي، من خلال رحلته، أن يقدم خطاباً للمعرفة الصوفية، وكثيراً من الجوانب المعرفية والدينية للمشرق الإسلامي، "ونصاً مفتوحاً لم يغلق"^(١). وكذلك جاءت رحلة أبي مروان اليحانسي^(٢)، رحلة بحث وكشف للحقيقة، وقد دونها تلميذه الفشتالي^(٣) الذي رافقه مراحلها، حيث تحدث عن سلوك شيخه لحياة الزهد والتقطشـف، وجوبه أنحاء العالم الإسلامي، وتأديته فريضة الحجـ غير مرـة، كما تحدث عن كرامات ومكاشفات أبي مروان، وأرائه في المشرق الإسلامي وملوكه وشيوخه، وعرض كذلك مجريات الحياة اليومـية في عصرهما.

ويرى محقق رحلة "تاج المفرق" أن الإقبال على الرـحلة الحجازـية كان قد قـلـ في أواخر العصور الوسطـيـ (القرن الثـامن والتـاسع الهـجريـين)، بسبب دعوة العلماء إلى الجهـاد وإثارـه على الحـجـ^(٤).

ثالثاً: العامل الثقافي (طلب المعرفة):

إن أسباب الرـحلة متعدـدة، ولها صلة وثيقـة بطبعـ الحضارة العربية الإسلاميةـ، التي امتدت سيادتها على دنيـا المـشارق والمـغارـب "وطبيـعيـ أن تكون الرـحلـات والأـسـفار من أول السـبـيل لـطلبـ الـعلمـ في تلكـ الـعـصـورـ"^(٥)، ويـلحـظـ أيضاً أنـ العـاملـ الثقـافيـ مـرـتبـ بالـعـاملـ الـديـنـيـ، فالـدـينـ نـفـسهـ يـدـعـوـ إـلـىـ الـعـلـمـ وـالـعـرـفـ، فـقـدـ حـتـ الرـسـولـ عـلـيـهـ الصـلاـةـ

(١) مقابلـةـ، جـمالـ، (١٩٩٦). حـادـثـ الإـسـرـاءـ وـالـمـعـارـجـ وـتـجـليـاتـهـ فـيـ النـثـرـ الـعـرـبـيـ، رسـالـةـ دـكـتورـاهـ، غـيرـ منـشـورةـ، الجـامـعـةـ الـأـرـدـنـيـةـ، عـمـانـ، الـأـرـدـنـ، صـ٤٢ـ.

(٢) هو أبو مـروـانـ عبدـ الـمـلـكـ بنـ إـبرـاهـيمـ بنـ بشـيرـ الـقـيـسيـ الـيـحـانـسـيـ، نـسـبةـ إـلـىـ بلـدـهـ يـحـانـسـ منـ ولـاـيـةـ الـطـرـيةـ بالـأـنـدـلـسـ، وـقـيلـ الـبـجاـنـيـ نـسـبةـ إـلـىـ بـجاـنـسـ، قـرـيـةـ مـنـ قـرـىـ وـادـيـ آـشـيـ. انـظـرـ تحـفـةـ الـمـغـرـبـ بـبـلـادـ الـمـغـرـبـ، مـلـنـ لـهـ مـنـ إـلـاـخـوـنـ، فـيـ كـرـامـاتـ الشـيـخـ أـبـيـ مـرـوـانـ، تـحـقـيقـ فـرـنـانـدـ وـدـيـ لـاجـانـخـ، منـشـورـاتـ الـمـعـهـدـ الـمـصـرـيـ لـلـدـرـاسـاتـ إـلـاسـلامـيـةـ، مـدـرـيدـ، ١٩٧٤ـ، صـ٦ـ، ٧ـ.

(٣) هو أحـمدـ بنـ إـبرـاهـيمـ يـحيـيـ الـأـزـدـيـ الـفـشـتـالـيـ، وـقـيلـ الـقـشـتـالـيـ، نـسـبةـ إـلـىـ قـشـتـالـ، التيـ قدـ تكونـ بلـدـةـ فيـ ولـاـيـةـ غـرـنـاطـةـ، انـظـرـ الـمـصـدرـ نـفـسـهـ، صـ٦ـ، وـانـظـرـ الـمـقـرـيـ، نـفـحـ الـطـيـبـ، ٦٩٠ـ/ـ٢ـ.

(٤) الـبـلوـيـ، خـالـدـ، تـاجـ المـفـرقـ، ٥٥ـ/ـ١ـ.

(٥) حـسـنـ، زـكـيـ مـحـمـدـ، (١٩٤٥ـ). الرـحـالـةـ الـمـسـلـمـونـ فـيـ الـعـصـورـ الـوـسـطـيـ، الـقـاهـرـةـ، دـارـ الـمـعـارـفـ، صـ٦ـ.

والسلام على طلب العلم والرحلة في سبيله، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «... ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علمًا سهل الله به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسوه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغضيّتهم الرحمة وحقّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(١).

وموسم الحجّ، وإن كان موسمًا دينيًّا، إلا أنه يُعدُّ كذلك ملتقى ثقافيًّا إسلاميًّا يجمع الفئات المثقفة من العلماء، بل يشمل أيضًا غير المثقفين الذين أتوا لأداء فريضة الحجّ، إذ إنَّ حلقات الوعظ والارشاد والحديث، وجلسات العلم والأدب، كانت ولا تزال تعقد في رحاب المسجد الحرام والمسجد النبوي، ويحضرها كل من يرغب في التفقّه في دينه، والأخذ عن الشّيوخ والجلوس إليهم، لما في ذلك من أهميّة كبرى في التعليم الإسلامي^(٢)، فالحجّ جامعه ثقافية موسمية، كما يرى البعض^(٣)، وقد كثرت رحلة الأندلسيين إلى المشرق في طلب العلم، وكان الواحد منهم يشرف بينبني قومه حين يروي عن شيخ مصر وبغداد وغيرهما من بلدان المشرق^(٤).

لذا لم تعد الرحلة العلميّة أمراً منوطاً بالنّيّة الدافعة للحجّ وحسب، بل أصبحت هي نفسها ضرورة لازمة^(٥)، وقد كان الشعب الأندلسي والمغربي يمتاز بالإقبال على العلم

(١) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، (ت ٢٦١ هـ). صحيح مسلم بشرح النووي، بدون ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ٢١١٧، وابن ماجة، أبو عبد الله بن يزيد الفزويني، (ت ٢٧٣ هـ). سنن ابن ماجة، بدون ط، حرقه بشار عواد معروف، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٨: ٨٢١، وهو جزء من حديث شريف طويل في أهميّة العلم وطلبه.

(٢) انظر، الصادقي، حسن، (١٩٨٩). الوجود المغربي في المشرق من خلال كتب الترجم المشرقيّة، مجلة المنهال. العدد (٣٨) السنة ١٥، ص ٢٩٩.

(٣) غنيمة، محمد عبد الرحيم، (١٩٥٣). تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، ط٧، بيروت، معهد مولاي حسن: دار الطباعة المغاربية، ص ٢١٢.

(٤) عباس، إحسان، (١٩٨٥). تاريخ الأدب الأندلسي "عصر سيادة قرطبة"، ط٧، بيروت، لبنان: دار الثقافة. ٣٨١.

(٥) هناك الكثير من الآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة التي تحدث على العلم، ولا رغبة بالإكثار من سردها، وفيها الكثير مما يغني عن الاستشهاد.

للعلم ذاته، "فقد كان قلب أبي بكر بن العربي معلقاً بشيء آخر يقدمه على الحجّ، وذلك هو الاستمرار في طلب العلم، ولذلك فإنه ملأ وجد في أثناء الرّحلة أنّ الحجّ قد يفوت عليه المضي في الطلب قال لأبيه^(١) "إن كانت لك نية في الحجّ فامض لعزمك، فإني لست برائماً عن هذه البلدة"^(٢)، حتى أعلم علم من فيها، وأجعل ذلك دستوراً للعلم وسلماً إلى مراقيها"^(٣)، فالغرض الأصليّ من رحلة ابن العربي، هو تلقي العلم والاتصال بالشيوخ، بينما كان غرض والده أداء فريضة الحجّ.

أمّا ابن تومرت^(٤)، فقد اشتهر منذ طفولته بهيله إلى الدراسة، وملازمته للمسجد، فشّب قارئاً محباً للعلم، ولأنّ المشرق محطّ آمال الراغبين في العلم رحل ابن تومرت إليه طلباً للعلم وأداء فريضة الحجّ.

(١) انظر، عباس، إحسان، رحلة أبي بكر بن العربي كما صورها قانون التأويل، مجلة الأبحاث، السنة ٢١، العدد ٤-١، ١٩٦٨، ص ٦١.

(٢) يقصد "بيت المقدس".

(٣) ابن عربي، قانون التأويل، ص ٩٢.

(٤) هو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان، ويُهتمّ نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، وقيل ولد سنة ٤٨٣هـ/٧٠١م أو ٤٧٩هـ/١٠٩٠م، غادر بلاد السوس الأقصى التي نشأ فيها حوالي سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م متوجهاً نحو المشرق طلباً للعلم، وعاد إلى قريته إيجيل التي ولد فيها، وأعلن أنه المهدى في سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م. وأسس مذهبًا جديداً يعتمد خصوصاً على نظرية التوحيد وأطلق على أصحابه اسم الموحدين. توفي سنة ٥٢٤هـ/١١٤٠م، وقيل سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م، انظر، بوروبيه، رشيد، (١٩٨٢). ابن تومرت، ترجمة عبد الحميد حاجيات، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ص ٢١، وصفحات أخرى متفرقة، وانظر، ابن القطان، أبو الحسن علي، (ت ٦٢٨هـ). نظم الجمان، تحقيق محمود علي مكي، المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، ص ٣٤، ٣٨، والحلل الملوشية، تحقيق سهل زكار وعبد القادر زمامنة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١١٧٩، ص ٩٨، وابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤٥٠/٥.

وكان ابن تومرت أينما حلّ يبادر بالحضور إلى دروس أشهر العلماء والفقهاء، فقد أخذ العلم عن أبي بكر الطرطوشي^(١) في الإسكندرية^(٢)، وقرأ على يد أبي بكر الشاشي^(٣)، وغيرهما، وكان ابن تومرت يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويريق الخمر، ويكسر آلات الطرف، في كل مدينة يزورها^(٤)، وقد ذكر ابن القطان أنَّ ابن تومرت حين كان بجایة "لقي بها الصبيان في زي النساء .. فغير المنكر جهده" ثم حضر عيداً، فرأى فيه من اختلاط الرجال بالنساء والصبيان المتزيين المتكحلين ما لا يحلُّ، فزجرهم وغير ذلك عليهم..^(٥). وقد دون ابن تومرت الكثير من مشاهداته وأرائه في رسائله وكتبه المختلفة^(٦).

ونجد بعض الرَّحالة المغاربة والأندلسيين^(٧) ينتقلون داخل بلادهم أو ينتهزون فرصة أدائهم فريضة الحجّ، للقاء العلماء والفقهاء، وزيارة المراكز العلمية، وتسجيل أسماء

(١) هو، أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد القرشي، الفهري، المعروف بابن أبي رندقة، انظر، ترجمته، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢٦٢/٤-٢٦٥.

(٢) الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم. تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ط٢، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٦، ص٤.

(٣) هو، أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي، الفقيه الشافعى، انظر، ترجمته، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤/٢٠٠-٢٠١.

(٤) انظر، ابن أبي زرع الفاسى، الأنئس المطروب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقه، الرباط، ١٩٧٢، ص ١٢٢-١٢١.

(٥) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٤١-٤٢.

(٦) من رسائله وكتبه: أعز ما يطلب، ورسالة في العلم، وكتاب تحريم الخمر.

(٧) ومنهم، الرعيني، وهو أبو الحسن علي بن محمد بن علي الرعيني الإشبيلي يعرف بابن الفخار، ولد في شعبان ٥٩٢ هـ تنقل في داخل الأندلس وأ المغرب، وتوفي سنة ٦٦٦ هـ. انظر، برنامج شيخوخ ابن الفخار الرعيني، تحقيق إبراهيم شبوح، مجلة معهد المخطوطات العربية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٢، امجلد ٥، الجزء ١، ص ١٠٣.

وابن جابر الوادي آشى، وهو محمد بن جابر بن قاسم بن محمد القيسى الوادي آشى، ولد سنة ٦٧٣ هـ وتوفي ٧٥٢ هـ. انظر ترجمته، ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبوالفضل أحمد بن علي، (ت ٨٥٢ هـ). الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط١، ضبطه وصححه الشيخ عبد الوارد محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٧: ٣٠٥-٣٠٢، وابن الخطيب، الإحاطة: ٣٢٨/٣، والمقربي، نفح الطيب: ٢/٦٦٤.

مشايختهم، ومروياتهم، والترجمة لعدد كبير منهم، مما أضاف الصبغة العلمية على رحلاتهم، فغدت كتاباً علمية يغلب عليها الجانب الثقافي أكثر منها رحلة أدبية. وقد سميت بالبرامج أو الفهارس^(١).

وجاءت رحلة القاسم بن يوسف بن محمد بن علي التجيبي^(٢) "مستفاذ الرحلة والاغتراب"، ورحلة ابن رشيد السبتي^(٣) "ملء العيبة في ما جمع بطول الغيبة في الوجهة الواجهة إلى الحرمين مكة وطيبة"؛ لتأدية فريضة الحجّ وزيارة قبر الرسول عليه السلام، والاتصال بالشيوخ والأساتذة، وملاقاة الرجال والرواة، وذكر أخبارهم

(١) البرنامج يرافق معنى الفهرسة، فهو كتاب يجمع فيه الشيخ أسماء شيوخه وأسانيده من مروياته وقراءته على أشياده والمصنفات ونحو ذلك، فلطف برنامج تستعمله أهل الأندلس كثيراً والبرنامج يرافق الفهرسة والمجمّع والثبات والمشيخة، انظر الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير، فهرس الفهارس ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، ط٢، باعتمان إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٢.

٧١-٦٧/١

(٢) وقيل هو أبو القاسم (٥٦٧هـ - ١٢٧١هـ / ١٣٢٩-١٢٦٧هـ / ١٢٧١م)، وهو من أهل سبتة من بني تجيب الدين استثروا في الأندلس منذ أوائل الفتح الإسلامي، وببدأ رحلته إلى المشرق سنة ٦٩٦هـ ورحلته "مستفاذ الرحلة والاغتراب" ثلاثة مجلدات ضخمة كما وأشار صاحب الدرر الكامنة، يتضمن الجزء الأول خروجه من سبتة إلى مصر أو من الأندلس إلى مصر، أما الجزء الثاني الذي حققه عبد الحفيظ منصور ونشرته الدار العربية في ليبيا سنة ١٩٧٥، فقد ابتدأ فيه بذكر مدينة القاهرة، وضمن بقية أخبار الحجاز وبيت المقدس والشام في الجزء الثالث. رافقه في رحلته الكاتب خلف الغافقي القبتوبي الإشبيلي. انظر ترجمته، التجيبي، مستفاذ الرحلة، مقدمة المحقق، ص، ب، ج، وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة: ٣٢٤/٣، ٣٢٥-٣٢٤، والسلاوي، الاستقصا: ٨٧/٣.

(٣) محمد بن عمر بن محمد بن رشيد الفهري السبتي (٦٥٧هـ - ١٢٥٩هـ / ١٣٢١-١٢٥٩م)، بدأ رحلته سنة ٦٨٣هـ خرج من فاس واتجه شمالاً إلى مدينة سبتة وسافر إلى المورية ومنها إلى بجاية ومنها إلى مدن أخرى: الإسكندرية، والفسطاط والقاهرة، ودمشق، والحجاز والحرمين ... ورافقه صديقه الأديب أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم اللخمي. انظر ترجمته، المقرري، نفح الطيب: ٢٢٥/٥، وابن الخطيب، الإحاطة: ٤٤٠/٢ وما بعدها، والسلاوي، الاستقصا: ٧٨/٣، وكراتشوكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٤١١.

علومهم ومؤلفاتهم، والترجمة للعلماء المبرزين ممن التقى بهم في رحلتيهما اللتين كانتا أقرب إلى كتابة الفهارس العلمية، ومع ذلك فهناك ما يفيدها عن أحوال الأقطار الإسلامية، وأوضاعها العلمية والأدبية والاقتصادية والعمرانية، وهما في هذا الميدان يتبعان بعض خطوات الرحال ابن جبير، فالتجيبي^(١) مثلاً، استفاد من رحلة ابن جبير فيما كتبه ابن جبير^(٢) عن صحراء عيذاب، وساحل البحر الأحمر والحركة التجارية بين قوص وعيذاب.

أما خالد بن عيسى البلوي^(٣)، فقد كان في شوق دائم إلى لقاء العلماء حيثما حلّ، فيسرع للبحث عنهم، وقد عبر عن ذلك فيما ذكره عند دخوله قسطنطينية، فقال: "وَبَادَرْتُ"

(١) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٥.

(٢) رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ص ٤٢.

(٣) هو أبو البقاء، خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي القتوري، ولد بقتورية، من قرى المريية بالأندلس (٧١٣هـ / ١٣١٣م) تلقى العلم بمسقط رأسه، فقرأ القرآن، ثم درس القراءات السبع عناثي عشر شيئاً، ثم أخذ يجوب عواصم الأندلس بحثاً عن الشيوخ والعلماء، فانتقل بين غرناطة ومالقة، كما ارتحل إلى تلمسان وتونس والإسكندرية والقاهرة، والقدس، وكان ذلك أثناء توجهه إلى البقاع المقدس لأداء فريضة الحج، وبعد هذه الرحلة الطويلة عاد إلى قتورية، فأصبح معدوداً من رجال الفكر والفقه والأدب وتولى القضاء ثم انتقل إلى القضاء ببرشانة، وهناك أتم كتابة رحلته "تاج المفرق في تحليق أهل المشرق". أما وفاته فقد جعلها بعضهم سنة (٧٦٥هـ / ١٣٦٤م)، ويعارض حسن السائح محقق الرحلة هذا الرأي مبيناً أن المؤلف أتم كتابة رحلته في اليوم الأخير من شهر ربیع الأول عام ٧٦٧هـ ببرشانة، وإذن فقد عاش بعد هذا التقدير. وقد طبعت الرحلة في الرباط. انظر ترجمته، البلوي، تاج المفرق: ١٠-٢٥١، والتبيكتي، أبو العباس، أحمد بن أحمد بن عمر، (ت ١٠٣٦هـ). نيل الابتهاج بتطريز الدبياج، فاس (د.ن)، ١٨٩٩، ص ٩٩، وابن الخطيب، الكتبية الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣، ص ١٣٥-١٣٤، والمقربي، نفح الطيب: ٥٣٤-٥٣٢/٢.

إلى لقاء الفضلاء، ومباحثة النبلاء، أجيلى وأجتنب ولا أجتنب وأنا والطرس في ملأ
أنتقي منهم وأنتخب ..^(١).

وفي ذلك يقول ابن خلدون^(٢): "إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد
كمال في التعليم، وذلك لأن البشر - يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينحلون به من
المذاهب والفضائل تارة علمًا وتعلميًّا وإلقاء، وتارة محاكاة، وتلقيناً بال المباشرة، إلا أنَّ
حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشدَّ استحكاماً، وأقوى رسوحاً، فعلى قدر كثرة
الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها. فالرحلة لا بدَّ منها في طلب العلم لاكتساب
الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباحثة الرجال"^(٣).

وممَّا كان يشجع الراغب في طلب العلم وتعليمه وتعلُّمه ورحلته إلى المشرق،
وجود المكان الذي يأوي إليه في المساجد والمدارس والزوايا، وتوافر مصادر المعيشة
وأسبابها "فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فادخل أيها المجتهد بسلام، وتغنم الفراغ
والانفراد قبل عَلْق الأهل والأولاد، وتقرع سنَّ التَّدم على زمن التَّضييع، والله يوفق

(١) البلوي، تاج المفرق: ١٦١/١.

(٢) هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد
الرحمن بن خلدون (٧٣٢٢ـ٨٥٠هـ/١٣٣٢ـ١٤٠٦م). وهو الفقيه، والأديب والفيلسوف المؤرخ
والرَّحالَة المشهور، له إسهامات بارزة في كافة ألوان الفكر والمعرفة، خلف عدَّة مؤلفات من أهمها:
مقدمته، وتاريخه، والتعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً وعن مؤلفاته انظر، بدوي، عبد
الرحمن، (١٩٦٢). "مؤلفات ابن خلدون"، القاهرة: دار المعارف، انظر ترجمته، رحلة ابن خلدون،
"التعريف" ، ط١، عَلَى عَلِيهَا، محمد ابن تاویت الطنجي، وقَدْمَ لها، نوري الجراح، دار السويدى
للنشر، أبوظبي، ودار الفارس، عمان، ص ٦٥، ٤٩، ٩٩، وصفحات كثيرة متفرقة، والساخاوي، شمس
الدين محمد بن عبد الرحمن. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بدون ط، مكتبة القدس، القاهرة،
١٣٥٥: ٤، ١٤٥٠، والمقرئي، نفح الطيب نقلًا عن الإحاطة: ١٨٠/٦، ١٩٠، وكراتشيفوسكي، تاريخ الأدب
الجغرافي العربي، ص ٤٧٣-٤٧٦.

(٣) مقدمة ابن خلدون: ٥٤١/١.

ويرشد ...^(١). ووصف ابن بطوطة حسن معاملة أهل دمشق للغرباء، فقال: .. وهم يحسنون الظن بالمغاربة، ويطمئنون إليهم بالأموال والأهليين والأولاد، وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق، لا بد أن يتلقى له وجه من المعاش من إمامه مسجد، أو قراءة مدرسة، أو ملزمة مسجد يجيء إليه فيه رزقه، أو قراءة القرآن، أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة ..^(٢). ويشيد كذلك بموقف أهل البصرة من الغرباء "وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق، وإيناس للغريب وقيام بحّقه".^(٣).

إن الرحلة في طلب العلم تحتل أهمية كبيرة، وتشكل سمة بارزة في حياة المجتمع الأندلسي والمغربي، وتؤكد على التواصل العلمي والفكري والثقافي والاجتماعي، فالمصادر الأندلسية والمغاربية والشرقية تزخر بأخبار هذه الرحلات، وأسماء العدد الكبير من الرجالين إلى المشرق، يطلبون العلم وجل أمنيتهم أن يجلسوا إلى عالم مشرقي مشهور يشرفون به بين بني قومهم. وقد لاحظ كراتشيفوسكي، أن طلب العلم يطغى على نمط الرحلة، ابتداء من القرن السابع الهجري، ليتسع على مر العصور.^(٤)

رابعاً: السفارة:

إن السفارة نوع من الرحلات الرسمية، يُوكِل بها الرّحالة من قبل الحكام، ورسالة يتنافس في أدائها من يكّلفون بها، مهما كلفهم الأمر من تضحيات، إذ كانت تقترن في نفوسهم برفعه وعلو شأن الدولة الإسلامية، فالسفير عنوان دولته.

وكانت السفارات لا تقطع بين الدول العربية وماجاورها من الدول غير العربية، بقصد الصلح وفك الأسرى، أو لتصفية الأجواء السياسية، وقد تكون وليدة علاقات دبلوماسية أو تقليد لربط العلاقات السياسية، وليس هذا وحسب، بل لعبت

(١) رحلة ابن جبير، ص ٢٥٩.

(٢) رحلة ابن بطوطة: ٩٦/١ - ٩٧.

(٣) المصدر نفسه: ١٦٩/١ - ١٧٠.

(٤) كراتشيفوسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٤٠١.

دوراً ملحوظاً في توسيع نطاق المعلومات الجغرافية^(١). وقد نشطت حركة السّفراء بين الأندلس ودول أوروبا طوال مدة الوجود الإسلامي في الأندلس، فكان الأندلسيون يتادلون السّفراء مع القسطنطينية وروما وفرنسا وإنجلترا وألمانيا والنرويج والدانمارك والسويد وقشتالة وغليسية وأراغون والبرتغال وغيرها، وكان كلا الطرفين حريراً على اختيار سفراء ذي ثقافة عالية، وحنكة، ودهاء ذكاء، وفطنة، وكان عاملًا مهمًا من العوامل التي تساعد على إنجاز المساعي التي يقومون بها، إلى جانب التقارب الثقافي بين الطرفين من خلال إعجاب الملوك بثقافة من يفذ إليهم من هؤلاء السّفراء، وخاصة أنَّ بعض هؤلاء السّفراء كان يقيم عدّة أشهر وربّما سنة أو أكثر في بلاط الملك الذي ينتدب إليه^(٢).

ولعل أكثر هذه السّفارات شهرة وإثارة للجدل، تلك التي قام بها شاعر الأندلس يحيى الغزال^(٣)، ولقب بالغزال لجماله، فقد كان جميلاً في صباح وسيماً في كهوته، وكان شاعرًا متممّنًاً ذا مقدرة تعبيرية أدبية عالية، اتصف بـ "حدّة الخطاطر، وبديهة الرأي، وحسن الجواب، والتّجدة والإقدام، والدخول والخروج من كل باب"^(٤).

(١) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ١٥١.

(٢) جرار، صلاح، (٢٠٠٤). زمان الوصل، ط١، عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار الفارس للنشر، ص ٢٤-٢٣.

(٣) يحيى بن الحكم الجياني البكري (١٥٠ هـ / ٧٧٣ م - ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م). أصله من جيان، عمر أربعاً وتسعين سنة، انظر ترجمته، ابن دحية، أبو الخطاب، مجد الدين عمر بن الحسن بن علي، (ت ٦٣٣ هـ). المطربي في أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، وحامد عبد المجيد، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٤، ص ١٣٠-١٣٩، والحميدي، أبو عبد الله محمد بن فتوح، (ت ٤٨٨ هـ).

جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، ط٣، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٩: ٥٧٢-٥٩٧.

وابن سعيد المغربي، المغرب: ٥٧٢، والمقربي، نفح الطيب: ٢٥٤-٢٦٢.

وكراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ١٥١..

(٤) ابن دحية، المطربي، ص ١٣٩.

وبسب هذه الصّفات التي كان يتحلّى بها أوفدَه عبد الرحمن الأوَسط^(١)، في سفارة له إلى إمبراطور القسْطنطينيَّة وملك النُّورمان، وقد استطاع الغزال أن يستميل القلوب في بلاط ملك النُّورمان، حيث ذكر ابن حيَّان القرطبيُّ أنَّ الغزال "حَكِيمُ الْأَنْدَلُس" وشاعرها وعِرَافُهَا^(٢) وقد رفض أن يسجد ملك المجوس^(٣) الذي أُعجب به وبحكمته، وطاً سمعت زوجة ملك المجوس بذكر الغزال وظرفه، أرسلت إليه تطلب أن يواجهها، فلماً قابلته أُعجبت به كثِيرًا، واستطاع بإمْرِه لها وإطنابه في وصف جمالها أن يجتلب محبتها، وبلغ من ولعها به أنَّها كانت "لَا تَصْبِرُ عَنْهُ يَوْمًا حَتَّى تَوَجَّهَ فِيهِ، وَيَقِيمَ عَنْهَا يَحْدِثُهَا بِسِيرِ الْمُسْلِمِينَ وَأَخْبَارِهِمْ وَبِلَادِهِمْ ..."^(٤).

واختلفت المصادر القدِيمَة والدراسات الحديثَة، فيما يتعلَّق بسفارة الغزال أكانت للقسْطنطينيَّة، أم إلى بلاد المجوس^(٥)، ومنهم من أوردها إلى القسْطنطينيَّة وبلا

(١) عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الأموي أبو المطرف، رابع ملوك بنى أمية في الأندلس، ولد في طليطلة وبويون بقرطبة سنة ٢٠٦هـ وكان على الهمة، له غروات كثيرة، أديباً ينظم الشعر. انظر ترجمته، تاريخ ابن خلدون: ١٣٢/٤، والضبي، أحمد ابن يحيى بن أحمد بن عميرة، (ت ٥٩٩هـ). بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ط١، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٩؛ ٣٥/١، وتاريخ ابن خلدون: ١٣٢/٤، والمقرئي، نفح الطيب: ٢٥٠-٢٤٤/١.

(٢) ابن دحية، المطروب، حاشية ص ١٢٦، المقرئي، نفح الطيب نقلًا عن المقتبس: ٢٥٤/٢.

(٣) المجوس: يقصد بهم النورمانيين أو النورمانيين أي أهل الشمال سكان الدنمارك وشبه جزيرة إسكندنavia، انظر، البكري، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو، (ت ٤٢٢هـ)، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٦٨، ص ١٥٨، حاشية رقم ٢.

(٤) ابن دحية، المطروب، ص ١٣٣، ١٤٢، وبالنسبة، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥٦، وحميدة، عبد الرحمن، (١٩٧٩). أعلام الجغرافيين العرب ومقطفاته من آثارهم، دمشق، ١٣٨.

(٥) الحميدي، جذوة المقتبس: ٥٩٧/٢، والضبي، بغية الملتمس: ٦٧٣/٢، وأعلام الجغرافيين العرب ومقطفاته من آثارهم، ص ١٣٨، الأوسي، حكمة علي (١٩٧١). يحيى بن الحكم الغزال سفير الأندلس وشاعره الواقعي، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج ٢١، ص ١٩٨-١٩٧.

المجوس^(١)، ومنهم مَن نظر إليها بشكّ كبير^(٢)، في حين أيدتها آخرون^(٣). وسواء أكانت إلى القسطنطينية أم إلى بلاد المجوس، فلن يغيّر هذا من الواقع شيئاً فالرحلة وقعت، ووصلنا نصّ يؤكدها أورده ابن دحية^(٤)، والمقربي^(٥)، وهو نصّ مختصر بأسلوبهما، بأسلوبهما، لا بأسلوب الغزال باستثناء بعض النّقول الصغيرة التي سُجّل فيها مشاهداته لكلّ ما مرّ به، والواردة في بعض أشعاره^(٦).

إنّ ضياع هذه الرّحلة يشكّل خسارة كبيرة للأدب، إذ جعل الغزال نفسه وافتتاته بزوجة الملك، موضوعاً كان يمكن اعتماده لجعل الرّحلة أدباً خالصاً، لكنّها رغم ذلك خطوة في أدب الرّحلة العربي.

ومن الرّحلات الأخرى، رحلة إبراهيم بن يعقوب الطروشى^(٧) (٥٣٤ھـ)، هو يهوديّ من أهل طرطوشة^(٨)، وكان يشتغل بتجارة الرّقيق، وقد جال في جنوب ألمانيا،

(١) المقربي، نفح الطيب: ١/٢٠٧، ٣٤٦، ٢٠٥٧، والمحبي، عبد الرحمن علي (١٩٩٤). التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ط٤، دمشق: دار القلم، ص ٢٣٣-٢٣٤.

(٢) العبادي، أحمد مختار، (١٩٧١). التاريخ العباسي والأندلسي، بدون ط، بيروت: دار النهضة العربية، ص ٣٥٤-٣٥٣.

(٣) كراتشوكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ١٥٢-١٥١، ومؤنس، حسين، (١٩٨٠). معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة: دار ومطبع المستقبل، ص ٢٩١-٢٩٢.

(٤) ابن دحية، المطرب، ص ١٣٠-١٣٦.

(٥) المقربي، نفح الطيب: ٢٥٤/٢-٢٥٩.

(٦) انظر، ابن الكثافى، أبو عبد الله محمد، (ت ٤٢٠ھـ). التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٦، ص ١٢١، ١٦٣، ١٨١، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٥٤، ٢٦٦.

(٧) انظر ترجمته، ترصيع الأخبار، وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان وأسلالك إلى جميع الملوك، تحقيق عبد العزيز الأحواني، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٧٥، ص ٣.

(٨) طرطوشة: مدينة بالأندلس، تتصل بكوردة بلنسية، وهي شرقى قوطبة، قريبة من البحر، متقدمة العمارة، استولى عليها الأسبان سنة ٥٤٣ھـ. انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٤/٣٠، والحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن المنعم، (ت ٩٠٠ھـ). صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من الروض المعطار، ط٢، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، مطبعة لجنة التأليف والتجمة، القاهرة، ١٩٣٧، ص ١٢٤.

وقابل الامبراطور أوتو الأول، وحفظ لنا معلومات واسعة عن إمارات (الصقالبة)^(١) في أوروبا الوسطى في ذلك العصر، أمّا وصف رحلته، فلم يبق منه سوى شذرات عُرفت منها الأقسام الخاصة بألمانيا وببلاد الصقالبة، وهي التي حفظها لنا العذري^(٢) والبكري^(٣) الذي اعتمد على جزء كبير منها في كتابه المسالك والممالك، وانتقلت منها إلى إلى مؤلفين متآخرين مثل، ابن سعيد الغناطي^(٤).

وذكر إبراهيم بن يعقوب الطرطوشى لقاءً برسول ملك البلغار، حين وفدا على هوتو، ووصفهم فقال مشيراً إلى ما سماه بملك البلغاريين: "لم أدخل بلده، ولكنني رأيت رسلاه... ولهم معرفة بالأنسن، ويترجمون الإنجيل باللسان الصقلبي، وهم نصارى .."^(٥).

وقد وُجدت رحلات سفارية داخل رحلات خاصة متعددة الأغراض، فابن بطوطة بدأ رحلاته بغرض الحجّ، ثم دفعه حبّ السفر ليستمر في سلسلة رحلاته في مختلف البقاع

(١) بلاد الصقالبة: بلاد بين البلغار والقسطنطينية، انظر، الحموي، معجم البلدان: ٣٦/٣٧، وابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٤٠.

(٢) هو أحمد بن عمر بن أنس الدلائي، (٣٩٣هـ - ١٠٠٣م). وكان تلميذاً لابن حزم، رحل مع والده إلى مكة، وسمع من شيوخها، وعاش فيها تسعة أعوام، انظر ترجمته، ترصيع الأخبار، ص ٣، والمقري، نفح الطيب: ٢٣٣/٢ و ٦٧٣/٢.

(٣) هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أبيوب بن عمرو، المشهور بكنيته (أبو عبيد)، (٤٢٢هـ / ١٠٩٤م) ويرجح حسين مؤنس في الفصل الذي خصّمه من كتابه "تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس" أنه قد تجاوز العشرين عند انتقاله إلى قرطبة ويرجح أنه ولد عام ٤٨٧هـ / ١٠٤٠م تقريباً. ولد بقرطبة وتوفي فيها، عرف باسم القرطبي وقام بهمة دبلوماسية لدى بلاط الأمير الشاعر المعتمد بن عباد بإسبانيا، وبعد هزيمة المعتمد على أيدي المراطبين رجع البكري إلى قرطبة، وظل يزاول نشاطه الأدبي بها إلى وفاته، انظر ترجمته، ابن سعيد المغربي، المغرب: ٢٦٧/١، والمقري، نفح الطيب: ٢٩٢/١، وكراشتشوكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٠٢-٢٩٦، وبالنهاية، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٣١١-٣٠٩.

(٤) انظر: البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، ص ٨٠-٨١، ١٠٤-١٠٧، ٢٠٧-٢١٠.

وكراشتشوكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٢٩٠-٢٠٧.

(٥) البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، ص ١٧٥-١٧٧.

والأسقاط، وعندما أراد سلطان الهند محمد شاه بن تغلق أن يرسل سفارته إلى الصين، اختار ابن بطوطه، ليكون سفيره، ويقول ابن بطوطة في ذلك: "بعث إلى السلطان خيلاً مسرجة وجواري وغلاماً وثياباً ونفقةً، فلبست ثيابه وقصدته. ولما وصلت إلى السلطان زاد في إكرامي على ما كنت أتعهد، وقال لي: إنما بعثت إليك لتوجه عن رسولًا إلى ملك الصين، فإني أعلم حبك في الأسفار والجولات، فجهزني بما أحتج له ..".^(١)

ومن الرحالة الأندلسيين والمغاربة أيضًا، لسان الدين بن الخطيب وعبد الرحمن بن خلدون، وقد نالا قدرًا كبيرًا عند ملوك الأندلس، حيث اعتمدوا عليهما في السفارة بينهم وبين ملوك الدول الأخرى. فقد أرسل الخليفة الغني بالله^(٢) ابن الخطيب سفيراً إلى المغرب، يستنجد بأبي عنان المريني^(٣)، طالباً منه مددًا لحرب النصارى في الأندلس، فأنشد لسان الدين قصيدة التي مطلعها^(٤):

خليفة الله ساعده القدر
عالَكَ مَا لَاحَ فِي الدُّجَى قَمَرُ

فما كان من سلطان المغرب إلا أن قال له: "ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم".^(٥) أما ابن خلدون، فقد علا صيته في الآفاق، وطفحـت بذكـره الأوراق، وجـاب اسمـه الـبقاء، وطـوى الـبلاد. ويـشير ابن خـلدون إلى سـفارـته عنـ الغـنـي بالـله سـنة ٧٦٥هـ إلى مـلك قـشتـالة بـطـرة بـنـ الـهـنـشـهـ بـنـ أـدـفـوـشـ قـائـلاً: "وـسـفـرـتـ عـنـهـ سـنةـ خـمـسـ وـسـتـيـنـ إلىـ الطـاغـيـةـ مـلـكـ قـشتـالةـ يـؤـمـئـذـ، بـطـرةـ بـنـ الـهـنـشـهـ بـنـ أـدـفـوـشـ، لـإـتـامـ عـقـدـ الصـلـحـ مـاـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ مـلـوـكـ الـعـدـوـةـ، بـهـدـيـةـ فـاخـرـةـ مـنـ ثـيـابـ الـحرـيرـ وـالـجيـادـ الـمـقـربـاتـ بـمـراـكـبـ الـذـهـبـ التـقـيـلةـ، فـلـقـيـتـ الـطـاغـيـةـ".

(١) رحلة ابن بطوطـة: ١٣٥٢.

(٢) وردت ترجمتها، الدراسة هنا، ص ١٠.

(٣) أبو عنان، فارس بن أبي الحسن المريني، (٩٧٢٩هـ - ١٣٢٩- ١٣٥٨هـ) كان متميـزاً عنـ إـخـوـتهـ لـفـضـلـهـ وـعـفـافـهـ. انـظـرـ تـرـجـمـتـهـ، الـمـقـريـ، نـفـحـ الـطـيـبـ: ٤٥٢/١، ٦٨١، ٧٩/٥، ٩٨، ٩٩، وـصـفـحـاتـ مـتـفـرـقةـ، وـالـسـلـاوـيـ، الـاسـتـقـصـاـ: ١٧٧- ١٧٥/٤.

(٤) المـقـريـ، نـفـحـ الـطـيـبـ: ٩٨/٥، ٩٩، وـبـالـثـيـاثـ، تـارـيـخـ الـفـكـرـ الـأـنـدـلـسـيـ، ص ٢٥٣.

(٥) المـقـريـ، نـفـحـ الـطـيـبـ: ٩٨/٥، ٩٩.

بإشبيليّة، وعاينت آثار سلفي بها وعاملني من الكرامة بما لا مزيد عليه، وأظهر الاغتباط بمنكي، وعلم أوليّة سلفنا بإشبيليّة، وأثنى عليّ عنده طبيبه إبراهيم بن زرزر اليهوديّ، المقدّم في الطب والتّجاحة، وكان لقيني بمجلس السلطان أبي عنان، وقد استدعاه يستطبه، وهو يومئذ بدار ابن الأحمر بالأندلس، ثم نزع بعد مهلك رضوان القائم بدولتهم، إلى الطاغية، فأقام عنده، ونظمه في أطياهه. فلماً قدمت أنا عليه، أثنى عليّ عنده، فطلب الطاغية مني حينئذ المقام عنده، وأن يرد عليّ تراث سلفي بإشبيليّة، وكان بيده زعماء دولته، فتفاديت من ذلك بما قبله. ولم يزل على اغتباطه إلى أن انصرفت عنه، فزودني وحملني، واختصني ببخلة فارهة، بمركب ثقيل ولجام ذهبيّن، أهدىتهما إلى السلطان فأقطعني قرية إلبيرة من أراضي السقي بمرج غرناطة، وكتب بها منشوراً^(١).

خامساً: العامل الاقتصادي:

كانت التجارة منذ قديم الزّمان أمراً يقتضي القيام بالرحلة والسفر البعيد والسعى في سبيل الكسب برياً وبحراً، فالعالم العربي بحكم توسيط موقعه بين قارات العالم القديم، كان مركزاً للالتقاء الطرق التجارية بين هذه القارات، كما أنّ انفصال الماء وتدخله في اليابسة في المنطقة العربية، جعلها تحتل موقعاً تجاريّاً هاماً في تطور الحضارة العربيّة في العصور الوسطى، وجسراً تعبّر منه الثقافة والفكر وليس فقط لنقل السلع والبضائع.

فمارس العرب التّرحال، وقاموا برحلتي الشّتاء والصّيف اللتين ورد ذكرهما في القرآن الكريم، وأبحرت سفنهم في مياه المحيطات الكبرى. ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَتَّبِعُو مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾^(٢).

(١) التعريف ببابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، ص ١٢٨.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٦٦.

ونجد حديثاً في الروض المغطّار^(١) عن خشخاش بن سعيد بن أسود الذي خاطر مع جماعة من الفتّيَان، فركبوا البحْر، وغابوا فيه مدة ثم عادوا بغنائم واسعة، وأخبار مشهورة. وقد ظهر اسم خشخاش ووالده سعيد بن أسود ضمن قادة الأساطيل التي قابلت النورمانديين، في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط في منتصف القرن الثالث الهجري. وحديث خشخاش وأصحابه يذكُر بالحديث عن رحلة الفتية المغاربة^(٢) من أهل لشبونة، الذين توغلوا كذلك في المحيط الأطلسي. في منتصف القرن الرابع الهجري أيضاً، وكان لرحلتهم أهمية كبرى، حيث كانت فتحاً أتاح الفرصة ومهد السبيل لركوب المحيط الأطلسي.

وكانت التّجارة من أهم الأسباب التي أدّت إلى تدوين الرّحلات لمعرفة طرق التّجارة البريّة والبحريّة، ولعلّ أول ما ارتبطت به الرّحلات، علم تقويم البلدان والمسالك والممالك، لوصف الطرق، والمناخ، والعديد من الأمور الأخرى، وذلك لمعرفة الطرق إلى مكة للقيام بفريضة الحجّ، وتسهيل عملية التّجارة في مختلف البلدان، والبقاء. وكانت التّجارة في موسم الحجّ ضرورة من ضرورات الحاج والمسافر، إذ لا بد من الحصول على موارد مالية لتغطية نفقات الرّحلة، فقد تجاوز الرّحلة المدّة المحددة لها.

(١) انظر، الحميري، الروض المغطّار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، دار القلم للطباعة، بيروت، لبنان، ١٩٧٥، ص ٢٨، ٥٧، ٥٩، ٥٠٩، وكراتشيفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ١٥٢.

(٢) انظر، الحميري، الروض المغطّار، ص ٥٧، ٥٠٩، والإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد الحسني، (ت ٩٥٦هـ). نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٨، ص ١٨٤-١٨٥، وأرسلان، شكيب، (١٩٣٦). الحال السندينية في الأخبار والآثار الأندلسية، ط ١، فاس: المكتبة التجارية الكبرى، ٩٨-٩٢١، والمسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، (ت ٩٤٦هـ). مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٢٦، باعتماء الأستاذين بارييه دميبار وباووه دكورتل، مؤسسة مطبوعاتي اسماعيليان، طهران، إيران، ١٩٧٠: ١٥٢-١٥٤، ٢٥٨-٢٥٩، وكراتشيفسكي، تاريخ الأدب المغربي العربي، ص ٤٢-٤٤، وضيف، شوقي، ولجنة من أدباء الأقطار العربية، (١٩٥٦). الرحلات، القاهرة: دار المعارف، ص ٤٢-٤٤.

وتلقي رحلات ابن جبير في القرن السادس الهجري، وابن بطوطة في القرن الثامن الهجري، وغيرهما، ضوءاً هاماً على النشاط التجاري الإسلامي في البحر الأبيض المتوسط، والبحر الأحمر، والمحيط الهندي في ذلك الوقت.

فقد قام ابن جبير برحلته من الأندلس إلى مصر، على مركب صليبي، وفي الوقت الذي كانت فيه بلاد الشام تحت قبضة الصليبيين، ثم أبحر من عيذاب على البحر الأحمر في مصر إلى جدة للحجّ. وكان ابن جبير، دقيق الملاحظة فيما احتوته رحلته من مادة غنية عن التجارة، وإجراءات الجمارك والضرائب، وأحوال البحر، وعن أنواع السفن وطريقة صيانتها.

وقد أبدى ابن جبير استياءه من الطريقة التي عمّلوا بها من أصحاب الجمارك الذين أنزلوهم من مراكبهم مع أمتعتهم واغضبواهم لتفتيشهم، "فوقع التفتيش لجميع الأسباب، ما دقّ منها وما جلّ، واختلط بعضها ببعض، وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثاً عمّا عسى أن يكون فيها، ثم استُحلِّفوا بعد ذلك، هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا"(^١). ويقول أيضاً "فلما كان عشي يوم السبت دخلنا عيذاب، وهي مدينة على ساحل بحر جدّة غير مسورة، أكثر بيوتها الأخصاص، وفيها الآن بناء مُستَحدث بالجصّ.

وهي من أحفل مراسيم الدنيا بسبب أنّ مراكب الهند واليمن تحطّ فيها وتقلع منها زائداً إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة. وهي في صحراء لأنبات فيها ولا يؤكل فيها شيء إلا مغلوب، لكن أهلها بسبب الحجاج تحت مرفق كثير ولا سيما مع الحاج، لأنّ لهم على كلّ حمل طعام يحملونه ضريبة معلومة خفيفة المؤونة بالإضافة إلى الوظائف المكوسية التي كانت قبل اليوم التي ذكرنا رفع صلاح الدين لها"(^٢).

ويحدثنا ابن بطوطة عن مركز مهم للجمارك على الحدود بين مصر والشّام بعد العريش، هو مركز قطيا الذي كان يجري فيه مثل هذا التفتيش، فيقول: "وبها تؤخذ الزّكاة

(١) رحلة ابن جبير، ص ١٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٥.

من التجار، ونفيت أمتعتهم، ويبحث عما لديهم أشدُّ البحث، وفيها الدواوين، والعمال، والكتاب والشهود، ومجاهاها^(١) في كل يوم ألف دينار من الذهب، ولا يجوز عليها أحد إلى الشام إلا ببراءة من مصر، ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام، احتياطاً على أموال الناس، وتوقياً من الجوايس العراقيين. وطريقها في ضمان العرب، قد وكلوا بحفظه. فإذا كان الليل مسحوا على الرمل حتى لا يبقى به أثر، ثم يأتي الأمير صباحاً فينظر إلى الرمل، فإن وجد به أثراً طالب العرب بإحضار مُؤثره، فيذهبون في طلبه، فلا يفوتهم، فيأتون به الأمير، فيعاقبه بما شاء^(٢).

وقال زكي محمد حسن: .. والحق أنَّ ازدهار الحضارة الإسلامية، وسيادة المسلمين في البر والبحر، وطبيعة الدين الإسلامي، كل ذلك من شأنه أن يشجع على الأسفار والرحلات ...^(٣). فالرحلات البحريَّة كانت سبيل العلماء إلى معرفة الأرض وشعوبها وجغرافيتها.

لقد عانت الأندلس والمغرب من أزمات الاضطراب والقلق، التي أدت إلى تأخر التجارة وضعفها، لذا فإنَّه من المؤكَّد أنَّ قسماً من الرِّحالة خرج متغيِّراً سبل العيش في جوٍ أكثر استقراراً. ولأنَّ الرحلة قد تطول، فيحتاج الرَّاحل مصدر رزق يساعدُه في متابعة رحلته، فقد كان يبحث دائماً عن تجارة أو عمل يغطي نفقاته، فابن بطوطة تولَّ القضاء مرَّة في دهلي "أَمَّا الوزارة والكتابة فليست شغلي، وأَمَّا القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي"^(٤). وأخرى بجزيرة ذيبة المهل، "ولقيت بها رجلاً اسمه محمد من أهل ظفار الحموص، فأضافني، وقال لي: إن دخلت جزيرة المهل أمسكك الوزير بها، فإنَّهم لا قاضٍ عندهم".^(٥)

(١) مجاهاها: مقدار ما تحصله من ضرائب، ابن منظور، لسان العرب: ١٢٩/١٤.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ص ٥٣-٥٢.

(٣) حسن، زكي محمد، الرحالة المسلمين في العصور الوسطى، ص ٦.

(٤) رحلة ابن بطوطة: ١١٧/٢.

(٥) المصدر نفسه: ١٨١/٢.

ولعل بعض الإشارات الواردة في الرحلات عن وجود الفنادق بكثرة في البلاد التي يزورها الرحلة، تدل على أنه قد هيء سكن للتجار والحجاج وأعد لنزلو المسافرين به، فهذا ابن جبير يصف أحد فنادق مدينة جدّة، فيقول: "وفيها فنادق مبنية بالحجارة والطين وفي أعلاها بيوت من الأخصاص كالغرف، وبها سطوح يُسْتَرَاح فيها بالليل من أذى الحر"^(١).

سادساً: العامل السياحي:

كان هدف بعض الرحلات البحث عن الحرية، والتطلع إلى ما وراء الحيز المكاني، حيث المهم هو السفر لا البلد الذي نرحل إليه، وحب الاطلاع والرغبة في اكتشاف المجاهل والأصقاع، والمتعلقة في الانطلاق من تلك الأصقاع إلى مجاهل أخرى وأصقاع جديدة. والابتعاد عن المألوف إلى الانطلاق إلى الأوسع وكل جديد. لذا جاءت بعض الرحلات لجوب الآفاق والسعى إلى ارتياض البعيد، وامتناع أجنحة الرياح حباً في المغامرة والترويج عن النفس، وقد امتدت الرحلة لتتجاوز ركب الحجاج أو المهام الرسمية، أو طلب العلم، فينتهز الراحل الفرصة مدفوعاً بروح المغامرة والاستكشاف، والشوق إلى المجهول، ليجول في البلاد التي اتسعت رقعة الدولة الإسلامية فيها وشاء الأمن في أكثر أنحائها؛ يريد أن يرى كل شيء، ويجرب كل شيء، فتسفر نتائج هذه الرحلات عن زيادة المعرفة التي تتحققها في سبيل خير الإنسان، ف تكون ذات فائدة تتجاوز حدود التشويب والتبليغ.

وعليه، فقد تجتمع عدّة أسباب لرحمة ابن بطوطة التي كانت حجازية، وسياحية وسفاريه، زار خلالها المشرق "وجال البلاد وتوجّل في عراق العجم ثم دخل الهند والسندي والصين ..."^(٢)، "لباحث على النفس شديد العزائم ..."^(٣)، وما ذلك إلا لإيمان الرحلة إيماناً عميقاً بالفوائد الثرة التي تمنحها الرحلات للقائمين بها^(٤).

(١) رحلة ابن جبير، ص ٥٣.

(٢) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة: ١٠٠/٤.

(٣) رحلة ابن بطوطة: ٢٠/١.

(٤) انظر في فوائد السفر، الغزالى، أبو حامد محمد بن محمد، (ت ٥٠٥ هـ). تهذيب إحياء علوم الدين. تحقيق عبد السلام هارون، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٨: ٢٥٠/١.

سابعاً: العامل الشخصي:

ربما يرتبط هذا العامل بالعامل الديني، فقد ازداد تدفق الرّحالة إلى بيت المقدس، يعبرون عن مشاعر التأييد لصلاح الدين الأيوبي، ويهنئونه بتحرير بيت المقدس من الأمة الفضّالة، ولعل رحلة ابن جبير الثانية للمشرق أدّل على ذلك. فقد أجمل سببها لسان الدين بن الخطيب في قوله: "وطأ شاع الخبر المبهج بفتح بيت المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، قوي عزمه على عمل الرّحلة الثانية، فتحرّك إليها من غرناطة يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول من سنة خمس وثمانين وخمسمائة ثم آب إلى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشر. خلت من شعبان سبع وثمانين وخمسمائة"^(١).

وفي إطار الدّوافع التي دعت إلى القيام بالرّحلة، فإنّ هناك عوامل أخرى يمكن إضافتها إليها، وإن كانت لا تقدّم إشارات واضحة و مباشرة، إلا من بعض التلميحات، فقد تدفع الاضطرابات والفتن والحروب أو التّراء في بعض المجتمعات إلى رحيل البعض هرباً من كلّ ذلك، وزهداً ومجاورة للأماكن المقدّسة واتّباع طرق التّصوف^(٢).

وهكذا عرضت الدراسة تصنيفاً للدوافع الموجبة والمسببة للرّحلة عند العرب والمسلمين الأندلسيين والمغاربة للمشرق وبعض الأقطار الأخرى، إبان الفترة من منتصف القرن الثالث الهجري حتى نهاية القرن التاسع الهجري. وقد تعددت هذه الدّوافع، وتداخلت لتتأيي جملة متكاملة من العوامل، تائفت ليجتمع بعضها، كاجتماع العامل الديني والثقافي، أو الديني والاقتصادي، أو الديني والعامل الشخصي، وهي إن تعددت، فإنّها لم تخرج في معظمها عن الجمع بين أداء فريضة الحجّ وطلب العلم والمعرفة الدينية، فجاءت نسقاً متكاملاً يلتقي مع كل النشاطات الإنسانية، التي تشكّل الحضارة الإنسانية بكلّ أبعادها، ولتساهم في إفراز الرّحلة الأندلسية والمغربية على مرّ العصور.

(١) ابن الخطيب، الإحاطة: ٢٣٢/٢، والأوسي، الذيل والتكميلة: ق٢، سفره، ص ٦٠٥ - ٦٠٦.

(٢) كما فعل البجائي، فقد كانت رحلته هروباً وابتعاداً من فوضى السياسة، وامتناسات القبلية واضطراب الأحوال الاجتماعية. انظر، البجائي، رسالة الغريب إلى الحبيب، ص ٦.

ب . أهمية الرحلة:

إنّ فنّ الرحلات من أصلق الفنون بحياة الأفراد والأمم، ويقول حسني محمود حسين: "إنّ نمط الرحلات يتعرّض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد، إذ توفر فيه مادة وفيرة مما يهمّ المؤرخ والجغرافي وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير. فالرحلات منابع ثرةً ملخّص العلوم، وهي بمجموعها سجلٌ حقيقيٌ لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مرّ العصور" ^(١).

وهكذا كان أدب الرحلة في الأندلس والمغرب، تصويراً للحضارة، بما تحوي من طريف الأخبار، ونادر الحكايات، وعجائب المخلوقات وعادت الأمم وأخلاقهم، وبما فيها من فوائد تاريخية، وجغرافية، وفقه للثروة الأدبية، ووصف للحوادث والبلاد والأصقاع، فرحلة ابن بطوطة أفادت الجغرافية الطبيعية والبشرية والعادات والتقاليد الاجتماعية، ولما ثورات الشعبية، وليس أدلة على ذلك من قول ابن جزي ^(٢): "ولا يخفى على ذي عقل أنّ هذا الشيخ هو رحال العصر ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد" ^(٣).

والرحلات تكشف ما لا يكشفه التاريخ، فالتأريخ عام يشتمل على تصوير لحياة البلدان الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ونظم الحكم لشعب من الشعوب، وهذا ما حقّقه الرحلات غير أنها أعطت كل ذلك بعده المناسب، وتطرق إلى تحليل جوانب لم تتطرق إلى تحليلها الوثائق التاريخية، فقادت الرحلات بوضع كل ذلك في دائرة الإشعاع التي توجّه إليها لاستجلاء الواقع، وإخراج التاريخ عن حدوده الضيق.

(١) حسين، حسني محمود، أدب الرحلة عند العرب، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص. ٥.

(٢) هو محمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جزي الكلي من أهل غرناطة، وأعيانها يكنى أبا عبد الله، برز في الأدب واضطلع بمعاناة الشعر وإتقان الخط، نشا بغرناطة، وانتقل إلى المغرب، توفي بفاس في أول سنة ١٣٥٦هـ / ٧٥٨م، انظر، ابن الخطيب، الكتبية الكامنة، ص ٢٢٣، ابن الخطيب، الإحاطة: ١٨٦/٢، ٢٥٦ - ٢٥٧، ٢٦٥. واطقري، أزهار الرياض: ١٨٩/٣، والمقربي، فتح الطيب: ١٧٠/٢.

(٣) رحلة ابن بطوطة: ٣١٢/٢.

إن أهمية الرحلات تكمن في قيمتها العلمية والفنية، فالقيمة العلمية، تمثلت بتزويد أهل التاريخ والجغرافية والآثار والأدب وغيرهم بمعلومات قيمة عن وصف المدن والطرق والعمران والبلدان، وأخبار الناس وعاداتهم وتقاليدهم والحوادث الغريبة، بل إن الرحلة أنفسهم يحصلون على علم وافر وتجارب كثيرة في مختلف الميادين في التربية وأساليب التعليم والتّهذيب، نظراً لما يصادفهم من المصاعب وتعدد من يقابلونه وما يؤكّد ذلك أن الرّاحل حين يعود إلى الأندلس يعمل في التّدريس وكان يكُلف بالقضاء ومهام أخرى.

أمّا القيمة الفنية، فتزود القراء بمعلومات، وصور ممتعة، وأخبار تلذ وتمتع، وتستعرض الأحداث بصورة أدبية، تنسق مع النفس البشرية، فتشكل رافداً ثرّاً من روافد الفن والمتعة الأدبية.

يقول خالد بن عيسى البلوي في الصفحات الأولى من رحلته: "هذا تقييد أطلعه عون من الله وتأييد، قصدت به ضبط موارد الرحلة الحجازية، وذكر معاهد الوجهة المشرقية جعلها الله تعالى في ذاته وابتغاء مرضاته منه وكرمه، وألممت مع ذلك بذكر بعض الشيوخ من العلماء الفضلاء الذين يطهرون ذيول البلاغة، ويجرّون فضول البلاغة، ولهم كلام يتّالف منه شعاع الشرق وتترقرق عليه صفاء العقل وينبئ فيه فرنز الحكمة، ويعرض على حلّ البيان وينشق في فض الزمان .. وألمعت بذلك نبذ من فوائدhem واختيار طرف من أناشيدhem، ومزجتها بما جرت إليه العبارة وحسنت فيه الإشارة من قطع الشّعر المناسبة، قطع النور المنتظمة من جواهر اللّفظ البعيدة الغور القرية الحفظ...".^(١)

فتمثلت قيمة الرحلة في الجانب التاريجي والجانب الأدبي ثم الجانب الجغرافي والجانب الوثائقي، وهذا ما يجعل الرحلة جيدة، فالرواية الصادقة والملاحظة الدقيقة والإلتقاء بالعلماء والشيوخ والأخذ عنهم، له الأثر الكبير في الوثوق بالرحلة، حين يتحدث عن مشاهداته. وقد شعر كثير من رجال الفكر والأدب بقيمة ما دونه هؤلاء الرحالـة في كتبـهم، فعمدوا إلى إخراجه وتحقيقـه، للإسـتفادة من المـاضـي وتوظيفـه في المجالـات العلمـية والأدبـية والاجتمـاعـية واستغـلال معـطـياتـه لخدمـةـ المستـقبلـ.

ولعل أبرز ما يميز أدب الرحلـات تنوعـ الأسلوبـ من السـرد القصصـي للمـغـامـراتـ، والعـواطفـ المـحرـكةـ لـلـبـشـرـ. إلىـ الـحـوارـ وـالـوـصـفـ الـطـرـيفـ وـغـيرـهـ، وبـماـ فـيهـ مـنـ مـعـنـعـةـ ذـهـنـيـةـ، مـمـاـ حـدـاـ بـالـدـكـتـورـ شـوـقـيـ ضـيـفـ إـلـىـ اـعـتـباـرـ أـدـبـ الرـحـلـةـ عـنـدـ العـرـبـ "ـخـيرـ رـدـ"ـ عـلـىـ التـهـمـةـ الـتـيـ طـالـمـ اـتـهـمـ بـهـ الـأـدـبـ الـعـرـبـيـ تـهـمـةـ قـصـورـهـ فـيـ فـنـ الـقـصـةــ^(١).

وانطلاقـاـ مـنـ ذـلـكـ كـلـهـ تـجـيءـ هـذـهـ الـدـرـاسـةـ لـتـتـنـاوـلـ الرـحـلـاتـ وأـسـالـيبـ الرـحـالـةـ الـمـتـنـوـعـةـ، وـتـعـملـ عـلـىـ بـيـانـ الطـاقـةـ الـقـصـصـيـةـ لـلـإـنـسـانـ الـعـرـبـيـ.

وبـعـدـ، فـإـنـ عـدـدـ الرـحـلـاتـ الـتـيـ اـسـطـاعـتـ هـذـهـ الـدـرـاسـةـ الـوـقـوفـ عـلـيـهـاـ وـدـرـاستـهاـ، قدـ بلـغـتـ ثـلـاثـينـ رـحـلـةـ مـثـلـتـ اـتـجـاهـاتـ مـخـلـفـةـ وـاقـعـيـةـ، وـوـصـفـيـةـ، وـسـرـديـةـ، وـغـرـائـبـيـةـ.

وـكـانـتـ هـذـهـ الرـحـلـاتـ مـنـ أـهـمـ الـمـصـادـرـ الـتـيـ نـقـلـ عـنـهـاـ الـمـؤـرـخـونـ وـالـجـغـرـافـيـونـ الـكـثـيرـ مـنـ أـوـصـافـ الـبـلـادـ النـايـةـ، وـخـاصـةـ أـنـ بـعـضـ الرـحـالـةـ اـرـتـحـلـواـ غـيرـ مـرـةـ، مـمـاـ أـضـفـيـ

عـلـىـ رـحـلـاتـهـمـ الـدـقـةـ، وـالـوـاقـعـيـةـ، وـالـصـدـقـ، وـالـأـمـانـةـ، فـيـمـاـ نـقـلـوهـ مـنـ مشـاهـدـاتـ وـانـطبـاعـاتـ.

(١) ضـيـفـ، شـوـقـيـ، الرـحـلـاتـ، صـ٦ـ.

ج. من أبرز الرحلات^(١):

رحلة العذري^(٢)، وهي رحلة بعنوان "ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والممسالك إلى جميع الممالك"^(٣). وقد ورد له اسم آخر هو "نظام المرجان في المساسك والممالك"^(٤).

ويبدو من نصّ الرّحلة، ميل العذري الشّديد إلى تصديق العجائب، حيث أفرد قطعاً ملخّطاً أنواع العجائب في رحلته، ويرى كراتشوفسكي أنّ الرّحلة لم تقتصر على الأندلس ومدنها: تدمير وبلنسية، وسرقسطة، وكورة إشبيلية وغيرها، فالقطع التي نقلها عنها ياقوت مثلاً تمثّل في الواقع مدينة مكّة^(٥).

وقد كان العذري أستاذًا للبكري، لذا فليس من الغريب أن يمثل مصنفه مصدرًا من المصادر الأساسية لمصنفات البكري في ميدان الجغرافيا، كما رجع إليه الإدريسي أيضًا^(٦).

(١) وقد ترجم صالح محمد أبو دياك لعدد كبير من الأندلسين والمغاربة ممن رحل إلى المشرق في بحث له بعنوان "التبادل الفكري بين المغرب والأندلس وشبه الجزيرة العربية" مجلة الدارة، العدد الثاني، السنة الثالثة عشرة، ١٩٨٧، ص ١٠٣-١٢٤.

(٢) وردت الترجمة، الدراسة هنا، ص ٢٥، حاشية رقم ٢.

(٣) هو العنوان الحقيقى للكتاب وأشارت إليه إحدى الأوراق التي تألف منها النص والخاصة بالسفر السابع، وقد حفّق عبد العزيز الأهواي نصوصاً من هذا المخطوط في كتاب حمل العنوان ذاته، وطبع بمتحف الدراسات الإسلامية بمدريد، ١٩٦٥م، ولا توجد إشارة تدل على عدد أجزاء ترصيع الأخبار، وإن كان يرجح أنها بلغت سبعة، فقد انتهى الحديث عن الأندلس في السفر السابع، فهل كان انتهاء البابوي في دراسة لها لم تنشر بعد بعنوان "تبع رحلات الأندلسين والمغاربة امطبوعة والمخطوطة من القرن الثالث الهجري وحتى القرن التاسع الهجري"، ص ٤-٣.

(٤) انظر، الحموي، معجم البلدان: ٤٦٠/٢، وكراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٢٩٥.

(٥) انظر، ترصيع الأخبار، وتنويع الآثار، ١٩٦٥، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ص ٩-١.

وكراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٢٩٦-٢٩٥.

(٦) انظر، كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي.

رحلة أبي عبيد البكري الأندلسي^(١)، عاش خلال القرن الخامس الهجري، أكبر جغرافي عرفته الأندلس، ويبعد في رحلته جغرافياً واقتصادياً خيراً - رغم أنه لم يترك الأندلس، وكان يتنقل في مدنها فقط^(٢)؛ إذ يبدأ بالوصف والحدود والتاريخ، ثم عادات أهل المكان، وخصائص الناس وطبعاتهم، كذلك الموارد والمحاصيل والمعادن والصناعات... الخ، ويخصص فصلاً للأنهار: دجلة والفرات، والنيل، وأنهار الأندلس، ويخصص فصلاً لموانئ ساحل البحر المتوسط ابتداءً من المغرب حتى الشام والأناضول، والأندلس، وهو أثناء ذلك يذكر قيمة كل ميناء ويصف المسالك البحرية إلى جانب البرية.

وخلف لنا البكري مؤلفات مهمة في مجال الجغرافيا "المسالك والممالك"^(٣) و "معجم ما استعجم"، وقد وصف الإفرنجية والصقالبة والأسبان والخزر والروم ... وغيرهم.

رحلة الإدريسي^(٤)، في القرن السادس الهجري، وقد بدأ الإدريسي أسفاره منذ سن مبكرة، فزار أماكن لم تكن مألوفة في ذلك العصر، كما أن معرفته الواسعة بالأندلس

(١) وردت ترجمته في هذه الدراسة، ص ٢٥، حاشية رقم ٣.

(٢) انظر، كراتشکوفسکی، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٢٩٦-٢٩٧.

(٣) ذكر كراتشکوفسکی أن هذا الكتاب لم يحفظ كاملاً، وكل ما تبقى منه هو أوصاف إفريقيا الشمالية ومصر والعراق، وسكان نواحي بحر قزوين، وبعض أجزاء إسبانيا، ومن أكثر أوصافه تفصيلاً، وصفه لأفريقيا الشمالية الذي أصبح في متناول اليد بفضل طبعة وترجمة دي سلان. انظر، كراتشکوفسکی، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٢٩٨.

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس، وينتمي إلى بيت الأدارسة العلوين الذين طلبوا وقتاً ما بأحقيتهم في الخلافة، ولد ٤٩٣هـ/١١٠٠م، تلقى العلم بقرطبة، وتوفي ٥٦٠هـ/١١٦٠ على أرجح الأقوال، انظر ترجمته، الإدريسي، نزهة المشتاق، المغرب العربي، الجزائر، ١٩٨٣، ص ١٣. كراتشکوفسکی، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٠٤-٣٠٥، وبالنسبة، تاريخ الفكر الأندلسی، ص ٣١٣.

ومرّاكش ليست أمراً غريباً، ويبدو من مواضع مختلفة من كتابه "نזהه المشتاق في إختراق الآفاق"، أنه زار لشبونة وسواحل فرنسا، وإنجلترا، وإفريقيا الشمالية وأسيا الصغرى، ثم اتصل الإدريسي بروجر الثاني في صقلية، ثم رجع إلى مسقط رأسه سبعة.

وقد رحل الإدريسي لتأدية فريضة الحجّ إلى بيت الله الحرام، فزار مصر.. والحجاج (١) ودون مشاهداته في رحلته التي حملت عنواناً آخر "كتاب رجّار" أو "الكتاب الرجّاري" نسبة إلى راعيه الملك رجّار ملك صقلية، الذي وضع تحت إشراف الإدريسي.. مجموعة من العارفين والمتوجّلين في البلاد النائية، وأمر أن يفرغ له من الفضة الحالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ضخمة الجسم في وزن أربعون رطل بالروماني في كلّ رطل منها مائة درهم واثنا عشر درهماً، ليصنع منها الإدريسي كرّة ينخش عليها المصوّرون البلدان والأقطار والبحار .. الخ (٢).

فالنّزهة، النّص التفسيري للخريطة المجسّمة للعالم، وهيئة الأرض، فقد قسم الإدريسي العالم المعمور إلى سبعة أقاليم، ومع هذه الخريطة قدم الإدريسي.. إلى روجر الثاني كتابه "نזהه المشتاق" كمصدر للجغرافية الطبيعية والبشرية، فوصف أحوال البلاد وخلقها وبقاعها، مستعيناً بما أفاده من رحلاته التي قام بها، كما أفاد من المعلومات التي جمعها الرّواد الذين أرسلهم روجر الثاني إلى البلاد النائية، وبما قيده من أحاديث الرّحالة والتجار والحجّاج (٣).

(١) كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٠٨، وأحمد، رمضان أحمد، (١٩٨٠). الرحلة والرّحالة المسلمين، جدة: دار البيان العربية، ص ١٦٢.

(٢) كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣١٨.

(٣) انظر، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ص ١٤، ٢٢، ٥٠، ١٦٤، ١٩٧.

وقد حفظت الخريطة والكتاب في مخطوطات عديدة^(١)، ولكنها ليست كاملة دائمًا، إلا أنها في مجموعها تمكّن من بناء متن الكتاب والخارطة معاً.

رحلة أبي حامد الغناطي^(٢)، في القرن السادس الهجري، الذي يمثل إضافة حقيقة للجغرافيين وأدب الرحلات، يقول جمال حمدان: "ويجوز أن نعدّه سندباد بحر وبر معاً أو

(١) يشير كراتشکوفسکی إلى المخطوطتين المعروفتين منذ النصف الأول للقرن التاسع عشر، وهما مخطوطة باريس وأكسفورد وأنه قد انضم إليهما أيضًا مخطوطات استنبول، ومخطوطة القاهرة، ويبدو أنَّ الأمل في العثور على نسخ من كتاب الإدريسي لا يزال يراود الكثرين حتى الأونة الأخيرة، فمنذ خمسة أعوام تقريبًا تواترت الآنباء بالكشف عن مخطوطة له في شومين ببلغاريا إلا أن تقصي صحة هذا الزعم لم يتم، والحال نفسه في الزعم القائل بوجود كتاب الإدريسي في إحدى مجموعات المخطوطات بمدينة الموصل وحديثًا نشرت قطع من كتاب الإدريسي: "صفة الهند وما يجاورها من البلاد" ١٩٥٤م، و "صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس" ١٩٦٨م، و "القارنة الإفريقية وجزيرة الأندلس" ١٩٨٣م و "المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق باللغتين العربية والفرنسية" ١٩٨٣م، وأعادت نشره مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٩٢م. انظر، مزيدًا من الحديث عن هذه المخطوطات، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣١١-٣٠٩. وتاريخ الفكر الأندلسي، ص ٣٢٣، وقد تناولت آمنة البدوي ترجمات كتاب الإدريسي بشيء من التفصيل في دراسة لها لم تنشر بعد، وهي بعنوان " تتبع رحلات الأندلسيين والمغاربة المطبوعة والمخطوطة من القرن الثالث الهجري وحتى القرن التاسع الهجري" ، الجامعة الأردنية، ص ٦-٧.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن سليمان القيسي، يكنى أيضًا أباً محمد وأباً بكر، ولد عام ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م، رحالة جواباً، مغامراً، قضى حياته في الرحلات داخل وخارج دار الإسلام، زار صقلية سنة ٥١١هـ ومنها ذهب إلى مصر ثم زار بغداد، وإيران، ووصل إلى ضفاف نهر الفولجا وزار هنغاريا، وهناك كان يمتلك منزلًا، بل إنَّ ابنه الأكبر قد تزوج بسيدة تين من أهل تلك البلاد، وأقام بها نهائياً، ثم عاد إلى بغداد والموصل، وتوفي بدمشق عام ٥٦٥هـ / ١١٧٠م. انظر ترجمته، رحلاته الماعرب عن بعض عجائب المغرب، مقدمة المحقق، ص ١٠، المقربي، نفح الطيب: ٢٣٥٢، كراتشکوفسکی، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٢٦.

ابن الأندلس، فهو ليس كاتب رحلة، ولا جامع عجائب وغرائب، ولا جغرافيًّا خالصًا، بالطبع، بل الثلاثة معاً^(١).

وقد سجل أبو حامد الغرناطي كل مشاهداته وخبراته في كتابين "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب"^(٢) و "المُعرب عن بعض عجائب المغرب"، حيث اتجه اتجاهًا خطيرًا نحو تصوّر العجائب والغرائب بطريقة خرافية غير معقولة، غير أن بعضها اليوم يُرى معقولًا.

"فالتحفة" ألفها صاحبها بعد أن طُوّف في أصقاع كثيرة من بلدان المغرب والمشرق ليجمع فيها ما شاهد وسمع من عجائب الدنيا، فقسم كتابه إلى أربعة أبواب ذكر في الأول منها: "صفة الدنيا وسكانها من إنسها وجانها"، وخصص الباب الثاني في "صفة عجائب البلدان وغرائب البناء"، أما الباب الثالث، فيشمل "صفة البحار وعجائب حيواناتها وما يخرج منها من العنبر والقار وما في جزائرها من أنواع النفظ والنار"، بينما تحدث في الباب الأخير عن صفات الحفائر والقبور وما تضمنّت من العظام إلى يوم البعث والنشر".

وقد جاء الكتاب حافلاً بأمثلة العجائب التي جمعها المؤلف ليبرز من خلالها عظمة الخالق، فالأساطير والخرافات تظل أمتع ما يوجد في التحفة، حيث تأخذ القارئ وتشده

(١) مقالته "تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس"، تأليف د. حسين مؤنس، مجلة المجلة، العدد ١٤٥، السنة ١٩٦٩، ص ١٧.

(٢) وقد تداول النسخ "التحفة" وتصرّفوا بها، فتعددت متونها واختلفت نصوصها، فأعتمد بعض الدارسين مطبوعة غبريلل فيران الفرنسية التي نشرها في المجلة الآسيوية سنة ١٩٢٥م وحقّقها إسماعيل العربي، وصدرت عن دار الحيل (بيروت)، ودار الأفاق الجديدة (المغرب). وبعضهم اعتمد مطبوعة المستشرق الأسباني سيفار دوبيل التي نشرها سنة ١٩٥٣م، بعنوان "رحلة أبي حامد إلى بلاد آسية وأوروبية" ولعل مطبوعة دوبيل إحدى نسخ التجربة الأولى لـ "تحفة أبي حامد الغرناطي"، التي قام فيما بعد بتعديلها وتبويبها، وإضافة موضوعات أخرى إليها، انظر، الغرناطي، أبو حامد محمد، تحفة الألباب ونخبة العجائب، ط١، حرّرها، قاسم وهب، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٣، ص ١٨-١٧.

إليها شدًّا، فلا يجد مناصًا من متابعة القراءة والاستمتاع بالحكايات التي تناهى عن الواقع اليومي، بل إنَّ المفارقة الكبرى في تحفة أبي حامد الغرناطي، أن يضغط من خلال هذا الجانب على القارئ حتى يتلزم بواقعية ما يُروى، فالجانب الأسطوري والخرافي يطغى على الواقعي.

ولعل قيمة رحلة الغرناطي مرتبطة إلى حدٍ كبير بالجانب الأسطوري والخرافي الذي يأبى الرّحالة أن ينعته بهاتين الصفتين؛ إذ يحاول أن يقنع المتقبل بصحة ما يرويه له، فيذهب إلى أنَّ عدم التصديق لما يرويه يعزى إلى ضعف في نسبة العقل لدى المتقبل من جهة، وإلى الجهل من ناحية ثانية لأنَّ الذي يعرف الجائز والمستحيل يعلم أنَّ كلَّ مقدور بالإضافة إلى قدرة الله تعالى قليل، فالعالق إذا سمع عجباً جائزاً استحسنَه ولم يُكذب قائله ولا هجنه، والجاهل إذا سمع ما لم يشاهد قطع بتكذيب وتزييف ناقله، وذلك لقلة بضاعة عقله، وضيق باع فضله^(١).

لهذا، فإنَّ التحفة تحفة فنية أتمَّ الرّحالة تصنيفها في عام ٥٥٧هـ/١٦٢م بالموصل بتوصية من عالم متصوّف هو الأردبيلي^(٢)، وهي تحفة تعود بنا إلى الوراء، لتصوّر خرافات البلاد والشعوب، ابتداءً من يأجوج وأوجوج إلى أمم السودان وإلى الهند والصين، وتصوير الحيوانات الأسطورية ... إلخ.

ويصل بذلك العجائب إلى علوم الكون، فيصف ظواهر الكون وحركاته، وهو مع ذلك لا تخلو عجائبه من حقائق صحيحة ومعلومات حقيقة، جبل النار بصفلية^(٣)

(١) أبو حامد الغرناطي، رحلة التحفة، ص ٢٤.

(٢) هو معين الدين أبي حفص عمر بن خضر الأردبيلي، وهو مؤلف معروف ذكره بركلمان ونسب إليه كتاب "وسيلة المتعبدين، انظر ترجمته، أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، مقدمة المحقق، ص ١٢، ونص الرحلة، ص ٢٢، و المؤنس، حسين، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، ص ٣٢٣.

وكراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٢٧-٣٣٦.

(٣) أبو حامد الغرناطي، رحلة التحفة، ص ٩٠، ١٥٥.

(بركان أتنا) والبحار الداخلية التي تتصل بالمحيط الأعظم وتخلو من المد والجزر^(١)، وحكايتها عن هنغاريا تلقي ضوءاً على أصل المسلمين الهنغار وأوضاعهم. ومعلوماته عن شعوب القوقاز نالت أهمية كبرى^(٢)، وكذلك ملاحظاته التي سجلها عن الأقليات المسلمة من المغاربة أو الخوارزميين، حيث يصف وضعهم السياسي، وكيف يتظاهر البعض بالنصرانية ويكتم الإسلام .. الخ^(٣).

و"المُعْرِب"^(٤)، رحلة تعدّ وثيقة تاريخية وجغرافية نادرة عن مختلف البلدان التي زارها، حيث يرسم صورة دقيقة للبيئة الطبيعية ونمط الحياة في تلك الأصقاع: فيصف قصر النهار وطول الليل في الشتاء في مناطق جنوب روسيا^(٥)، ويدرك أسماء العديد من أصناف الأسماك؛ كأسماك الخطاف والرّغاد.. إلخ^(٦). وخلال ذلك كله يحدد "آخر حدود الإسلام تحت ثلوج العروض الشمالية المظلمة"^(٧).

رحلة بنiamين بن يونة التطيلي النباري الأندلسي (ت. ٥٦٩ هـ) في النصف الثاني من القرن السادس الهجري، وهو تاجر أخذ يتجول في بلدان المشرق الإسلامي وأوروبا

(١) المصدر نفسه، ص ٨٣.

(٢) انظر، المصدر نفسه، ص ١٠٣، ١٥٥، وتأريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٢٦-٣٢٩.

(٣) أبو حامد الغرناطي، رحلة التّحفة، ص ١٣٨.

(٤) ومن التسميات الأخرى "للُّمَعْرِب": "نخبة الأذهان في عجائب البلدان"، الذي أخذ من مخطوطه أكاديمية التاريخ ب مدريد، ولهذه المخطوطة نسخة أخرى في مكتبة جوتا تحت رقم (١٥٣٥)، وقد درسها هارتتحويج ديرنبر، وكتب عنها مقالاً وصف فيه المخطوط بأنه صغير الحجم، عدد أوراقه (١١٤) ورقة. ومنها أيضاً "المُعْرِب من بعض عجائب البلدان". انظر، مؤنس، حسين، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، ص ٣٢٦-٣٢٧.

(٥) الغرناطي، أبو حامد، المُعْرِب عن بعض عجائب المغرب. تحقيق، إينغرد بيخارانو، المجلس الأعلى للبحوث العلمية، مدريد، ١٩٦١، ص ٢٩-٣٠.

(٦) أبو حامد الغرناطي، المُعْرِب، ص ٧٦-٧٧.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٤٥-١٤٦.

بدافع الاطلاع الشخصي على أحوال اليهود، ورحلته مدونة بالعبرية، وترجمها إلى العربية عزرا حداد ونشرت في بغداد عام ١٩٤٥م.^(١)

قام برحلته سنة ٥٦١هـ/١١٧٣م، حيث انطلق من تطيلة ليبدأ بعد ذلك جولته في برشلونة، وسواحل فرنسا، ثم يتجوّل بعدها في سوريا ولبنان ودجلة والفرات، وبيت المقدس، حيث يصف وضع اليهود تحت الاحتلال الصليبي، ويقدم معلومات عن اليهود، وعدهم وأحوالهم وأوضاعهم ومراكزهم العلمية والاجتماعية^(٢)، ثم يتبع رحلته إلى جزيرة العرب، ويروي لنا بعض الأساطير والحكايات التي كان يسمعها أو كانت تروي له. ثم يقصّ أخبار بحار الصين وأحوالها ومهالكها^(٣).

رحلة ابن جبير^(٤) في أواخر القرن السادس الهجري وأوائل القرن السابع الهجري. وهي رحلة عرضت الدراسات لقيمتها الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، إذ إنّها كنز حافل بالمعلومات، بل هي خير ما أتى به شاهد عيان ممّن كتبوا عن الحروب الصليبية على الاطلاق^(٥) ويعدها كراتشوفسكي بحقّ "ذروة ما بلغه نiveau الرحلة في الأدب العربي"^(٦)، فمن الأندلس إلى مصر- صاعداً في النيل إلى عيذاب إلى الحجاز إلى العراق فالشام، ثم عودة بالبحر عن طريق صقilia، ويقدم لنا ابن جبير رسالة ثاقبة في الملاحة البحرية المقارنة بين البحرين المتوسط والأحمر.

ومع ذلك، يقيم ابن جبير برحالة واحدة، بل قام بثلاث رحلات أشهرها الرحلة المنشورة "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار"، التي استغرقت ثلاث سنوات (٥٧٨هـ- ١١٨٣/٥٨١هـ). وقد لفت أنظار الدارسين، وكثيراً الأخذ عنها، وعظمت

(١) انظر، رحلة بنiamin التطيلي، ترجمة عزرا حداد، بغداد، ١٩٤٥، ص ٩٨-١٠٤.

(٢) انظر، المتصدر نفسه، مقدمة المترجم، ص ٢٧.

(٣) انظر، ترجمته في هذه الدراسة، ص ١٣، حاشية رقم ١.

(٤) انظر، مؤنس، حسين، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ص ٤٥٠.

(٥) كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٣٥.

العنمية بها، فالمقرري نوّه بانتشارها بين القراء في عصره، فقال: "له رحلة مشهورة بأيدي الناس"^(١)، وقال ابن الخطيب: "صنف الرحلة المشهورة ... وهو كتاب مؤنس ممتع مثير سواكن الأنفس إلى تلك المعالم"^(٢)، وفي دراسة موسعة لحسين مؤنس في الجغرافية والجغرافيين، يقرر أن ابن جبير "بلغ ذروة سامقة في أدب الرحلات"^(٣).

لهذا، فقد نالت هذه الرحلة عنية الدارسين والباحثين فنشرت عدة نشرات وترجمت إلى اللغات العالمية^(٤).

أما رحلته الثانية فقد استغرقت عامين (٥٨٥-٥٨٧ هـ / ١١٩١-١١٨٩ م) وكانت بعد سماع ابن جبير بفتح صلاح الدين الأيوبى لبيت المقدس (٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م)، وقام برحلته الثالثة إلى المشرق وهو شيخ كبير قد أحزنته وفاة زوجته في عام (٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م) ولم يرجع إلى الأندلس مرة أخرى بل أمضى أكثر من عشرة أعوام متقدلاً بين مكة وبيت المقدس والقاهرة مشغلاً بالتدريس والأدب إلى أن وافته المنية بالإسكندرية في عام (٦١٤ هـ / ١٢١٧ م). ورحلته الأولى فقط هي التي وصلت إلينا تفاصيلها في كتاب منفرد، وضعه بعد رجوعه عام (٥٨١-٥٨٥ هـ / ١١٨١-١١٨٥ م)^(٥).

(١) المقرري، نفح الطيب: ٣٨٦/٢.

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة: ٢٣٩-٢٣٠/٢.

(٣) مؤنس، حسين، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ص ٥١٩.

(٤) لم يعرف سوى مخطوطة وحيدة لرحلة ابن جبير، وكانت موجودة بليدين ويرجع تاريخها إلى عام ١٤٧٠ هـ / ١١٧٥ م، وأصبحت الرحلة معروفة لدى الناس بفضل الطبعة الجزئية لدوزي وأماري فيما يتعلق بالمادة المختصة بصفلية بالذات. ولم تثبت الرحلة أن أصبحت في متناول الأيدي بفضل الطبعة الكاملة التي نشرها المستشرق البريطاني رايت ١٨٥٢ م، وأعيد طبعها في سنة ١٩٠٧ م. انظر، رحلة ابن جبير، ص ٦، وكراشковسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٣٤-٣٣٣.

(٥) انظر، كراشковسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٣٣.

وقد وُجدت بعض الرّحلات التي لا تخلو من بعض الصلة بالبكري والإدريسي وابن جبير ومنها كتاب "الاستبصار في عجائب الأ MCSAR"^(١) لرّحالة ومؤلف مراكشيـ مجھول، ويبدو من خلال بعض الروايات في الرّحلة أنّ هذا الرّحالة قد عاش في عهد أبي يوسف يعقوب المنصور المُوحدي الذي حكم ابتداءً من عام (٥٨٠هـ / ١١٨٤م) إلى عام (٥٩٥هـ / ١١٩٨م).

ويرجح كراتشکوفسکی أنّ تاريخ تأليف الكتاب يعود إلى عام (٥٨٧هـ / ١١٩١م)، وأنّ الرّحالة المجهول قد أدى فريضة الحجّ، فهو يصف الحرمين وصفاً مفصلاً ثم ينتقل إلى الكلام عن مصر ويتحدث عن أهراماتها، ثم ينتقل إلى بلاد المغرب والسودان، ويجهد في تسجيل جميع ما رأه في طريقه وكلّ ما سمعه عن البلاد المحيطة، ويعطي وصفاً دقيقاً لها. كما أضاف أيضاً إلى الكتاب روايات ومعلومات عن مدينة فاس^(٢).

رحلة ابن سعيد المغربي الأندلسي الغرناطي^(٣)، في القرن السابع الهجري، وقد تنقل ابن سعيد في تجواله من المغرب في مختلف الأ MCSAR، والتقى بأكابر العلماء، ورأى أفضل

(١) يرى كراتشکوفسکی، أن العلم يدين بمعرفة هذه الرحلة إلى كریمر A.Kremer ١٨٠٢م معتمداً على مخطوطة فینا مع عرض مفصل لمضمون الكتاب باللغة الأطانية، ومخطوطة

باریس التي استعملها لأول مرة أماري قد ساعدت في تغطية الفجوات التي بمخطوطة فینا، غير أنها لا هي ولا مخطوطة الجزائر عاونتنا على حل المشاكل المتعلقة بأصل الكتاب ومضمونه. أما ترجمة فانیان، ١٩٠٠، التي اعتمدت فيها على المخطوطات الثلاث وزوودها بكمية من الشرح والتعليقـات فهي تمثل خطوة في هذا السبيل وإن كانت لا تقدم لنا الكتاب في صورته الكاملة. انظر، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٣٦-٣٣٥، ومؤلف مراكشيـ مجھول من القرن ٦هـ، الاستبصار في عجائب الأ MCSAR وصفة مكة والمدينة ومصر وببلاد المغرب، تعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، ١٩٨٥، مقدمة المحقق، وانظر، ابن زرع الفاسي، الأنیس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس، ص ١٠٥، ١٠٧، ١٨١، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ٢٠٨ وما بعدها.

(٢) انظر، كراتشکوفسکی، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٣٦.

(٣) وردت ترجمتها، ص ١١ من الدراسة، حاشية رقم ٢.

الكتب^(١). وعبر عن حبه لوطنه بأشعار عاطفية عميقه^(٢)، ووضع سائر المدن التي زارها في مرتبة دون مرتبة مدن الأندلس "وأنا أقول كلاماً فيه كفاية منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطفت بر العدوة، ررأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وسبتة ثم طفت في أفريقيا وماجاورها من المغرب الأوسط، فرأيت بجایة وتونس، ثم دخلت الديار المصرية، فرأيت الإسكندرية والقاهرة والفسطاط ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلب وما بينهما، لم أر ما يشبه رونق الأندلس في مياهها وأشجارها إلا مدينة فاس بال المغرب الأقصى ومدينة دمشق بالشام وفي حماة مسحة أندلسية..."^(٣). وقد دون ابن سعيد أخبار ومعالم البلاد التي زارها في بعض مؤلفاته، ومنها "المغرب في حل المغارب"^(٤) و "المشرق في حل المشرق"^(٥)، ولابن سعيد رحلتان: "عِدة المستنجد وعقلة المستوفز"^(٦) و "النفح المسكية في الرحلة الملكية"^(٧).

(١) انظر، المقربي، نفح الطيب ملخصاً من الإحاطة: ٢٧٢-٢٧٣/٢.

(٢) انظر، المصدر نفسه: ٢٦٢-٢٧٠/٢.

(٣) المقربي، نفح الطيب ملخصاً من الإحاطة: ٢٩١/٢٠.

(٤) المغرب في قسمه الأندلسي، مطبوع في دار المعارف بمصر، بتحقيق شوقي ضيف، في جزأين كبيرين، أما المغرب في قسمه المصري، فقد حققه زكي محمد حسن وشوقي ضيف، وسيدة إسماعيل كاشف، وبين أيدينا جزء واحد قامت بطبعه كلية الآداب بجامعة القاهرة، ١٩٥٣م.

(٥) وردت بعض الإشارات إلى وجود نسخة منه بمكتبة أحمد تيمور ولا يعرف سبب منع نشرها. انظر، حسن، محمد عبد الغني، (١٩١٩). ابن سعيد المغربي، المؤرخ، الرحالة، الأديب، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ص ٤٧.

(٦) ذكر المقربي هذا الكتاب وقال في وصفه: "ذكر فيه أنه ارتحل من تونس إلى المشرق رحلته الثانية سنة ٦٦٦هـ وأورد في هذا الكتاب غرائب ويدائع، انظر، نفح الطيب: ٣٦٨/٢، والبغدادي، إسماعيل باشا بن محمد الباباني، (ت ١٣٣٩هـ). إيضاح المكتنون في الذيل على كشف الظنون عن أساسي الكتب والفنون،عني بتصحيحه وطبعه محمد شرف الدين، وكالة المعارف الجليلة، استانبول، ١٩٤١: ٩٦٢.

(٧) ذكره المقربي نقلأً عن الإحاطة وقال: "ووحّج ثم عاد إلى المغرب، وقد صنف في رحلته مجموعاً سماه بالنفح المسكية في الرحلة الملكية" انظر، نفح الطيب: ٢٧٣/٢، وإيضاح المكتنون في الذيل على كشف الظنون: ٦٧١/٢.

رحلة أبي محمد التجاني^(١)، في القرن الثامن الهجري، وقد خرج من تونس لأداء فريضة الحجّ عام ٧٠٦هـ، ومتاز رحلته بأهميّة كبرى وذلك بتزويدها لنا بمعلومات وافية عن جميع المناطق التي زارها وعن الأصياغ المجاورة لها، وهي تتناول مسائل الجغرافيا، ومسائل التّاريخ الطبيعيّ حيث تعرض لأخبار المدن والقرى والسكان وعاداتهم كما عرف التجاني بالفقهاء والأدباء الذين لقيهم أثناء تجواله في البلاد التونسية وطرابلس، وقد قدم للرحلة حسن حسني عبد الوهاب، وطبعت في المطبعة الرسميّة بتونس سنة ١٩٥٨م.

رحلة ابن بطوطة^(٢)، في القرن الثامن الهجري، حيث زار معظم البلاد الإسلاميّة في عصره، بل زار بعضها مرتين وتلاته، فقد مر بمصر والشّام والعراق والجزيرة العربيّة أكثر من مرّة، وقطع الجزيرة العربيّة من الشمال إلى الجنوب ومن ناحية الحجاز، ثم عاد فمرّ بجنوبها الشرقيّ عند عُمان، واخترق بلاد عُمان وزار القطيف ثم البصرة ومضى بعد ذلك إلى الأهواز في إيران، ثم زار آسيا الصغرى، وتردد في بلاد ما وراء النهر والهند الإسلاميّة، وذهب إلى سومطرة ومنها إلى الصين ثم عاد إلى الهند، وزار جزيرة سرديّب، أمّا دلهي وقاليقوت وببلاد السند فقد أقام فيها سنوات طويلة.

وجاءت رحلته "تحفة النّاظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" سجلاً حافلاً عن أوضاع المسلمين، فقد شاهد الكثير وعرف كيف يصور ما شاهده بدقة وبساطة، فجعلت

(١) قيل (أبو أحمد) و (أبو محمد) عبد الله التجاني التونسي، ولم يثبت اسمه في المصادر بصورة قاطعة، خرج من تونس بصحبة أمير من بنى حفص، هو يحيى بن زكريا، وفيما بعد عندما أصبح هذا الأمير حاكماً على تونس صار التجاني من عماله المقربين إليه كما لم تثبت سنة ميلاده، وتاريخ وفاته ٦٧٠هـ - ١٢٧٢ / ١٢٧٦ - ١٣١٨م). انظر ترجمته، في رحلة التجاني، قدم لها، حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربيّة للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٨١، مقدمة الرحلة، ص ٢٠ وما بعدها، والساخاوي، الضوء الالمعم: ١٢٦/٢، وتاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٤١١ - ٤١٢، و سالم، السيد عبد العزيز، (١٩٨١). التاريخ والمؤرخون العرب، بيروت: دار النهضة العربيّة، ص ٢٣.

(٢) وردت ترجمته في الدراسة، ص ١٤، حاشية رقم ١.

منه الأقدار رحالة نادراً عند العرب، ذلك لأنّه هدف للرّحلّة لذاتها وضرب في مجاهل الأرض استجابة لرغبته الجارفة في التّعرّف على الأقطار والشعوب، بعد أن كان باعثه الأول على الرّحلّة هو إرادة الحجّ. وقد رحل ثلّاث رحلات أولها سنة ٧٢٥هـ، وانتهت منها ٧٥٠هـ. وكان له من العمر حين ابتداء الرّحلّة اثنان وعشرون عاماً. ورحلته الثانية في مملكة غرناطة بالأندلس، وذلك لثلا يفوته هذا القسم من العالم الإسلامي فقد كان حريصاً على استيعاب البلاد الإسلامية بالزيارة ليتأتّى له أن يقول مفتخرًا على السائح المصري الذي لقيه بإحدى المدن "وهو من الصالحين جال الأرض إلا أنه لم يدخل الصين ولا جزيرة سرديني ولا المغرب ولا الأندلس ولا بلاد السودان، وقد زدت عليه بدخول هذه الأقطار"^(١)، ولি�صبح بعد ذلك "مسافر العرب والعجم" كما قال له أحد الشيوخ في بنغالة: "أنت مسافر العرب" فقال له منْ حضر منْ أصحابه: "والعجم يا سيدنا" فقال: "والعجم فأكرموه"^(٢).

ثم شرع في رحلته الثالثة إلى بلاد السودان ٧٥٣هـ، وبينما هو في تكدا، وفاه أمر السلطان أبي عنان بالرجوع إلى المغرب فكرّ راجعاً إلى سجلماسة عن طريق توات، وفي نهاية عام ٧٥٤هـ وصل إلى فاس ويكون بهذا قد قضى زهاء ثمانية وعشرين عاماً وتزيد في التنقل والترحال. ويبدو أنّ السلطان كان مشتغلًا بتبييت دعائم ملكه ومحاربة أعدائه، ثم تتبّه لأهميّة ما يقوم به ابن بطوطه، فنفّذه باستدعاء الرحالة من بلاد السودان، وأمر الكاتب ابن جزي^(٣) أن يكتب ما يمليه عليه ابن بطوطه، فقام ابن جزي بما كلف به من ضمّ أطراف الرّحلّة وتصنيفها وتهذيبها وانتهى من ذلك عام ٧٥٧هـ^(٤). وقد ترجمت الرّحلّة مرات عديدة^(٥).

(١) رحلة ابن بطوطه: ٢٧٨/١.

(٢) المصدر نفسه: ٢٠٩/٢.

(٣) وردت ترجمته في هذه الدراسة، ص ٣٢، حاشية رقم ١.

(٤) رحلة ابن بطوطه: ٣١٢/٢.

(٥) انظر ، كراتششكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٤٧٠-٤٧١.

رحلة ابن الحاج الغرناطي^(١)، "فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسطنطينية والرّزاب"، في القرن الثامن الهجري، وهي رحلة رسمية قام بها ابن الحاج مع بطلها ومنفذها السلطان أبي عنان المريني. وقد جاءت هذه الرّحلة لأسباب دينية وسياسية أبرزها توحيد صفوّ المسلمين والقضاء على الفتنة التي تثيرها الأعراب في النواحي الشرقيّة^(٢) لتلك البلاد الخاضعة لسلطان أبي عنان، وجاءت على مراحلتين: الأولى كانت داخل المغرب من فاس إلى سلا والرجوع إليها. والثانية من فاس إلى قسطنطينية ثم إلى الرّزاب ثم الإياب.

وتعد رحلة "فيض العباب" مصدرًا هاماً من مصادر تاريخ المغرب الأدبي والحضاري في العصر المريني، وقد ألقت الضوء على جوانب الاستقرار والنضج والازدهار الحضاري في مختلف المجالات: السياسية والاقتصادية والثقافية والعمانيّة والاجتماعية، مرحلة هامة من مراحل عهد دولة بنى مرين.

رحلة لسان الدين بن الخطيب^(٣)، في القرن الثامن الهجري، "خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف" وهي رحلة رسمية قام بها سلطان غرناطة أبو الحاج يوسف الأول^(٤)، ومعه وزير ابن الخطيب، لتفقد أحوال التغور الشرقيّة لمملكة غرناطة سنة

٧٤٨هـ

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم النميري المعروف بابن الحاج الغرناطي، (٧١٢هـ - ٧٧٤هـ)، وقال المقرئ ينقل ملخصاً عن الإحاطة: نشأ على عفاف وطهارة ... وبلغ الغاية في جودة الخط. ويروي الحديث مع الطهارة والتزاهة، شرق وحج وتطوّف وقید واستكثار ودون رحلة سفره، وقد بدأت تلك الرحلة سنة (٧٥٨هـ). انظر، ابن الحاج النميري، فيض العباب، دراسة محمد بن شقرور، الرباط، ١٩٨٤، مقدمة المحقق، ص ١٠، والمقرئ، نفح الطيب: ١٢٠ - ١٠٨.

(٢) انظر، ابن الحاج النميري، فيض العباب، المقدمة، ص ٥٢.

(٣) وردت ترجمته في الدراسة، ص ١٠، حاشية رقم ٢.

(٤) انظر ترجمته، ابن الخطيب، الإحاطة، ١٤/٢، والمقرئ، نفح الطيب: ٤١٣/٥، ٤٢٤، ٤٣٦، ٤٣٧، وفي صفحات متفرقة من الأجزاء ٦، ٧.

وقد دون ابن الخطيب ما رأته عيناه، وسمعته أذناه في جميع رحلاته، فأمدنا بمادة غنية عن حضارة الغرب الإسلامي في تلك الفترة، وتمثلت مشاهداته في أماكن متفرقة من كتبه، بالإضافة إلى رحلته "خطرة الطيف":

- مفاخرات مالقة وسلا، وهي مفاصلة بين المدن الأندلسية وأختها المغاربية في مختلف النواحي الاقتصادية والاجتماعية والجغرافية.
- معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، وهي عبارة عن وصف لأهم مدن المغرب مع وصف مدن مملكة غرناطة.
- رحلته التي دونها في كتابه "نفاضة الغراب في علة الاغتراب"، وتتجذر الإشارة إلى أن ابن الخطيب كان يعتبر هذه الكتاب مذكرات شخصية عن فترة من أهم فترات حياته، ولكنها ناقصة غير كاملة، إذ يبدأ وبدون مقدمات بالصعود إلى جبل هنْتَانَة^(١)، ويصف شيوخ قبيلة هنْتَانَة، وحسن استقبالهم له ... الخ^(٢).
- والمتمعن في جغرافية ابن الخطيب يرى أنها غير مقصودة لذاتها، فهي تأتي كخط جانبي في نشاطاته الأدبية والتاريخية، ونتيجة لخبراته في الحياة العملية، وهي إما مقدمات جغرافية تاريخية، أو شذرات أدبية في رسائله، أو حتى في مقامات فنية، وعلى هذا تتضاءل نسبة الجغرافية فيها، وكلها تدور إما حول الأندلس وإما حول المغرب^(٣).

(١) هنْتَانَة: جبل في مراكش جنوب الأطلس، وقمه مغطاة دائمًا بالثلوج. انظر، ليون الإفريقي، الحسن بن محمد الوزان الفاسي، (١٩٨٣). وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسي، محمد حجي، محمد الأخضر، ط٢، دار الغرب الإسلامي: بيروت ١٤٢١، وانظر، رحلة ابن خلدون، التعريف، ص ٨٣، حاشية رقم ٤٠، وابن الخطيب، خطرة الطيف، ص ١١٣، والحاشية رقم ٤٩١.

(٢) ابن الخطيب، رحلة خطرة الطيف، ص ١١٧.

(٣) انظر، نفاضة الغراب في علة الاغتراب، نشر وتعليق أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهوازي، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٥٠، ص ٤٦ وما بعدها، ورحلة خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف، تحقيق أحمد مختار العبادي، دار السويدي للنشر، أبو ظبي، ودار الفارس للنشر، عمان، ٢٠٠٣، ص ٢٦.

(٤) انظر، حمدان، جمال، "تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس" تأليف د. حسين مؤنس، المجلة، العدد ١٤٥، ص ١٩.

غير أن الدقة في الملاحظة، والروح الحيوية النشطة المتدافة التي اتسمت بها أوصاف ابن الخطيب ومشاهداته، تدلّ جميعاً على أنه رحالة من الطراز الأول^(١).

التعريف بابن خلدون^(٢) ورحلته غرباً وشرقاً في القرن الثامن الهجري. وابن خلدون غني عن التعريف، فهو راسخ القدم في دراسة التاريخ وباعت منهجه العلمي، وواضع أساس علم الاجتماع، "ويرجع الفضل إليه في وضع كثير من المصطلحات التي جرت على الأقلام والألسن من بعده، مثل العمran البشري، والاجتماع الإنساني، ... الخ"^(٣).

وقد تنقل ابن خلدون في مختلف أقطار المغرب والأندلس، متّصلاً بملوكها، وراغباً في الحصول على المناصب العليا، فخاض غمار السياسة، وكيد المؤامرات، فتراه تارة وزيراً أو حاجياً، وأخرى وراء قضبان السجن، إلى أن سئم السياسة، ولجا إلىبني عريف في قلعة ابن سلامة في جنوب قسطنطينية، حيث كتب ابن خلدون مقدمة المشهورة، وبدأ بعدها بكتابة تاريخه، ثم رحل إلى المشرق سنة ٧٨٤ هـ، وأقام بالقاهرة يمارس فيها التعليم ويتوّلى القضاء. ولم يربح مصر إلا حاجياً إلى مكة والحجاج.

أما "التعريف"، فهو قصة حياته إلى قبيل وفاته، ذكر فيه أصله وأحداث أسرته، وأحداثه هو، وثقافته، وأساتذته، وتحدّث عن صلته بمالوك، والأمراء، وتنقله في القصور، وذكر اعتقاله وتشريده، وذكر رحلته إلى الأندلس واتصاله بملك غرناطة، وزيره لسان الدين بن الخطيب وسفارته إلى ملك قشتالة، ثم حدثه عن عودته إلى تونس، ورحيله إلى مصر وحياته فيها.

(١) انظر، رحلة خطرة الطّيف، مقدمة المحقق، ص ٢٨.

(٢) وردت ترجمته، ص ٢١ من هذه الدراسة، حاشية رقم .٥

(٣) الحوفي، أحمد، (١٩٧٢). "أدب ابن خلدون". مجلة مجمع اللغة العربية، ج ٣٠، ص ٥٣.

رحلة القلصادي^(١)، في القرن التاسع الهجري، وقد ابتدأها سنة ٨٤٠ هـ، ورصد فيها مظاهر الحركة الفكرية في مملكة غرناطة، وأجزاء من العالم الإسلامي، كان قد ارتحل إليها، ومنها تلمسان، وتونس، وطرابلس الغرب، والقاهرة والحرمين الشريفين. وأعطى صورة واضحة عن تلك الحياة الفكرية والعلمية والاجتماعية، والشيخ والعلماء الذين التقى بهم، وترجم لهم وذكر أسماء الكتب والمدارس التي انتشرت في ذلك العصر، مما جعل رحلته تحتل مكانة عالية بين الرحلات.

رحلة أبي عصيدة البجائي^(٢)، في القرن التاسع الهجري، "رسالة الغريب إلى الحبيب". وقد أرّخها البجائي وأرسل بها إلى صديقه المشداي^(٣)، حيث افتتحها بقصيدة أشاد فيها بالمشداي ومكانته العلمية، وذكره بما كان بينهما من ود وذكريات أيام لقاءهما في بجاية^(٤) والقاهرة والحجاز، ثم تحدث أبو عصيدة عن رحيله من مصر إلى الحجاز، وعن المراسلات التي كانت بينه وبين المشداي. كما ذكر أبو عصيدة في رسالته كتابه المفقود، وهو (أنس الغريب) وأشار إلى أنّ جزءاً من هذا الكتاب تضمن وصف الرحّلة التي قام بها من بجاية وتونس إلى الحجاز عبر مصر. وتنتهي الرسالة بدون تاريخ ما عدا ذكر شهر شوال.

(١) هو أبو الحسن، علي بن محمد بن محمد القرشي الأندلسي البسطي، ولد في بسطة سنة ٨١٥ هـ أو قبلها وتوفي ٩٦١ هـ انظر ترجمته، في رحلته، تحقيق محمد أبو الأజفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٨، مقدمة المحقق، ص ٧، والتبنكتي، نيل الابتهاج، ص ٢٠٩، والمقربي، نفح الطيب: ٤٢٨، ٤٢٦/٥، ٦٩٢/٢

(٢) وردت ترجمته، ص ١٤ من هذه الدراسة، حاشية رقم ٣.

(٣) ولد في بجاية (الجزائر)، ٨٢٠ هـ ودرس فيها ثم توجّه إلى تلمسان للاستزادة من العلم وقضى بها أربع سنوات ثم رجع إلى بجاية سنة ٨٤٤ هـ وزار عنابة وقسنطينة وتونس وبيروت ودمشق وطرابلس الشام وحماة والقدس وأدى فريضة الحجّ سنة ٨٤٩ هـ توفي سنة ٤٦٤ هـ انظر، البجائي، رسالة الغريب إلى الحبيب، ص ٣٤-٣٠، والسحاوي، الضوء اللامع: ١٨٠/٩.

(٤) بجاية: مدينة على ساحل البحر بين إفريقيا والمغرب، انظر، الحموي، معجم البلدان: ٣٣٩/١

وقد وقفت الدراسة أيضاً على بعض الإشارات المتناثرة في بعض كتب المصادر والدالة على مجموعة كبيرة من الرحلات التي ضاعت أخبارها أو لم يروها أصحابها، ومنها ما هو مجهول أو مخطوط محفوظ فوق رفوف المكتبات لم يقم أحد بتحقيقه حتى الآن. ومن تلك الرحلات:

رحلة صالح بن يزيد الرندي^(١)، في القرن السابع الهجري، "روض الأننس ونزة النفس" وهي رحلة إلى البلاد الحجازية، وقد جاء في مقدمة الرحلة أنه طرز هذا الكتاب باسم سلطان غرناطة أبي عبد الله محمد الملقب بالفقير ابن محمد ابن الأحمر، ويقع الكتاب في مجلدين، وقد قصد الرندي أن يجعله أشبه بالموسوعات فقسمه إلى عشرين باباً، احتوى كل منها موضوعاً مستقلاً عن الموضوعات الأخرى، وقد تناول موضوع رحلته الحجازية في بابين من تلك الأبواب، حيث تناول موضوع الحجاز ضمن الباب الثاني الذي تكلم فيه عن الأرض وما يتعلق بها من ذكر الأقاليم والبلاد، فتكلم في شيء من التفصيل عن مكة المكرمة ووصف البيت الحرام، كما تناول تاريخ المدينة المنورة والحرم النبوي.

ويذكر أحمد رمضان أنه لا يوجد من كتاب الرندي إلا المجلد الأول وهو بحوزة محمد المنوفي، وينتهي عند الباب التاسع ويقع في مئة وتسعة وثلاثين ورقة تحتوي كل صفحة ثلاثة وعشرين سطراً، وهي مكتوبة بخط أندلسيٍ واضح مليح عتيق، مكتوب بمحلول السواك على ورق قديم والمخطوطية خالية من تاريخ النسخ واسم الناسخ، ويقدر محمد المنوفي أن تكون الكتابة قريبة من عصر المؤلف، ويرجح أن تكون من القرن الثامن الهجري. وهناك نسخ مصورة من المخطوطات بحوزة معهد المخطوطات للجامعة العربية، وصورة أخرى بالخزانة العامة بالرباط^(٢).

(١) هو أبو الطيب صالح بن يزيد بن موسى بن شريف الرندي، (ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م). وهو من أوائل الرحالة غير الجغرافيين، وروى عنه جماعة، كان فقيهاً حافظاً، له مقامات بديعة، نشا في ظل دولة

بني الأحمر. انظر، الأosi، الذيل والتكميلة، ق ٢، ص ١٣٧-١٣٨.

(٢) انظر، أحمد، رمضان، الرحلة والرحالة المسلمين، ص ٣٤٠-٣٤١.

إن هذه الرحلات، وتعدد أسماء الرحلة يؤكdan الإشارة إلى كثرة الرحلات في مختلف العصور، وتراميمها، وتسجيل أخبار الأمم وأحاديثها، إذ تكاد هذه الرحلات التي حضنها صفحات الكتب، تحدي الزمان وتقارب الخلود، بفائدتها التي لا تقتصر. على نفر قليل من الناس، ولا على جيل من الأجيال، فهي منابع لا تنضب، تمدنا دائمًا بمادة لا غنى عنها للتواصل الإنساني، بل هي سجل حضاري وثقافي.

وقد مثلت هذه الرحلات اتجاهات مختلفة بما فيها من مادة وفيرة تقترب من الموضوعية لدى ابن جبير، إلى حدود تقترب من الخرافية والغرائبية كما تجسدّها رحلة أبي حامد الغرناطي، ورحلة ابن بطوطة إلى حد ما، ثم إلى الترجمة الذاتية التي تبرز بشكل كبير عند المؤرخ المشهور: ابن خلدون، فمضمون الرحلة هو الحياة نفسها، بكل جوانبها ومعطياتها.

* هناك إشارات لرحلات أخرى من القرن الثامن الهجري، منها رحلة الأفق المشرق لابن الطيب وقد أوردها أحمد الخوجة محقق رحلة ابن رشيد: ٣١/٢، ورحلة الرعيني السراج وابن جابر الوادي آشي، وهي رحلات أقرب ما تكون إلى الفهارس أو البرامج منها إلى الرحلات الأدبية وذلك لأنصاف اهتمام مؤلفها على الجوانب العلمية فقط، ومن الرحلات التي أشير إليها في القرن التاسع الهجري، رحلة أبي العباس أحمد بن الحسن بن منقذ القسطنطيني (٧٧٠-٨٠٩هـ)، انظر، البلوي، تاج المفرق: ٩٠/١، ورحلة محمد بن سليمان بن داود الجزوئي (ت ٨٦٣هـ)، انظر، البلوي، تاج المفرق: ٧٧/١. ورحلة أحمد زروق البرنسى، ت ٨٩٩هـ وقد غلب عليه التصوف فتجرّد وساح وصار له أتباع، انظر، البلوي، تاج المفرق: ٩٠/١، وانظر ترجمته، السخاوي، الضوء اللامع: ٢٢٢/١.



الفصل الأول

السياقات الثقافية والمعرفية في الرّحلات

أ- السياق الثقافي

قام الرحالـة بوصف رحلاتهم وتجوالـهم ومشاهدـاتهم، وتدوين اـنطباعـاتهم الشخصية، لـذا جاءت رحلـاتـهم سجـلاً واـفـياً عنـ الكـثير مـا تحـويهـ تلكـ الرـحلـاتـ منـ جـوانـبـ مـعـرـفـيـةـ، ومـدـونـاتـ تـمـتـ إـلـىـ الجـغـرافـيـاـ والتـارـيـخـ والـاقـتصـادـ والـعـمـرـانـ والأـحـوالـ الـاجـتمـاعـيـةـ والـديـنـيـةـ والـثـقـافـيـةـ بـأـوـفـقـ الصـلـةـ، بلـ تـعـدـيـ الرـحالـةـ ذـلـكـ إـلـىـ التـفـسـيرـ والنـقـدـ لـلـكـثـيرـ مـنـ القـضـائـاـ وـالـمـشـكـلـاتـ الـتـيـ شـهـدـتـهاـ عـصـورـهـمـ، وـكـانـواـ فـيـ معـالـجـاتـهـمـ يـحاـولـونـ الإـلـاصـاحـ حـيـناـ وـالـنـقـدـ حـيـناـ آـخـرـ.

وقد جاءت كـتبـ الرـحلـاتـ بـمـادـةـ غـنـيـةـ زـاخـرـةـ بـالـوـصـفـ وـالـأـحـادـيـثـ وـالـأـخـبـارـ، وـمـاـ لهـ صـلـةـ بـالـغـرـائـبـ وـالـعـجـائـبـ، وـبـدـاـ طـرـحـ الرـحلـةـ لـلـكـثـيرـ مـنـ القـضـائـاـ وـالـسـيـاقـاتـ وـكـائـنـهـ طـرـحـ ثـقـافـيـ مـتـبـاـيـنـ الـأـصـوـاتـ، مـتـعـدـدـ الـمـسـتـوـيـاتـ، وـلـكـنـهـ فـيـ إـطـارـهـاـ الـعـامـ، دـائـرـةـ مـنـ التـكـاملـ المـعـرـفـيـ وـالـثـقـافـيـ لـاـ تـنـاقـشـ فـيـهـاـ. وـإـنـ الـبـاحـثـ لـيـجـدـ صـعـوبـةـ بـالـغـةـ فـيـ نـقـلـ كـلـ مـاـ فـيـ تـلـكـ الرـحلـاتـ؛ لـذـلـكـ يـقـصـرـ الـبـحـثـ عـلـىـ نـمـاذـجـ تـبـرـزـ جـوـانـبـ مـنـ تـلـكـ الرـحلـاتـ، وـهـيـ نـمـاذـجـ تـمـ اـخـيـارـهـاـ لـتـعـكـسـ بـوـضـوـحـ مـظـاهـرـ الـحـيـاةـ وـالـسـكـانـ وـالـبـلـادـ، وـلـتـؤـكـدـ الـوـحدـةـ الـإـسـلـامـيـةـ، وـالـرـوابـطـ الـقـوـيـةـ الـتـيـ اـتـصـفـتـ بـهـاـ الشـعـوبـ الـإـسـلـامـيـةـ؛ وـإـنـ عـرـضـتـ لـبـعـضـ مـنـ الـأـوـضـاعـ الـسـيـاسـيـةـ الـمـضـطـرـبـةـ فـيـ تـلـكـ الـبـلـدـانـ. فـابـنـ بـطـوـطـةـ مـثـلـاـ، [يـمـثـلـ الـمـوـاطـنـ الـإـسـلـامـيـ الـذـيـ طـافـ أـرـجـاءـ الـعـالـمـ الـإـسـلـامـيـ فـيـ الـقـرـنـ الثـامـنـ الـهـجـريـ، بـدـافـعـ الـمـغـامـرـةـ ... وـسـيـقـيـ دـلـيـلـاـ عـلـىـ وـحدـةـ الـشـعـورـ الـإـسـلـامـيـ أـيـامـهـاـ فـيـ أـمـصـارـ الـإـسـلـامـ الـمـتـعـدـدـةـ، وـسـيـقـيـ يـمـثـلـ نـوـعـيـةـ فـرـيـدةـ مـنـ الرـجـالـ ... فـقـدـ قـدـمـ مـنـ خـلـالـ رـحلـتـهـ هـذـهـ كـثـيرـاـ مـنـ الـمـعـلـومـاتـ الـتـارـيـخـيـةـ ...^(١)].

وبـهـذـاـ، فـإـنـ كـتبـ الرـحلـاتـ قـدـمـتـ حـقـائقـ مـهـمـةـ جـدـاـ عـنـ مـخـتـلـفـ الـعـلـومـ وـالـمـعـارـفـ، وـاعـتـبـرـتـ وـثـيقـةـ تـارـيـخـيـةـ وـجـغـرافـيـةـ، وـفـكـرـيـةـ وـسـيـاسـيـةـ، وـإـدارـيـةـ، وـاقـتصـادـيـةـ، وـدـينـيـةـ، وـاجـتمـاعـيـةـ لـاـ يـسـتـغـنيـ عـنـهـ بـاـحـثـ فـيـ درـاسـاتـهـ، وـهـيـ دـلـيلـ لـكـلـ مـسـافـرـ لـتـلـكـ الـبـلـادـ

(١) حسين، حسني محمود ، أدب الرحلة عند العرب، ص ٧٨-٧٩

ولأماكنها المقدّسة ومعجم للشيوخ الأولياء، والقضاة، والخطباء، ووصف للمدن والمساجد وبلاطات السلاطين، وعادات الشعوب وتقاليدها. ولعل المصادر التي استقى من خلالها أدب الرحلات مادته، أدت دوراً بارزاً في تحديد سياقات هذه الرحلات: العصر الذي تمت وكتبت فيه، وصاحبها الذي عاشها ودونها، فأمّدنا بنتائج تجاربه وخبراته، التي لا يتأتى له تحصيلها وهو ملتزم بيته أو بلده أو أن يكتفي بالسماع. لذا فإنّ المرء يجد نفسه أمام حشد غامر من التفصيات في مختلف جوانب الحياة التي قد لا يوجد نظيرها في مدونات التاريخ المألفة، وربما تفتقر كثيراً من المصادر لما يتوافر في كتب الرحلات، وقد كانت الرحلات عوناً للمؤرخين، والجغرافيّين، وعلماء الاجتماع؛ لتأكيد الواقع والأحداث وأحوال المجتمعات في تلك العصور التي عاشها الرحال، وذلك لدقة الملاحظة والوصف.

أولاً: المراكز التعليمية ودور الكتب

كان العلم أبرز أهداف الرحلة، كما عدّت الرحلة في طلب العلم ظهراً من مظاهر الحركة العلمية وداعماً لها في مختلف العصور الإسلامية حيث سعى الرحال الأندلسيون والمغاربة للوصول إلى مراكز العلم في المشرق حتى ينهلوا ما شاء لهم من منابع العلم والمعرفة^(١). وقد أكثر الرحال من التحدث عن حلقات العلم التي كانت تعقد في مبدأ الأمر بالمساجد والزوايا والخوانق والمكتبات والبيمارستانات، ثم أخذت تنشأ بعد ذلك مؤسسات ومراكز تعليمية مستقلة.

وكانت المساجد والخوانق بالإضافة إلى أنها مكان للتعبد، إلا أنّ المسلمين كانوا يتّخذونها خارج أوقات الصلاة مركزاً لشرح تعاليم الدين والفقه، والعلوم الشرعية، وتلقين فنون العربية. فبيت المقدس كان مركزاً لنشاط عدد من الفرق الإسلامية: الكرامية، والمعتزلة، والمشبهة^(٢). وقد اطلع ابن العربي من خلال هذه المجالس على علوم

(١) انظر، ابن سعيد المغربي، المغرب، القسم الخاص بمصر: ٥٧٢/١.

(٢) انظر، ابن العربي، قانون التأويل، ص. ٩٥.

ثلاثة: "علم الكلام، وأصول الفقه، ومسائل الخلاف التي هي عمة الدين ..."
^(١) . ويبدو أنَّ مثل هذه المجالس تعدُّ وسيلة لاستعراض القدرات الذهنية، والمواهب الإبداعية والفنية.

وتحفلت الرحلات بما شهدته المدن الإسلامية من نشاط أوسع في المجالين: الديني والعلمي، ومن ذلك ما يلحظ من كثرة مجالس العبادة، وحلقات العلم التي كانت تعقد في المساجد والروايات والمدارس، وغيرها. وكان بعض الرجال يهتمون بزيارة العلماء، وحضور محاوراتهم ومناقشاتهم العلمية، ومطارحاتهم الأدبية، ويترددون على مجالس العلماء والشيوخ، للإفادة منهم والوقوف على ما عندهم من علم ومعرفة، ويهتمون بمقابلة الرجال، في حين أنَّ حديثهم عن الأماكن والبلدان جاء ملائماً.

فرحلة ابن رشيد، مثلاً، أشبه ببرنامج علمي ذكر فيه شيوخه ومن لقائه من الحفاظ والمحدثين والنحاة والأدباء ونحوهم ممَّن تزخر بأسمائهم رحلته، ومنهم جمال الدين العطار^(٢)، فقد لقيه بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط، والتقى بالدميري^(٣) بزاوية الإمام الشافعي، أو بالفضلية أو بالكاملية بمجلس ابن دقيق العيد^(٤).

(١) انظر، المصدر نفسه، ص. ٩٧.

(٢) هو الشيخ المحدث الصدوقي، أبو صادق محمد بن أبي الحسين يحيى بن أبي الحسن علي بن عبد الله القرشي. انظر ترجمته، ابن رشيد، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٢، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٨: ٢٨٩-٣٠٠.

(٣) هو الشيخ الفاضل محيي الدين أبو الفضل بن عبد المتعيم بن خلف الدميري، انظر ترجمته، المصدر نفسه: ٣٠٢/٣ وما بعدها، والتجيبي، مستفاد الرحلة، ص. ١٣٣.

(٤) هو إمام الأئمة العالم العلم الورع الكامل، أبو الفتح محمد ابن الشيخ الفقيه مجد الدين أبي الحسن علي بن وهب بن مطیع بن أبي الطاعة القشيري النسب، الممنفليطي الأصل، القوصي العربي، القاهرة، المنزل، انظر ترجمته، ابن رشيد، ملء العيبة: ٣٣١/٣. والتجيبي، مستفاد الرحلة، ص. ١٦، والعبدري، الرحلة المغاربية، تحقيق محمد الفاسي، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، الرباط، ١٩٦٨، ص. ١٣٨، ١٤٥، والمقرفي، نفح الطيب: ٦٨/١.

وقد عني التجيبيّ أيضاً في رحلته بترجمات العلماء والمبّرّزين ممّن التقى بهم، وكذلك التجانِي^(١) الذي عني بالشّحدث عن العلماء والفقهاء الذين التقى بهم في رحلته، وذكر مصنفاته وحرص على حضور دروسهم، ومشاركتهم مجالسهم. أمّا البلويُّ، فقد ذكر بعض الشّيوخ من "العلماء الفضلاء الذين يطئون ذيول البلاغة، ويجرّون فضول البراعة، ولهم كلام يتألّق منه شعاع الشّرق، ويترقرّق عليه صفاء العقل، وينبّت فيه فرنز الحكمة ويعرض على حلّي البيان، وينقش في فصّ الزَّمان .. وألمعت بذلك نبذ من فوائدتهم واختيار طرف من أناشيدهم ومزجتها بما جرت إليه العبارة، وحسنت فيه الإشارة من قطع الشّعر المناسبة، قطع النور المنتظمة عن جواهر اللّفظ، البعيدة الغور، القريبة الحفظ ...".^(٢)

وبهذا، يجمع الرّحالة حصيلة من الرواية ومن السّماع، أو القراءة، ويظفرون بإجازات متّوّعة، ويضمّنون رحلاتهم أسماء الكثير من المصنفات المختلفة، والإنتاج العلمي والفكري في الفقه والحديث، والأدب والحكمة، والتّصوّف واللغة، والشعر، للأعلام البلدان التي زارها الرّحالة. ولم تغفل كتب الرّحلات الدّور الذي قامت به المراكز الدينية، كمكّة المكرّمة والمدينة المنورّة وبيت المقدس، في تكوين هذه الحصيلة الثقافية والعلمية، فقد كانت هذه المراكز ملتقى العلماء والأدباء، وطلبة العلم من كافة أقطار البلاد العربيّة والإسلاميّة، والحجّاج والزّهاد والمجاورين، وأصحاب المذاهب والطرق الصوفية، فاستقطبت بذلك جلّ العلماء والفقهاء، الذين ساهموا بمجالسهم العلميّة ومناظراتهم في نموّ وتطور الحركة العلميّة والفكريّة، فمكّة المكرّمة مبدأً ومنتهاً الحركة العلميّة، وحلقة الوصل بين المشرق والمغرب الإسلامي. ففي هذه الأماكن المقدسة لمعت أسماء العلماء، ومنها انتشرت الكتب إلى مختلف الأقطار. وقد أبرزت الرّحلات الدّور العلمي للمساجد والأربطة في هذه المراكز الدينية، فالمسجد الحرام وبيت المقدس كانا بمثابة جامعة يتواجد إليها طلاب العلم من جميع أنحاء العالم الإسلامي، ليتلقو العلم على

(١) انظر في ذلك رحلة التجانِي، ص ٢٥٦-٢٥١، ومواطن أخرى متفرقة من الرحلة.

(٢) البلوي، تاج المفرق: ١٤٣/١.

أيدي علماء برعوا في فنون العلوم المختلفة، مثل: الفقه^(١)، والحديث^(٢)، والتفسير^(٣)، والتاريخ^(٤)، وعلم القراءات^(٥). وقد تنوّعت العلوم بتنوع العلماء في مكّة المكرّمة والمدينة المنورة، بسبب الرّحلات السنوية للحج والزيارة. وهذه ميزة انفردت بها عن سائر الأقطار الإسلامية فتعدّدت الحلقات العلمية فيها، لا سيّما المسجد الحرام الذي غاص بحلقات الدرس^(٦).

وقد سارت المدارس في مكّة المكرّمة والمدينة المنورة وبيت المقدس جنباً إلى جنب مع المساجد في نشر العلم، وأشار الرّحال الأندلسيون والمغاربة إلى مدرسة المظفرية^(٧) في مكّة المكرّمة، وأشار البلوي أيضاً إلى مدرسة بالمدينة المنورة، تقع مقابل باب الرحمة، ولم يشر إلى اسمها^(٨).

وكانت المجالس الأدبية والمناظرات الدائرة في تلك المراكز الدينية، شاهداً على مستوى الحضارة التي وصلت إليها المجتمعات في البلدان التي زارها الرّحال الأندلسيون والمغاربة، وقد واكبت تلك الرّحلات تلك المجالس وما يدور فيها من فقه، وأدب، ولغة، وأخبار وحكايات، إذ لم تكن تخلو من الفقهاء أو الشعراء، أو الأدباء.

(١) انظر، التجبيبي، مستفاد الرحلة، ص ٣٩٣-٣٩٤، ٤١٥، وابن رشيد، ملء العيبة: ١٧٢/٥، ٢٤٩، ٣٦٩، مواضع أخرى متفرقة.

(٢) انظر، ابن رشيد، ملء العيبة: ١٧٣/٥، ٢٣٧، والتجبيبي، مستفاد الرحلة، ص ٣٦٦، ٣٧٦، ٣٨٣.

(٣) انظر، التجبيبي، مستفاد الرحلة، ص ٣٨٢، والبلوي، تاج المفرق: ٣٩٢/١، مواطن أخرى متفرقة من الرحلة.

(٤) انظر، التجبيبي، مستفاد الرحلة، ص ٣٧٦، ٣٨٥-٣٨٠، ٣٩٢، وابن رشيد، ملء العيبة: ١٧١/٥.

(٥) انظر، التجبيبي، مستفاد الرحلة، ص ٤٣٤-٤٣٣.

(٦) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٦٨-٧٢، والتجبيبي، مستفاد الرحلة، ص ٣٦٢ وما بعدها، وابن رشيد، ملء العيبة: ١٦٩/٥.

(٧) وهي المدرسة التي بناها ملك اليمن المنصور المظفر نور الدين عمر بن رسول. انظر، التجبيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٤٦، والعبدري، الرحلة المغاربية، ص ١٧٤، ورحلة ابن بطوطة: ١٢٩/١.

(٨) انظر، البلوي، تاج المفرق: ٢٨٧/١.

ومن الرّحلات التي أبرزت الجوانب المعرفية والنشاط العلمي في بيت المقدس، رحلة البلوي ومن قوله: "هذا إلى جانب ما أطلعه الله في ذلك الأفق المنير من بدور العلماء، وامتنع من صدور الأولياء الذين وردوا على طاهر تلك البقاع، وقصدوا إلى العبادة فيها والانقطاع، فسن الله إلى البغية ولقيتهم أجمعين ورويت عنهم، وما كثر على تعدادهم، وقل عليّ نظراً لهم وأندادهم، انتقيت منهم ها هنا خمسة يتبرّك بذكرهم وتعطر الأندية بشكرهم"^(١)، ثم يذكر هؤلاء الخمسة ويترجم لهم^(٢).

وقد قام ابن بطوطة برحلته في العصر المملوكي، "وفي العصر- المملوكي، نالت بيت المقدس اهتماماً كبيراً، فقد سار سلاطين المماليك على نهج الأيوبيين في تشجيع العلم وأهله والعناية بالأقحى والصّخرة، وإنشاء المدارس، ودور القرآن والحديث والخوانق، والزوايا والرباطات، فقد أنشأ ما يقارب أربعين مدرسة في بيت المقدس، في العصر- المملوكي، حيث إنّ الأيوبيين أنشأوا عدداً أقلّ من المدارس"^(٣).

وما زار ابن بطوطة بيت المقدس في العصر- المملوكي، ذكر أنّ بيت المقدس كان عامراً بالعلماء الوافدين إليه من مختلف الأقطار الإسلامية^(٤).

(١) انظر، البلوي، تاج المفرق: ٢٥٦/١.

(٢) انظر ترجمتهم، المتصدر نفسه: ٢٥٦/١، ٢٥٨، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٨.

(٣) عبد المهدى، عبد الجليل، (١٩٨٠). الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، ط١، عمان: مكتبة الأقصى، ص ٦٧. وانظر عن نشاط الحياة الفكرية في بيت المقدس في ظلّ صلاح الدين الأيوبي، العماد الأصفهاني، عماد الدين الكاتب أبو عبد الله محمد بن محمد، (ت ٥٩٧هـ). الفتح القسي في الفتح القدسى، الدار القومية، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٤٥، ١٧٢، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، وابن شداد،

بهاد الدين يوسف بن رافع، (٦٣٢هـ). النواود السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق محمود درويش، شركة طبع الكتب العربية، مصر، ١٩٧٩، ص ٢٩٢-٣٠٤، والعليمي، مجير الدين الجنبي، (ب ٩٢٧هـ). الأنس الجليل بتأريخ القدس والخليل، ط١، تحقيق محمود عودة الكعبابة، إشراف، محمود علي عطا الله، مكتبة دنديس، ١٩٩٨، ٣٤١-٣٤٠/٢، ورحلة ابن جبيه، ص ٢٧٠.

(٤) ومن المدن الفلسطينية التي زارها ابن بطوطة أيضاً: الخليل، وبيت لحم، والرملة، ونابلس وغيرها، انظر، رحلة ابن بطوطة: ٦١/٦٢.

وقد حفلت كتب الرحلات بـإلقاء الضوء على دور الحكام والأمراء والوزراء في رعاية العلم، بما خصّهم الله من المعرفة بالعلوم الشرعية والعقلية، والفصاحة والبراعة في النثر والنظم، فكان هناك مدارس للقرآن والحديث والمذاهب الفقهية الأربع، وكان يدرس في هذه المدارس كبار العلماء من المقرئين والمحدثين، ومن هذه المدارس: المدرسة النظامية التي أنشأها الوزير نظام الملك السلاجوقى في بغداد^(١)، والمدرسة الصادرية نسبة إلى منشئها شجاع الدولة صادر بن عبد الله، ويدرك ابن عساكر أنّها بنيت سنة ٤٩١هـ، فيقول: "بدي بتأسيس المدارس لنشر المذاهب الفقهية، فقامت مدرسة في دمشق وهي الصادرية عام ٤٩١هـ وقامت في هذه الحقبة ست مدارس للحنفية وواحدة للشافعية، واثنتان للحنابلة، وبتأسيس هذه المدارس ورد على دمشق من الشرق علماء كبار درسوا فيها، وشجع الولاة والأمراء العلماء على التدريس وقربوهم".

وذكر ابن العربي أنّه زار مدرسة الشافعية^(٢) بباب الأساطين^(٣)، والتلقى بمجموعة من العلماء في اجتماعهم لـالمناظرة، واستمع للمناظرة إلى آخرها، فتعلق بذلك الجو العلمي، ومن قوله في ذلك: "فألفيت بها جماعة علمائهم في يوم اجتماعهم لـالمناظرة عند شيخهم

(١) افتتحت هذه المدرسة رسمياً عام ٤٥٩هـ وتقتصر مناهجها الدراسية على دراسة الفقه الشافعى وفن الكلام على طريقة الأشعرى، ومن أهم أهدافها مناهضة المذاهب الأخرى، ولا سيما المعتزلة والإمامية. انظر، وابن خلكان، فيات الأعيان: ١٢٩/٢، والسبكي، تاج الدين، أبو نصر عبدالوهاب بن علي، (ت ٧٧١هـ). طبقات الشافعية الكبرى، ط١، إدارة محمد عبد اللطيف الخطيب، المطبعة الحسينية المصرية، د.م، ١٩٠٦: ٢٧-٢٨.

(٢) ابن عساكر، تقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن، (ب٥٧١هـ). ولادة دمشق في العهد السلاجوقى، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط٣، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ١٩٨١، ص ٦.

(٣) المسماة بالمدرسة الناصرية، وتقع على برج باب الرحمة، نسبة إلى الشيخ نصر المقدسي، ثم عرفت بالغزالية نسبة لأبي حامد الغزالى. انظر، العلمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: ٦٨/٢.

(٤) هو الباب الشرقي في سور المدينة. انظر، المصدر نفسه: ٦٩/٢.

القاضي الرشيد يحيى^(١) الذي كان استخلفه عليهم شيخنا الإمام الزاهد نصر- بن إبراهيم النابلسي المقدسي^(٢)، وهم يتناظرون على عادتهم^(٣).

وكان أبو بكر بن العربي، يحرص على حضور حلقات التناظر بين الطوائف في مدارس الحنفية والشافعية^(٤) وذكر ابن العربي موضعًا آخر في ساحة المسجد الأقصى، كان له أثر في الحركة الفكرية، ويقال له الغوير بين باب الأساطر ومحراب ذكريها، حيث كان العلماء يتناظرون في ذلك المكان. وقد لقي ابن العربي الشيخ أبو بكر محمد بن الوليد الطرطoshi^(٥)، في موضع يقال له باب السكينة، ويقول في ذلك: "فامتلأت عيني وأذني منه، وأعلمته أبي بنبيتي فأناب، وطالعه بعزمتي فأجاب، وانفتح لي به إلى العلم كل باب ونفعني الله به في العلم والعمل، ويسّر لي على يديه أعظم أمل، فاتّخذت بيت المقدس

(١) هو القاضي يحيى بن المفرج، أبو الحسن اللخمي المقدسي، كان من أئمّة أصحاب نصر المقدسي، توفي سنة ٥٣٤ هـ انظر، ابن العماد، الحنبلي، شذرات الذهب: ٤، ٢٦٢، والسبكي، طبقات الشافعية: ٤/٣٢٤.

٣٢٥

(٢) أبو الفتح الإمام الزاهد، وفقه الشافعية ببلاد الشام، توفي سنة ٤٩٠ هـ انظر، النووي، محيي الدين أبو ذكريya يحيى بن شرف، (ت ٦٧٦ هـ). تهذيب الأسماء واللغات، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، ١٩٠٠: ١٢٥/٢، والذهبي، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (ت ٧٤٨ هـ). سير أعلام النبلاء، ١١، حققه شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الرباط، ١٩٩٦: ١٩/١٣٦، والسبكي، طبقات الشافعية الكبرى: ٤/٢٧-٢٨.

(٣) ابن العربي، قانون التأويل، ص ٩١

(٤) انظر، المصدر نفسه، ص ٩٤.

(٥) هو محمد بن الوليد الطرطoshi، ويعرف بأبي رندقة، الإمام القدوة، شيخ اماليكية، رحل إلى المشرق، وتوفّقه ببغداد، وتوفي بالإسكندرية سنة ٥٢٠ هـ. انظر، الضبي، بغية الملتزم: ١/١٧٥-١٧٨، والمقرري، أزهار الرياض: ٣/١٦٢.

مَبَاءَةً وَالتَّزَمْتُ فِيهِ الْقِرَاءَةَ، لَا أَقْبَلَ عَلَى دُنْيَا، وَلَا أَكْلَمَ إِنْسِيًّا، نَوَّاصِلُ اللَّيلَ بِالنَّهَارِ فِيهِ، وَخَصْوَصًا بِقَبْتَةِ السَّلْسَلَةِ^(١) ..^(٢)

وقد لفت نظر ابن العربي تلك العلوم والآداب في المدن الفلسطينية، ومن وصفه مدينة عسقلان قوله: "بحر أدب يَعْبُدْ عَبَابُهُ، وَيَغْبُ مِيزَابُهُ"^(٣). وانتظم ابن العربي في المدرسة النظامية، وكان أستاذتها من الأعلام المتضلعين في العلوم والفنون الإسلامية، وألمع هؤلاء الأساتذة فخر الإسلام، أبي بكر الشاشي^(٤). كما أشار إلى الكثير من المحاورات العلمية والفقهية التي كانت تجري في هذه المدارس، ومنها المحاجة التي جرت بين الزُّوْزَنِي^(٥) والصَّاغَانِي^(٦) والزنجاني^(٧) والقاضي الريحاوي^(٨).

وذكر ابن جبير المدرسة النظامية، ووصف مجالس العلم والوعظ فيها، وما كان لها من أوقاف عظيمة، وعقارات مُحبَّسةٍ إلى الفقهاء والمدرسین بها، ورواتب للطلبة تقوم

(١) وهي على ضفة قبة الصخرة، وتقع شرقيتها على بعد بضعة أمتار من بابها المعروف بباب داود. انظر، المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، (ت ٣٨٠هـ). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق غازي طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٠، ص ١٦٨، العليمي، الأننس الجليل: ٥٦/٢ .٥٧.

(٢) ابن العربي، قانون التأويل، ص ٩٣.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٢.

(٤) هو محمد بن أحمد، رئيس الشافعية المعروف بالمستظهري، كان يلقب بالخبير لدینه وورعه وعلمه وزهده، توفي سنة ٥٠٧هـ انظر ترجمته، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤/٢٠١-٢٠٠، والصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك، (ت ٧٦٤هـ). الوافي بالوفيات، ط ١، تحقيق أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠: ٢٠٠ .٥٣/٢.

(٥) الزُّوْزَنِي: لم يسعف البحث عنه في التعرّف عليه.

(٦) هو أبو عبد الله الصاغاني، انظر، ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله، (ت ٥٤٣هـ). أحكام القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٨٧: ١٠٧/١.

(٧) هو أبو سعيد الزنجاني. انظر، المصدر نفسه: ٢/١٤٤.

(٨) لم يسعف البحث عنه في التعرّف عليه.

بهم، كما تحدّث عن طريقة التّعلّيم فيها، وحضوره مجالس الفقهاء فيها، حيث يأخذون في تفسير القرآن والأحاديث النبوية الشّرّيفـة^(١). وتحدّث أيضًا عن المحارس المشيدة لتعليم الطّبـ، التي يفد إليها الطلبة من جميع الأرجاء، فيجدون المأوى والمأكل والحمام والممارستان، إلى جانب الـدرّاسـة^(٢).

إنّ ما شاهده ابن جبـير من ازدهار وتقـدم في مختلف العلوم والمعارف في بلاد المـشـرقـ، جعلـه يدعـو المـغارـبةـ إلى طـلبـ الـعـلـمـ في بلـادـ الشـامـ: "فـمـنـ شـاءـ الفـلاحـ .. فـلـيـرـحـلـ إلىـ هـذـهـ الـبـلـادـ وـيـتـغـرـبـ فيـ طـلـبـ الـعـلـمـ، فـيـجـدـ الـأـمـورـ الـمـعـيـنـاتـ كـثـيرـةـ، فـأـوـلـهـاـ فـرـاغـ الـبـالـ منـ أـمـرـ الـمـعـيـشـةـ، وـهـوـ أـكـبـرـ الـأـعـوـانـ وـأـهـمـهـاـ، فـإـذـاـ كـانـتـ الـهـمـةـ، وـقـدـ وـجـدـ السـبـيلـ إـلـىـ الـاجـتـهـادـ .. فـهـذـاـ الـمـشـرقـ بـابـهـ مـفـتوـحـ لـذـلـكـ فـادـخـلـ أـيـهـاـ الـمـجـتـهـدـ بـسـلامـ"^(٣).

ويتوقف ابن بـطـوطـةـ عندـ الجـانـبـ الشـرـقـيـ منـ بـغـدـادـ؛ ليـذـكـرـ مـدـرـسـيـهـ، النـظـامـيـةـ وـالـمـسـتـنـصـرـيـةـ، وـيـعـطـيـ صـورـةـ عنـ الـمـدـرـسـةـ الـمـسـتـنـصـرـيـةـ، وـيـوزـعـ فـقـهـائـهـاـ فيـ مـجـالـسـهـمـ وـفقـ المـذاـهـبـ الـتـيـ يـدـرـسـونـهـاـ، وـيـذـكـرـ أـيـضـاـ وـجـودـ حـمـامـ لـلـطـلـبـةـ دـاخـلـ هـذـهـ الـمـدـرـسـةـ وـدارـ الـلـوـضـوـءـ"^(٤).

وهـكـذـاـ، فـإـنـ الـمـدـارـسـ النـظـامـيـةـ، بـدـأـ اـنـشـاؤـهـاـ فيـ الـقـرـنـ الـخـامـسـ الـهـجـرـيـ، حـيـثـ تـلـقـىـ الـطـلـابـ الـعـلـمـ فـيـهـاـ، عـلـىـ أـيـديـ عـلـمـاءـ كـبـارـ^(٥).

أـمـاـ عنـ اـهـتـمـامـ أـهـلـ الـبـلـادـ وـالـحـكـامـ وـالـأـمـرـاءـ بـالـمـدـارـسـ وـالـرـوـاـيـاـ الـتـيـ كـانـتـ تمـثـلـ لـهـمـ دورـ ضـيـافـةـ يـجـدـونـ فـيـهـاـ رـاحـتـهـمـ بـعـدـ العـنـاءـ، بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ تـلـقـيـهـمـ الـعـلـمـ، فـيـقـولـ التـجـيـبـيـ فيـ اـهـتـمـامـ أـهـلـ الـقـاـهـرـةـ بـالـمـدـارـسـ: "وـلـأـهـلـ هـذـهـ الـبـلـادـ فـيـ الـاعـتـنـاءـ وـالـأـوقـافـ عـلـىـ وـجـوهـ الـبـرـ"

(١) انظر، رحلة ابن جـبـيرـ، ص ٢٠٥، ١٩٥٠.

(٢) انظر، المـصـدرـ نـفـسـهـ، ص ١٥.

(٣) انظر، رحلة ابن جـبـيرـ، ص ٢٥٨.

(٤) انظر، رحلة ابن بـطـوطـةـ، ٢٠٠/١.

(٥) انظر، ابن الأثيرـ، أبوـالـحسـنـ عـلـيـ بنـ أـيـ الـكـرـمـ الشـيـبـيـ، (تـ ٦٣٠ـهــ). الـكـاملـ فـيـ الـتـارـيخـ، طـ ١ـ، رـاجـعـهـ محمدـيـوسـفـ الدـقـاقـ، دـارـ الـكـتبـ الـعـلـمـيـةـ، بـيـرـوـتـ، لـبـانـ، ١٩٨٧ـ، ٤٤٩ـ/٨ـ.

عادة جميلة، وشرف دائم، وفخر مستمر.. وأمر هذه المدارس والخانقates للصوفية، وروضات الأكابر في ازدياد..^(١) ويدرك في حديثة عن مدينة قوص المحروسة أنَّ "فيها مدارس عليها أوقاف جمة، يرتق منها طلاب العلم".^(٢)

ويصف ابن بطوطة النهضة العلمية بمصر، فيقول: "وأمّا المدارس بمصر.. فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها"^(٣) و "الأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزّوايا .."^(٤) . ولم تكن النهضة العلمية مقصورة على مدينة القاهرة، بل تعمّدّها إلى مدينة الإسكندرية^(٥)، وببلاد الشام^(٦)، ويدرك جامع دمشق وحلقات التدريس فيه وتجويد الخطوط، فيقول: "وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كلُّ واحد منهم إلى سارية ... من سواري المسجد، يلقن الصبيان ويقرئهم، وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً لكتاب الله تعالى ... ومعلم الخط غير معلم القرآن، يعلّمهم بكتب الأشعار وسواعها، فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب، وبذلك جاد خطه، لأنَّ المعلم للخط لا يعلم غيره".^(٧)

ويذكر التجاني مدارس طرابلس -الليبية-، فيقول: "وبداخل البلد مدارس كثيرة وأحسنتها المدرسة المنتصرية التي كان بناؤها على يد الفقيه أبي محمد عبد الحميد بن أبي البركات ابن أبي الدنيا"^(٨) ... وهذه المدرسة من أحسن المدارس وصفاً وأظرفها صنعاً.^(٩).

(١) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٥٠٤، وانظر أيضاً في اهتمام السلاطين بإنشاء المدارس، ابن الحاج التميري، فيض العباب، ص ٤٣-٤٠.

(٢) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ١٧٣.

(٣) رحلة ابن بطوطة: ٣٩/١.

(٤) الم المصدر نفسه: ٤٠/١.

(٥) الم المصدر نفسه: ٢٨-٢٧/١.

(٦) الم المصدر نفسه: ٨٥-٨٣/١.

(٧) رحلة ابن بطوطة: ٨٧/١. وانظر، رحلة ابن جبير، ص ٢٥٥.

(٨) انظر ترجمته، ابن رشيد، ملء العيبة: ٤٠٣/٢-٤٠٧.

(٩) رحلة التجاني، ص ٢٥١-٢٥٢.

أما لسان الدين بن الخطيب، فيصف في أثناء عودته إلى مدينة سلا على ساحل المحيط الأطلسي، المدن التي مرّ بها: مثل مراكش وأسفي، ودّكالة، ويذكر ما فيها من مساجد ومدارس وعلماء وشيوخ كان قد اتصل بهم أثناء رحلته في تلك البلاد^(١). ويقول في مدرسة بناها السلطان أبو الحجاج يوسف بن نصر^(٢) لتكون مركزاً مركزاً للعلم وتجذب إليها الطلاب:

وتبقى عهود المجد ثابتة الرسم
ألا هكذا تُبني المدارس للعلم

فيا ظاعناً للعلم يطلب رحلة
كُفيت اعتراف البيدِ أو لحج اليمِ

بيامي حُطَّ الرّحْلَ لا تنوِ وجهةً
فقد فرت في حالِ الإقامة بالغُنمِ

وقد توّلى بعض الرّحالات التّدرّيس في تلك المساجد والمدارس التي ذكروها في رحلاتهم، فابن خلدون مثلاً، كان قد درّس في المدرسة القمحيّة^(٤)، بجوار جامع عمرو بن العاص، وهي أجمل مدارس الفقهاء المالكيّة بديار مصر^(٥).

أما القلصادي، فيذكر المدارس ومختلف أنواع العلوم، والشيوخ الذين نهل منهم العلم والمعرفة، ويقول واصفاً زيارته لتونس: "وبلغنا مرسى تونس، ودخلنا المدينة، وسكنت بالمدينة الجديدة ... ثم انتقلت إلى المدرسة المنصريّة، فأقمت بها أيضاً.. و كنت

(١) انظر، ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص ١٢٠، ١٢٢، ١٣٢ وما بعدها.

(٢) المقري، نفح الطيب: ٤٨٢/٦.

(٣) انظر ترجمتها، المتصدر نفسه: ٣٢٤-٣٢٦/٤.

(٤) المدرسة القمحيّة: كان موقعها بجوار الجامع العتيق (جامع عمرو) بمصر وكان موضعها يعرف بدار الغزل وهو قيسارية، كان يباع فيها الغزل، فهدمها صلاح الدين وأنشأ موضعها مدرسة للفقهاء المالكيّة ورتب فيها مدرّسين، وجعل لها أوقافاً كانت منها ضيحة بالفيوم تغلّق مهاماً، وكان مدرّسوها يتلقّاسموه، ولذلك سارت لا تعرف إلا بمدرسة القمحيّة. انظر، رحلة ابن خلدون "التعريف"، ص ٢٩٠، ١٣٤٠.

(٥) انظر، ابن خلدون، التعريف، ص ٢٩١-٢٩٠.

في أثناء ذلك أخذ في القراءة والإقراء، وسوق العلم نافقة حينئذ، وينابيع العلوم على اختلافها مقدمة، فلا عليك أن ترى مدرسة أو مسجداً إلا والعلم فيه يُبَثُّ وينشر^(١).

وكانت القصور والرياض، والبساتين، والدكاكين، تمثل مراكز تعليمية يجري فيها تعاطي الثقافة والفكر، وقد احتوت بعض الرحلات إشارات، وأحاديث، وحوارات، ومناظرات للعلماء والفقهاء والأدباء والشعراء في مجالس الحكام والأمراء. وكان بعض هؤلاء الحكام من ذوي المعرفة والثقافة، فالرّحالة ابن الحاج أبرز شخصية أبي عنان بكثير من الصفات الفكرية، وقدّم صورة لمجالسه العلمية والأدبية التي كانت تضم أبرز الشخصيات الثقافية من الشعراء والأدباء، والعلماء والفقهاء، وأشهر الكتاب ومنهم: الكاتب محمد بن جُزي الكلبي، مدون رحلة ابن بطوطة، والعلامة المؤرخ ابن خلدون^(٢).

وذكر ابن الحاج أنّ أبي عنان أمر ببناء مدرسة عظيمة قرب شالة، وإعطاء الكساء الرفيع والملابس الفخمة البديعة للطلاب^(٣).

أما الرياض والبساتين، فقد أشار الرّحالة ابن رشيد إلى نزهة جمعت جمعاً من فضلاء الأدباء والبلغاء في بعض بساتين تونس البديعة، إذ يقول: "وكان بين أيدينا خمسة بديعة تفور بآملاء وتثير بحسنها أفكار الآباء. فبدرت فقلت للفقيه السري أبي محمد بن مبارك^(٤): أجز يا أبي محمد:

وفايرة سلّت من آملاء مرهفاً
وما عرضته، بل أقامت ذبابه

فأجاز وزاد وقال فأجاد:

رأت زَرَداً حاكته أيدي الصّبا لها
فأهوت بذاك النّصل تبغي ضِرابه^(٥)

(١) رحلة القلمصادي، ص ١١٢، وذكر مدارس أخرى أقام فيها، انظر، ص: ١٢٤-١٢٥.

(٢) انظر، ابن الحاج التميري، فيض العباب، المقدمة، ص ٩٦.

(٣) انظر، المصدر نفسه، ص ٤٠-٤١.

(٤) انظر ترجمته، ابن رشيد، ملء العيبة: ٢٣٨٥-٢٤٠.

(٥) المصدر نفسه: ٢٤٢-٣٨٥.

وقد تدور بعض الحلقات الأدبية والعلمية في الدّكاكين^(١)، فما أن يحطّ الرّحالة في بلد ما حتى يسأرّعوا في التّعرّف على العلماء والأدباء والشّعراً والالتقاء بهم والسماع عنهم، وذكر ابن رشيد أَنَّه سمع بأبي عبد الله بن أبي تميم الحميريّ^(٢)، وأَنَّه برع في الأدب وأحكّم لسان العرب وله المقطّعات والقصائد، فأخذ يسأل عنه ليسمع منه شيئاً، يقول ابن رشيد: "فأخبرنا أَنَّه قد يوجد في بعض ساعاتِه في دّكان من دكاكين المسجد الجامع أو في ساحة من ساحاته"^(٣).

ويورد ابن رشيد من قول ابن أبي تميم الحميريّ يصف جارية مملوكة له سوداء جميلة حسناء تدعى العنبر:

لليليّة، لولا تبسم ثغرها
ماشُك في فضل الظّلام على الصّبح

معنبرةٍ في اللون والاسم والشّذا
غزاليّةٍ في اللحظ والجيد والكشح

أحبُّ مسائي لا ضحايا لأجلها
وأمسي مشوقاً في هواها كما أضحي

تملّكتها رقاً وتميلندي هوى
ولكن مملوك الهوى فاز بالربح^(٤)

ولا يقتصر الأمر عند هذا الحدّ، فقد كشفت الرّحلات عن بعض ممارسات أولي الأمر، والعلماء في أوقات فراغهم في مجالسهم، إذ لم تكن تخloo من صنوف اللهو والمتعة والرياضة الذهنية كالشطرنج مثلاً، ويصف ابن العربي ذلك أثناء حديثه عن محنتهم في السّواحل المصرية، ووصولهم إلى بيوتبني كعب بن سليم وعطاف أميرهم على ابن العربي وصحابه، ومن قوله: "عطاف أميرهم علينا فأؤينا إليه فآواانا، وأطعمنا الله على يديه... وشرحه أنا ملّا وقفنا على بابه ألفيناه وهو يدير بأعواد الشّاه، فعل السّامد اللاه، فدنوت منه في تلك الأطمار وسمح لي بياذقته، إذ كنت من الصغر في حدّ يسمح فيه

(١) وهي الحوانيت، فارسي، مغرب، انظر، ابن منظور، لسان العرب: ١٥٧/١٣.

(٢) انظر ترجمته، ابن رشيد، ملء العيبة: ٣٧٧/٢ - ٣٨٤.

(٣) ابن رشيد، ملء العيبة: ٣٧٨/٢.

(٤) المصدر نفسه: ٣٧٨/٢، ٣٧٩، ٣٨٤.

للأغمار، ووقفت بإزائهم أنظر إلى تصرفهم من ورائهم، إذ كان علق بمنفسي- بعض ذلك من بعض القرابة في مجلس البطالة مع غلبة الصّبوة والجهالة فقلت للبياذقة: الأمير أعلم من صاحبه، فلمحوني شُرْزاً، وعُظِّمْتُ في عيونهم بعد أن كنت نَزَاراً، وتقديمّ إلى الأمير مَنْ نقل إليه الكلام، فاستدناي، فدنوت منه فسألني: هل لي بما هم فيه بصر؟ فقلت: لي فيه بعض نظر، سبِّدو لِكَ ويظهر، حَرَّكَ تِيكَ القطعة، ففعل، وعارضه صاحبه، فأمرتهُ أن يُحرِّكَ أخرى، وما زالت الحركات بينهم كذلك تترى حتى هزمه الأمير، وانقطع التدبير. فقالوا: ما أنت بصغرٍ ...^(١).

وأشار بعض الرّحّالة إلى ضعف العلم في بعض المدن التي قصدها، وقد وصف العبدري مدينة بجاية، فقال: "وقد غاض بحر العلم الذي كان به ... وعفا رسمه حتى صار طللاً...^(٢)". ولعل مثل هذا الضعف، قد يكون انعكاساً عن ضعف عام في تلك المدن.

ومن جانب آخر، فالعبدري يثور ثورة عارمة، حيث مكث في القاهرة في بيت من بيوت مدارس الطلبة، كأنه طالب من الطّلاب، لا عالم من العلماء يستحق الإكرام وحسن الضيافة والاهتمام^(٣). ولعل ذلك يعود لما عُرف عن شخصية العبدري الحادة.

إنّ ما تحدّث به الرّحّالة الأندلسيون والمغاربة في كتبهم، عن المساجد والخوانق والزوّايا والعلماء والفقهاء، والشّعراء والأدباء، ومجالس الحكّام والأمراء، يشير إلى نشاط ثقافي علمي فكريّ حضاري واكبته الرّحلات حتى نهاية القرن التاسع الهجري، اقتصر في بداياته على بعض المعارف الدينية والثقافية، ثم أخذ يشهد نهضة ثقافية واسعة في مختلف العلوم والمعارف، بل إن الرّحلات كانت من أهم روافد تلك النهضة الثقافية والحضارية، لتصبح بعد ذلك ظاهرة ثقافية، ونسقاً معرفياً يكشف الرؤى الحضارية التي اختزنها المجتمعات.

(١) ابن العربي، قانون التأويل، ص ٨٦-٨٧.

(٢) العبدري، الرحلة المغاربية، ص ٢٧، وانظر المصدر نفسه، ص ٧٥.

(٣) انظر، العبدري، الرحلة المغاربية، ١٢٧-١٢٨.

أما دور الكتب، فقد كان لها دور بارز في تنشيط الحركة العلمية، وانتقال الرّحالة من بلد إلى آخر، وقامت المكتبات في المشرق بدور كبير في استقطاب طلاب العلم، حيث كان في كُل مسجد من المساجد الكبيرة مكتبة ملحقة به. وقلما تجد من علماء الأندلس ولعلماء المغرب المشهورين، من لم يرحل إلى المشرق لتحصيل العلم، حيث انتشرت العواصم العلمية في المشرق الإسلامي، كدمشق، وبغداد، والقاهرة، والإسكندرية التي كانت تضم جلة العلماء والفقهاء، الذين برع كُل واحد منهم في علم من العلوم الإنسانية. وكان للشّريف الرّضي محمد بن الحسين الموسوي (ت. ٤٠٦هـ/١٠١٤م)، دار للعلم في بغداد ممتلئة بالكتب ومفتوحة للطلبة الذين كان يخصّص صاحبها لهم الجرایات^(١). ولهذا كان طلاب العلم يقصدون مثل هذه المكتبات من كُل بلد، لما يخصّص لهم من جرایات، وتتوفر أسباب الرّاحة والضيافة.

وقد ساهمت الرّحلة مساهمة كبيرة في انتشار الكتب، وجلبها من المشرق إلى الأندلس والمغرب، حتى أصبحت قرطبة "أكثر بلاد الأندلس كتاباً"^(٢) وأنّ أهلها "أشدّ الناس اعتناء بخزائن الكتب، وصار ذلك عندهم من آلات التعين والرّياضة، حتى إنّ الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة، يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب.."^(٣). ولذلك "بدأ الاهتمام بتأسيس المكتبات وخزائن الكتب في القصور والبيوت عدا المكتبات العامة، وقد ساعد اعتناء الأمراء والخلفاء الأمويين بالكتب على نشاط سوقها في الأندلس..."^(٤).

(١) انظر، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٢٤٢/١، وابن خلكان، وفيات الأعيان، ٤٢٠-٤١٤/٢، والزركي، الأعلام: ١٦٢/٣.

(٢) المقرفي، نفح الطيب: ٤٦٢/١.

(٣) المصدر نفسه، ٤٦٢/١، وانظر أيضاً في اعتناء أهل قرطبة بالكتب ورواجها في بلادهم، المصدر نفسه: ١٠٥/١.

(٤) ابن سعيد المغربي، المغرب: ٤٥/١.

وتوّكّد المصادر اهتمام السلاطين والحكّام -في تلك العصور- بالعلم والمعرفة، وجمع الكتب والعناية بالمكتبات، فالسلطان أبو عنان كان قد زوّد مدينة فاس بأكبر خزانة للمطالعة عرفتها العاصمة العلميّة في عصر-بني يزيد، خزانة الكتب وخزانة المصاحف. وجمع فيها أكبر عدد ممكّن من الكتب المحتوية على أنواع من علوم الأديان والأبدان والأذهان واللسان، وغير ذلك من العلوم على اختلافها وشّتى ضروبها وأجناسها، وعِينَ قِيمًا لضبطها ومناولة ما فيها^(١).

أمّا المراكز الدينية، فإنّ توافر الكتب الالازمة للتعلّيم ساعد على بروزها كمراكز علميّة هامة، فقد شاهد العديد^(٢) من الرّحالة في المسجد الحرام خزائن كبيرة للكتب، وكانت هذه الكتب خاصة بكلّ عالم يتولّ التّدرّيس في المسجد الحرام. وذكر التّجبيّي أنّ بعض الفقهاء وعلماء الحديث كتبًا كبيرة. وأظهرت كتب الرّحلات حرص علماء كلّ مذهب على تأمين الكتب للدارسين، وإيقافها عليهم داخل المسجد الحرام، وأشار ابن جبير إلى خزانة للكتب تتبع الإمام المالكيّ موقوفة على أهل مذهبه^(٣). وفي حديثه عن المسجد الحرام، وأبواب الحرم الشّريف، يذكر باب إبراهيم عليه السلام، وأنّه في زاوية كبيرة متّسعة فيها غرفة هي خزانة للكتب المحبّسة على المالكيّة في الحرم^(٤).

ومن جانب آخر، فإنّ المدينة المنورّة، تأتي مرکزاً ثانياً من المراكز العلميّة، إذ لم تستطع استيعاب كافة المذاهب دون التّحيّز لأحدّها على الآخر. فلم يكن بالإمكان الجّهُر بقراءة كتب السنّة بالمسجد النّبويّ، ولعلّ هذا يعود إلى اضطهاد السنّة، وهذا يعكس

(١) انظر، الجزائري، علي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٧، ص ٧٦، وابن الحاج النميري، فيض العباب، ص ٦٢، ومقدمة المحقق، ص ٩٧.

(٢) انظر، ابن جبير، ص ٨٠، ٨٣، والتّجبيّي، مستفاد الرّحلة، ص ٣٠٦، ٣٧٦، والبلوي، تاج المفرق: ٣٠٦/١.

(٣) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٨٣.

(٤) انظر، المصدر نفسه، ص ٨٣.

الصورة التي كان عليها المسجد الحرام^(١). وأشار ابن جبير إلى أنَّ المسجد النبوى، كان يضم مكتبة كبيرة احتوت خزانتين كبيرتين من الكتب، وبعض المصاحف الموقوفة على المسجد^(٢).

وتجدر الإشارة بأنَّ الحجاج والزُّوار إلى مكَّة المكرَّمة والمدينة المنورَة قد ساهموا في نشر العلم، ونقل الكتب أثناء تجوالهم، حيث كانوا يتدارسون ويتلقّون العلم في الدِّيار الحجازيَّة^(٣).

ووصف العبدري^(٤)، وابن رشيد^(٥) كثيراً من المكتبات ودور الكتب، وأشار التجيبي إلى العديد من المكتبات، ففي ترجمته للنُّور اليماني، يقول: "وهو متولي خزانة الكتب بدار الحديث الكاملية من القاهرة المعزية"^(٦).

أما المكتبات الخاصة، فقد توافرت لدى بعض العلماء والفقهاء والأدباء. ففي ترجمة ابن رشيد للأشعري^(٧) إشارة إلى وجود مكتبة في بيت الأشعري "وكان له بيت في مسجد ليكِّر فيه، وفيه كتبه ...". ولعل اهتمام الرَّحالة بالكتب في كل صنف، وفي كل فن، فيه إشارة إلى امتلاك بعضهم مكتبات ضخمة، ويرى محقق رحلة التجانِي أنَّه لا شك في

(١) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١٧٩، ٧٨، ٢٩٦ - ٢٩٧، والتجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٣٠٦ / ١، وابن رشيد، ملء العيبة: ٥ / ٦٩.

(٢) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١٧١.

(٣) انظر، ابن رشيد، ملء العيبة: ٥ / ٥.

(٤) انظر، العبدري، الرحلة المغربية، ص ٢٤١، ٢٤٥.

(٥) انظر، ابن رشيد، ملء العيبة: ٥ / ٥.

(٦) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ١٣٨.

(٧) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ميمون الأشعري الماليقي، انظر ترجمته، ابن رشيد، ملء العيبة: ٤٠٩ / ٢ - ٤١٣.

(٨) ابن رشيد، ملء العيبة، ٤١٠ / ٢.

أن التجانِي الرحالَة، كان يمتلك مكتبة ضخمة من مختار المصنفات فقد كان لديه كثير من الكتب، ومنها نسخة كاملة من "سيرة الرسول"، لابن إسحاق، وكان ينقل عنها مباشرة^(١).

وممّا سبق يتبيّن أن انتشار المؤسّسات التعليميّة ودور الكتب، وتعدد أنواع العلوم، في المشرق الإسلامي، كانت من دوافع رحلات الأندلسيّين والمغاربة صوب المشرق؛ للاتصال ببار العلماء والأخذ عنهم، الأمر الذي أسهم في تأسيس المكتبة الأندلسية والمغاربيّة، بما أدخله الوافدون إلى الأندلس والمغرب، والنازحون عنها من كتب كثيرة^(٢).

ثانياً: اللغة والأدب

نقلت الرحلات صوراً حيّة ناطقة بما في البلاد التي قصدها الرحالَة، من نشاط ثقافيٍ ومعرفيٍ، وحفظت ملامح من الثقافة في مختلف الموضوعات وجوانبها الفكرية في الأندلس والمغرب وببلاد الشرق أيضاً، وكانت وثيقة فريدة بما تعويه من معلومات متنوّعة عن شخصيّة الرحالَة وجوانبها المعرفية المتعدّدة، وثقافاتهم المتنوعة، وما عكسه الرحلات من مواضيع ثرية وشعرية. ونقديّة ولغوية مختلفة، وما رصده من مناقشات ومناظرات كانت مصدراً هاماً للكثير من الأدباء والنقاد واللغويين.

حيث علق ابن بطوطة على كلام بعض أهل المدن العربيّة، بأنه ليس بالفصيح، فعند وصوله إلى مدينة "قلهات"^(٣) يصف كلام أهلها، فيقول: "وكلامهم ليس بالفصيح مع أنّهم عرب، وكلّ كلمة يتكلّمون بها يصلونها بـ "لا" فيقولون: تأكل لا، تمشي لا، تفعل كذا لا..."^(٤).

(١) انظر، رحلة التجانِي، المقدمة، ص كج، كط، ص ٢٠٨.

(٢) انظر في هذا ، معروف، ناجي (١٩٧٣)، علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي، ط١، بغداد: مطبعة الإرشاد، ص ١٩-٤٠.

(٣) قلهات: مدينة بعمان على ساحل البحر. انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٣٩٣/٤.

(٤) رحلة ابن بطوطة: ٢٤٣/١.

وقد أنكر بعض الرّحّالة كثرة اللّحن عند بعض الخطباء فابن بطوطة أنكر على خطيب الجمعة في البصرة كثرة لحنـه - وقد عرفت البصرة بكتار النّحـة واللغويـن - وشكـا ذلك إلى القاضـي فاعتذر عنه بعدم وجود علمـاء في النـحو .. وذلـك ما يدعـو إلى التـفكـر والتـدبرـ، فسبـحان مغيـر الأشيـاء، ومقـلب الأمـور^(١) ، وللـرـحـالة تعليـقات حول أصل عدد من الأعلامـ، فقد أورد ابن بطوطـة أثـنـاء حديثـه عن السـلطـان التـتـري - حـاكمـ العـراـقــ الذي أسلمـ (محمدـ خـذاـ بنـهـ) تعليـقاً عن الاختـلافـ في ضـبـطـ اسـمهـ وـ (خـذاـ) بالـفارـسيـةـ اسـمـ اللـهـ عـزـ وجـلـ (بنـهـ) غـلامـ أوـ عـبدـ أوـ ماـ فيـ معـناـهـماـ، وـقـيلـ (خـرـ بنـهـ) وـ (خرـ) بالـفارـسيـةـ الحـمارـ وـمعـناـهـ يـكونـ غـلامـ الحـمارـ وـقـيلـ... ويـسـتـرـدـ ابنـ بطـوطـةـ فيـ ذـكـرـ هـذـهـ الـآـراءـ فيـ أـصـلـ اـسـمـ وـأـصـلـ اـسـمـ أـخـيهـ (قـازـغانـ) وـهـوـ الـقـدرـ، لـأـنـهـ وـلـدـ، مـاـ دـخـلتـ الـجـارـيةـ وـمـعـهاـ الـقـدـرـ^(٢).

وـحرـصـ بـعـضـ الرـحـالـةـ عـلـىـ التـعـارـيفـ الـلـغـوـيـةـ لـأـسـمـاءـ بـعـضـ الـمـدـنـ الـتـيـ مـرـواـ عـلـيـهـاـ، وـالـضـبـطـ الـدـقـيقـ لـبـعـضـ الـأـسـمـاءـ وـالـتـسـمـيـاتـ وـمـنـ ذـلـكـ ماـ قـالـهـ التـجـانـيـ: "ونـزلـنـاـ بـبـئـرـ يـنـوتـ بـضـمـ الـيـاءـ الـمـعـتـلـةـ وـبـالـنـوـنـ وـبـالـتـاءـ الصـحـيـحةـ المـشـتـأـةـ .."^(٣) وـيـقـولـ أـيـضاًـ: "فنـزلـنـاـ بـالـعـيـنـ الـمـعـرـوـفـ بـعـيـنـ وـدـرـسـ -ـ بـكـسـرــ الـوـاـوـ وـسـكـونـ الدـالـ الـمـهـمـلـةـ وـكـسـرــ الـرـاءـ"^(٤)ـ . وـفـيـ تـعـرـيـفـهـ لـلـبـاقـلـ يـقـولـ: "اسـمـ لـكـلـ مـوـضـعـ أـبـنـتـ الـبـقـلـ، وـالـبـقـلـ كـلـ نـبـاتـ تـخـضـرـ مـنـهـ الـأـرـضـ لـيـسـ لـهـ أـرـوـقـةـ"^(٥)ـ . وـمـنـ الـطـرـائـفـ الـأـدـبـيـةـ ذـاتـ الـصـلـةـ بـالـشـعـرـ، مـاـ ذـكـرـهـ اـبـنـ الـعـرـبـيـ، حـينـ هـاجـ الـبـحـرـ عـلـيـهـمـ وـوـصـلـ هـوـ وـمـنـ مـعـهـ بـيـوـتـ بـنـيـ كـعـبـ بـنـ سـلـيـمـ، وـعـطـفـ عـلـيـهـمـ أـمـيرـهـمـ، سـمـعـ اـبـنـ عـمـ الـأـمـيـرـ يـتـرـنـ منـشـداًـ:

(١) انـظـرـ، المـصـدرـ نـفـسـهـ: ١٧٠/١.

(٢) انـظـرـ، المـصـدرـ نـفـسـهـ: ٢٠٢/١.

(٣) رـحـلةـ التـجـانـيـ، صـ ٣١٧ـ.

(٤) المـصـدرـ نـفـسـهـ، صـ ٣١٦ـ.

(٥) المـصـدرـ نـفـسـهـ، صـ ٣٢ـ، وـانـظـرـ فيـ مـثـلـ هـذـهـ الـقـصـاـيـدـ الـلـغـوـيـةـ رـحـلةـ التـجـيـبيـ، مـسـتـفـادـ رـحـلةـ، صـ ٢٣٠ـ.

ـ، وـرـحـلةـ اـبـنـ بـطـوطـةـ: ١/١ـ، ٢٥ـ، ١٣٢ـ، ١٣٣ـ، وـمـوـاطـنـ مـتـفـرـقـةـ مـنـ رـحـلةـ، ٢٣٢ـ

وفي الْهَجْرِ، فَهُوَ الدَّهْرَ يَرْجُو وَيَتَّقَى

وَأَحَلَّ الْهَوَى مَا شَكَّ فِي الْوَصْلِ رَبُّهُ

فقال: لعن الله أبا الطيب أو يشُكُّ ربُّ؟

فقال له ابن العربي في الحال: ليس كما ظن صاحبك أيها الأمين، إنما أراد بالرب هنا الصّاحب، يقول: أذن الهوى ما كان العاشق فيه من الوصال، وبلغة الآمال، على ريب فهو في وقته كلّه بين رجاءٍ لما يؤمّله، ونّقاً ما يقطع به، كما قال:

إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضي
فأين حلاوات الرسائل والكتب^(١)

ويظهر هذا الموقف نبوغ ابن العربي في الأدب وفن الكلام.

وزوّد العبدري المجال الأدبي واللغوي بما لديه من خبرة فيهما، ومن ذلك ما ذكره أنّ أهل اللغة يقولون عن الغنج، "والغنج أئنه الدلّ وحسن الشكل"^(٢)، وذلك غير ملائم مع ما جاء به ابن الفكتون، حسن بن علي بن عمر القسطيوني^(٣)، عند قوله: لقد رمت العيون سهام غنج. ومن ذلك انعدام التلاؤم في الترتيب الذي جاء به في قوله:

بدور بل شموس بل صباح
بهي في بهي في بهي

وعلق العبدري على هذا البيت بقوله: "نزول مفترط وعكس للرتبة، فإن الشّمس أشهر من الصّباح وأنور، والانتقال من التشبيه بالأعلى على الأدنى أشبه بالذم منه بال مدح لا سيما مع الأضراب، وقوله: بهي في بهي غير منطبق على صدر البيت ولا ملائم له ولو قال: بدور في خدور في قصور، ل جاء عليه عجز البيت أليق من العقد بجيد الحسنة وأوفق من الجود للروضة الغناء"^(٤).

ومن الآراء النقدية التي أبدتها العبدري تعليقاً منه على قول الشاعر:

(١) انظر، ابن العربي، قانون التأويل، ص ٨٨-٨٧.

(٢) العبدري، الرحلة المغاربية، ص ٢٥.

(٣) انظر، ترجمته، المقربي، نفح الطيب، ٤٨٣/٢.

(٤) العبدري، الرحلة المغاربية، ص ٣٦.

فلي قلب بأرض الشرق عان

فهذا بالغدو يهيم غرباً

وذاك يهيم شرقاً بالعشبي

وجسم حلّ بالغرب القصبي

قال: "هذا كلام غير محصل، فإنَّ الجسم العربي من القلب لا يهيم وإنما يهيم القلب، وليس الباء هنا ظرفية، بمعنى في، لأنَّ الهيمان لا يتخيّر الأوقات، وما أضعف حبًا لا يهيم إلا مرّة في اليوم، وإنما هي للإلاصاق، أي هذا يشتق في وقت الغروب إلى الغدو وذاك في وقت الشروق إلى العشي شوقاً من هذا إلى الشرق، ومن ذلك إلى الغرب وهو معنى حسن لو ساعد له لفظه".^(١)

وتتجدر الإشارة، بأنَّ مثل هذه التعليقات لا يقصد بها الرّحالة التّقليل من شأن الأشخاص والانتقاد من قدرتهم الأدبية، وإنما هم في عملهم هذا يبحثون عن ظواهر الجمال في النّصوص الأدبية.

ومم تغفل كتب الرّحلات الحديثة عن اهتمام الحُكَّام والأمراء بالفقد والتحليل والمناقشة والاستدلال فيصف ابن الحاج نشاط السُّلطان أبي عنان العلمي وكفاءته، ومحاربته للتّقليل ونبذ الطُّرق القديمة المعتمدة على الحفظ فقط، ويصف أيضًا حضوره لكثير من المجالس العلمية وتوجيهه ملء يسأل الشيوخ والعلماء، ويدعوهم إلى التّحاور معهم ومناقشتهم، ويوصي الشّيوخ بعدم الاقتصار على الحفظ فقط ويدعوهم للمجادلة^(٢). وسجلت رحلة ابن الحاج ما امتاز به أبو عنان من ثقافة أدبية واسعة، ومن الإشارات الدالّة على ذلك أنه كثير ما ردّ أن مولاه مجید في نظم الشّعر والكتابة الفنية: "وكان مولانا بظاهر قسنطينة، تأخذ من ماله ومن أدبه، ونستضيء من العلوم بأنوار

(١) العبدري الرحلة المغربية، ص ٣٧.

(٢) انظر، ابن الحاج النميري، فيض العباب، مقدمة المحقق، ص ٩٧، والمقرري، أزهار الرياض: ٢٧/٣، والمتوسي، محمد (١٩٧١)، التّيارات الفكرية في المغرب المريني، فاس المغرب: مطبعة محمد الخامس، ص ٦-٧.

سهمه^(١). وقد أبرزت الرّحلة أيضاً اهتمام الأمير أبي عنان بالشّعر والشّعراً، وخلعه عليهم الخلع الكثيرة، وتقديمه لهم الهدايا الجزيلة^(٢).

وبهذا كانت رحلة "فيض العباب" محاولة من المحاولات التي قدمت صورة واضحة لثقافة المغرب وحضارته في عصر من العصور الظاهرة، عصر الدولة المرينية.

ونال الأدب وبخاصة الشّعر في كتب الرّحلات بعض العناية، فقد كان بعض الرّحالة شعراء، مثل العبدري، وبعضهم يقوله بشكل بسيط، قول العالم المتنفّن، مثل ابن بطوطة، وبعضهم يولع بالأدب والشعراء ولقاء الشعراء كما نجد عند التجاني. فالعلاقة بين الشّعر والرّحلات علاقة انسجام، فما يرتبط بالرحلات من ذكر للأماكن والأشخاص والأحداث والأوصاف يصبح موضوعاً للشّعر، حيث يصف الشّاعر كثيراً من أحداث رحلته، وتدفعه الرّحلة إلى التذّكّر والحنين، فلولا الرّحلة ما وصف الرّحالة مشاعرهم وأشواقهم وحنينهم ومظاهر الطّبيعة حولهم، والأخطار التي تواجههم بالإضافة إلى إمكانية الاستدلال بالرّحلة على تاريخ ما اتصل بأحداثها ووقائعها من شعر، وأغلبه ديني يصور زيارة الأماكن المقدّسة وأثارها الدينية، والحج وزيارة قبر الرّسول عليه السّلام، وبقيته شعر يصور الفتوحات وي مدح الحّكام وشعر يوعد فيه الرّحالة أهلهم وديارهم ويتشوّقون إليهم.

وأظهرت الرّحلات موهبة أصحابها الشّعرية، فهذا يحيى بن الحكم الغزال^(٣) استطاع بهذه الموهبة أن يسجل شرعاً، الأخطار التي واجهته في رحلته وعرضته لخطر الغرق في البحر، فزود التّراث الأدبي بأشعار ذات قيمة فنية عالية، ومن قوله:

قال لي يحيى وصراً
كالجبال بين موجٍ

وتولّتنا رياحٌ
من دبورٍ وشمالٍ

(١) ابن الحاج النميري، فيض العباب، ص ١٧٧.

(٢) انظر، المصدر نفسه، ص ٥٦، ٢٤٠-٢٤١، ومقدمة المحقق، ص ٩٨.

(٣) انظر ترجمته في هذه الدراسة، ص ٢٣، حاشية رقم ٣.

شَقِّتِ الْقَلْعَتِينِ وَابْنِ
تَثْ عُرْيِ تِلْكِ الْجَبَالِ

وَمَطْلُ مَكْ الْمَوْ
تِ إِلَيْنَا عَنْ حِيَالِ

فَرَأَيْنَا الْمَوْتَ رَأْيَ الْ
عَيْنِ حَالًا بَعْدَ حَالِ

مِنْ يَكْنُ لِلْقَوْمِ فِينَا
يَا رَفِيقِي رَأْسُ مَالِ^(١)

إِنَّ رَحْلَةَ ابْنِ الْحَكْمِ الْغَزَالِ عَرَفْتَنَا بِشَاعِرِ مَطْبُوعِ النَّظَمِ، وَاطَّلَعْنَا عَلَى تَنْوُعِ
مَوْضِعَاتِ شِعْرِهِ: الْحِكْمَ وَالْجَدُّ وَالْهَذْلُ وَالْغَزَلُ^(٢)؛ لَذَا فَإِنَّ ضِيَاعَ نَصِّ الرَّحْلَةِ الْأَصْلِيِّ
يَشْكُلُ خَسَارَةً كَبِيرَةً لِلأَدْبَرِ.

وَاسْتَطَاعَ ابْنُ جَبَرٍ بِهَذِهِ الْمَوْهَبَةِ أَنْ يَعْبُرَ عَنْ ذَاتِهِ وَخَوَاطِرِهِ وَمَشَاوِرِهِ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ:

فَهَيْجَ بِالْذِكْرِ أَشْجَانَهُ
غَرِيبٌ تَذَكَّرُ أُوطَانَهُ

يَحْلُّ عُرْيِ صِبَرَهُ بِالْأَسْيِ
وَيَعْقُدُ بِالنَّجْمِ أَجْفَانَهُ^(٣)

وَقَوْلُهُ مَعْبَرًا عَنْ شَوْقَهُ نَحْوَ جَارِيَةٍ لِهِ تَرْكَهَا بِغَرْنَاطَةِ:

لَا صَبَرُ وَاللَّهِ لِي عَلَيْهِ
طَوْلُ اغْتِرَابٍ وَتَرْبُحُ شَوْقٍ

يَا خَيْرَ مَنْ يُشْتَكِي إِلَيْهِ
إِلَيْكَ أَشْكُو الَّذِي أَلَقَى

وَلِي بِغَرْنَاطَةِ حَبِيبٌ
قَدْ غَلَقَ الرَّهْنَ فِي يَدِيهِ^(٤)

وَقَدْ كَانَ مَشْهُدُ الْوَدَاعِ وَالْحَنْنِ في مَوْضِعَاتِ الرَّحْلَةِ قَدْ زَادَ الْجَانِبُ الْمَعْرِفِيُّ فِيهَا،
إِذَا يَقُولُ ابْنُ رَشِيدٍ فِي تَرْجِمَتِهِ لِلأشْعَرِيِّ: "وَمَمَّا كَتَبَهُ لِي بِخَطْهِ مُودَعًا لِي وَلِرَفِيقِي..
وَغَالِبُ ظَنِّي أَنَّهُ أَنْشَدَهُ لَنَا عِنْدَ سَفَرِنَا:

(١) المقرئي، نفح الطيب: ٢٥٩-٢٦٠.

(٢) انظر، المتصدر نفسه: ٢٥٠-٢٦٢.

(٣) المصدر نفسه: ٣٨٤/٢.

(٤) المصدر نفسه: ٣٨٥/٢.



أَبْعُدُكُمَا يَصْاحِبِنِي الْفَوَاد	وَدَاعُكُمَا وَدَاعُ الْقَلْبِ مِنْيٍ
وَيَرْتَكِنِي بِرَقٍّ لِي الْجَمَاد	وَبِيَنْكُمَا يُبَيِّنُ الصَّبْرَ عَنِّي
وَبَعْدِ نَوَاكِمَا يَنْأِي الرِّقَاد	وَقَدْ كَانَ الرِّقَاد يَزُورُ طَرْفِي
فَدِيَتَكُمَا مَلْنَ يُشْكِي الْبَعَاد ^(١)	لَقَدْ حَارَ الْبَعَاد عَلَى الْمُضْنَى
وَقَدْ يَزِيدُ حَنِينُ الشَّاعِر إِلَى مَشَاهِدَةِ الْأَماْكِنِ الْمَقْدَسَةِ مِنْ شَوْقَهُ لَهَا فَيَنْظِمُهُ شِعْرًا، ثُمَّ تَتَوَقَّفُ نَفْسُهُ إِلَى الْعُودَةِ إِلَى وَطْنِهِ، وَهُنَا تَجْتَمِعُ مَشَاعِرُ الْلَّقَاءِ وَالْوَدَاعِ فِي آنِ مَعَّاً. وَمِنْ ذَلِكَ مَا أَنْشَدَهُ الْبَلْوَى لِنَفْسِهِ مِنْ مَقْطُوعَاتِ شِعْرِيَّةٍ، تَمْثِيلٌ مَشَهُداً مِنْ مَشَاهِدِ الْوَدَاعِ لِلْأَماْكِنِ الْمَقْدَسَةِ وَمَعَالِمِهَا إِذَا يَقُولُ عَنْدَ خَرْجَهِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدَسِ وَاصْفَافاً مَشَاعِرَهُ التَّفَسِيَّةَ: "فَبَنَتْ عَنْهُ مَرْتَحَلَّاً، وَفِيهِ أَنْشَأَتْ عَاجِلًاً، وَأَنْشَدَتْ مَرْتَجَلًاً:	
وَفِيكَ فَوَادٌ أَنْتَ يَا حَرَمَ الْفَدْسِ	خَلِيلِيٌّ فِي رَبِيعِ الْخَلِيلِ مُنْيٌّ نَفْسِي
وَأَلْمَعَ مِنْ هَذَا سَانَا الْبَدْرَ وَالشَّمْسِ	أَحْمَنُ إِلَى تَلْقَاءِ هَذَا صَبَابَةً
إِلَيْهَا عَلَى الْعَيْنَيْنِ وَالْخَدَّ وَالرَّأْسِ	مَوَاطِنُ لَوْ أَنْصَفْتُهَا جَنْثُ زَائِرًا
مَا رَحَلْتُ مِنْ دُونِهَا أَبْدًا عَنِّي	وَلَوْ أَنْتِي أَعْطَى مَرَادِيَّ بَيْنَهَا
عَلَى الْحَلْ وَالرَّحَالِ لِي غَایَةِ الْأَنْسِ	وَكَيْفَ رَحِيلِي عَنْ مَعَاهِدِهِ لَمْ تَرْأُ
وَأَصْبَحْ فِيهَا مَسْتَهَاماً كَمَا أَمْسَيْ	أَرْوَحُ وَأَغْدُو بَيْنَهَا شَيْقاً لَهَا
فَأَهْدِي سَلَامِي فِي الْقَرَاطِيسِ بِالْتَّفَسِي ^(٢)	وَإِنْ كَانَتِ الْأُخْرَى وَلَمْ تُكُنْ أَوْبَةً
فَقَدْ كَانَ بَيْتُ الْمَقْدَسِ يَمْثُلُ لِلرَّحَالَةِ مِرْكَزاً عَلَمِيًّا وَدِينِيًّا، وَهُوَ عَنْدَ مُحِيطِ الدِّينِ بَنِ عَرَبِيِّ وَغَيْرِهِ مِنِ الْمَتَصَوِّفَةِ مَصْدِرَ الْأَرْتَوَاءِ، فَالْمَقِيمُ فِي الْقَدَسِ لَا يَشْعُرُ بِالْعَطْشِ يَقُولُ ابْنُ عَرَبِيِّ:	

(١) ابن رشيد، ملء العيبة: ٤١٣/٢.

(٢) البلوي، تاج المفرق: ١٥-١٤/٢.

فعاينت من علم الغيوب عجائبأً

فلا نفسه تطمأ ولا سرُّه ارتوى^(١)

ومن قائم بالحال في بيت مقدسٍ

ولم تقتصِ الرحلات على ذكر أشعار لأصحابها، بل أنشد أصحابها جملة من الأشعار لغيرهم، وتضمنت رحلاتهم عدداً كبيراً من الأبيات والمقطوعات والقصائد لشعراء زارهم الرّحالة أثناء أسفارهم وتجوالهم، وهم لا يحرصون على روایة ما حضروه من أشعار الشّعراء الذين التقوا بهم وحسب، بل على روایة هؤلاء الشعراء لغيرهم كذلك. وبهذا تكون الرحلات الأندلسية والمغربية قد أمدت التّراث الشّعري بالعديد من القصائد التي تظهر شاعرية أولئك الشعراء وأدبهم، وتشير إلى تنوع أغراضهم الشّعرية، فقد نظموا قصائد في التّهنئة، ب مختلف المناسبات، وفي المدائح النّبوية، ومدح القادة والحكّام والأمراء وفي الجدّ والهزل والوصف، والغزل، وغيرها.

وقد نظم ابن الحاج أبياتاً يهني فيها أبا عنان بعد أن شفي من مرض ألم به، وهو يستعد لرحلته، ومنها قوله:

فما هي إلا بعض ما أنت واهبٌ

وقل لمن واف بشيراً نفوسنا

معقدةً منها لحرب سبابٌ

أقول لجرد الخيل قتاً^(٣) بطونها

نعم بكتّبان الصرّيم خواضٌ

طوالع من تحت العجاج كأنها

وسيبك فياض، وسيفكَ غالبٌ

بقيت بقاء الدهر ملوكَ قاهرٌ

ولا زوّجت إلا عداؤك النّواب^(٢)

وعويفت من ضرٍ وأعطيت أجره

ويذكر من يترجم لابن الحاج أنه شاعر شنف المسامع بدرر كلامه^(١)، ويرى محقق محقق رحلة فيض العباب، أنه رغم ذلك لا يعرف إذا كان لابن الحاج ديوان شعر أو أنه ربما

(١) كتاب الإسرا في مقام الأسرى، ضمن رسائل ابن عري: ٤٥/٤٦.

(٢) قتاً: ضمور البطن، ودقة الخصر. انظر، ابن منظور، لسان العرب: ٦٥٨/١.

(٣) ابن الحاج النميري، فيض العباب، ص ٣، ٤. والمقربي، نفح الطيب: ٧/ ١١٩-١٢٠.

ضاع^(٢)، ويبدو أن شعره متعدد الأغراض، وقد أشار ابن الخطيب إلى نماذج من شعره تدور حول الوصف: وصف الخمر، ووصف العلم، وغير ذلك^(٣). أمّا المدائح النبوية فقد أوردت الرحلات بعضاً منها، ومن ذلك ما قاله أبو عصيدة البجائي عند حضرة الرسول:

بفيض فضلك حققت سيدي أمني
ولا تكلي إلی علمي ولا عملي

فما سوى حسن ظئي فيك ينفعني
وأن يخب فيك هذا الظن واجلبي^(٤)

وذكر ابن رشيد في رحلته بعضاً من أشعار أبي الحسن بن إبراهيم التجاني، في المدائح النبوية، ومنها قوله:

مثال نعل الهاشمي محمد
جادت جفوني بالدموع الرغف

وبكاي من فرط الآسى ولو أتنى
أقضى وحق جلاله م أنصف

أوطانه خدي، وقلت: تعزّزي
ما شئت، يا نفسي، بهذا واشرفي

وقدّسي أبداً بحبِّ محمد
فحساك أن تنجو به في الموقف

صلى الإله عليه ما جنَّ الدّجى
وبدا النهار لاح نجم أو حَفَى^(٥)

أمّا ابن خلدون، فقد عرض بعض قدراته الأدبية في النماذج الشعرية التي أوردها في رحلته بمناسبات مختلفة، وفيه قال ابن الخطيب: "وأمّا نظمه فنهض بهذا العهد قدماً في ميدان الشّعر ..."^(٦). ومن شعره في مدح الرسول صلّى الله عليه وسلم:

إلى دعوتك واثقاً بإجابتي
يا خير مدعُوٌ وخير مجتبٍ

(١) انظر، ابن الخطيب، الإحاطة: ١٩٣/١، ٣٥٨-٣٥٥.

(٢) انظر، ابن الحاج التميري، فيض العباب، مقدمة المحقق، ص ٤١.

(٣) انظر، ابن الخطيب، الإحاطة: ٣٥٥/١، ٣٥٨-٣٥٥.

(٤) أبوعصيدة البجائي، رسالة الغريب إلى الحبيب، ص ٦٩.

(٥) ابن رشيد، ملء العيبة: ١٩٩/٢.

(٦) المقربي، نفح الطيب نقلأً عن الإحاطة: ١٨١/٦.

قصَرْتُ في مدحِي فإن يك طيّباً

في مدحِك القرآن كُلُّ قِطْبٍ^(١)

ما ذَا عَسَى يَبْغِي الْمُطْبِلِ وَقَدْ حَوَى

وَمَ تَخْلُ بَعْضُ الرِّحَلَاتِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ وَالْمَغْرِبِيَّةِ مِنْ أَبْيَاتٍ قِيلَتْ فِي مَدْحِ الْحَكَامِ
وَالْأَمْرَاءِ وَالْوَزَارَةِ وَالشِّيوخِ وَالْأُولَيَاءِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا قَالَهُ أَبُو حَامِدُ الْغَرَانَاطِيُّ يَمْدُحُ فِيهِ
الْوَزِيرَ عُونَ الدِّينَ^(٢):

مِنْ دُرُّ أَخْلَافِ الدُّكَاءِ الْحُفْلِ

حَمَّثْتَ بِهِ أُمُّ الْعُلُومِ وَأَرْصَحْتَ

فَيَهُمْهِ ظُلْمُ الْجَهَالَةِ تَنَجَّلِي

يُنْدِي حِقَائِقَ كُلِّ عِلْمٍ مُّشَكِّلِ

لَيَثَا قُصُورًا فِي الْخُطُوبِ كِيدُبْلِ

وَلَيْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أُمْوَرَهُ

وَلِجُودِهِ فِيْضُ الْفَرَاءِ السَّلْسَلِ^(٣)

عُونَا لِدِينِ اللَّهِ بِاسْطَاعَهُ عَدْلِهِ

وَتَحْدَثُ ابْنُ الْحَاجِ عَنِ الْفَتوحَاتِ الَّتِي قَامَ بِهَا أَبُو عَنَانُ، وَتَرَكَتْ أَثْرًا فِي نُفُوسِ
الْمُسْلِمِينَ، وَقَالَ مادحًا السَّلْطَانَ، وَمَصْوِرًا فَتْحَ قَسْنَطِينِيَّةَ:

وَسَرَّ التَّقِيِّ إِلَى الْبَقَاءِ عَلَى الْعَهْدِ

وَتَأْبِي الْعُلَى إِلَى السَّمَاهَةِ وَالنَّدَى

أَمَاطَتْ نَقَابَ النَّصْرِ فِي مَوْكِبِ الْعَضْدِ

وَأَنْتُمْ كَالْيَوْمِ الَّذِي جَاءَ بِالْتِي

فَقَامَتْ مِنْ الرَّمْحِ الْقَوِيمِ عَلَى قَدْ^(٤)

عَرْوَسَ مِنَ الْفَتْحِ الْمُبِينِ تَزَيَّنَتْ

أَمَا ابْنُ بَطْوَطَةَ، فَقَدْ قَالَ يَمْدُحُ سُلْطَانَ الْهَنْدَ:

أَتَيْنَا نَجْدَ السَّيَرَ نَحْوَكَ فِي الْفَلَا

إِلَيْكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُبَجَّلَا

(١) ابن خلدون، التّعرِيف، ص ١١٦-١١٤.

(٢) انظر ترجمته، المقرري، نفح الطيب، ٤١٠/٢، والصفدي، الوافي بالوفيات: ١/٣٥٨.

(٣) أبو حامد الغرناطي، المعرّب، ص ٩.

(٤) ابن الحاج النميري، فيض العباب، ص ١٤٣.

فجئت محلًا من علائق زائرًا

فلو أن فوق الشمس للمجد رتبة

فأنت الإمام الماجد الأولي الذي

لكنت لأعلاها إماماً مُوهلاً

سجّيأه حتّياً أن يقول ويقعلا^(١)

وأبرزت بعض الرحلات دور (المرأة الشاعرة) في ميدان الشعر وأغراضه المختلفة، وفي ميدان الأدب والعلوم الأخرى. ففي رحلة التجاني^(٢) ذكر لزينب بنت إبراهيم التجاني التجاني وهي من شهيرات الأديبات التونسيات في العصر الحفصي، وقد ذكرها العبدري في رحلته عرضاً ولم يسمّها، ويزذكر محقق الرحّلة أنه عثر على اسمها في بعض المخطوطات، وخصص لها ترجمة في كتابه "شهيرات التونسيات"^(٣). وأورد لها العبدري مقطوعتين من شعرها، أنسدهما له أخوها علي، فمن ذلك قولها ملغزة فيمن اسمه تميم:

يقولون لي هذا حبيبك ما اسمه؟
فما اسطعت إفشاء وما اسطعت أكتم

فقلت اسمه ميم وحرف مقدم
هذا اسم من أهوى فديتكم افهموا^(٤)

ورغم هذا التّنّز اليسير من شعرها، إلا أنه يبرز صورة المرأة الشاعرة العارفة بالأدب.

أمّا المراسلات والملكات والمخاطبات، والمساجلات والمعارضات النثّرية والشعرية، فقد كان الرّحالة يكتبونها للملوك والسلطانين والأمراء، وكانوا أيضاً يتداولونها مع أصدقائهم، وهي من الموضوعات التي عُنيت بها الرّحلة، وتلمّس شواهد

(١) رحلة ابن بطوطة: ١٢٠/٢.

(٢) رحلة التجاني، ص يط، ك. وانظر عن دور المرأة في مختلف الميادين الأدبية والشؤون الدينية، التجيببي، مستفاد الرحلة، ص ٤٣، ٤٤، ١٠٢، ١٥٠، ٣٣٠. وانظر أيضاً، ابن رشيد، ملء العيبة: ٣٩٦-٣٢٥.

ومواطن كثيرة متفرقة من الرّحلة.

(٣) عبد الوهاب، حسن حسني، ط١٩٦٦). تونس: مكتبة المنار، ص ١١٠-١١٢.

(٤) العبدري، الرحلة المغاربية، ص ك، وانظر أيضاً، ص ٢٦٢.

ذلك في عدد من الرحلات التي مثّلت ثروة علميّة رائعة، وترجمة واسعة عن تقدّم الحياة الفكرية وتطورها في العالم العربي الإسلامي، ويقول ابن رشيد في رحلته: "إِنْ كُنْتَ أَوْدِعْتَهُ مِنَ الْفَوَائِدِ مَا لَعَلَّهُ لَا يَحْصُرُهُ دِيْوَانٌ، وَيَعْزِّزُ جُوْدَهُ عَلَى ذِي الْبَحْثِ وَالْتَّنْقِيرِ وَالْأَفْتَنَانِ ... وَقَدْ ضَمَّنَتْهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ النَّبُوَيَّةِ .. وَالْلَّطَائِفِ الْأَدِيَّةِ وَالنَّكَتِ الْعَرَوْضِيَّةِ وَطَبَقَتْ الْمُشكَلَ مِنْ أَسْمَاءِ الرِّجَالِ.."^(١).

وقد أورد ابن رشيد عدداً من المراسلات والمحاتبات النثريّة وأمساجلات الشعريّة ومنها ما كتبه الوزير أبو عبد الله بن الفقيه الوزير أبي القاسم بن الحكم^(٢) إلى أبي بكر ابن حبيش^(٣): "الحمد لله حمدك يا سيدي رضي الله عنكم، وأبقى أنوار المعارف تقبس منكم لما نفذت إشارتكم المقابلة بواجب الامتثال، المفضلة على كل أمر ذي بال، بأن يفيد المستضيء بنوركم محبراً في ورقة شيئاً من كلامه ..." ^(٤). ومن المساجلات الشعريّة التي أوردها ابن رشيد في رحلته، تلك التي كانت في وصف خسنة تفور بالماء.

أما التجاني، فقد أورد مجموعة من المراسلات والمعارضات الشعريّة التي كانت بينه وبين الكثير من العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء، ومنها تلك المراسلات التي تبادلها مع ابن شرين، حيث وصلته رسالة من ابن شرين، وذكرها التجاني، فقال: "وفي أثناء إقامتنا بتوزر وصلت إلى قصيدة من الفقيه الأجل الأديب أبي بكر محمد بن أحمد بن شرين الجذامي السبتي^(٥)، من مستقره بغرناطة ...". ومما جاء في قصيده:

(١) ابن رشيد، ملء العيبة: ٣٣/٢.

(٢) انظر ترجمته، المقرري، أزهار الرياض: ٣٤٠/٢ - ٣٤٧.

(٣) هو محمد بن الحسن بن يوسف، انظر ترجمته، ابن رشيد، ملء العيبة: ١٢٦-٨٣/٢، والمقرري، نفح الطيب: ٣١١/٤.

(٤) الم المصدر نفسه: ١١٣/٢ - ١١٤.

(٥) ولد بسيطة وأهله من إشبيلية أصلاً، كان تاريجياً شاعراً كاتباً، انظر ترجمته، ابن الخطيب، الإحاطة: ١٨٢-١٧٤/٣، والمقرري، نفح الطيب: ٥٤١/٥.

يا نسمة سحبت فضول ذيولها
ما بين ورد بالغدريب ونرجس

والأرض قد لبست ثياب السنديس
والورق قد صدحت على أفنانها

حطي رحال تحيني في معهد
بين الجوانح منه عهد ما نسي

والحي من تيجان فاشرح عندهم
فرط اشتياقي نحو ذاك المجلس^(١)

وقد رد عليه التجاني بقصيدة يعزّيه فيها على ما حلّ به ويأهله وبلد، جاء فيها:

أمر من الله لا مرد له
لم يبق كهلاً منهم ولا يفغا

وخدعة تم أمرها فمضت
وكم سديد الآراء قد خذلها

هاك سلامي على البعاد أبا
بكر فقلبي إليك قد نزعا^(٢)

وأشارت بعض الرحلات لعدد من المعارضات الشعرية، منها، ما دار بين التجاني وأبي الفضل محمد بن أبي الحسن علي بن إبراهيم التجاني، ويقول فيها:

أهدي أبا الفضل السلام مرددا
لعلك عن قلب إليك مشوق

وأقرر الود الذي أنا سالك
فيه من الاخلاص خير طريق

فرد عليه أبو الفضل:

أهدي سلام الود خير رفيق

ومقام عبد الله نجل محمد
في قومه سام على العيّوقة^(٣)

وقد كتب الفقيه الكاتب أبو عبد الله محمد بن يعيش^(٤):

(١) رحلة التجاني، ص ١٦٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧٠.

(٣) العيّوقة: كوكب أحمر مضيء، انظر، ابن منظور، لسان العرب: ٢٨٠/١٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٨١-٢٨٠.

فأنت وإن نذأت به غريبٌ	«مجاك الزَّيْع إِذْ طَعْنَ الْحَبِيب»
فما عيش بساحتِه يطيرُ	إذاً بَعْدَ الْأَجْهَةِ عنْ مَحَلٍ
نَأَى فَجَمِيعُنَا صَبْ كَيْبُ	وَكَيْفَ يَطِيبُ عِيشَ بَعْدَ خَلْ
فقد سئمتُ من الشَّوْقِ القَلْوُبُ	وأَجَابَهُ الرَّخَالَةُ التَّجَانِيَّ:
فَضَى بِتَفَرْقِ خَطْبِ يَنْوُبُ	عَسَى الزَّمْنُ الَّذِي وَلَى يَؤْبُ
حَبِيبٌ قَدْ نَأَى عَنْهُ حَبِيبٌ	إِذَا مَا قَلَتْ قُرْبَ اِجْتِمَاعٍ
فَخَرَ الزَّمَانُ إِمَامُ كُلِّ أَدِيبٍ ^(٢)	وَاعْظَمُ مَنْ تَرَى أَسْفًا وَحَزَنًا
فَرَطَ اشْتِيَاقَ وَابْتِعَادَ حَبِيبٍ ^(٣)	وَكَبَ الْفَقِيهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُعْرُوفُ بِالْهَوَارِيُّ ^(٤) إِلَى الرَّخَالَةِ، يَقُولُ:
إِلَّا وَجَدَهُ جَدِيدُ خَطْبَوبٍ	أَهْدَى سَلَامَ الْوَدِ خَيْرَ حَبِيبٍ
وَأَثَارَ أَشْجَانِي وَهَاجَ كَرْوَبِي	أَهْدَاهُ عَبْدُ اللَّهِ نَجْلُ مُحَمَّدٍ
وَالْبَرُ شَمْرُ ذِيلِ لَغْرُوبٍ ^(٥)	فَرَدَ عَلَيْهِ الرَّخَالَةُ:
	إِنْ أَفْضَى مِنْ أَسْفٍ فَغَيْرُ عَجِيبٍ
	مَا قَلَتْ قُدْبَلَ التَّفَرْقِ فَانْقَضَى
	وَلَقَدْ شَجَأَ نَفْسِي وَاضْرَمَ لَوْعَتِي
	بَرْقٌ بَدَا وَاللَّيلُ أَرْخَى سَجْفَهُ

وقد دلت بعض الرحلات على نبوغ الحكام والسلطين في ميدان النظم، وذكر ابن الحاج عن نبوغ وتمرس أبي عنان في قول الشعر، ودليل ذلك ما حدث عندما "نظم قاضي الحضرة أبو عبد الله المقربي^(٦)" هذا البيت الفريد:

(١) انظر ترجمته، المقربي، نفح الطيب: ٦٤٩/٢.

(٢) لم يسعف البحث في العثور على ترجمته.

(٣) رحلة التجاني، ص ٢٩٤-٢٩٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٩٧. وانظر عن المعارضات الشعرية في المصدر نفسه، ص ٣٠٠-٣٩٨.

(٥) انظر ترجمته، المقربي، نفح الطيب: ٢٠٣/٥.

"دخلت بلاد الله شرقاً ومغرباً"

فزاد عليه مولانا أسرع من ارتياض الطرف، وأوحى من رجع البصر وهو العطف:

فمذ غشى الأبار لم تبصر الشمس^(١)
ويا قبح ما أسود القنام بوجهها

وقد تضمنّت رحلة ابن الحاج عدداً من الرسائل الديوانية، حرّرت أثناء الرحلة إلى قسنطينة والزاب، وعددها أربع، الأولى إثر فتح قسنطينة، والثانية بمناسبة دخول الجيش المريني إلى عنابة، والثالثة بعد فتح تونس والرابعة خاصة بالإياب النهائي والرجوع إلى الحضرة العليّة، ويبدو أنّ هذه الرسالة كانت الأخيرة، وقد ضاعت، وتأسّف المؤلّف على ضياعها^(٢).

أما رحلة "رسالة الغريب إلى الحبيب" لأبي عصيدة البجائي، فتمثل بذاتها نسقاً من المراسلات الأدبية، حيث وصل البجائي من أبي الفضل المشدالي أبيات شعرية هي عتاب على عتاب:
أنّ الرسالة لم تحد من حامل سامحُ كتبك في القطيعة عالماً

وعذرْت طيفك في الجفاء لأنَّه
يسري ويصبح دوننا بمراحل^(٣)

فما كان من أبي عصيدة إلا الاعتذار على ما فهم المشدالي من رسائله^(٤) وعتابه وعباراته التي نقلت له، فردّ على عتاب المشدالي بتدوينه رحلته "رسالة الغريب إلى الحبيب"

(١) ابن الحاج النميري، فيض العباب، مقدمة المحقق، ص ٩٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٦، ١٣٩.

(٣) انظر، أبو عصيدة البجائي، رسالة الغريب، ص ٤٥.

(٤) ذكر البجائي أنه كان بينه وبين المشدالي عدد من المراسلات الأدبية: أولها مراسلة وجّهها له مع شخصين، وثانيهما مراسلة أدبية اشتملت على أخبار مغاربية وشرقية، ولم يذكر مع من وجّهها له،

التي افتتحها بقصيدة تعكس صورة الرّحالة الشّاعر، وصورة صديقه أبي الفضل المshedali ومكانته العلميّة، ووصف حاله بعد فراق صاحبه المshedali له، ومنها:
كهف الأنام وفخر الوقت والشّافٍ
هذا مراسلة العبد الفقير إلى

ومن جلال ومن عزٍ ومن شرفٍ
أنته تنثر ما قد حاز من شيء

لله ما كان أحلاها لمعت ريف
وأن تذكر أياماً به سلفت

وليس ينسى عهود المحسنين وفي
وأن عبدهم لم ينس عهدهم

كما تميل غصون البان من هيـفـ
ومـ يـ زـلـ ذـ كـرـهـمـ شـوـقـاـ يـيـلـهـ

لما حكته من الألقاب و التـحـفـ
ونـحـوـ (طـيـةـ)، تـشـيهـ عـزـاءـهـ

كـانـتـ مـنـ الـحـسـنـ فـوـقـ الـوصـفـ إـنـ تـصـفـ
وـمـاـ (بـمـكـةـ)ـ مـنـ أـيـامـهـ سـلـفـتـ

وقد زوّدت رحلة ابن خلدون الأدب بصورة عن سمات الكتابة في عصره، وذلك من خلال إيراده لبعض المكاتبات والمراسلات النثريّة والشعرية، بينه وبين ابن الخطيب.
ومنها ما قاله ابن الخطيب مبتهجاً بقدوم ابن خلدون إلى غرناطة:

على الطائر المليون والرّحّب والسهّلـ
”خللت حلوان الغيث بالبلد المحنـ

من الشّيخ والطفل المهدّأ والكمـلـ
يمـيـنـاـ مـنـ تـعـنـوـ الـوـجـوهـ لـوـجـهـهـ

تـسـيـ اـغـتـبـاطـيـ بـالـشـبـيـةـ وـالـأـهـلـ
لـقـدـ نـشـأـتـ عـنـديـ لـلـقـيـاـكـ غـبـطـةـ

وـتـقـرـيـرـيـ الـمـعـلـومـ ضـرـبـ منـ الجـهـلـ
وـوـدـيـ لـاـ يـحـتـاجـ فـيـ لـشـاهـدـ

وثالثها مراسلة وصف له فيها مرضًا حلّ به وكاد يقضى عليه، ولم يذكر أيضًا مع من وجهها له، ورابعها لم يتحدث عن موضوعها ولا عن حاملها ولكنّه أشار إلى أنه كان يهدف من ورائها مواصلة الود والتواصل بينهما. انظر، أبو عصيدة البحائي، رسالة الغريب، ص ٣٥.

(١) أبو عصيدة البحائي، رسالة الغريب، ص ٤٢-٤٣.

أقسمت بمن حجّت قريش لبيته، وقبر صرفت أزمّة الأحياء مليته، ونور ضربت الأمثال بمشكاته وزيته. لو خيرت أيّها الحبيب الذي زيارته الأمنية السنّيّة ... بين رجع الشباب يقطر ماء، ويرفف نماء .. وبين قدومك خليع الرّسن، مُمتنعاً والحمد لله - بالحقيقة والوشن، .. لما اخترت الشباب وإن شاقني زمنه، وأعياني ثمنه .. ^(١).

وبهذا، فإنّ كتب الرّحلات كانت ذات أثر مباشر في تصوير الحركة الثقافية، وبها يدرك الباحث الأبعاد التي قطعها الأندلسيون والمغاربة وأهل المشرق في ميدان ازدهار العلم ومضمّن النّصّ الأدبي، والكشف عن المتابع الثقافي في مختلف العصور.

ثالثاً: النّشاط الاقتصادي

حفلت كتب الرّحلات بالكثير من جوانب النّشاط الاقتصادي سواء أكان ذلك في الأندلس والمغرب أم في بلاد المشرق والبلاد العربية الإسلامية وغير الإسلامية، ونقلت صوراً للملامح الاقتصادية في كلّ البلدان التي زارها الرّحال، وعرفت بأهم العادات الزراعية والموارد المائية، وأشهر البضائع والسلع والصناعات والمعادن، والتجارة والأسواق والعملات والتنظيمات المالية، فكانت الرّحلات وثائق هامة للدارسين لمختلف الأنظمة الاقتصادية في تلك العصور، والمستويات الجغرافية؛ الطبيعية: المناخ، والثروات الزراعية والحيوانية. والبشرية: السّكان والأسواق والشؤون المالية، وطرق المواصلات البرية والبحرية، والمستشفيات والحسّون والحمامات، ومختلف مظاهر الحضارة والعمارة. ورغم ذلك كله فلم يكن الرّحال معنيّين بجانب دون آخر، لذا سجلوا مشاهداتهم وهم يتجاوزون تلك البلدان بما فيها من أنهار وبحار وسهول وجبال، وهي ملاحظات موجزة، لكنّها قدّمت مادة غنية وواحة للمؤرّخين والدارسين والباحثين.

أ. الحاصلات الزراعية وموارد المياه

أظهرت كتب الرحلات الأندلسية والمغربية عناية الشعوب المختلفة بالأراضي الزراعية وحاصلاتها، ورعايتها للأراضي وحرثها وزراعتها ثم البيع من مصوّلاتها^(١). وقد لفت انتباه الرحالة اتساع المساحات الزراعية في بعض المناطق، وأفاضوا في الحديث عن خصوبة تلك الأرضي، وما ينبع فيها من أشجار وأعشاب وثمار ووصفوا حجمها ومذاقها، وذكروا كل منطقة مرّوا بها، وما تمتاز به من زراعة معينة، أو ما تشتهر به من حاصلات خاصة^(٢). ومن جانب آخر وأشار بعض الرحالة إلى انعدام الزراعة في بعض المناطق كما في جزر المالديف^(٣).

وقد بيّنت كتب الرحلات اعتناء الأندلسيين بالزراعة، حتى غدت أرضهم جنات واسعة كثيرة العطاء "فمن خواص حنطة طليطلة أنها لا تسوس على مر السنين"^(٤). وكانت البلاد بين القيروان والكاف^(٥) خصبة جيدة الزراعة تنتج مزروعات القمح في سني الخصب الواحد بمائة، وبالمغرب الأقصى، كانت الحنطة مخصصة للأمراء وأهل الثراء، ومعظم الغذاء عند سائر الأهالي من الذرة^(٦). وأشار بعض الرحالة إلى ما تتميز به الزراعة في البلاد الأندلسية، ولا سيما زراعة الفواكه على اختلافها، ووصفوا اتساع المساحات الزراعية وكثرة البساتين والجتنات والرياض فيها.

(١) انظر، الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٩٢، الفشتالي، تحفة المغرب، ص ٩٤-٩٣، ورحلة ابن بطوطة: ٤٣/٢.

(٢) انظر، ابن جبير، ص ٩٩، والعبدري، الرحلة المغربية، ص ١١، ١٦٣، ٤٠، ١٧٦، ٢٠٣، ٢٢٥، ورحلة ابن بطوطة: ٤١/١، ١٨٠، ٢٦٥، ورحلة القلصادي، ص ١٢٤-١٢٣.

(٣) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١٧٤/٢. وانظر في انعدام الزراعة في بعض المدن، المصدر نفسه: ٢٢٢/١.

(٤) البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، ص ٨٨.

(٥) الكاف: حصن حصين بسواحل الشام. انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٤/ ٤٣١.

(٦) انظر، البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك ، ص ٥٦، ١١٨.

ويصف ابن جبير خيرات الأندلس، وخيرات مكّة، بقوله: "وَأَمَّا الْأَرْزَاقُ وَالْفَوَاكِهُ وَسَائِرُ الطَّبِيعَاتِ فَكَيْنَا نَظَنَ أَنَّ الْأَنْدَلُسَ اخْتَصَّتْ مِنْ ذَلِكَ بِحَظْلِهِ الْمَزِيَّةِ عَلَى سَائِرِ حَظْوَظِ الْبَلَادِ حَتَّى حَلَّنَا بِهَذِهِ الْبَلَادِ الْمَبَارَكَةَ فَأَلْفَيْنِاهَا تَغْصَّ بِالنَّعْمِ وَالْفَوَاكِهِ: كَالثَّيْنِ، وَالْعَنْبِ، وَالرَّمَانِ، وَالسَّفْرَجَلِ، وَالْخَوْخِ، وَالْأَتْرَجِ، وَالْجَوْزِ .. إِلَى جَمِيعِ الْبَقْوَلِ كُلُّهَا: كَالْبَادِنْجَانِ، وَالْيَقْطَنِينِ، وَالسَّلْجَمِ، وَالْجَزَرِ، وَالْكُرْنُبِ، إِلَى سَائِرِهَا. إِلَى غَيْرِ ذَلِكِ مِنْ الْرِّيَاحِينِ الْعَبْقَةِ وَالْمَشْمُومَاتِ الْعَطْرَةِ ... وَمِنْ أَغْرِبِ مَا أَلْفَيْنَاهَا فَاسْتَمْتَعْنَا بِأَكْلِهِ وَأَجْرِيْنَا الْحَدِيثَ بِاسْتِطَابَتِهِ، وَلَا سِيَّما لِكُونَنَا مِنْ نَعْهُدَهُ، الرَّطْبِ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ التِّينِ الْأَخْضَرِ فِي شَجَرِهِ يَجْنِي وَيُؤْكَلُ، وَهُوَ فِي نَهَايَةِ مِنَ الْطَّيِّبِ وَاللَّذَّاذَةِ، لَا يَسْأَمُ التَّفَكُّهُ بِهِ .."^(١). وَقَدْ عَزَّا إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَبَيرٍ ازْدِهَارَ الزَّرْعَةِ فِي الْأَوْدِيَةِ الْمَحِيطَةِ بِمَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ إِلَى وَجْهَ جَالِيَّةِ مَغْرِبِيَّةِ بِهَا قَامَتْ بِاسْتِصْلَاحِ الْأَرْضَيْ، فَقَالَ: "قَدْ جَلَبَ اللَّهُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَغَارِبِ ذُوِّي الْبَصَارَةِ بِالْفَلَاحَةِ وَالْزَّرْعَةِ فَأَهْدَيْتُهَا فِيهَا بَسَاتِينَ وَمَزَارِعَ .."^(٢).

وَقَدْ أَبْدَى إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَبَيرٍ إِعْجَابَهُ بِالْتَّمَاءِ الْزَّرَاعِيِّ وَالتَّقْدِيمِ الْإِقْتَصَادِيِّ فِي بَعْضِ الْبَلَادَنِ الَّتِي زَارَهَا، فَيَذَكُرُ عَنِ الْفَرَاتِ خَلَالِ مَرْوَرَةِ بِمَدِينَةِ الْحِلْلَةِ: "وَهَذَا النَّهَرُ كَاسِمُهُ فُرَاتٌ، هُوَ مِنْ أَعْذَبِ الْمَلِيَّاَتِ وَأَخْفَقُهَا، وَهُوَ نَهَرٌ كَبِيرٌ زَخَّارٌ، تَصْعُدُ فِيهِ السَّفَنُ وَتَنْتَهُرُ. وَالطَّرِيقُ مِنَ الْحِلْلَةِ إِلَى بَغْدَادِ أَحْسَنُ طَرِيقٍ وَأَجْمَلُهَا، فِي بَسَائِطِ مِنَ الْأَرْضِ وَعَمَائِرِ، تَتَصلُّ بِهَا الْقُرَى يَمِينًا وَشَمَالًا. وَيُشَقُّ هَذِهِ الْبَسَائِطُ أَغْصَانَ مِنْ مَاءِ الْفَرَاتِ تَسْرُبُ بِهَا وَتَسْقِيَهَا، فَمَحْرَثُهَا لَا حَدٌّ لِالْتَّسَاعَهِ وَانْفَسَاحَهِ .."^(٣).

وَكَانَ مِنْ شَدَّةِ اهْتِمَامِ الرَّحَّالَةِ بِالثَّرَوَةِ الزَّرَاعِيَّةِ أَنْ عَقَدَ لَهَا بَعْضُهُمُ الْكَثِيرَ مِنَ فَصُولِ رَحَلَاتِهِمْ، وَمِنْهَا مَا ذَكَرَهُ أَبُو حَامِدُ الْغَرَنَاطِيُّ، فِي خَصَائِصِ الْبَلَادِ فِي الشَّمَارِ بِقَوْلِهِ: "فَيَقَالُ:

(١) رَحْلَةُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ جَبَيرٍ، ص. ٩٧-١٠٠.

(٢) الْمَصْدُرُ نَفْسُهُ، ص. ٩٩.

(٣) الْمَصْدُرُ نَفْسُهُ، ص. ١٨٩-١٩٠.

رطب العراق، وثير كرمان، وعنب جرجان، .. وتفاح الشّام، .. ونارنج البصرة، وتين حلوان، وعنب بغداد، وممشمش هراة، وموز اليمن ..^(١).
وتحدّث التّجيبي عن مدينة قوص المحروسة، وخيراتها الزراعية، ففيها: "النخل والأعناب والفاواكه، وفيها شجر التوت الأبيض، الثمر الطيب الطعم الذي لا يوجد مثله بكثير من بلاد المغرب".^(٢).

وتکاد تكون بعض الرّحلات مصدراً لمعرفة الكثير من أنواع النباتات والأشجار والثمار والحيوانات والطيور، ومنها رحلة ابن بطوطة؛ فإنّه لم يترك مدينة إسلامية أو غير إسلامية إلا وتحدّث عن سعة الأراضي الزراعية وتنوع المحاصيل فيها، وعن بساتينها وأشجارها وثمارها، ومواطن الرعي الدّالة على خصوبة تلك الأرضي. وممّا ذكره ابن بطوطة مثلاً عن الفصول الزراعية في الهند؛ أنّها تنقسم إلى فصلين: أولهما يشتمل على الزراعة الخريفية، وثانيهما يشتمل على الزراعة الريبيعة، ويزرع الفلاحون المزروعات الخريفية في أوان القيظ عند نزول المطر، ويحصدونها بعد ستّين يوماً من زراعتها، ويدرك أهمّ تلك المزروعات الخريفية، ومنها: الماش وهو نوع من الجلبان، واللوبيا. وأمّا المزروعات الريبيعة، فيزرعها الفلاحون بعد حصاد المحاصيل الخريفية، وتزرع في نفس الحقول التي كانت الحبوب الخريفية مزروعة فيها، ومنها: القمح والشعير والحمص والعدس، وهم يزرعون الرّز ثلاثة مرات في العام.^(٣).

وقد بين ابن بطوطة أنّ الصين غنية بالسكر والأعناب والإجاص الذي يفوق الإجاص العثماني الذي بدمشق، وأنّ جميع فواكه البلاد العربية تنبت فيها، وذكر أنّ القمح يزرع فيها بوفرة، وهو من أحسن أنواع القمح، كما يزرع فيها العدس والحمص.^(٤).

(١) أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٦٠.

(٢) التّجبيبي، مستفاد الرحلة، ص ١٧٣.

(٣) انظر رحلة ابن بطوطة: ٢٤-٢٣/٢، وانظر في النباتات والشجر في رحلة ابن بطوطة، الدمياطي، محمود مصطفى (١٩٤١)، مجلة المقتطف، المجلد ٩٩، ج ١٠، ص ١٣٢.

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٢٢/٢.

وتعتمد الزراعة على المياه ووفرتها، وقد ذكرت بعض الرحلات أهمية الأنهر والآبار والعيون، ودورها في التالية الاقتصادية للبلاد، وصوّرت عنایة المسلمين بماء الشرب وتوفيره للسكان عن طريق شبكة القنوات الظاهرة فوق الأرض أو الجوفية التي تحت الأرض، وتنظيمها بطريقة هندسية متقدمة، ويصف البكري الطرق المستخدمة في أفريقية للري، والسوقى وقنوات الحجر الممتدة في كامل البلاد، وتقسيم المياه وتوزيعها توزيعاً عادلاً على مختلف المناطق والرياض^(١).

وأشار الإدريسي إلى استخدام الآبار في رى المرزوعات وسقيها، وتحددت عن حفر بئر كبيرة في مراكش، حفرت بصنعة فائقة، ومدت من قاعها قنوات تسير تحت الأرض في انحدار حتى توصل الماء إلى مختلف أحياء المدينة، ولم تثبت المدينة أن اتساع عمرانها واكتنافتها الخضراء والحدائق بفضل هذه القنوات^(٢).

ويترتب على وفرة المياه أيضاً، قيام عدد من المشاريع البسيطة مثل إنشاء القنطر والسوقى للشرب، والاستفادة في المجالات الزراعية، مما أدى إلى اتساع الرقعة الزراعية، وكثرة البساتين التي تعج بمختلف أنواع النباتات والأشجار والثمار، وانتشار التجمعات السكانية على ضفاف الأنهر والآبار والعيون، وقد قال في ذلك ابن بطوطه واصفاً نهر النيل: "إنه يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاق واتساع قطر وعظم منفعة القرى والمدن بضفتيه منتظمة ليس في المعمور مثلها، ولا يعلم نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل"^(٣).

وتحددت الرحلة عن نظام الري من خلال الاهتمام بكمية المياه في الأنهر باستخدام المقاييس المقاومة عليها، فمقياس نهر النيل يستفاد منه في قياس زيادة نهر النيل عند فيه كل سنة، "وهذا المقياس عمود رخام أبيض مثمن في موضع ينحصر فيه الماء عند انسياقه إليه، وهو مفصل على اثنتين وعشرين ذراعاً مقسمة على أربعة وعشرين قسماً تعرف

(١) انظر، البكري، المسالك والممالك، ص ٤٩.

(٢) انظر، الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٦٨، ومكي، محمود، مدريد العربية، القاهرة: دار الكاتب العربي، ص ٥٣.

(٣) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٢٩، ورحلة ابن بطوطة: ٣٣/١، ٣٥، ٤١-٤٢، وأبو حامد الغرناطي، المغرب، ص ٨٤-٨٥.

بالأسابيع. فإذا انتهى الفيض عندهم إلى أن يستوفي الماء تسع عشرة ذراعاً منغمرة فيه فهي الغاية عندهم في طيب العام. وربما كان الغامر منه كثيراً بعموم الفيض. والمتوسط عندهم ما استوفى سبع عشرة ذراعاً...^(١).

أما القناطر التي توزع المياه في السّواقي، فمنها القناطر المقاومة على نهر النيل، وقد أشار ابن جبير إلى أن هذه القناطر رغم استخدامها في الري والزراعة، فإن لها هدفاً عسكرياً، حيث تحمي البلد من عدو يدهم جهة ثغر الإسكندرية، بفيضان نهر النيل وانغمار الأرض به؛ فيمنع سلوك العساكر واحتيازها باتجاه البلد^(٢).

وأشار أيضاً إلى القناطر بين الحلة وبغداد التي تعترض الطريق كله، "فلا تكاد تمشي ميلاً إلا وتجد قنطرة على نهر متفرع من الفرات، فتلك الطريق أكثر الطرق سواقي وقناطير"^(٣).

ووصف الرحالة استخدام أهالي بعض البلدان ربي مزروعاتهم من العيون. وقد ذكر ابن جبير أن مدينة رأس العين اشتق اسمها من كثرة العيون، حيث تتوزع مياه هذه العيون في جداول تنبسط في مروج خضر، وأعظم هذه العيون عينان: أحدهما فوق الأخرى، فالعليا منها نابعة فوق الأرض في صُمّ الحجارة كأنها في جوف غار كبير متسع ييسط الماء فيه حتى يصير كالصهريج العظيم ثم يخرج ويسيل نهراً كبيراً أكبر ما يكون من الأنهر، وينتهي إلى العين الأخرى ويلتقي بمنها. أما الثانية فمنبعها تحت الأرض من الحجر الصلد، ويتسع حتى يصير صهريجاً ثم يندفع بقوّة إلى الأعلى حتى يسيل ماء تلك العين على سطح الأرض، ثم تنقسم مياه العينين إلى نهرين يلتقيان بعد ذلك^(٤). ولعل الدقة في وصف هذه العيون تؤكّد معاينة ابن جبير لها.

(١) رحلة ابن جبير، ص ٣٩-٣٠.

(٢) انظر، المصدر نفسه، ص ٢٧.

(٣) الم المصدر نفسه، ص ١٩١.

(٤) انظر رحلة ابن جبير، ص ٢١٧-٢١٨، وانظر في الآبار والعيون، أبو حامد الغناطي، رحلة المغرب، ص ١٨١، والتاجي، مستفادة الرحلة، ص ٢٠٣-٢٠٥، مواطن أخرى من الرحلة، ورحلة التجاني، ص ١٥٧ - ١٥٨.

وتوضح كتب الرّحلات أنّ جزيرة العرب بصورة عامة كانت وفيرة المياه ما بين آبار ومياه سائحة بركاً من تجمّع مياه المطر، وعيون، ومصانع للماء، وتحدث ابن بطوطة عن الآبار ومصانع الماء^(١) خلال حديثه عن الطريق بين الحجاز والعراق عبر نجد، فذكر ماء يعرف بالقارورة^(٢)، وهي مصانع مملوئة بماء المطر، ثم رحل عنها إلى الحاجر وفيه مصانع للماء ويقول: "وربما جفت فحفر عن الماء في الجفار"^(٣). وذكر ابن جبير أيضاً الكثير من آبار المياه في بلاد الحجاز، وفي مكة المكرمة، وسقاية الحجاج والمعتمرين^(٤).

ووصف بعض الرّحالة مشارع المياه بالمدينة المنورة، وما فيها من آبار وعيون، كبار في رحبة مسجد قباء^(٥)، ومن العيون، عين تنسب للنبي صلّى الله عليه وسلم، مبنيّ عليها حلق عظيم مستطيل وتقع العين في وسطه، ويخرج منها سقایتان بني بينهما جدار، وينزل إليهما على دراج عددها نحو الخمسة والعشرين درجاً. وماء هذه العين كثير وغزير، ويعتمد أهل المدينة على مائها في غسل ملابسهم وشربهم^(٦).

وتحدث بعض الرّحالة عن ندرة المياه في بعض المدن، واعتمادها على ماء المطر، ومن ذلك ما ذكره العبدري في وصفه لمدينة تونس: "ولكن ماوها قليل وفي ديارها مصانع ماء المطر وهو المستعمل عندهم.."^(٧).

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١٠٥-١٥٧.

(٢) انظر، الم المصدر نفسه: ١٠٥.

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٤) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٥٧، ٨٩، ١٦٣، ٨٨، ومواطن أخرى متفرقة من الرحلة.

(٥) انظر، الم مصدر نفسه، ص ١٧٥-١٧٦، وتاج المفرق: ٢٨٨/١، وابن بطوطة: ١١٦/١.

(٦) انظر رحلة ابن جبير، ص ١٧٦-١٧٥، والتّجبيي، مستقاد الرحلة، ص ٢٣٣، ٢٤٦، ٢٥١، وابن رشيد، ملء العيبة: ١٠٤-١٠٥، والبلوي، تاج المفرق: ٣٠٩/١، ورحلة ابن بطوطة: ١١٩/١-١٢٠.

(٧) العبدري، الرحلة المغاربية، ص ٤٠، وانظر، ابن رشيد، ملء العيبة: ٥/٥، ١٩٦، ورحلة التّجاني، ص ١٨٣، ٢٠٥، ٣٥٠، ورحلة ابن بطوطة: ٣٦/٢.

واهتمّ الرّحالة بالثروة الحيوانية، فذكروا الحيوانات التي تعيش في كلّ منطقة، وذكروا طرق تغذية الحيوانات لتسمينها، وتحدّثوا عن أهمّ منتجاتها مثل اللحوم واللّحيل والسمّن^(١). وقدّمت كتب الرّحلات صورة لما كانت تنتجه بحار المناطق التي زارها الرّحالة وأنهارها من أسماك، وغيرها، ومنها سمك اللّخم بمرسى حاسك بعمان، وسمك قلب الماس بمالاالديف، والسردين في ظفار، وسمك المنشار، والسرطانات، وفرس البحر، والسمك الرّعّاد^(٢).

ووصف الرّحالة مالفت أنظارهم من الحيوانات والطيور والحشرات، مثل الكركدن، والقرود، والسباع، التي كانت تفترس الناس، والدّجاج، والبعوض، وغيرها^(٣). ونحا بعض الرّحالة منحى خطراً في تصيد العجائب والغرائب فيما أوردوه من حكايات عن الحيوانات والطيور والحشرات، حيث لا تخلو حكاياتهم من جوانب خرافية وإسطورية، قد يكون من دوافعها السّماع وتناقل الروايات، أو أنّ مراحل الرّحلة ومشاقها قد أثّرت في نفسية الرّحالة وأوجدت لديهم الخيال الواسع الذي دفعهم لتصديق ما سمعوا واعتقدوا بوجوده حقيقة، وما هو إلا ضرب من الوهم والخيال وخداع رؤية^(٤)، ومنها طائر الرّخ الخرافي الذي يبدو أنّ ابن بطوطة نفسه لم يكن متأكداً من رؤيته: "ولكن ريحًا طيبة صرفتنا عن صوبه، فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته.." ^(٥)، والسمكة التي تحتوي في أذنها على فتاة^(٦)، وأسماك لا رأس لها ولا فم ولا عين، وفي

(١) انظر، أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٩٨-٨٣، ورحلة ابن جبير، ١٨٤-١٨٣، ورحلة ابن بطوطه: ٢٩٩/٢، ٢٩٩/١.

(٢) انظر، البكري، صفة جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك: ٢٢٩/١، وانظر، أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٨٥، ٨٨، وأبو حامد، الغرناطي، المغرب، ص ٧٦، ورحلة ابن بطوطه: ٢٤٠-٢٣٤/١، ١٧٤/٢، ومؤلف مراكشي مجھول، الاستبصار، ص ٤٦.

(٣) انظر، أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٥٨، ٥٤، ٩٤، ٩٣، وأبو حامد الغرناطي، المغرب، ص ٧٥، ٧٧، ورحلة ابن بطوطه: ١١١/٢، ١٤٩، ١٤٦، ٢٢٢، ٢٨٣.

(٤) انظر، فوزي، حسين حديث السنديد القديم، ص ٦٨.

(٥) انظر رحلة ابن بطوطه: ٢٤٢/٢، وانظر أيضاً، أبو حامد الغرناطي، رحلة تحفة الألباب، ص ٩٣-٩٢.

(٦) انظر، أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٩٧-٩٨.

جوفها مثل الحبر، وإذا أخذت في الشبكة يؤخذ ذلك الحبر فيكتب به، وإذا أصاب ذلك الماء الثوب صغره ولم يخرج بغسل ولا غيره^(١). وقد عقد أبو حامد الغرناطي في رحلاته أبواباً خاصة في صفة البحار، وعجائب حيواناتها^(٢).

ومن تلك العجائب، ما أخبر عنه التجيبي فيما سمع عن مدينة حران^(٣) التي لا يكون "بداخلها العنكبوت، ولا البعوض ولا يوجد ذلك فيها أبته .. وكان الإنسان إذا أخرج يده من سورها وقع عليها البعوض، فإذا ضم يده إلى جهة المدينة طار عرينه، .. وكان جامعاً الأعظم لا يدخله طائر أبنته، وكل ذلك مدبر بالطلمسات، والله تعالى أعلم"^(٤). وفي بعض مدن السودان سلحف تعظّم "حتى تخرج عن القياس، وهي تحفر في الأرض أسراباً يمشي فيها إنسان، وهم يأكلونها فلا يستطيعون إخراج واحد منها من تلك الأسرب إلا بعد شد الحبال فيها واجتماع العدد الكبير"^(٥).

وتحدث ابن بطوطة عن شجرة عجيبة الشأن في بلاد المليبار، وهي خضراء ناعمة تشبه أوراقها التيّن إلا أنها لينّة، وأخبر أنه إذا كان زمان الخريف من كل سنة تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة^(٦). وذكر أبو حامد الغرناطي أنه رأى عنقود عنب بجانب بحر كان الرحالـة قد وصفوا عجائب الحيوانات وغرائب النباتات بطريقة خرافية غير معقولة، إلا أن حكاياتهم تلك المبالغ في وصفها، لا تخلو من صدق.

(١) انظر، أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٨٧، ١٥١.

(٢) انظر، المصدر نفسه، ص ٨٣-٨٩، وأبو حامد الغرناطي، المغرب، ص ٦٩-٨٨.

(٣) حران: وهي مدينة على طريق الموصل والشام والروم، انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٢٣٥/٢.

(٤) التجيبي، مستفاذ الرحـة، ص ١٩٦.

(٥) مؤلف مراكشي مجاهـل، الاستبصار، ص ٢٢٢.

(٦) انظر، رحلة ابن بطوطـة: ١٦٤/٢، وانظر في غرائب النباتات والأشجار، المصدر نفسه: ١٩٦، ١٨٩/٢، وانظر،

الدمياطي، محمود مصطفـى (١٩٤١)، مجلة المقتطف، ج ١، المجلـد ٩٩، ص ١٣٢، ١٩٦، وما بعدهـا.

(٧) انظر، أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٨٧، وانظر، أبو حامد الغرناطي، المغرب، ص ١٨، ومواطن متفرقة من الرحلة.

بــ المعادن والصناعات

إنّ حالة البلدان الاقتصادية تظهر فيما نقلته كتب الرّحالة الأندلسية والمغاربة، وذلك في إشارات الرّحالة البسيطة للمعادن والصناعات المختلفة، إذ عن طريقها يمكن معرفة مدى التّقدّم والرّكود في تلك العصور، وأهميّة ذلك في تهيئّة الحياة للّناس. وكانت بعض الرّحلات صورة واضحة عن الصّناعة وتوفّر المقوّمات التي تساهُم في نجاحها، والمتمثلة في المواد الخام والأيدي العاملة، وأمنّ البلاد واستقرارها.

ولم يكثُر الرّحالة من وصف الثّروة المعدنية في البلدان التي زاروها، إلّا أنّهم ذكروا الْذَّهَبُ والنَّحاسُ والنَّلْوَلُ والنِّيَاقُوتُ والنَّحْدِيدُ، والنَّفْحَمُ الْحَجَرِيُّ، وَالْقَارُ^(١)، حيث أشار بعض الرّحالة إلى وجود الْذَّهَبُ في أواسط إفريقيا، وأنّ سكان بعض القرى رغم حقارتها وبؤسها إلّا أنّهم يتعاملون "بالقناطير المقنطرة من التّبر"^(٢). وذهب بلاد الصين، لا يضاهيه في ذلك إقليم من أقاليم الأرض، وعادة التّاجر في تلك البلاد أن يسبّك ما عنده "من الْذَّهَبُ والنَّفْحَمَ قطعاً ... ويسمّون القطعة الواحدة منها بــ رِكَالَة"^(٣).

وذكر بعض الرّحالة أنّ معدن النّحاس كان يوجد في بعض المدن تحت الماء، والنّاس يستخرجونه فيسكنونه في بيوتهم، ثم يصنعون منه قضباناً رقاقةً وغلاظاً يبيعونها بالْذَّهَبُ وأحياناً يشتّرون بها حاجاتهم من الطعام والخطب والعبيد^(٤)، "وفي بحر عيذاب عيذاب مخاص على اللؤلؤ في جزائر على مقربيه منها .. ويستخرج منه جوهر نفيس له قيمة سنية ..."^(٥).

(١) انظر، البكري، المسالك والممالك، ص ٢٢، ١٦٢، ٢٣٤، وصفة جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك، ط ١، تحقيق عبد الله غنيم، ذات السلسل، ١٩٧٧، ص ٢٥، وانظر، رحلة ابن بطوطه: ٢٢٤/٢

(٢) رحلة ابن بطوطه: ٢٦٩/٢

(٣) الم المصدر نفسه: ٢٢٢/٢ - ٢٢٢، وانظر أيضاً، الم مصدر نفسه: ٢٣٢/١.

(٤) انظر الم مصدر نفسه: ٢٨٨/٢، وانظر، البكري، المسالك والممالك، ص ٢٢، ١٦٢-١٦١، ٢٣٤.

(٥) رحلة ابن جبير، ص ٤٦، وانظر رحلة ابن بطوطه: ٢٤٩/١

وصوّرت بعض الرّحلات طريقة استخراج سُكَان جزيرة سيلان للياقوت من الأرض، حيث يجدونه في أحجار مشعّبة وهي التي يتكون الياقوت في أجواهها، فيحّكها الحّاكون حتى تتفلق عن أحجار الياقوت، فمنه الأحمر، ومنه الأصفر، ومنه الأزرق^(١).

وقد أفرد أبو حامد الغرناطي في رحلته فصلاً، تحدّث فيه عن خصائص البلاد في الأحجار، بقوله: "يقال فيروز نيسابور، وياقوت سرنديب، ولؤلؤ عُمان، وزبرجد مصر، وعقيق اليمن، وجزع ظفار، ونجاد بلخ، ومرجان إفريقية"^(٢).

أما ابن بطوطة، فذكر أنه في طريقه إلى إحدى المدن، مرّ بماء "يجري على الحديد، فإذا غسل به الثوب الأبيض إسود لونه"^(٣).

وأشار بعض الرّحالات إلى معدن القار، حيث قال ابن جبير: "مرنا بموضع يعرف بالقيارة من دجلة، وبالجانب الشرقي منها، وعن يمين الطريق إلى الموصل، فيه وهدة من الأرض سوداء كأنّها سحابة قد أنبط الله فيها عيوناً كباراً وصغاراً تنبع بالقار وربما يقذف بعضها بحباب منه كأنّها الغليان، ويصنع له أحواض يجتمع فيها فتراه شبه الصلصال منبسطاً على الأرض أسود أملس، صقلاً رطباً، عطر الرّائحة، شديد التعلّك، فيلصق بالأصابع لأول مباشرة من اللّمس، وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرّقيق أسود تقدّه إلى جوانبها فيرسب قاراً .. وبمقربة من هذه العيون على شطّ دجلة عين أخرى منه كبيرة، أبصرنا على البعد منها دخاناً، فقيل لنا: إنّ النار تُشعل فيه إذا أرادوا نقله فتنشّف النار رطوبته المائيّة وتعقّده، فيقطعونه قطرات ويحملونه، وهو يعمّ جميع البلاد إلى الشّام إلى عكّة إلى جميع البلاد البحريّة .."^(٤).

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١٩٣/٢.

(٢) أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٥٨.

(٣) رحلة ابن بطوطة: ٢٨٩/٢.

(٤) رحلة ابن جبير، ص ٢٠٩، وانظر، رحلة ابن بطوطة: ١٩٩/١، ٢١٠، وانظر في استخدام النفط في الحروب، ابن الحاج النميري، فيض العباب، ص ١٣١.

وهناك إشارات أخرى بسيطة في بعض الرحلات، تشير إلى وجود معدن الزئبق في قرطبة في الأندلس^(١)، وجبال الملح في هرمز^(٢)، والنفط والغاز الطبيعي بباكونه^(٣). أما الصناعة، التي كانت معبرة عن حاجات المجتمعات، فلم تكن هذه الصناعات على مستوى واحد في مختلف البلدان والأقاليم لكنها على الأغلب صناعات خفيفة بسيطة ساعد على تطورها توافر المواد الخام النباتية والمعدنية في البلدان التي زارها الرحال، وقد أشار الرحال إلى عدد من الصناعات التي لفتت أنظارهم^(٤)، ومنها:

أولاً: صناعة المنسوجات الكثانية والحريرية والقطنية والصوفية،
التي كانت تصنع منها الملابس، وقد اشتهرت الأندلس بصناعة المنسوجات الكثانية
البديعة، التي تشبه الورق الجيد الصقل في الرقة والبياض، واشتهرت كلّ من سرقطة ولاردة
وباجة بصناعة الكتان^(٥).

أما الصناعات الهندية فهي قليلة، ومنها صناعة الخيام من الأعشاب، وصناعة ثياب
الكتان، وصناعة نسيج القطن الرقيق الذي قد يبلغ ثمن الثوب منه مائة دينار، وصناعة
الأنسجة الحريرية التي يسمونها الجزر^(٦). وأشاد البكري بجودة حرير قابس، وبالقيروان
وثيرابها الفاخرة التي كانت تقصـر بمدينة سوسة^(٧)، وعرفت الثياب العتابية المصنوعة من
من القطن والحرير ذات الألوان المختلفة التي اشتهرت في الوطن العربي والإسلامي،
وكانت

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٩٢.

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطه: ٢٤٥/١.

(٣) أبو حامد الغرناطي، تحفة الأناب، ص ٩٥.

(٤) انظر، العبادي، أحمد مختار، (١٩٨٠). "من مظاهر الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية"، مجلة عالم
التفكير، المجلد ١١، العدد (١)، ص ١٤٢-١٥٦.

(٥) انظر، الإدريسي، نزهة المشتاق، طبعة ليدن، ص ٣١٣.

(٦) انظر، رحلة ابن بطوطه: ١٣٦/٢، وانظر المصدر نفسه: ٦١/٢، ١١٠.

(٧) انظر، البكري، امسالك وامالماك، حقّقه وقدم له أدريان فان ليوفن، أندرني فيري، تونس، الدار العربية
للكتاب، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات: ١٩٩٢/٦٩١: ١٩٩٢، وانظر، مؤلف مراكشي
مجهول، الاستبصر، ص ١١٣، ١١٩.

تصنع في إحدى محلات مدينة بغداد^(١)، و Ashtonert بعض المدن بأنواع من الثياب الحريرية كالخز والديباج النفيس التّمّين، والأصبهاني والجرجاني، التي حُملت إلى كل بلد^(٢). وذكر ابن بطوطة أنّ مدينة سرمين كان "يصنع بها ثياب قطن حسان تنسن إليها"^(٣) وكانت ثياب القطن في الصين أغلى من ثياب الحرير، ذلك لأنّ "الحرير عندهم كثير جداً، لأنّ الدّود تعلق بالتمار وتأكل منها فلا تحتاج إلى كثير مؤونة ولذلك كثراً"^(٤).

وقد ربط بعض الرّحالة بين الثروة النباتية والصناعية في بعض المدن التي قصدوها، فعن شجر يسمّى بالعشر، قال التجاني: "وهو شجر ناعم شديد الخضرة يضرب إلى سوادها، وهو ينبت صعداً وله أوراق عظيمة ونور مشرق حسن المنظر كنوار الدفل وثمرة أخضر كالأتراح تماماً الواحدة يد حاملها، وهي مملوءة بشيء يشبه القطن تسمّيه العرب الخُرْفُع بضم الخاء وسكون الراء وضم الفاء، ربّما حشيت منه المرافق والوسائل وأخبرني من أثق به أنه رأى ثياباً صنعت منه"^(٥).

ونوه بعض الرّحالة بصناعة الأنسجة القطنية المعلمة بالذهب، وهي صناعة كانت تقوم بها النساء في مدينة لاذق، وهي أنسجة لا مثيل لها تطول أعمارها لصحة قطنها وقوتها غزلها^(٦). وقد لاقت المنسوجات القطنية التي حملت من اليمن شهرة كبيرة في أسواق الهند والصين^(٧).

(١) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٢٠١.

(٢) انظر، الإدريسي، نزهة المشتاق، طبعة ليدن، ص ١٩٧، وانظر، المنجد، صلاح الدين، المشرق في نظر المغاربة والأندلسين في القرون الوسطى، ط ١، بيروت: دار الكتاب الجديد، ص ٢٦، وانظر صناعة ثياب الحرير والقطن والكتان في مدينة ظفار، رحلة ابن بطوطة: ٢٣٥/١، وانظر صناعة الحرير في مدينة غرناطة، ابن سعيد المغربي، المغرب: ٤٢٤/١.

(٣) رحلة ابن بطوطة: ٦٨/١.

(٤) المصدر نفسه: ٢١٩/٢، ٢٢٣.

(٥) المصدر نفسه: ٢٦١/٢.

(٦) المصدر نفسه: ٢٦١/٢.

(٧) انظر، البكري، صفة جزيرة العرب من كتاب المسالك: تحقيق عبد الله غنيم، ص ١٢٢.

أما صناعة الأنسجة الصوفية، فقد انتشرت في العديد من المدن التي قصدها الرّحال، ويدرك أنه في عدن كانت تصنع الخبرات ومفردها حبيرة، وهي ضرب من الثياب الصوفية الملوّحة أو المخططة^(١)، وفي أقصراً -إحدى مدن آسيا الصغرى- كانت تصنع البسط من صوف الغنم^(٢). "ومن غرائب بلاد السّودان أنه ينبت عندهم في الرمال شجرة طويلة الساق دقيقة يسمونها توريري، لها ثمر كبير منتفح داخله صوف أبيض يغزل، ويصنع منه الثياب فلا تؤثر النار فيها"^(٣).

وقد تبع ازدهار صناعة المنسوجات رقيّ في الصباغة، فكانت تستورد بعض المواد من الهند والعراق والشام والجريدة، واستعمل القرمز بأرمينيا وبالأندلس واستعمل الزعفران المستخرج بالبلاد الإسلامية بجهة قطاطج^(٤)، وكان لباس أهل تاد مكة الثياب القطنية المصبغة^(٥).

وذكر بنiamين التطيلي أنّ في مدينة القدس "معلم للصباغة يستأجره اليهود من ملك القدس سنويًا، فتنحصر بهم هذه المهنة دون غيرهم .."^(٦). وربما تكمن الإشارة إلى صناعة صباغة الملابس في ملاحظة ابن بطوطة حين وصل إلى موضع فيه "إحساء ماء يجري على الحديد فإذا غسل به الثوب الأبيض اسود لونه"^(٧).

وقد صورت الرّحلات تطور الصناعة وما رافقها من ارتفاع مستوى المعيشة، وتفنّن الناس في لباسهم وأثاثهم، وتعمق العلاقات التجارية بين البلدان، حيث أشار ابن بطوطة

(١) انظر، البكري، صفة جزيرة العرب من كتاب المسالك، ص ١٢٢.

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٦٦/١، وانظر المصدر نفسه: ٣٥٧/٢، وانظر في صناعة البسط، المقرري، نفح الطيب: ٢٠١/١.

(٣) مؤلف مراكشي مجهول، الاستبصار، ص ٢٢٥.

(٤) انظر، البكري، جغرافية الأندلس، ص ١٢٧، وانظر في صباغة الملابس أيضًا، المقرري، نفح الطيب: ٢٠١/١.

(٥) انظر، مؤلف مراكشي مجهول، الاستبصار، ص ٢٢٣.

(٦) رحلة بنiamين التطيلي، ص ٩٩.

(٧) رحلة ابن بطوطة: ٢٨٩/٢.

إلى انتشار المصنوعات المصرية في بلاد السودان، وذكر أنَّ أهل إيوالاتن ثيابهم "حسان مصرية" وقال إنَّ سلطان مالي الذي كان يسمى منسي- موسى، كان إذا جلس تحت قبته أخرج من شباك إحدى الطاقات شرابة من الحرير ربط فيها منديل مصرى مرقوم، فإذا رأى الناس المنديل دقَّت الطبول ونفخت الأبواق، فكانَ هذا المنديل المصري المرقوم، شارة خاصَّة بالسلطان^(١).

وبهذا، تكون كتب الرحلات قد كشفت عن تنوع واختلاف في أشكال الملابس ومادة صناعتها، التي تسجم مع بيئة البلدان المختلفة، وتبعاً لتفاوت الأحوال الجوية من درجات حرارة وبرودة، إضافة إلى الظروف المعاشرة للسكان وأحوالهم الاقتصادية.

ثانياً: صناعة السفن

أشار بعض الرحالة إلى أنواع مختلفة من السفن والمراكب والقوارب، فمنها ما كان يستعمل فيه المسامير، ومنها ما كان يخاط بحبال الليف، ويسبق بالسمن أو يدهن بالخروع أو بدهن القرش ليلين ويرطب^(٢)، وذكرت بعض كتب الرحلات دور الصناعة لبناء المراكب وانتشارها في كثير من المدن، مثل دانية، والسودان، ومصر، وغيرها^(٣)، وألقت الضوء على أغراض استخدام تلك السفن والمراكب، مثل الصيد، والرحلات، والحروب^(٤).

وقد وصف الغزال إحدى سفن الرحلات، ومن قوله:

على ظهر غَرَبِيْ القميص نَادِ
ولبِسِ كُثُوبِ القسْ جُبْتُ سوادَهُ

غواربُ في آذِيَهِ وهَوَادِ^(٥)

قد استأخرتْ أرداَفَهُ وَمَضَتْ لَهُ

(١) انظر، المصدر نفسه: ٢٧٦/٢.

(٢) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٤٧.

(٣) انظر، الإدريسي، صفة المغرب، طبعة ليدن، ص ١٩٠-١٩٢، ورحلة ابن بطوطه: ٢٢٦/٢.

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطه: ٢٧٠/٢.

(٥) ابن الكتاني، التشبيهات، ص ١٧٤.

أما السلطان أبو عنان، فقد ألح على استعمال السفن، وكانت تحمل اسم غراب.^(١) ويرى محقق رحلة "فيض العباب" أنَّ الغراب لعله رمز في اعتقاد أبي عنان إلى الويل الذي سينزل بأهل قسنطينة المعاندين لأهل تونس^(٢)، وفي ذلك إشارة إلى اهتمام الحكماء بصناعة السفن.

وربط بعض الرَّحَالة بين الثروة الْبَنَاتِيَّة والصناعة في بعض المدن التي قصدها، فعن النَّارِجِيل، قال ابن بطوطة: "وجوزها يشبه رأس ابن آدم، لأنَّ فيها شبه العينين والفم وداخلها شبه الدماغ إذا كانت خضراء، وعليها ليف شبه الشُّعر، وهم يصنعون به حبالاً يحيطون به المراكب عوضاً عن مسامير الحديد، ويصنعون منه الجبال للمرابك".^(٣)

أما التجيبي، فقد وصف مراكب عيذاب بقوله، أنها: "بجملتها في غاية من ضعف البنية، وصورة إنشائها أنَّهم يرْكِبون الألواح بعضها على بعض، ويصلون بينها بالجزر الماسكة لذلك على صورة القرقوف، ثم يخرزونها بالقنباء، وهو ليف على الرابح - وهو الجوز الهندي - يدبر ذلك الليف إلى أن يتختيط ثم يدرس، فتفتت منه جبال، فالخشنة منها للمراسي ونحوها يدعونها بالطوانس. والرُّقاق من الجبال المذكورة لشد الألواح المراكب المذكورة دون مسمار، وإنما يخللونها بدسر من عيدان النخيل، وهو القنباء يصلح في الماء المالح، فإذا أصابه الماء الحلو أفسده، فإذا أكمل ذلك بأسره جلبطوها بدهن متَّخذ من بعض حيتان البحر ودقاق اللبان. وقيعان المراكب المذكورة عراض يصنعونها من قطعة واحدة ثم ينشئون عليها تمام المركب كما ذكرت. وشرع هذه المراكب كلُّها من حصر منسوجة من خوص شجر المقل، وإذا أشحنتها الرَّبان زاد على ألواحها نحو ثلاثة أشبار في الارتفاع من حصر ترد الموج بزعمه، فيتكامل جميعها على الصورة الغربية الشكل الضعيفة التركيب والنشأة".^(٤)

(١) انظر، رحلة ابن الحاج التميري، فيض العباب، مقدمة المحقق، ص ٩٥، وانظر أيضاً لمصدر نفسه، ص ١٦٠ وما بعدها.

(٢) رحلة ابن بطوطة: ٢٣٧/١.

(٣) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٨-٢٠٧.

وأشار ابن بطوطة إلى المراكب النهرية المستعملة في الصين المعروفة باسم أجفان، فقال: "وركبت في النهر في مركب يشبه أجفان بلاد الغزوية إلا أن الجذافين يجذفون فيه قياماً، وجميعهم في وسط المراكب، والرकاب في المقدم والمؤخر، ويظلون على المركب ثياباً تصنع من نبات ببلادهم يشبه الكتان وليس به، وهو أرق من القنب"^(١).

وذكر أيضاً أصنافاً من السفن التي كانت تصنع في الصين، ومنها الكبير ويسمى جنك وجمعه جنوك والمتوسط منها يسمى زو، والصغير يسمى ككم ويكون في المركب الكبير منها اثنا عشر قلعاً فما دونها إلى ثلاثة، ويصنع القلع من الخيزران الرفيع منسوجاً كالحصر، ويظل على الدوام منصوباً يدور مع الرياح حيث دارت، ويحتوي كلّ مركب ستمائة بحار وأربعمئة مقاتل من كلّ نوع حتى رماة النفط، ويتبع كلّ مركب كبير منها ثلاثة هي: النصفي، والثلثي، والرابع^(٢). ووصف أيضاً الجاكر وهو من سفن الهند البحرية^(٣).

وقد أسهب الرحالة الذين وصفوا السفن والمراكب في تفاصيل صناعة السفن والخشب والمسامير الضخمة التي تصنع منها، وعدد المجاذيف التي على جوانب السفينة، وعدد المجدفين، وما تحتويه من الغرف والخضر. والبقوں والزنجبيل الذي يزرعونه في أحواض من الخشب على ظهر المركب، والتقاليد الرسمية المتبعة عند سفر السفن وعودتها^(٤).

ثالثاً: صناعة الورق

تعدّ صناعة الورق على حدّ قول ابن خلدون: "من توابع العمران واتساع نطاق الدولة، حيث كثرت التأليف العلمية والدواوين، وحرص الناس على تناقلها في

(١) رحلة ابن بطوطة: ٢٢٧/٢.

(٢) انظر، الم المصدر نفسه: ١٦٦/٢ - ١٦٧/٢.

(٣) انظر، الم مصدر نفسه: ١٥٦/٢.

(٤) انظر، الم المصدر نفسه: ٢٢٤/١، ٢٢٤/٢.

الآفاق^(١)". ولعل أول ذكر لهذه الصناعة ما أورده الإدريسيـ خلال حديثه عن مدينة شاطبة في شرق الأندلس، إذ يقول: "ويعمل بمدينة شاطبة بالأندلس من الكاغد (الورق)، ما لا يوجد له نظير بعمور الأرض، وأنه يعمّ المشارق والمغارب"^(٢). وقد أبرزت بعض كتب الرحلات، أنّ من أجود منتجات بعض المدن في تلك العصور الكاغد، فقد عدت الصين من أعظم الأمم في إحكام صناعته^(٣).

رابعاً: صناعة السكر

انتشرت هذه الصناعة في كثير من المدن التي زارها الرّحالـة، مثل الأندلس، مصر، والعراق، والأهواز، وفلسطين، وعقد بعض الرّحالـة أبواباً خاصة للحديث عن السكر والحلو في تلك البلاد، فأبواحد الغرناطي تحدث عن خصائص البلاد في الحلـو، بقوله: "ويقال سكر الأهواز، وعسل أصبهان"^(٤).

وكانت مصر من أشهر البلدان في صناعة السكر^(٥)، واشتهرت الصين كذلك بصناعته وكان فيها "السكر الكثير مما يضاهي المصريـ بل يفظهـ"^(٦)، وتحدث بعض الرّحالـة عن حذق نساء السودان في صناعة القطائف والكنافـة^(٧). واحتـشت كذلك صناعة حلـواء الخروب في نابلس وكانت تجلـب إلى دمشق وغيرها، وقد وصف ابن بطوطـة كيفية عملها: "أن يطبخ الخروب، ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الـربـ فتصـنـع منه الحلـواء، ويجلـب ذلك الـربـ أيضاً إلى مصرـ والشـامـ"^(٨). ووصف أيضاً كيفية صنـع العـسل من النـارـجـيلـ بأنـ

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٢١-٤٢٢.

(٢) الإدريسيـ، نزهة المشتاقـ، ليدنـ، ص ٩٢ـ. وانظرـ، رحلة ابن بطوطـةـ: ٨٦/١.

(٣) انظرـ، رحلة ابن بطوطـةـ: ٢٢٣/٢-٢٢٤.

(٤) أبو حامد الغرناطيـ، تحـفة الألـبابـ، ص ٩٥.

(٥) انظرـ، رحلة ابن بطوطـةـ: ٤٩/١ـ، وانظرـ، ابن سعيد المغربيـ، المغربـ، قسم مصرـ: ١١/١ـ.

(٦) المـصـدرـ نفسهـ: ٢٢٢/٢ـ.

(٧) انظرـ، مؤلف مراكـشي مجـهـولـ، الاستـبـصارـ، ص ٢١٦ـ.

(٨) رحلة ابن بطوطـةـ: ٦٣/١ـ.

خدام النخل "يصعدون إلى النخلة غدوًا وعشياً إذا أراد أخذ مائتها الذي يصنعون منه العسل، وهو يسمونه الأطواق، فيقطعون العذق الذي يخرج منه الثمر، ويتركون منه مقدار أصبعين، ويربطون عليه قدرًا صغيراً فيها الماء الذي يسيل من العذق. فإذا ربطها غدوة صعد إليها عشياً، ومعه قدحان من قشر الجوز المذكور أحدهما مملوء ماء، فيصبب ما اجتمع من ماء العذق في أحد القدحين، ويغسله بالماء الذي في القدح الآخر، وينجر من العذق قليلاً ويربط عليه القدر ثانية، ثم يفعل غدوة كفعله عشياً. فإذا اجتمع له الكثير من الماء طبخه كما يطبخ ماء العنبر إذا صنع منه الرّبّ، فيصير عسلاً عظيم النفع طيباً...".^(١)

خامساً: صناعة الأسلحة

تفتقر كتب الرحلات لذكر صناعة تعدّ من الصناعات الهامة، وهي صناعة الأسلحة وتقويعها وصقلها^(٢)، رغم أنها قد استخدمت في تلك العصور بنوعيها: التقليدي، المتمثل بالسيوف والرماح والقوس، وبعض الأسلحة الثقيلة والمتطرفة، مثل الأسلحة النارية والقنابل اليدوية، والمدافع، ولعل اكتشافهم للنفط ساعد في التوصل إلى اختراع مثل تلك الأسلحة المتطرفة^(٣).

ويروي ابن خلدون أنَّ سلطان المغرب يعقوب المريني عندما هاجم مدينة سلجماسة سنة ٦٧٢ هـ نصب عليها هندام (آلة) النفط القاذف بمحضي. الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة تردُّ الأفعال إلى قدرة باريها^(٤).

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٣٨/١، وانظر في السكر والحلو، رحلة ابن جبير، ص. ٩٨.

(٢) انظر، البكري، صفة جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبد الله غنيم، ص. ١٢٢.

(٣) انظر، الغرناطي، تحفة الأنابيب، ص ١٣٣-١٣٢، ورحلة ابن بطوطة: ٣٤/١، ١٧١، ٢٧٩، ٣٤/٢، وابن الحاج التميري، فيض العباب، ص. ١٢٥.

(٤) انظر، ابن خلدون، العبر: ٧/١٨٤-١٨٥، وابن الخطيب، اللمحات البدريّة في الدولة النصريّة، تحقيق محب الدين الخطيب، القاهرة، ١٩٢٨، ص. ٧٢.

سادساً: صناعات أخرى

نوه بعض الرحّالة إلى صناعات أخرى بسيطة، مثل صناعة الصابون المطيب لغسل الأيدي -في مصر- الذي كان يصبح بالحمرة والصفرة^(١). وصناعة الفخار لا سيما في الصيف، وقد ذكر ابن بطوطه أنَّ "أهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات وأشدّها إتقاناً" فيها^(٢). واحتلّت الأواني المصنوعة من النحاس في بلاد الشام أهمية، حيث كان الرجل يجهز ابنته ويكون "معظم الجهاز أواني النحاس وبه يتفاخرون وبه يتبايعون"^(٣). وصناعة الزجاج الذي كان يصنع في العراق^(٤)، وصناعة الأواني الخشبية التي كانت تصنع في الصين^(٥)، وأواني الزيينة المصنوعة من الملح في بلاد هرمز^(٦)، وأنية الماء المصنوعة من الخزف، وتعرف بالريحية في تونس^(٧). وقد كانت بعض الأواني تتسبّب إلى المدينة التي صنعت فيها، مثلاً "إبريق مالقي"^(٨).

وأشار بعض الرحّالة إلى صناعة العطور، والأدھان العطرية، فمن عادات أهل جزائر ذيبة المهل "أنّهم إذا صلّوا الصّبح أتت كلّ امرأة إلى زوجها أو ابنتها بالملكة الورد ودهن الغالية، فيكحل عينه ويدهن بماء الورد ودهن الغالية. فتصقل بشرته وتزيل الشحوب عن وجهه"^(٩).

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٦٧/٦٨، وانظر، ابن سعيد، المغرب، قسم مصر: ١١/١.

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٢٤/٢، وانظر أيضاً، المصدر نفسه: ٢٢١/٢-٢٢٢، ٢٢٧.

(٣) المصدر نفسه: ٦٥/١.

(٤) انظر، المصدر نفسه: ٢٥٨/١.

(٥) انظر، المصدر نفسه: ٢٣٣/٢.

(٦) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٤٥/١.

(٧) انظر، البكري، صفة جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك: ٦٩٨/٢.

(٨) الفشتالي، تحفة المغترب، ص ١٧٠.

(٩) رحلة ابن بطوطة: ١٧٥/٢، وانظر، المصدر نفسه: ٢١١/١.

ومن الصناعات أيضاً، صناعة النبيذ^(١)، وصناعة كبس التمور في مكة المكرمة، حيث أشار ابن جبير إلى جودة هذا التمر وعدده بمنزلة التين الأخضر، وهو في نهاية الطيب واللذادة لا يسام التفكك به، ويخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضيعة أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين والعنب، وعند نضجه يسُط على الأرض قدر ما يجف قليلاً. ثم يركم بعضه على بعض في السلال والظروف ثم يحفظ لوقت استخدامه^(٢).

وأشار ابن بطوطة إلى صناعات اشتهرت بها مدينة بعلبك، ويبدو أنها تتفرد بصناعتها، ومن قوله في ذلك: "وبها -أي بعلبك- يصنع الدبس المنسوب إليها، وهو نوع من المربي يصنعونه من العنبر، ولهن تربة يضعونها فيه فيجمد، وتكسر القلة (الجرة) التي يكون بها، فيبقى قطعة واحدة، وتصنع فيه الحلوا، ويجعل فيها الفستق واللوز، ويسمونها حلواه الملبن، ويسمونها أيضاً جلد الفرس"^(٣).

"ويصنع ببعلك الشياب المنسوبة إليها ... ويصنع بها أولي الخشب ولما عقه التي لا نظير لها في البلاد، وهم يسمون الصحاف بالدسوت، وربما صنعوا الصحافة، وصنعوا صحفة أخرى توضع في جوفها وأخرى في جوفها إلى أن يبلغوا العشر، يخيل لرأيها أنها صحفة واحدة. وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرأً، واحدة في جوف واحدة، ويصنعون لها غشاء من جلد، ويمسكها الرجل في حزامه، وإذا حضر طعاماً مع أصحابه أخرج ذلك، فيظن رائيه أنها ملعقة واحدة، ثم يخرج من جوفها تسعاً^(٤). أما الصناعات الجلدية، فقد وجدت في اليمن جلود البقر الملممة التي يكون في جسمها بقع تخالف سائر جسدها، وتصنع من الجلود نعال مختلفة الألوان، من بياض وصفرة^(٥). وتصنع في بلاد الصقالبة، السروج واللجم والدراق؛ وهي الترس تصنع من الجلد^(٦).

(١) انظر، المصدر نفسه: ٢٩٧-٢٩٨.

(٢) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٩٩-١٠٠، وانظر، رحلة ابن بطوطة: ١٢٤/١، ١٣١.

(٣) رحلة ابن بطوطة: ٨٠/١.

(٤) رحلة ابن بطوطة: ٨٠/١.

(٥) انظر، البكري، صفة جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك، ص ١٢٢.

(٦) البكري، جغرافية الأندلس، ص ١٦٣.

ويبدو أنَّ كتب الرِّحلات قد نقلت تطُور الصناعة الذي رافق عملية التبادل التجاري فيما بعد، أمّا تلك الصناعات التي لم تتم الإشارة إليها "فَلَعْلَ ذلك يعود إلى أنها مألوفة معرفة في معظم البلدان، أو أنَّ الصناعات كانت خفيفة ليست معقدة"^(١).

ج. التجارة ووسائل النقل

صاحب نمو النشاطين الزراعي والصناعي تطُور في حركة التجارة، نظراً إلى كثرة الأنهار والبحار الصالحة للملاحة، وسهولة الطرق البرية في بعض البلدان. وقد أشار بعض الرَّحالة إلى اخضاع العرب للصحراء الكبرى واستخدامها طريقاً يصل المدن الإفريقية ببعضها ويربطها بأقطار المغرب العربي، وذكروا أنواع البضائع التي كانت تنقل على تلك الطرق وتشتمل على الأنسجة والمعادن وغيرها، وقدموا صورة واضحة للطرق البحرية المختلفة وكيفية نقل الكثير من البضائع عن طريقها^(٢).

وكان نتيجة ذلك أن كثرت الأسواق التجارية في مختلف البلاد والأقطار، فمدينة طرطوشة مثلاً^(٣) مدينة على سفح جبل ولها سور حصن أولها أسواق وعمارات وصتاع وفعله..^(٤). أمّا مدينة المرية فلعلها أكثر الموانئ الأندلسية نشاطاً "فإليها كانت تقصد مراكب البحر من الإسكندرية والشام كلُّه ولم يكن بالأندلس أيسراً من أهلها مالاً، ولا أتجر منهم في الصناعات، وأصناف التجارات، تصريفاً وادخاراً"^(٥).

وذكر الرَّحالة، التجار وأماكن نزولهم، حيث كان التجار يقيمون في الفنادق، والمساجد. فمن حديث التَّجبيبي عن مدينة قوص المحروسة، قوله: "وكان نزولنا بهذه المدينة بالخان الكبير المعروف بالفندق المكرم، وبه ينزل التجار المدعون بالأكaram. وقد كان

(١) مطلوب، أحمد، (١٩٩٩). الملامح الاقتصادية في رحلة ابن بطوطة، بغداد: دار الشؤون الثقافية، ص ١٣٣.

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٦٩-٢٨٦/٢.

(٣) الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ص ١٩٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٩٧.

عرض عليّ بعض ذي اليسار من فضلاء التجار النزول في بعض الدّيار، فرأينا أنّ النزول بالخان المذكور كان آنس لنا، وأحسن للاستفهام عن أحوال الطرقات، وإليه يقصد الجمّالون وغيرهم ممن يريد دخول الصحراء، وما رأينا قط خانًا أكبر منه وهو نوع حصن، وكلّ نوع من مساكنه مستقلّ بنفسه، غير محتاج إلى غيره وفي وسطه مسجد تصلي فيه الصلوات الخمس، وله إمام راتب^(١).

ويلاحظ من هذا القول العلاقة الوثيقة والترابط بين الأسواق والفنادق والمساجد، وكانت بعض المدن تشتمل على حيٍّ خاصٍ بالتجار الذين يفدون من جميع الجهات، ومنهم العراقي والمصري والشامي^(٢). وقد وصف الرحالة الأسواق والتنظيمات المالية والصادرات والواردات، وكلّ ما يتصل بالأعمال التجارية، وأشار بعض الرحالة إلى بعض البلدان التي كانت تقتصر في نشاطها الاقتصادي وبشكل رئيس على التجارة وحدها لما فيها من ربح عظيم، فأهل مدينة تكدا في السودان الغربي لا شغل لهم "غير التجارة، يسافرون كلّ عام إلى مصر، ويجلبون من كلّ ما بها من حسان الشياب وسوها^(٣) وأهل ظفار "هم أهل تجارة لاعيش لهم إلا منها"^(٤).

وذكر بعض الرحالة أن اقتصاد بعض البلاد كان يقوم على تجارة المقايسة، فسكن المناطق البدوية والريفية، كانوا أكثر اهتمامًا بالحيوانات منهم بالزراعة، لذا كانت تجارتهم تشمل الغنم والسمن واللبن، ففي طريق مكة إلى العراق كان العرب يأتون "بالغنم والسمن واللبن، فيبيعون ذلك من الحاج بالثياب الخام، ولا يبيعون بسوى ذلك"^(٥).

(١) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ١٧٣.

(٢) انظر، الغرناطي، تحفة الأليلب، ص ١٢٦، ورحلة ابن بطوطه: ٣٢٦/١.

(٣) رحلة ابن بطوطه: ٢٨٧/٢.

(٤) المصدر نفسه: ٢٣٤/١، وانظر، البكر، خالد عبد الكريم حمود، (٢٠٠٢). الرحلة الأندلسية إلى الجزيرة العربية من القرن الثاني حتى نهاية القرن السادس الهجري، ط ١، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ص ٨٤، ٢١٨، ٢١٩، ٢٥٥، ٢٥٦، ومواطن أخرى متفرقة.

(٥) رحلة ابن بطوطه: ١٠٥/١.

ومارس أهل نجد تجارة المقايسة مع الحجاج، وقد أورد بعض الرحالة مراكز عديدة من مراكز المقايسة، مثل "سميرة"^(١)، و "الثعلبية"^(٢)، "حصن فيد"^(٣) وكان البدو الأعراب يبادلون الحجاج الغنم والسمن واللبن بالثياب الخام وما شابها من بضائع.

ومن جانب آخر، فقد كانت تحمل السيف مثلاً إلى بلاد البلغار، وتشتري بجلود السماعر والجواري والغلمان^(٤)، أمّا في بلاد الظلمة بشرق أوروبا، فذكر ابن بطوطة أنه إذا "كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة، وترك كلّ واحد منهم ما جاء به من المtauع هناك وعادوا إلى منزتهم المعتاد. فإذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم، فيجدون بإزائه من السمور والسنجب والقاقم، فإن أرضي صاحب المtauاع ما وجده إزاء متاعه أخذه، وإن لم يرضه تركه، فيزيدونه وربما رفعوا متاعهم، يعني أهل الظلمة، وتركوا متاع التجار وهكذا بيعهم وشراؤهم^(٥). وكان أهل جزائر ذيبة المهل "يشترون الفخار إذا جلب إليهم بالدجاج، فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست"^(٦).

وألقت بعض كتب الرحلات الضوء على بعض عادات الشعوب في استقبال التجار، فقد كان عبيد السلطان في مدينة ظفار "يخرجون إلى الساحل ويصعدون إلى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله. وللربان وهو الرئيس .. وتبعث الضيافة لكلّ من بالمركب ثلاثة وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان ..."^(٧). أمّا مدينة

(١) انظر ، المصدر نفسه : ١٠٥/١.

(٢) انظر ، المصدر نفسه: ١٥٦/١.

(٣) انظر ، المصدر نفسه: ١٠٥/١.

(٤) انظر ، أبو حامد الغرناطي ، تحفة الألباب ، ص ١٣٣ .

(٥) رحلة ابن بطوطة: ٣٠٩-٣٠٨/١ .

(٦) المصدر نفسه: ١٧٧/٢ .

(٧) المصدر نفسه: ٢٣٤/١ .

جاوة، فقد كانت تهتم بالتجارة والتجار، فما أن يصل المركب إلى المرسى حتى يخرج أهل جاوة "معهم جوز التارجيل والموز والعنبة والسمك، وعادتهم أن يهدوا ذلك للتجار، فيكاففهم كل إنسان على قدره".^(١)

وكان من عادات بلاد الصين في منع التجار عن الفساد، أنه "إذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلد الصين، خير في النزول عند تاجر من المسلمين المستوطنين معين أو في الفندق، فإن أحباب الترavel عنده التاجر حصر- ماله، وضمنه التاجر المستوطن وأنفق عليه منه بالمعروف، فإذا أراد السفر بحث عن ماله، فإن وجد شيئاً منه قد ضاع أغمره التاجر المستوطن الذي ضمه... وأماماً إنفاق ماله في الفساد، فشيء لا سبيل له إليه، ويقولون: "لا نريد أن يسمع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا، فإنها أرض فساد وحسن فائت".^(٢)

ويبدو أن أمور التجارة قد نظمت، ولا سيما في القرن الثامن الهجري، فكان لكل جماعة من التجار رئيس يسمى مالك التجار^(٣)، أو أمير التجارة^(٤)، وقد "بلغت تجارة المسلمين في العصور الوسطى شأنها لم تبلغه تجارة أيّة أمّة قبل عصر الاكتشافات الجغرافية الحديثة... وكانت طرق قواقلهم تربط بين أنحاء العالم المعروف ولم تقتصر تجارتهم على ديار الإسلام بل تجاوزتها إلى كل ركن معهور، وكان لديهم ما يتجررون فيه إذ كانت بلادهم تنتج الغلات المتنوعة، وكانوا قد أصبحوا سادة الصناعة بمقاييس تلك العصور...".^(٥)

(١) المصدر نفسه: ٢١٣/٢.

(٢) المصدر نفسه: ٢٢٥/٢.

(٣) انظر، رحلة ابن بطوطه: ٨٧/٢.

(٤) انظر، المصدر نفسه: ١٦٦/٢.

(٥) الصياد، محمد محمود، ابن بطوطه، سوسة، تونس: دار المعارف للطباعة والنشر، ص ٧-٨.

أولاً: الأسواق والسلع التجارية

كان لازدهار الحركة التجارية أثر كبير في إنشاء الأسواق الكبيرة والاهتمام بها في المدن والطرق والملاسي، وعدت الأسواق مراكز اقتصادية وعنوان نشاط المدن الصناعية والتجارية والاجتماعية أيضاً، ودليل الأوضاع الاقتصادية الحضارية الراقية.

وقد رصدت كتب الرحلات الكثير من المعالم الحضارية للتجارة في مختلف البلاد التي قصدها الرحالة، حيث لفتت أنظارهم الأسواق المتصلة بين المدن، كالأسواق المتصلة من الإسكندرية إلى القاهرة، ومن القاهرة إلى أسوان^(١)، والأسواق التي كانت بين مصر والشام^(٢)، وفي طريق المدينة إلى مكّة^(٣)، وغيرها، وكانت هذه الأسواق حافلة بكل أنواع الأطعمة والفاكه وشئي أنواع البضائع، حتى أن المسافر لا يحتاج إلى أن يحمل زاداً كثيراً كما في بعض مناطق الهند والصين، حيث الأسواق المتصلة والطرق التي تكتنفها الأشجار من مختلف الأنواع، فكان الماشي بها في سوق من الأسواق^(٤).

وأشارت بعض كتب الرحلات إلى حركة الصادرات والواردات، وقدّمت صورة عن نشاط الأسواق في تلك العصور والصناعات الموجودة فيها. وترتيبها، حيث كل صناعة على حدة لا تخالطها أخرى، فهناك سوق العنبر والمسلك والجوهرتين، ولعل أطرف ما وصف به ابن بطوطة هذه الأسواق وصفه لسوق الجوهرتين في بغداد^(٥)،

(١) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١٨، ٣٥، ٤٥، ورحلة ابن بطوطة: ٣٩، ٣٧/١.

(٢) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٢١٦، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٣، ورحلة ابن بطوطة: ٥٨/١، ٦٤، ٦٣، وما بعدها.

(٣) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٩٧، ٥٧، ١٦١، ١٦٠، ١٠٠ - ٩٧، ورحلة ابن بطوطة: ١٣١، ١٢٠/١، ١٥٤، ١٥٧.

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١٥٤/٢، ٢٢٢، ٢٤٧.

(٥) انظر، المصدر نفسه: ٢٠٠/١، ٢٠٨.

وحوانيت الوراقين وصناع الأواني الزجاجية العجيبة في دمشق^(١)، وقد ذكر ابن بطوطة أيضاً أن أكثر الصناع والباعة في بعض البلدان من النساء^(٢). وأكثر الرحالة من ذكر الأماكن التي مثلت مراكز تجارية هامة، مثل مدينة قوص، المدينة الحافلة بالأسواق "متّسعة المراافق كثيرة الخلق لكترة الصادر والوارد من الحجاج والتّجار اليمنيين والهنديين، وتتجّار أرض الحبشة، لأنّها مخطر للجميع، وممطّ للرجال ومجتمع الرفاق، وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين، ومن يتّصل بهم"^(٣).

ومنها منطقة المَيْرَز الواقعه بين قوص وعيذاب، وهي منطقة فسيحة محدقة بأشجار النخيل، يجتمع فيها رحال الحاج والتّجار، وفيها يتم وزن البضائع وشدها على الجمال التي تنقلها إلى عيذاب عبر الصحراء^(٤).

ووصف العبدري أسواق تلمسان، فقال: "وبها أسواق قائمة ..." ^(٥) ومن حديثه عن البزاوة، قوله: "وفي تلك الجهة عربان كثيرة تقيم مع الركب سوقاً عظيمة ويجلبون إليها الغنم والتمر فيتسع العيش ويرخص^(٦)".

أما الأماكن المقدّسة، فقد تعددت الأسواق فيها، فمكة كانت ملتقى الحجاج والتّجار، "وملتقى الصادر والوارد .. فهي أكثر البلاد نعماً وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر"^(٧)، وفيها يوجد أسواق تجارية كبيرة، منها سوق البزازين والعطارين، وسوق

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٨٦/١.

(٢) انظر، المصدر نفسه: ٣٢٠/١.

(٣) رحلة ابن جبير، ص ٤٠، وانظر أيضاً التجيبي، مستفاد الرحلة والاغتراب، ص ١٧٣، ورحلة ابن بطوطة: ٥١/١.

(٤) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٤١.

(٥) العبدري، الرحلة المغاربية، ص ١١.

(٦) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(٧) رحلة ابن جبير، ص ٢٧، وانظر، العبدري، الرحلة المغاربية، ص ١٨٥، ورحلة ابن بطوطة: ١٥٤/١.

الدقّاقين، وسوق الخيّاطين، وسوق آخر ما بين الصفا والمروءة تباع فيه مختلف الأطعمة. وكانت هذه الأسواق تنشط في موسم الحج، وقد يستمر بعضها طوال عيد الأضحى، مثل سوق مني حيث يباع فيه الجواهر والألمعنة وغيرها^(١). وذكر الرحالة أيضاً مدينة عكا التي كانت "ملتقى تجّار المسلمين والنصارى من جميع الأفاق"^(٢).

وقد لقيت تلك الأسواق اهتماماً كبيراً بالمحافظة على الأمن في المدن، وحراسة الأسواق لا سيما في الليل، وذكر ابن سعيد المغربي أنَّ بلاد الأندلس كانت لها دروب تغلق في أول الليل بواسطة الدُّرَابين، وكان كُلُّ واحد منهم معه سلاح وكلب وسراج^(٣)، وذكر ابن بطوطة أنَّ مدينة القدس طنطينية كانت لها أسواق واسعة مفروشة بالصفائح، وكان على كُلِّ سوق أبواب تسد عليه بالليل^(٤). ولأهمية الأسواق أيضاً، فإنَّها كانت تزيَّن في المناسبات فعندما شفي الملك الناصر بمصر، من كسر أصاب يده زينَ "كُلَّ أهل سوق سوقهم، وعلَّقوا بحوانيتهم الحل واللحى وثياب الحرير، وبقوا على ذلك أيامًا"^(٥).

وقد أبدى بعض الرحالة إعجابهم في بعض الأسواق، غير أنَّ بعضهم الآخر أبدى عدم إعجابه بأسواق أخرى، ولا سيما في انعدام النظافة فيها، فمما قاله ابن بطوطة عن سوق ظفار أنها "من أقذر الأسواق وأشدّها نتنًا وأكثرها ذباباً لكثره ما يباع بها من الثمرات"^(٦) وسمك السردين. وقد استاء العبدري من عادة الأكل في بعض الأسواق والطُّرقات في دمشق^(٧).

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١٢٩/١، ١٣١، ورحلة ابن جبير، ص ٨٥، ١٥٧.

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٢٧٦، وانظر، الحميري، الروض المغطار، تحقيق إحسان عباس، ص ٤١، وجرار، صلاح، القدس في رحلات الأندلسين، بحث لم ينشر بعد، ص ١.

(٣) انظر، المقرئي، نفح الطيب: ٢١٩/١.

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٣٢٠/١.

(٥) الم المصدر نفسه: ٣٩/١.

(٦) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٣٤/٢، وانظر، المصدر نفسه: ٣٢١/١.

(٧) انظر، العبدري، الرحلة المغربية، ص ١٢٩.

ورافق ازدهار الأسواق إقامة علاقات تجارية قوية بين مختلف البلدان لا سيما بين مصر وبلاد الشام وبين البلاد العربية وغير العربية، وأفاض الرحال في الحديث عن حركة القوافل والمراكب التجارية، وصادرات وواردات بعض البلدان التي قصدها، ومن ذلك ما تنتجه مدينة توزر في التمور، ويعدّ "أخصب الانتاج بإفريقية" مثراً وتخرج منها كلّ يوم ألف حمل إلى كافة الجهات^(١)، وتصدر مدينة صفاقس "الزيت إلى مصر والمغرب وصقلية وببلاد الروم.."^(٢).

وكانت المراكب تخرج من إشبيلية محمّلة بالزيت نحو سلا وببلاد المغرب والمشرق، وكذلك حملت الثياب السوسية إلى كلّ الجهات^(٣)، وأشار بعض الرحالة إلى البصائع المستوردة عن طريق ميناء عيذاب حيث تصل سلع الهند إلى اليمن، ثم كانت تنقل من ميناء عيذاب بواسطة الجمال بطريق البر وتتوزّع إلى مناطق مختلفة، وكان أكثر ما تحمله تلك القوافل الفلفل حتى قيل لكرته، أنه رخيص الثمن يوازي التراب قيمة^(٤).

أما موز دمياط فكان يُصدر إلى القاهرة وغيرها من مدن مصر^(٥)، وكان يحمل من مدينة العالية بأرض الروم الخشب إلى الإسكندرية ودمياط، ويحمل منها إلىسائر بلاد مصر^(٦)، ومشمش قونية المسمى قمر الدين إلى ديار مصر - الشام^(٧)، وتصدر بيروت الفواكه إلى مصر^(٨)، وتحتّض مدينة المعرّة بزراعة التين والفستق الذي يحمل إلى مصر

مصر

(١) البكري، المسالك والممالك: ٧٠٨/٢.

(٢) انظر، المصدر نفسه: ٦٦٩/٢.

(٣) انظر، المصدر نفسه: ١٩١٢، والإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٧٣، ١٧٨، ٢٦، ورحلة التجاني، ص ٢٦، ومؤلف مراكشي مجهول، الاستبصار، ص ١١٩.

(٤) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٤٣.

(٥) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٣٥/١.

(٦) انظر، المصدر نفسه: ٢٥٦/١.

(٧) انظر نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٨) انظر، المصدر نفسه: ٦٤/١.

والشام^(١)، وقد كانت الصناعة والتجارة في دمشق مزدهرة، وعلى درجة عالية من التقدّم، مما أدى إلى كثرة الأسواق المتخصصة بالصناعات المتنوعة^(٢).

أما مكة المكرمة، فقد كانت البضائع الواردة إليها من الهند والحبشة والعراق واليمن وغيرها كثيرة جداً، حتى أنها تبقى الموسم كله، وما يباع في يوم واحد كفيل بإقامة الأسواق النافعة في مختلف البلاد. ومن تلك السلع التي أفادت الرّحالة في الحديث عنها: الجواهر، والياقوت، وسائر الأحجار وأنواع الطيب المختلفة كالمسك والعنبر والعود وغيرها، إضافة إلى الخيرات والأرزاق وسائر الطبيات من الفواكه وسائر البقول، والرياحين العبقة والمشومات العطرة. ويجلب إليها أيضاً من اليمن الزبيب الأسود والأحمر شديد الجودة، واللوز الكبير، ومن الفواكه والخضار: السفرجل والبطيخ والخيار والقططين واللوبياء، وسائر الحبوب، التي جلبت إليها من الطائف والقرى المحيطة بها والأودية القريبة مثل وادي نخلة وبطن مر^(٣).

وقد كانت قبائل السُّرو، وهي من قبائل اليمن التي تسكن جبال السراة، يبايعون بالحرق والعباءات والشَّمل، فيعدّ أهل مكة الأف Cunningham وملحق المتنية وما أشبه ذلك مما يلبسه الأعراب ويبايعونهم به ويشارونهم^(٤).

ورصدت بعض كتب الرّحلات صوراً لاهتمام بعض البلاد بالصيد، والطرق المستخدمة في ذلك، ففي مدينة صفاقس، كان يصطاد من السمك الكثير من الأنواع التي تفوق الاحصاء، فتمدّ بها الأسواق^(٥)، وكانت مدينة جدة تصدر الأسماك إلى مكة^(٦).

(١) انظر، المصدر نفسه: ٦٧/١.

(٢) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٢٦١، ٢٦١، ورحلة ابن بطوطة: ٨٦/١.

(٣) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٩٧-٩٩، والعبدري، الرحلة المغربية، ص ١٨٥، ورحلة ابن بطوطة: ١٢٤/١.

.١٤٨

(٤) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١١١.

(٥) انظر، رحلة التجاني، ص ٦٨، ورحلة ابن بطوطة: ١٢٣/٢، ٢٧٠.

(٦) انظر، التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

أما صيد اللؤلؤ، فيشكل دعامة مهمة من دعامتين اقتصاد بعض البلاد، وقد وصف بعض الرّحالة طريقة صيده، وبيعه وتصديره. وكان الصيادون يمدون الأسواق بما يصيدون من الأسماك واللؤلؤ^(١)، ومختلف الحيوانات، مثل الأرانب البرية التي كانت لحومها تلقى إقبالاً شديداً من سكان المملكة الغرناطية^(٢).

وذكر بعض الرّحالة قصصاً عن تجارة عظام البقر والغنم، وأنياب الفيلة التي يتخذ منها الأمشاط. وقد نالت هذه القصص اهتماماً كبيراً، وبخاصة لدى الدارسين المهتمين بعلم العجائب المختلفة^(٣).

ومارس بعض الرّحالة التجارة وعملية التصدير، فقد أشار العبدري إلى أنه كان يحمل القمح لبيعه في مكة المكرمة^(٤)، ونقل ابن بطوطة إلى الهند صناعة بعض حلوي المغرب، حيث صنع لسلطان الهند أنواعاً منها المقرضة، ولقيمات القاضي، وجلد الفرس^(٥)، أما ابن جبير فقد شاهد بنفسه محصول القمح في مدينة منفلوط الذي تميّز بجودته ورزانة حبته، وشهد أيضاً نقله بالمراكب إلى القاهرة^(٦).

ولم يقف أمر التجارة عند هذا الحد، فقد انتشرت تجارة بيع الجواري في بعض البلاد، ومن ذلك ما ذكره ابن بطوطة عن أهل بلدة تكدا في السودان، أنّ عندهم جواري مُعلمات، يحرضون عليهن كثيراً ولا يبيعونهن "إلا نادراً وبالثمن الكبير".^(٧) وفي ذلك دلالة على ما أفرزته تلك الصلات والعلاقات التجارية من فوائد مادية واجتماعية وثقافية.

(١) انظر، رحلة ابن جبير، ص٤٦، ورحلة التجاني، ص٦٨، ورحلة ابن بطوطة: ٢٤٠/١.

(٢) انظر، القشتالي، تحفة المغترب، ص٢٤، ورحلة ابن الحاج النميري، فيض العباب، ص٣٧.

(٣) انظر، أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص١٢٩، ١٢٢.

(٤) انظر، العبدري، الرحلة المغربية، ص١٨٨، ورحلة ابن جبير، ص١١٠.

(٥) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١٢٥/١-١٢٦.

(٦) انظر، رحلة ابن جبير، ص٣٥، ورحلة ابن بطوطة: ٤٩/١.

(٧) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٨٨/٢، وقد اشتهرت أسواق خاصة بالمغنيين والمغنيات، انظر، المصدر نفسه:

.٣٦١، ١٥٣/٢، ١٣٦/١

ثانياً: التنظيمات المالية

سُجّلت كتب الرحلات بعض الجوانب الإدارية التنظيمية، في العملات والأسعار، والموازين والمقاييس والضرائب والأوقاف، والعلاقات التجارية والتعامل النقدي بين الدول، ووسائل النقل المختلفة. وسجل الرحالة ملاحظاتهم عن تصرف السلاطين والحكام في شؤون الدولة الإدارية وتنظيماتها.

وألفت الرحلات الضوء على تعدد العملات النقدية في الدول والبلدان التي قصدها الرحالة، إذ لم تكن العملة موحدة بين تلك البلدان؛ لاتساع الرقعة الجغرافية، فكل دولة لها عملتها مع أن السيادة كانت للدينار والدرهم في مختلف البلاد الإسلامية، وهم يختلفان في القيمة من بلد آخر^(١).

وأشار بعض الرحالة إلى دور سك النقود، كالدار التي في مكة المكرمة، وعرفت بدار أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، ولم يشر إلى نوعية النقود المسكوكة فيها وأحجامها^(٢).

ولعل رحلة ابن بطوطة تشتمل مصدراً اقتصادياً هاماً، ألم بأهم العملات ومقارنتها بغيرها من عملات البلاد الأخرى، لا سيما العملة المغربية، وبالموازين والمقاييس، مثل الرطل العراقي، والرطل المصري، والرطل الهندي^(٣). وقد ذكر ابن بطوطة المادة التي سُكّت منها النقود، فكانت دنانير المغرب وتونس وقسنطينة من الذهب، وكذلك الدينار الهندي^(٤)، وفي جبال الروس يباع ويشتري بالصوم، وهي سبائك الفضة ووزن الصومة

(١) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٢٤، ٣٠، ورحلة ابن بطوطة: ٣٤٧/١، ٣٥٣، ١٤/٢.

(٢) انظر، البلوي، تاج المفرق: ٣١٢/١، ٣٠، ورحلة ابن بطوطة: ٢٢٣/٢.

(٣) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١٨١/١، ٨١/٢، ١٨١/٢، ٨٣.

(٤) انظر، المصدر نفسه: ١١٧/١، ١١١، ١٦٥، ٢٥٧، ١٤/٢، ٢٠٧.

منها خمسة أواق^(١)، ويتعامل الناس في مناطق أخرى بالودع^(٢)، وبالملح كما تعامل غيرهم بالذهب والفضة، حيث يقطعونه قطعاً ويتباينون به^(٣).

وقد كان لبعض البلدان عمليات محلية لا تتفق خارجها، ومن هذه المدن، ظفار حيث يتعامل أهلها بدراهم من النحاس والقصدير، لا تنفق في سواها^(٤). وبيدو من ذلك أن العملة الورقية استعملت بشكل نادر في بعض البلاد التي قصدها الرّحالة في تلك العصور، فأهل الصين لا يتباينون بدينار ولا درهم، وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد كل قطعة منها بقدر الكف^(٥).

وتضمنت كتب الرّحلات إشارات كثيرة تدلّ على صلة العملات بالخلافات والمنازعات السياسية، فكانت الدرّاهم والدنانير تتغيّر وتضرب باسم السلطان أو الحاكم الجديد أو من ادعى الحكم لنفسه، والكتابات التي عليها تدلّ على ذلك^(٦). وصوّرت كتب الرّحلات أيضاً التدهور المالي في بعض البلدان التي زارها الرّحالة، حيث أخذت بعض العملات تفقد قيمتها إلى أن توقف طبعها نهائياً^(٧).

أما الأسعار، فلم تكن واحدة في مختلف البلدان التي قصدها الرّحالة، تبعاً لاختلاف طبيعة تلك البلدان ومنتجاتها الزراعية والحيوانية والصناعية، وجاء حديث الرّحالة عن غلاء الأسعار ورخصها ومقارنته بينها لسلعة واحدة في بعض المناطق، حديثاً عرضياً،

(١) انظر، المصدر نفسه: ٣١٤/١.

(٢) انظر، المصدر نفسه: ١٧٧، ١٨٣/٢.

(٣) انظر، المصدر نفسه: ٢٦٩/٢.

(٤) انظر، المصدر نفسه: ٢٣٤/١.

(٥) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٢٣/٢.

(٦) انظر، المصدر نفسه: ٣٤٦/١.

(٧) انظر، المصدر نفسه: ٢٢٣/٢.

وإشارات بسيطة لا تشکل صورة واضحة وتمامة لجميع الأسعار والأوضاع الاقتصادية في مختلف البلدان. وإن قدّمت بعض الملامح الاقتصادية لتلك العصور^(١).

ومن مظاهر غلاء الأسعار، ما وصف به ابن جبير الظروف القاسية التي مرّت بها مكّة المكرمة سابقاً، فندرت البضائع واشتدّ الغلاء وقلّ الوافدون إليها سواء للحج أم التجارة، إلى أن تحسّنت الأوضاع على يد بعض الحكام والأمراء، ومن قوله: "ومن صنع الله الجميل لنا وفضله العميم علينا أنا وصلنا إلى هذه البلدة المكرمة فألفينا كلّ من بها من الحجاج المجاورين ممّن قدم عهده فيها وطال مقامه بها يتحدث على جهة العجب بأ منها من الحرابة المتلصّصين فيها على الحاج المختلسين ما بأيديهم..، وكانوا أيضاً يتحدثون بكثرة نعمها في هذا العام، ولن سعرها، وأنّها خارقة للعوائد السالفة عندهم. كان سُومُ المحنطة أربعة أصوات بدينار مؤمني، وهي أوبتان من كيل مصروجها، والأوبتان قدحان ونصف قدح من الكيل المغربي، ..."^(٢).

ومن السلع مرتفعة الأسعار أيضاً الفراء، ورغم ذلك فتجارته كانت رائجة جداً، وبيعت بعض أنواعه في الهند بحوالي مائتين وخمسين ديناراً، ويصل سعر بعضها إلى أربعين دينار ذهباً^(٣). وقد يشتد الأمر ويحصل القحط ويقع الغلاء في بعض البلدان. ومن أمثلة ذلك ما رأاه ابن بطوطة في بلاد الهند والسندي، حيث شاهد ثلاث نسوة يقطعن قطعاً من جلد فرس مات منذ أشهر ويأكلنه، وكانت الجلود تطبخ وتتباع في الأسواق، وكان الناس إذا ذبحت البقرة أخذوا دماءها فأكلوها"^(٤). وحاول السلاطين والأمراء

(١) انظر، البكري، المسالك والممالك، ص ٣٤، ١٤٧، ١١١، ١٥٨، ١٥٣، ورحلة ابن جبير، ص ١٠٠، ورحلة ابن بطوطة: ٣٠٠/١.

(٢) رحلة ابن جبير، ص ١٠٠.

(٣) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٣٠٩/١.

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١٠٥/٢.

مواجهة تلك الأوضاع الصعبة، واتّخاذ الإجراءات الالزمة لمعالجتها وقد أمر بعضهم بحفر آبار خارج دار الملك، وأعطوا الناس البذور لزراعتها، وما يلزم من النفقه^(١).

وأشارت بعض الرحلات إلى رخص الأسعار، ومن مظاهر ذلك ما ذكره ابن جبير عن مدينة مسينة بصفلية، وهي "مقصد جواري البحر من جميع الأقطار، كثيرة الأرفاق برخاء الأسعار ...، أسواقها نافقة حفيلة، وأرذاقها واسعة يارغاد العيش كفيلة، لاتزال بها ليلىك ونهارك في أمان"^(٢)، ووصف ابن بطوطة مدينة قسطمونية -من مدن آسيا الصغرى- بأنها "كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار.. فكنا نشتري طابق اللحم الغنمىي السمين بدرهمين، ونشتري خبزاً بدرهمين يكفيانا ليومنا ونحن عشرة، ونشتري حلواه العسل بدرهمين فتكفيانا أجمعين، ونشتري جوزاً بدرهم، وقسطلاً بمثله فنأكل منها أجمعون..."^(٣). أمّا الخيل في مدينة أزاق -من مدن شرق أوروبا- فهي "كثيرة جداً ومهنها نزر، قيمة الجيد منها خمسون درهماً أو ستون من دراهمهم، وذلك صرف دينار من دنانيرنا أو نحوه، وهذه الخيل هي التي تعرف بمصر الأكاديش ومنها معاشهم، وهي ببلادهم كالغم ببلادنا بل أكثر..."^(٤).

وممّا تجدر الإشارة إليه هنا، الموارد المالية في المدن التي قصدها الرّخالة، وعمال جبایتها والتّرتيبات الالزمة لتحصيلها، وأوجه صرفها تبعاً للظروف والحكام، حيث تزاد أو تخفّف. ومن هذه الموارد المالية التي عني بالكتابة عنها الرّخالة: الضرائب، وكانت تنقسم إلى قسمين: ضرائب مشروعة، وضرائب غير مشروعة وتعرف بالمكوس، نشأت

(١) انظر، المصدر نفسه: ٨١/٢، ٨٣.

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٢٩٦.

(٣) رحلة ابن بطوطة: ٢٨٥/١.

(٤) الم المصدر نفسه: ٢٩٩/١.

عن حاجات وظروف جديدة اضطرت الدولة إلى فرضها وتسمى بمال الهلالي لأنها تجبي مع هلال كل شهر عربيًّا بعكس إمال الخارجي الذي يجبي كل سنة^(١). وقد كانت المكوس مورداً خصباً وهاماً للدولة مع أنها تسببت في إرهاق الناس فكثُرت الظلamas والشكوى، لا سيما وأن طرق جبایتها كثيراً ما كانت تتصف بالقسوة وسوء المعاملة، وقد اشتک ابن جبیر حين زار مصر من إجباره ورفاقه الحجاج المسلمين المغاربة على دفع المكوس دون التحقق من استحقاقها، وأبدى استياءه من قسوة الإجراءات الجمركية في الموانئ وعنف وسوء معاملة التجار والحجاج القادمين إلى البلاد والخارجين منها، ورفع قضية في هذا الموضوع للسلطان صلاح الدين الأيوبي الذي قام بدوره بإزالة المكوس ورسومها^(٢).

ودفعت بعض الموارد المالية وترتيباتها إلى إثارة حفيظة بعض الرحاللة، فالعبدري حين زار الإسكندرية أثار حفيظته نظام الجمارك في تفتيش الصادر والوارد، فدعا إلى محاربة هذا المنكر^(٣). وذكر التجيبي أن الحجاج كانوا يفتشفون في عذاب، وتوخذ منهم الضرائب بحسب أحوالهم^(٤)، وأن بجدة عاملًا من قبل أمير مكة، مهمته قبض المكوس والضرائب من الحجاج، وقد أظهر التجيبي تذمّره من ذلك وقال إنّها غير مشروعة "وَاللَّهُ تَعَالَى يَصْلِحُ أَحْوَالَ الْجَمِيعِ، وَيَعْظِمُ الْأَجْرَ بِذَلِكِ، فَعَلَى قَدْرِ النَّفَقَةِ وَالنَّصْبِ يَكُونُ الْأَجْرُ"^(٥). وطبق نظام المكوس في بعض البلاد تطبيقاً صارماً، حيث كانت تفتتش القواقل

(١) انظر، المقرizi، تقى الدين أحمى بن علي بن عبد القادر، (ت ٨٤٥هـ). المواقع والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، دار التحرير، مطبعة النيل، القاهرة، مصر، ١٣٢٤هـ/١١١١.

(٢) انظر، رحلة ابن جبیر، ص ٣٠، ١٣، والعبدري، الرحلة المغربية، ص ٩٤، والبلوي، تاج المغرق: ١٩٧/١.

(٣) انظر، العبدري، الرحلة المغربية، ص ٩٣.

(٤) انظر، التجيبي، مستفداد الرحلة، ص ٢٠٦.

(٥) انظر، المصدر نفسه، ص ٢٢٠.

والمراكب تفتيشاً دقيقاً، وكان يتقاضى الربع من كلّ ما يجلبه التجار^(١). وقد أخذت بعض البلدان، كبلاد البلغار الجزية والخرج من الولايات التابعة لها^(٢).

واهتممت بعض الحكومات بجباية الزكاة من تجار المسلمين، والعشر. من تجار الكفار، في حين أنه في بعض البلاد الأخرى كانت تجبى الضرائب لا الزكوة^(٣). كما أخذ الحكام والسلطانين يهتمون بالماكن الجمركيّة على حدود البلاد، فقد أشار ابن بطوطة إلى مراكز التفتيش الجمركيّ على الطريق المؤدية إلى الشام لا سيّما مركز قطيا حيث "تؤخذ الزكاة من التجار، ونفيص أمتعتهم، ويبحث عما لديهم أشدّ البحث، وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود. ومجابها في كل يوم ألف دينار من الذهب، ولا يجوز عليها أحد إلى الشام إلا ببراءة من مصر ..." ^(٤).

وقد وضع السلاطين والأمراء الأنظمة الإدارية التي تسهم في انتشار الأمن والاستقرار في البلاد، حيث عين السلاطين الموظفين، والقضاة والمحاسبين، "وكان فرض الضرائب على الأسواق من أهمّ واجبات المحتسب، لذلك تجتمع المهن في الأسواق لتسهيل الجباية وتنظيم التجارة"^(٥)، وكذلك سنت إجراءات رسمية لدخول المراكب والقوافل للبلاد والخروج منها، مثل تفتيش الركاب أو التحقيق معهم، ورصد أسماء المسافرين قبل خروجهم، فإذا عادوا يتم مقابلة ما كتب بأشخاص الناس^(٦).

ولم تخفل بعض الدول عما يمكن أن يحدث من عمليات التهريب لداخل البلاد أو خارجها، لذا اتّخذت بعض الإجراءات الاحتياطية لمواجهة ذلك، ومنها ما وُكّلت به

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١٩/٢.

(٢) انظر، أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ١٣٠.

(٣) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٣٨، والتجميبي، رحلة مستفاد الرحلة، ص ٢١٩، ٢٠٦، ورحلة ابن بطوطة: ٣٠٠/١.

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٥٢/٥٣.

(٥) البهنسى، عفيف، (١٩٩٠). العمارة العربية، الرباط: المجلس القومى للثقافة العربية، ص ٣٩.

(٦) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٤٤/٢٢٥.

الحكومات المصرية القبائل العربية بحفظ الطرق، وذلك بأن "يسحوا على الرمل وقت الليل حتى لا يبقى به أثر ثم يأتي الأمير صباحاً فينظر إلى الرمل فإن وجد أثراً طالب العرب بإحضار مؤثره فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم، فيأتون به الأمير، فيعاقبه بما شاء"^(١).

أما الأوقاف، فكانت لخدمة الفقراء وأبناء السبيل، وينفق منها على الزوايا والمتصوفة والفقراء وطلاب العلم، وكانت تساعد في تجهيز البناء إلى زواجهن، ورصف الطرق، وتعويض من كسر آنيته، ومنها أوقاف على العاجزين عن الحج^(٢). وتحدث ابن بطوطة عن ما يشبه الجمعيات أو المؤسسات التي تقدم الكثير من الخدمات والمساعدات للمحتاجين وهي جماعة الأخية، وأحد الأخية أخي على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه، وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية.. وكانت هذه الجماعة تقيم في الزوايا^(٣).

ومن هذا الرصد المالي العام، للجبائية والعشر والزكاة والعشر والضرائب، والخاص من هدايا وأعطيات تبادلها الملوك والأمراء والوزراء والتجار الكبار، والخلع والصدقات الواسعة للخطباء والمؤذنين "كانت الدولة تقوم بأوجه النفقات المختلفة، مثل، نفقات القصور الخلافية أو السلطانية، وأرزاق الجندي، ورواتب الموظفين والإنفاق على الحملات العسكرية والمعدات الحربية، ونفقات المشروعات العامة مثل حفر الترع والقنوات وظهورها ..."^(٤)، وترميم المدن وأسوارها وما تحتاج إليه من مهم أمرها^(٥).

أما وسائل النقل، فقد انعكس الازدهار الزراعي والصناعي على نشاطها في المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط، ونهر النيل ودجلة والفرات، وغيرها من الأنهر

(١) المصدر نفسه: ٥٣/١.

(٢) انظر، المصدر نفسه: ٩٦، ٩٤، ٤٩، ١/١.

(٣) انظر، المصدر نفسه: ٢٥٧/٢٨٢، ٢٨٢، ٢٦٢.

(٤) العبادي، أحمد مختار، (١٩٨٠). "من مظاهر الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية"، عام الفكر، المجلد ١١، العدد (١)، ص ١٣١.

(٥) انظر، رحلة التجاني، ص ٢٣٨.

والبحار، ونشطت حركة الموانئ وكثُر الحطّ والإقلاع فيها بمختلف البضائع. وقد عدّت ملاحظات بعض الرّحالات عن طرق المواصلات، وثيقه مهمة لفهم المعارف البحريّة في القرون الوسطى، حيث تحدّثوا عن مراحل رحلاتهم ومرورهم بموانئ مختلفة، ووصفهم للسفن الصغيرة والكبيرة، وما يحمل عليها من الغلات والبضائع، بالإضافة إلى تحديد المسافة بين كل مرحلة وأخرى^(١).

وأشار الرّحالات إلى طريق الحجّ الذي قطعوه، حيث سافر بعضهم عن طريق البر، وبعدهم استقلّ المراكب التي كانت تقطع البحر المتوسط، وقدّمت الرّحالات صورة واضحة عن وسائل النقل وتطورها في تلك العصور: الخيول والبغال والحمير، والجمال والفيلة، والبقر والعربات والمراكب الصغيرة والكبيرة^(٢).

وكانت الخيول والبغال والحمير، أكثر الدّواب استخداماً في السّفر، لذا كثُرت في بعض البلدان ورخصت أسعارها، وكان يستخدمها الناس لانتقالهم داخل المدن، وفي الجبال والأرض الوعرة، ومن ذلك، الطريق المؤدي من حصن مهتولي أول عمالة الروم إلى القدس طينيّة، ويقول ابن بطوطة: "ولا يسافر من هذا الحصن إلا بالخيول والبغال، وتترك العربات لأجل الوعر والجبال"^(٣).

(١) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١٢-٩، ١٨١، ١٨٧-٢٨٣، ٢٨٥-٢٨٣، ومواطن أخرى متفرقة في الرحلة، وانظر، التجيبي، مستفاذ الرحلة، ص ٢١٦-٢٠٧، وانظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٢٧/١، ٢٢٧/٢، ٣٢١، ١٦٦/٢، ١٧١، ٢٨٣.

(٢) انظر، الإدريسي، نزهة المشتاق، ليدن، ص ٣، والبلوي، تاج المفرق: ٢١٨/١، والعبدري، الرحلة المغربية، ص ٨٦، ١٥٣-١٥٦، ومواطن أخرى متفرقة، وانظر، رحلة التجاني، ص ٢٧، ٦٨-٦٦، ٣٢، ٢٢٧/١، ٢٢٧/٢، ٣٠٢، ٢٦٦، ٩/٢، ٩٩، ١٠١، ١٤١، ٢١١، ٢٣٣.

(٣) رحلة ابن بطوطة: ٣١٥/١، وانظر، المصدر نفسه: ٢٢٥/١، ٢٩٩، وابن سعيد المغربي، المغرب، القسم الخاص بمصر: ٦-٥/١.

وأشار بعض الرّحالة إلى استخدام الجمال وسيلة للنقل في الصحراء، وخاصة بين قوص وعيذاب سواء لنقل البضائع الصادرة أو الواردة، أو نقل المسافرين من التجار والحجاج وغيرهم، وذلك لصبرها على الظُّمَر في الصحراء القاحلة، ويكون النقل على نوعين: "المسافرون ذوو التّرفية الشّقاديف"، وهي أشباه المحامل، وأحسن أنواعها اليمانية لأنّها كالأشاكيز^(١) السّفريّة مجلّدة متّسعة، يوصل منها الاثنان بالحبال الوثيقة وتوضع على البعيرولها أذرع قد حفت بأركانها يكون عليها مِظْلة، فيكون الراكب فيها مع عديله في كِنْ من لفح الهاجرة ويقعد مستريحاً في وطأته ومتكتأً ويتناول مع عديله ما يحتاج إليه من زاد وسواه ويطالع متى شاء المطالعة في مصحف أو كتاب. ومن شاء، ممّن يستجيز اللعب بالشطرنج، أن يلاعب عديله تفكّهاً وإجماماً للنفس. وبالجملة فإنّها مريحة من نَصَب السّفر، وأكثر المسافرين يركبون الإبل على أحmalها، فيكابدون من مشقة سumont الحرّ غَمّاً ومشقة^(٢).

واستخدمت العربات والعجلات في السّفر والنقل لا سيّما في الأراضي الصحراويّة، وقد استخدم ابن بطوطة العجلة في سفره^(٣)، وكانت تجرّها الخيول والجمال، والكلاب الكبار لا سيّما في بعض البلاد التي يكثر فيها الثلج والجليد، فالكلاب لها أظفار تساعده في تثبيت أقدامها في الجليد^(٤). ومن الوسائل الأخرى التي عرفت في الهند، الدّولة التي يحملها العبيد على رقبتهم، ويبدو أنّها تشبه السرير^(٥).

وحين أخذت رقعة الدّولة الإسلاميّة تتّسّع، احتاجت العواصم إلى معرفة أخبار الأقاليم التابعة لها؛ لذا عنيت الدّول بنظام البريد، ووصف ابن بطوطة بريد الهند ومن قوله:

(١) شيء كالأدّيم أبيض، توثق به السّروج، انظر، رحلة ابن جبير، ص ٤٢، حاشية رقم ٣٣، ولم أجده لها أصلًا في لسان العرب.

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٤٢، وانظر، ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص ٤٠.

(٣) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٩٥/١، ٢٩٦-٢٢٧.

(٤) انظر، المصدر نفسه: ٣٠٨/١.

(٥) انظر، المصدر نفسه: ٨٥/٢، ١١٣.

والبريد ببلاد الهند صنفان، فأما بريد الخيل فيسمونه الولاق، وهو خيل تكون للسلطان في كل مسافة أربعة أميال، وأما بريد الرجال، فيكون في مسافة الميل الواحد منه ثلاث رتب، ويسمونها الدّاواة. والدّاواة هي ثلث ميل، والميل عندهم يسمى الگروة، وترتيب ذلك أن يكون في كل ثلث ميل قرية معمرة، ويكون بخارجها ثلاث قباب، يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة قد شدّوا أواسطهم، وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين بأعلاها جلاجل نحاس، فإذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى، وخرج يشتدّ ممتهنًا جهده، فإذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأبهوا له، فإذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده...^(١).

وقد نقلت بعض كتب الرحلات صوراً لاهتمام الحكام والسلطانين بطرق المواصلات والحفظ على أنها وحماية التجار وبضائعهم، فوضعوا نقاط التفتيش والحراسة، حيث كانت التجارة تتعرض للصوص وقطاع الطرق الذين كانوا يأخذون أموال المسافرين ويتركونهم ولا يقاتلون إلا من قاتلهم. وكانت بعض القبائل العربية تحافظ على أمن وسلامة المسافرين، فلا سبيل لسفرهم إلا وهذه القبائل في صحبتهم، وقد سارت هذه القبائل مع ابن بطوطة ورفاقه عندما خرجوا من النجف إلى البصرة^(٢).

إن توفر وسائل الأمن والسلامة للمسافرين والحجاج والتجار وبضائعهم، وتأمينهم بواسطـلـلـلـنـقـلـلـلـمـخـلـفـةـ، دليل على ما اتسمـتـ به تلكـ البلـادـ فيـ تـلـكـ العـصـورـ منـ مـظـاهـرـ الحـضـارـةـ، وـقـوـةـ السـلـطـةـ المـرـكـزـيـةـ فـيـهاـ، الـأـمـرـ الـذـيـ دـفـعـ الـكـثـيـرـيـنـ لـزـيـارـةـ مـعـظـمـ الـبـلـدانـ والـانتـقالـ منـ بلدـ لـآخـرـ.

رابعاً: النشاط العماني

إن إنشاء المدن والمراکز العمانيّة الإسلاميّة في المشرق والمغرب، أمر رافق حركة الفتوحات الإسلاميّة، لتكون تلك المراکز العمانيّة مراكز إشعاع حضاريّ، فالبناء من

(١) المصدر نفسه: ٩-٨/٢

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطـةـ: ٥٣/١، ١٦٧، ٢٤٧.

مستلزمات المدينة والتحضر. يقول ابن خلدون: "والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران، فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل".^(١)

وقد تضمنَت الرحلات معلومات وفيرة عن الآثار المعمارية، ومرافقها من مظاهر حضارية، مما لا يوجد إلا نادراً في كتب التاريخ، وبذلك تشَكُّل الرحلات مصدرًا هاماً يعكس صورة النشاط العماني في مختلف البلدان، ويقدم صورة لبعض الآثار المعمارية التي اندثرت ولا يعرف عنها شيء كالزوايا.^(٢)

وتتلاقى صور الفن المعماري لمختلف الأماكن التي وصفها الرحالة، ضمن الأطر العامة في وصف المدن ومظاهر العمران المختلفة والتتجديفات العمانيَّة، حيث وصف الرحالة بعض الأماكن مسهيَّن، أما بعضاها الآخر فإنَّ حضورها كان عجلًا، وأشار إليها الرحالة إشارات سريعة، غير أنَّ هذه الإشارات قد أبرزت إعجاب الرحالة منقطع النظير بتلك الأماكن وعبروا أيضًا عن إدراكهم لقيم الجمال في الفن المعماري في تلك العصور من خلال تصويفهم الجغرافي لتلك الأماكن.

وقد حفظت كتب الرحلات كثيراً من النصوص الدالة على جوانب الإبداع العماني في العمارة المدنية: المدن ومرافقها المختلفة كالمساجد والزوايا والمدارس والفنادق^(٣)، والبيمارستانات، والحمامات، وغيرها والعمارة الحربية، كالحصون والقلاع والأسوار^(٤). وما رافق ذلك من مظاهر حضارية، كالنواعير^(٥) والساعات، والزخرفة والتصوير والنقوش.

(١) ابن خلدون، المقدمة: ٦٦٢/١.

(٢) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٨٠-٨٢، ٢١٢، ٢٣١، ١٤٤/٥، والتجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٤٥٦، ٢٤٥، وابن رشيد، ملء العيبة، ٦٧، ٤٠/١، ورحلة ابن بطوطة: ٦٧، ٢٣١، ١٦٦، ١٦٢، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٦، ومواضع أخرى متفرقة من الرحلة.

(٣) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٥٢/١.

(٤) انظر، الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ١٠٣، ١٣٨، ١٣٩، ورحلة ابن جبير، ص ٤٥، ٢٤٥، ٢٢٥، ٢٢٢، ٢٢٨، والتجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٣٠٤، والبلوي، تاج المفرق: ٢٩٠/١، ٣١٩-٣١٨، ٣٠٩-٣٠٨، ورحلة ابن بطوطة: ٧٣-٧٢/١، ١١٩، ٢٠٩، مواطن أخرى متفرقة من الرحلة.

(٥) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١٥٣/٢، وابن الحاج النميري، فيض العباب، ص ٢٦-٢٠.

ويستشفّ حسن البناء وإتقانه وروعة العمran من وصف الرّحالة للمدن والبلدان التي نزلوا فيها، ومنها مدينة الإسكندرية وأثارها التي أشارت دهشة وإعجاب الرّحالة القلصادي، حيث يقول: "والمدينة من أحسن البلاد ترتيباً وبناء، وجدرana بالحجر الأبيض المنجور وسـكـكـها كلـها عـلـى نـسـقـ نـافـذـةـ مـتـسـعـةـ، يـعـلـمـ مـنـ ذـلـكـ أـنـهـ مـنـ تـخـطـيـطـ حـكـيمـ، وـمـنـ عـجـائـبـهاـ التـيـ فـيـهاـ السـارـيـةـ خـارـجـ بـابـ السـدـرـةـ، اـكـتمـلـتـ فـيـ أـحـدـ جـوـانـبـ الـقـاعـدـةـ التـيـ هـيـ عـلـىـ عـشـرـينـ شـبـراـ، وـهـيـ مـرـبـعـ مـتـسـاوـيـ الـأـصـلـاعـ ..."^(١). أمّا مناراتها، فهي من المعالم الحضارية في البناء العمري، ومن عجائب الدنيا "مبنيّة بالصخر المنحوت مربعة الأسفل، وفوق المنارة المربعة منارة مثمّنة مبنيّة بالأجر، وفوق المنارة المثمّنة منارة مدورة وكانت كلـها مـبـنـيـةـ بـالـصـخـرـ الـمـنـحـوـتـ ..."^(٢). وأمّا داخلها فعجيب، "اتساع معارج، ومداخل وكثرة مساكن، حتى إنّ المتصرف فيها والوالج في مسالكها رـيـضاـ ضـلـلـ ...".^(٣).

ووصف البلوي المدينة المنورة بأنّها: "متّسعة الأرجاء مشرقة الأنحاء طيبة الهواء كثيرة النخيل ولماء ممتدة التخطيط والاستواء، حسنة الترتيب والبناء .."^(٤) ولعلّ ما ذكره الرّحالة الأندلسيون والمغاربة عن العمran يختلف أنواعه وأشكاله التي تمثّلت في البناء المحكم للآبار والعيون وأماكن الوضوء ليدلّ على أنّ المدينة المنورة كانت مزدهرة البناء^(٥)، وقد أشار بعض الرّحالة للآثار المعماريّة القديمة التي خربت ثم عمل على تجديدها فأصبحت من المدن الكبيرة المزدهرة، ومنها مدينة جدّة^(٦).

(١) رحلة القلصادي ، ص ١٢٨.

(٢) أبو حامد الغرناطي، رحلة تحفة الألباب، ص ٧٠-٧١.

(٣) رحلة ابن جبير، ص ١٤-١٥.

(٤) البلوي، تاج المفرق: ٢٩٠/١.

(٥) انظر، العبدري، الرحلة المغاربية، ص ٢٠١، والبلوي، تاج المفرق: ٢٩١/١، ورحلة ابن بطوطه: ١١١/١، ١١٩.

(٦) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٥٣-٥٤، والتجميبي، مستفاد الرحلة، ص ٢١٨-٢٢٠، ورحلة ابن بطوطه: ١٠٥/١، وانظر، الأنصاري، عبد القدس (١٩٨٠). موسوعة تاريخ مدينة جدّة، ط ٢، جدة، ص ٥٨-٧٣.

وعن مدينة تونس، قال العبدري: "وهذه المدينة كالأها الله من المدن العجيبة الغريبة، وهي في غاية الاتساع ونهاية الإتقان والرخام بها كثير، وأكثر أبواب ديارها معمول به عصائد وعتباً وجل مبانيها من حجر منحوت محكم العمل ولها أبواب عديدة وعند كل باب منها ربع متسع على قدر البلد المستقل"^(١).

وقدم بعض الرحالة للدارسين والباحثين صورة عن أسلوب العمارة في بناء القصور، فابن الحاج وصف القصور في العصر المريني، شكلها والأسوار التي تحيط بها، وأحجارها التي لا تستجيب لقذائف المتجانق، وذكر الأبراج التي انتصبت على أبواب تلك القصور^(٢).

وقد أولى الرحالة الأماكن المقدسة اهتماماً كبيراً، حيث بدأوا حديثهم عنها بالاستهلال بذكر فضائل تلك الأماكن المقدسة، ثم ولجوا إلى التوصيف الجغرافي. ومن هذه المعالم الدينية المقدسة، مكة المكرمة، وبيت المقدس، وبعض المساجد والمزارات والزوايا في مختلف البلدان التي قصدها الرحالة^(٣). وأخذت بعض هذه الأماكن حيزاً كبيراً من الوصف، مثل المسجد الحرام، وذلك لما له من مكانة في نفوس المسلمين، فقد وصفه ابن جبير مسهياً، ومما قال فيه: "البيت المكرم له أربعة أركان. وهو قريب من التربيع.. وارتفاعه في الهواء من الصفح الذي يقابل باب الصفا، وهو من الحجر الأسود، إلى الركن اليماني، تسع وعشرون ذراعاً وسائل الجوانب ثمان وعشرون... وداخل البيت الكريم مفروش بالرخام المجزع، وحيطانه رخام كلها مجزع. قد قام على ثلاثة أعمدة من الساج مفرطة الطول، وبين كل عمود وعمود أربع خطأ.. ودائر البيت كلّه من نصفه الأعلى مطلي بالفضة المذهبة المستحسنة، يخيّل للناظر إليها أنها صفيحة ذهب لغلوظها..

(١) العبدري، الرحلة المغربية، ص ٤٠.

(٢) انظر، ابن الحاج التميري، فيض العباب، ص ٢١٧-٢١٨.

(٣) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١٦٨-١٧٣، ٢٢١، ٢٠٥، ٢٣٥، ١٥٣-١٤٩، مواطن أخرى متفرقة من الرحلة، والعبدري، الرحلة المغربية، ص ١٤٩-١٤٦، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٢، مواطن أخرى متفرقة من الرحلة، ورحلة ابن بطوطة: ١٠٩، ٨٦-٨٢، ٧٠/١، مواطن أخرى متفرقة من الرحلة.

ووقف البيت مُجلل بكساء من الحرير الملوّن ..^(١). وذكر الرّحالة أثناء وصفهم أسوار مكة المكرمة وأبوابها المتعددة.

أما مدينة القدس، فهي مدينة كبيرة منيعة من صخر منحوت على نشز، والممسجد الأقصى متّسعة جداً طولاً وعرضًا، ونقل العبدري عن البكري، أنّ طوله سبع مائة واثنان وخمسون ذراعاً، وعرضه أربع مائة وخمس وثلاثون، وله أبواب كثيرة في حدوده الشمالية والغربية والشرقية، والممسجد كله فضاء غير مسقف، إلا الناحية الغربية فهناك مسجد مسقف في نهاية الأحكام وإتقان العمل وفيه تزويق كثير وتذهيب رائع مليح...^(٢).

وذكر العبدري أنّ قبة الصخرة المشترفة من أعجب المباني الموضوعة في الأرض وأتقنها، "وصفتها أنّها قبة مثمّنة على نشز في وسط المسجد ويطلّ إليها في درج من رخام، وقد أحاط بها، ولها أربعة أبواب والدائر مفروش بالرّخام المحكم الصّنعة.."^(٣).

وقد أشار بعض الرّحالة إلى بعض التجدييدات والإصلاحات العمرانية لبعض الأماكن المقدّسة والمعالم الدينية والمدنية، مما يدلّ على العناية التاريخية بها ومدى اهتمام الحكام والأمراء، الأمر الذي يؤكّد الرؤية الخاصة تجاه هذه المعالم المباركة من قداسة وتبجيل، ومن التجدييدات الوارد ذكرها في كتب الرّحلات: تجديد مئذنة المسجد الجامع في قرطبة وزيادة القباب التي تقوم على هيكل عقود بارزة متشابكة في أشكال هندسية رائعة^(٤). ومنها أيضًا السور الذي أحاط بجنة المكرّمة، ويرى العبدري أنّه عبارة عن

(١) رحلة ابن جبير، ص ٨٦-٥٩، وانظر، العبدري، الرحلة المغاربية، ص ١٧٤-١٨٠، والتّجبيي، مستفاد الرحلة، ص ٢٣٣ - ٢٤٨ . والبلوي، تاج المفرق: ٣٠٧ - ٢٨٣/١، ورحلة ابن بطوطة: ١٢٤/١ - ١٣٠.

(٢) العبدري، الرحلة المغاربية، ص ٢٢٩، والبلوي، تاج المفرق: ٢٤٧/١ - ٢٥١، ورحلة ابن بطوطة: ٦٠/١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٣٠.

(٤) انظر، البكري، جغرافية الأندلس، ص ١٠٤-١٠١، والإدريسي، نزهة المشتاق، ص ١١، والمقرري، نفح الطيب: ٥٦٣، وسام، السيد عبد العزيز، (١٩٨٦). المساجد والقصور بالأندلس، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ص ٣٤-٣٨، وانظر، مورينو، مانويل جوميث، (١٩٠٠). الفن الإسلامي، ترجمة لطفي عبد البديع، القاهرة: الدار المصرية، ص ١٦.

حائطين من الصخور لا ملاط لها قطعا الوادي عرضاً في أعلى مكة وأسفلها^(١).

وكذلك تجديد القبة العظيمة أمام محراب المسجد الأقصى وقد "أمر بتجديده هذا المحراب المقدس، وعمارة المسجد الأقصى الذي هو على التقوى مؤسس عبد الله ووليه يوسف بن أيوب المظفر الملك الناصر صلاح الدين والدنيا عندما فتحه الله على يديه في شهور سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة وهو يسأل الله إيزاعه شكر هذه النعمة، وإجزال حظه من المغفرة والرحمة"^(٢). ويعلق على ذلك كامل العسلي بقوله: "وهذا النقش مسجل تسجيلاً دقيقاً .. وقد اختفى النقش بعد الحريق المتعمّد الذي شبّ في المسجد الأقصى سنة ١٩٧٩"^(٣).

وسجل الرّحالة ما وجدوه من نقوش على شواهد القبور، ومن ذلك ما سجله العبدري من نقش وجد على قبر الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه كتب فيه: "توفي الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه في ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة ومولده في ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين"^(٤)، ومنها أيضاً نقش قبر فاطمة بنت أسد ونصّه "ما ضمْ قبر أحد كفاطمة بنت أسد"^(٥). وكانت بعض النقوش تؤرّخ لأحداث تواجه قوافل الحجيج، وهذه النقوش تكتب على بعض الصخور في الطرق، ومنها ما كتب على بعض الصخور في طرق الحجاز، كتب فيها سبب هلاك قافلة من الحجيج بسبب ريح السّموم^(٦).

(١) انظر، العبدري، الرحلة المغربية، ص ١٧٣.

(٢) البلوى، تاج المفرق: ١، ٢٨٨، ٢٤٨-٢٤٧.

(٣) العسلي، بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، ص ٧٥.

(٤) العبدري، الرحلة المغربية، ص ٢٠٤.

(٥) رحلة ابن جبير، ص ١٧٤، وابن رشيد، ملء العيبة: ١٩٥، وانظر أيضاً، رحلة ابن بطوطة: ٩٥/١.

(٦) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١٤١، ١٠٥-١٠٤، وقد سجل الرّحالة الأندلسية والمغاربة عدداً ليس بالقليل من تلك الزخارف والنقوش، ومنها ما كان شواهد القبور أو ما كان لتسجيل حادثة ما، وانظر في ذلك أيضاً، رحلة ابن جبير، ص ٦٤، ٦٥، ٦٩، ٨٥، ٨٤، ١٤١، ١٧٣، ١٧٤، والتّجبي، مستفاد الرحلة والاغتراب، ص ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٤٨، ٣٥٩، والبلوى، تاج المفرق: ٢٨٥/١، ٢٨٧-٢٨٥.

ومن المعالم الحضارية التي نقلتها بعض كتب الرحلات، البيوت المتنقلة التي كانت تحملها العربات، حتى إذا نزل المسافرون مكاناً أنزلا البيوت أيضاً، وذكر ابن بطوطة أنه " يجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق. وهي خفيفة الحمل، وتكتسي باللبد أو بالملف، ويكون فيها طيقات مشبكة، ويرى الذي يدخلها الناس ولا يرونها، ويتحقق فيها كما يحب، وينام ويأكل ويقرأ ويكتب..."^(١).

وأشارت كتب الرحلات إلى بعض المؤسسات الاجتماعية التي عرفتها المدن الإسلامية، ومنها الحمامات العامة، وعدت كتب الرحلات مصدرًا هاماً لحصول من خلاله على صورة جلية لتلك الحمامات في تلك العصور. وقد قال ابن جبير عن هذه الحمامات: إنها " مطالية بالقار مسطحة فيخيل للناظر أنه رخام أسود صقيل.." ^(٢).

ومم توقف أهمية تلك الحمامات على أنها مؤسسة لنظافة الجسد فقط، بل إنها مراكز طبية هامة في المدن الإسلامية، فكان إذا دخل المريض الحمام عَد ذلك إيداناً بشفائه^(٣).

أما البيمارستانات، فقد حظي المرضى بقسط كبير من الاهتمام والرعاية في المدن الإسلامية في العصور الوسطى، وجاءت هذه الرعاية مصحوبة بإنشاء هذه المستشفيات لمعالجة المرضى، ومنها البيمارستان الذين شيده نور الدين زنكي في دمشق، واعتبره ابن جبير " مفترع عظيم من مفاخر الإسلام"^(٤)، "وله قَوْمَة بِأَيْدِيهِمُ الْأَرْمَةُ الْمُحْتَوِيَّةُ عَلَى أَسْمَاءِ الْمَرْضِ وَعَلَى النَّفَقَاتِ الَّتِي يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا فِي الْأَدْوِيَةِ وَالْأَغْذِيَةِ وَغَيْرِ ذَلِكِ، وَالْأَطْبَاءِ يَبْرُرُونَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَيَتَفَقَّدُونَ الْمَرْضِ وَيَأْمُرُونَ بِإِعْدَادِ مَا يَصْلِحُهُمْ مِنَ الْأَدْوِيَةِ وَالْأَغْذِيَةِ حَسِبِمَا يَلِيقُ بِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ"^(٥).

(١) رحلة ابن بطوطة: ٢٩٦/١.

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٢٠٤-٢٠٥، ورحلة التجاني، ص ٢٣٧-٢٣٨، ورحلة ابن بطوطة: ١٩٩-٢٠٠.

(٣) انظر، رحلة التجاني، ص ١٠.

(٤) رحلة ابن جبير، ص ٢٥٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٠١، ورحلة ابن بطوطة: ٤٠١.

وقد خصّت الأقسام في البيمارستانات تبعاً لجنس المرض، ومنها أقسام للمصابين بأمراض عقلية، "وللمجانين المعتقلين أيضاً ضرب من العلاج، وهم في سلسل موثقون.." ^(١).

ومن المعالم الحضارية الأخرى التي تمثل ارتباط الصناعة بالعمارة، الساعات العجيبة التي لفتت أنظار الرّحالّة، فقد وصف ابن جبیر ساعة دقّاقة في دمشق، وهي "غرفة ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيّان صفر قد فتحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار ودبرت تدبّراً هندسياً، فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجبتان من صفر من فمي بازّين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر تحت كلّ واحد منها: أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب، والثاني تحت آخرها، والطاستان متقوّبان، فعند وقوع البندقين فيهما تعودان داخل الجدار إلى الغرفة، وتبصر البازّين يمداّن أعناقهما بالبندقين إلى الطاستين ويقدّفانهما بسرعة بتدبّر عجيب تخيله الأوهام سحراً، عند وقوع البندقين في الطاستين يسمع لهما دويّ، وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر؛ لا يزال كذلك عند كلّ انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الأبواب كلّها وتتقضي الساعات، ..." ^(٢).

أما الفنون وال تصاوير والزخارف، فقد تحدّث الرّحالّة عن التصوير على الفخار وتزيين القصور والمساجد بالزخارف والفصيوفسae ^(٣)، وقد حذّر أهل الصين في التصوير

(١) رحلة ابن جبیر، ص ٢٥٦-٢٥٥، وانظر المصدر نفسه، ص ٢٦، والتجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٤-٥، ورحلة ابن بطوطه: ٢٠٠/١، وقد تحدّث بعض الرّحالّة عن استخدام الأعشاب والنباتات وغيرها في الطب والعلاج، انظر، الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٩٠، ١٣١، ورحلة ابن بطوطه: ٣٤٩/١، ١٧٥/٢.

(٢) رحلة ابن جبیر، ص ٢٤٣-٢٤٤، وانظر، إشارات أخرى مثل هذه الساعة، ابن الحاج التميري، فيض العباب، ص ٨٧.

(٣) انظر، الإدريسي، نزهة المشتاق، طبعة ليدن، ص ٢٠٩، ورحلة ابن جبیر، ص ١٧٢، ٢١٠، والغرناتي، تحفة الألباب، ص ٦٣-٦٤، ورحلة ابن بطوطه: ٨٢/١، ٥٠/٢.

حيث لا يجاريهم فيه أحد، وقال ابن بطوطة في ذلك: "ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك، أئي ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت إليها، إلا ورأيت صوري بصورة أصحابي منقوشة في الحيطان والكواجد، موضوعة في الأسواق ..."^(١).

وأشار ابن بطوطة إلى ما يشبه مسرح الفرجة أو الأضحوكة، حيث دخل الشّعراء على سلطان مالي وكلّ واحد منهم في جوف صورة مصنوعة من الريش تشبه الشّقشاق، وجعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر كأنه رأس الشّقشاق. ويقفون بين يدي السلطان بتلك الهيئة المضحكة، فينشدون أشعارهم .."^(٢).

على هذا النحو، أخذت أعين الرّحالات ترصد وتسجل كلّ ما يرونـه في فنـ العمارة الإسلامية، ما كانت عليه وما طرـأ عليها من تغيرات أو زوال، أو تجـيدات أو إصلاحـات، وكانت هذه الأوصاف على جانب كبير من الأهمـية في علم الآثار والفنـون.

بـ- السياق الاجتماعي والديني

ركـزت الرـحالات على العلاقة بين المكان والإنسـان، فرسمـت صورـاً للحياة الاجتماعية، والتـأثير الدينـي الذي كان عنصـراً مشـتركـاً بين الرـحالـة بـصفـة عـامـة، وأـلـقـت الرـحالـات أيضـاً الضـوء على كلـ ما لـفت اـنتـباـه الرـحالـة من أـحوالـ المـعيشـة، وما بلـغـتهـ الحياة من رـقيـ في أـوسـاطـ فـئةـ الحـكامـ والأـمـراءـ، والأـغـنيـاءـ من التـجـارـ وكـبارـ المـوظـفينـ. وصـورـتـ الرـحالـاتـ المـحطـاتـ الـهـامـةـ في حـيـاةـ الإـنـسـانـ: الـمـيلـادـ وـالـزـواـجـ وـالـمـوتـ، وكـلـ ما يـرـتـبطـ بهـذـهـ الـمـنـاسـبـاتـ منـ مـظـاهـرـ اـجـتمـاعـيـةـ وـاحـتـفـالـاتـ بـالـمـنـاسـبـاتـ السـعـيـدةـ أوـ الـحزـيـنةـ، وما يـرـافقـهاـ منـ العـادـاتـ وـالتـقـالـيدـ وـالـبـدـعـ وـالـمـعـقـدـاتـ الـتـيـ قدـ تـخـتـلـفـ منـ بلدـ إـلـىـ آخـرـ بـنـسـبـ مـتـفـاوـتـةـ فـيـهاـ وإنـ كـانـتـ مـتـشـابـهـةـ فـيـ مـخـتـلـفـ الـبـلـدانـ، غـيرـ أـنـ لـكـلـ بلدـ خـصـوصـيـتـهاـ.

(١) رحلة ابن بطوطة: ٢٢٤/٢.

(٢) المصدر نفسه: ٢٨٠/٢.

وكان ما قدّمه الرّحالة أشبه ما يكون بمزيج بين الرّحلة والأنثوغرافيا التي تسعى إلى تقديم توصيف موضوعي للشعوب وعاداتها وتقاليدها وأخلاقها وطريقة لباسها وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية، فقد اتجه الرّحالة إلى استخلاص أسلوب الحياة في البلدان التي قصدوها من خلال استقراء وتحليل القيم والأفكار والجوانب المادية أو الروحية التي تشتمل بدورها الأسلوب الحياتي للناس ومعاملهم التراثية، ويتبّع هذا التراث طابعاً شعبياً يمثل لغة مشتركة لدى الجميع، وبه تدرس المجتمعات بنواحيها الإنسانية والتاريخية والاجتماعية والدينية والfolkloric والمعتقدات الشعبية لها، وقصص الشيوخ والأولئك والحكايات الأسطورية والخرافية، وحكايات الحيوان، فجاءت الرّحلات مصدراً هاماً لوصف الثقافات الإنسانية.

أولاً: العادات والتقاليد والملابس

روى الرّحالة كثيراً من عادات وتقاليد ولباس أهل البلاد التي نزلوا فيها، ومنها عادة أهل الشام في السّلام، التي تجري كيفيتها بالانحناء على نحو ما يفعل في الركوع والسبود^(١)، وكذلك عادة رفع السودانيين عمامتهم عن رؤوسهم عندما يتكلّم السلطان^(٢). أمّا أهل مكة فيتحلّون بمكارم الأخلاق وحميد العادات، ومن عاداتهم في ليالي رمضان، تزيينهم الأسواق وضربيهم الطبلول وتهليلهم وتكبيرهم وطوافهم^(٣).

ويبرز المؤثر الشّعبي عند أهل ظفار من خلال عاداتهم الحسنة، ومنها "التصافح في المسجد إثر صلاة الصّبح والعصر، ويستند أهل الصّف الأول إلى القبلة ويصفحون الذين يلونهم وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة يتصلّون أجمعين"^(٤)، وكان في "كل دار من دورهم سجادة الخوص معلقة في البيت يصلّي عليها صاحب البيت، كما يفعل أهل

(١) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٢٦٩.

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطه: ٢٧٨/٢.

(٣) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١١٠-١٠٦، ورحلة ابن بطوطه: ١٤٦/١، ١٥١.

(٤) رحلة ابن بطوطه: ١، ٢٣٥/١.

المغرب^(١)، وممّا له صلة بالمعتقد الشعبي أيضًا لدى أهل هذه المدينة "أنه لا يقصدها أحد بسوء إلا عاد عليه مكروره وحيل بينه وبينها"^(٢).

ومن العادات الدينية المرتبطة بالمعتقد الشعبي، ما نقل عن أهل قرية خارج مدينة صور - في بلاد الشام -، أن بعض أهلها أراد الوضوء "فبدأ بغسل رجليه ثم غسل وجهه ولم يتمضمض ولا استنشق، ثم مسح بعض رأسه - فانتقد ابن بطوطة فعله - فقال له الرجل: إن البناء إنما يكون ابتداؤه من الأساس"^(٣).

وأشارت كتب الرحلات إلى بعض العادات الدّالة على تدين بعض الشعوب، ومنها، أنّهم لا يعترضون القوافل في رمضان، وإذا طلب إنسان غريماً له فلجاً إلى المسجد أو إلى الخطيب، لم يطلبـه احتراماً للمسجد وشيخه، حتى السلطان نفسه يترك غريمـه إذا لجأ إلى المسجد أو الخطيب^(٤)، ولا يتعرضون مال الغرباء أو مال الميت حتى يأخذ مستحقـه شرعاً^(٥).

ومن العادات الـّديـمية التي لاحظ بعض الرحـالة انتشارـها، وتنافـيها مع طبيـعة الـّديـن وتعالـيمـه في المجتمعـات الإـسلامـية، تعاطـي الحشـيشـ، وشرـب الخـمرـ^(٦)، ويبدو أنـ العادة الاجتماعية المـحلـية أقوى تأثيرـاً من الأثر الـّديـنيـ، ففي بعض الـّبلـدان يرى أهلـها أنـ الجـسـد المـتـعرـيـ من الأمـورـ التي لا تـتعـارـضـ مع مـمارـسةـ الشـعـائـرـ الإـسلامـيـةـ، وكـذلكـ العلاقاتـ القـائـمةـ علىـ الاـخـلاـطـ والـصـدـاقـاتـ بـينـ الرـجـلـ وـالـمـرأـةـ دونـ أنـ يـرىـ فيـ ذـلـكـ عـيـاـ أوـ

(١) المصدر نفسه: ٢٣٥/١.

(٢) المصدر نفسه: ٢٣٥/١.

(٣) المصدر نفسه: ٦٤/١.

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطـةـ: ٢٨١/٢.

(٥) انظر، المصدر نفسه: ٢٧١/٢، ٢٨٢.

(٦) المصدر نفسه: ٢٥٦/١، ٢٨٨، والمـقـرـيـ نـقـلاـ عنـ ابنـ سـعـيدـ، نـفحـ الطـيـبـ: ٢٠٩/٢، ٣٤٩ـ، وـابـنـ الخطـيبـ، نـفـاضـةـ الجـرابـ، صـ ٢١، ١٨٣ـ.

شذوذًا أو خروجًا على العادات والتقاليد، وأن النسوة السافرات يخالطن الرجال وينفردن بهم وفي الوقت ذاته يحرصن على أداء الصلوات كاملة^(١).

وفي ما يلي اعتبر جسد المرأة مصدراً للغذاء وإشباعاً للبطن، ويعد هذا إلى عادات متوارثة قديمة، يقول ابن بطوطة: "قدّمت على السلطان منسي سليمان، جماعة من هؤلاء السودان الذي يأكلونبني آدم، معهم أمير لهم ... فأكرمهم السلطان وأعطاهم في الضيافة خادمة فذبحوها وأكلوها، ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمها وأتوا السلطان شاكرين، وأخبرت أن عادتهم متى ما وفدو عليه، أن يفعلوا ذلك، وذكر لي عنهم أنهما يقولون: إن أطيب ما في لحوم الآدميات الكف والثدي"^(٢).

وقد يبدي الرّحالـة سخطـهم على بعض صفات أهل المناطق التي قصـدواها، وينعـتونـها نـعوتـاً فيها مـبالغـة وـتحـاملـ، ورـبـما يـعودـ ذلكـ إـلـى طـبـيعـة وـتـكـوـينـ شخصـيـةـ الرـحالـةـ الحـادـدـةـ أوـ قدـ تـشـيرـهمـ بـعـضـ العـادـاتـ وـالـأـخـلـاقـ الـبعـيـدةـ عنـ الـدـينـ فيـ بـعـضـ الـمـجـمـعـاتـ الـإـسـلـامـيـةـ، فـيـ الـبـالـغـونـ فـيـ نـيـذـهـاـ وـإـنـكـارـهـاـ، وـمـنـ ذـلـكـ تـعـلـيقـ ابنـ جـبـيرـ عـلـىـ صـفـاتـ أـهـلـ بـغـدـادـ: "قـلـ تـكـادـ تـلـقـيـ مـنـهـمـ إـلـاـ مـنـ يـتـصـنـعـ بـالتـوـاضـعـ رـيـاءـ، وـيـذـهـبـ بـنـفـسـهـ عـجـباـ وـكـبـرـيـاءـ، يـزـدـرـونـ الـغـرـبـاءـ، وـيـظـهـرـونـ مـنـ دـوـنـهـمـ الـأـنـفـةـ وـالـإـبـاءـ وـيـسـتـصـغـرـونـ عـمـنـ سـوـاهـمـ الـأـحـادـيـثـ وـالـأـنـبـاءـ، قـدـ تـصـوـرـ كـلـ مـنـهـمـ فـيـ مـعـنـقـهـ وـخـلـدـهـ أـنـ الـوـجـودـ كـلـهـ يـصـغـرـ بـالـإـضـافـةـ لـبـلـدـهـ.. كـلـهـمـ لـاـ يـعـتـقـدـونـ أـنـ اللـهـ بـلـادـاـ أـوـ عـبـادـاـ سـوـاهـمـ.."^(٣).

وصورـتـ كـتـبـ الرـحالـاتـ بـعـضـاـً مـنـ الـبـدـعـ الـدـينـيـةـ وـالـمـعـقـدـاتـ الـخـاطـئـةـ^(٤) الـتـيـ شـاعـتـ بـيـنـ النـاسـ فـيـ تـلـكـ الـعـصـورـ، وـمـنـهـاـ وـجـودـ هـضـبةـ فـيـ بـدـرـ يـسـعـيـ النـاسـ لـصـعـودـهـ بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٧٢-٢٧١/٢.

(٢) رحلة ابن بطوطة: ٢٨٤/٢، وانظر عن العادات المختلفة، المصدر نفسه: ٢٦٢- ٢٦١/١، ١٧٩-١٧٥/٢.

.٢٧١

(٣) رحلة ابن جبير، ص ١٩٤، وانظر مثل ذلك، وصف العبدري لأهل القاهرة، الرحلة المغربية، ص ١٢٧.

(٤) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١٧٢، وابن رشيد، ملء العيبة: ١٣١/٥، ٢٦٤، والتجيبي، مستفاد الرحلة،

ص ٣٥٦-٣٥٣، ٢٨٩، ٢٦٥-٢٦٤.

دخولهم لمكان يزعمون أنه الغار الذي أوى إليه الرسول صلى الله عليه وسلم، وصاحبه عند هجرتهما إلى المدينة المنورة، وأشار العبدري إلى عدم صحة ذلك لوجود الغار في جبل ثور على مقربة من مكة^(١)، وتعلق عواطف نواب على ذلك، فتقول: "وهذا يدل على انقطاع المعرفة بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت من قبل العامة"^(٢). ومن البدع الدينية أيضاً، تعدد الأمة بالحرم المكي المكرم، حيث لكل مذهب من الأربع إمام ومؤذن، وموقف خاص لمصلى أهل مذهبه^(٣). ومن المعتقدات الخاطئة أيضاً أن الصحراء تسكنها الشياطين، وأن الشياطين يستدرجون الدليل الذي يسير بمفرده حتى يضل طريقه ويهرك في الصحراء^(٤). كما شاعت بعض البدع التي استمرت حتى الوقت الحاضر، مثل زيادة ماء زمز ليلة النصف من شعبان^(٥) وعدم وقوع الحمام على الكعبة المشرفة^(٦)، وتفشت عادة التبرك بقبور الأولياء والصالحين وصحابة^(٧) رسول الله الله صلى الله عليه وسلم.

ومن هنا، فإن "المعتقدات ذات المدلول الأسطوري والديني الخارق، تختلط فيها الجذور الدينية بالخيال البشري وتصوراته، وترتبط بعض المعتقدات بالأساطير أو بالواقع التي هي أشبه بالخيال، والتي لا يستطيع المنطق العقلي تصديقها، ويلجأ البعض إلى القول

(١) انظر، العبدري، الرحلة المغربية، ص ١٦٤، ١٨٦.

(٢) نواب، عواطف محمد يوسف، (١٩٩٦). الرحلات المغربية والأندلسية، الرياض: مكتبة املك فهد الوطنية، ص ٢٢١.

(٣) انظر، التجبيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٩٥، ٢٩٧.

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٧٠/٢ وانظر عن الخرافات والأساطير والمعتقدات الخاطئة رحلة أبي حامد الغناطي، تحفة الألباب، حيث تكثر فيها مثل هذه الأمثلة.

(٥) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١١٨-١١٩، والعبدري، الرحلة المغربية، ص ١٧٥-١٧٦، والتجبيبي، مستفاد الرحلة، ص ٣٢٠-٣١٦، ورحلة ابن بطوطة: ١٤٩-١.

(٦) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٧٦-٧٥، ورحلة ابن بطوطة: ١٢٦/١.

(٧) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٢٢-٢١، والعبدري، الرحلة المغربية، ص ٢٠٣-٢٠٥، والتجبيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٨٩، والبلوي، تاج المفرق: ٢٢٢/١، ٢٢٥-٢٢٤، ورحلة ابن بطوطة: ١٣٠/١.

إن هذه الظاهرات لا يفسّرها سوى الدين أو بعض التّصورات الفلسفية الصوفية، ونتيجة ملمس نتائجها من قبل الناس أصبحت من المعتقدات الهامة التي تسيطر على العقلية الشعبيّة أكثر من غيرها من المعتقدات الأخرى، ولعلّ مرجع هذه المعتقدات أو مصادرها تعود إلى بعض الحكايات النادرة والحوادث التي دونتها شعوب المناطق^(١).

أما الملابس، فقد حفلت بعض كتب الرّحلات بالكثير من الإشارات إليها، وأخذ الرّحالة يصفونها وهو يتنقلون من مكان إلى آخر، وكان لكلّ منطقة أو جماعة زينتها الخاصة بها، وربما دلّ تنوع تلك الألبسة واختلافها وتفاوتها بين الحكام والطبقات الغنيّة، وطبقة عامة الشعب على الحالة الاقتصاديّة والوضع الاجتماعيّ في تلك العصور.

وقد كانت الطبقات الحاكمة والغنيّة تتفاخر بمحظوظ الملابس، وتبالغ فيها، لا سيّما في المناسبات والأعياد ومراسيم التشریفات الرسميّة^(٢). وكان لبس بعض علماء مصر مثلاً "عباءة صوف خشنة، وعمامة صوف سوداء"^(٣)، ولباس القاضي الخطيب في مكة ثياب سوداء^(٤)، في حين ساد اللون الأبيض ثياب أهل مكة^(٥)؛ أمّا لباس أهل ظفار فهو القطن، يشدّون الفوط في أوساطتهم عوض السروال، وأكثراهم يشدّ فوطة في وسطه، وتجعل فوق ظهره أخرى من شدّة الحرّ ويغتسلون مرات في اليوم..^(٦) ووصف التجيبيّ قوماً من اليمن "ليس عليهم من اللباس إلا ما يواري سوأتهم خاصة"^(٧).

(١) الباش، حسن، والسهلي، محمد توفيق، (١٩٨٠). المعتقدات الشعبيّة في التراث العربي، دمشق: دار الجيل، ص ١٥٧.

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطه: ١/٣٠٤، ٢/٦٢، ٣٤١، ٢٨٨، مواطن آخر متفرقة من الرحلة، وابن الحاج النميري، فيض العباب، ص ٢٨٥، ٢٨٨، وابن الخطيب، خطرة الطيف، ص ٥٣.

(٣) رحلة ابن بطوطه: ٤/١.

(٤) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١٣٥.

(٥) انظر، المصدر نفسه، ص ٧٤-٧٥.

(٦) رحلة ابن بطوطة: ١/٢٣٥.

(٧) التجيبي، مستفاذ الرحلة، ص ٢٦٧، وانظر رحلة ابن جبير، ص ١١٢، والعبدري، الرحلة المغربية، ص ١٨٥.

ويذكر العبدري أن كلّ امرأة من نساء الأعراب في أرض برقة -ببلاد طرابلس- لا بدّ لها من خرقه تسد لها على وجهها، ويسمّونها البرقع، وهي تتخلل الناس مكشوفة الرأس والأطراف، حافية القدمين لا تهتم بستر ما سوى وجهها، كأنّ ليس لها عورة سواه، فلا تزال تلك الخرقة عرضة للاتساع ومرصداً لعارض الأوساخ^(١).

وأظهرت بعض كتب الرحلات ارتباط الملابس ببعض المناسبات، فالحزن له لباس^(٢)، وللمظلومين ثياب يلبسونها حتى ترفع عنهم الظلامنة^(٣)، ولأيام المطر والبرد أثواب من الصوف يستعد الناس للبسها أثناء انتقالهم من بلد إلى آخر^(٤).

وقد صورت بعض كتب الرحلات حرص أهل بعض المدن على النظافة، نظافة البدن والثوب حتى إنّه "لو لم يكن لأحدhem إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة"^(٥).

كما ألقت بعض كتب الرحلات الضوء على بعض عادات أصحاب الفرق الإسلامية المتعددة في المدن الإسلامية فيما يتعلق باللباس، ومن ذلك لبس أصحاب بعض تلك الفرق أطواق الحديد^(٦). وكانت بعض قبائل الصين تجعل في آذانها أقراطاً كبيرة، وتكون فتحة القرط منها نصف شبر، ويتلحفون في ملائف الحرير^(٧).

(١) العبدري، الرحلة المغاربية، ص ٨٦-٨٧.

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٨٨/١، ٢٣٧/٢.

(٣) انظر، المصدر نفسه: ٤٠/٢.

(٤) انظر، المصدر نفسه: ٣١٣/١، ٣٢٥.

(٥) المصدر نفسه: ٢٨٢/٢.

(٦) انظر، المصدر نفسه: ٣٥٧/١.

(٧) انظر، المصدر نفسه: ٢٨٤/٢.

إنَّ عين الرِّحَالَةِ اللاقِطةِ مُثِلُّ هذَا التَّنوُّعِ وَالْاِخْتِلَافِ فِي الْلِّبَاسِ فِي مُخْتَلِفِ الْبَلَدَانِ
الَّتِي تَنَقَّلُ فِيهَا الرِّحَالَةُ، قَدْ قَدِمَتْ مَا يُشَكِّلُ أَهْمَىَ كَبِيرَ لِعَلَمَاءِ
الأنثروبولوجيا^(١) وَالْفُولْكُلُورِ الشَّعْبِيِّ^(٢).

ثانيًاً: الأطعمة والأشربة

أَظْهَرَتْ بَعْضُ كَتَبِ الرِّحَالَاتِ أَنَّ النَّاسَ عَامَةً فِي مُخْتَلِفِ الْبَلَدَانِ يَتَفَقَّوْنَ فِي كَثِيرٍ مِّنِ
الْأَطْعَمَةِ وَالْأَشْرَبَةِ وَالْعَادَاتِ الْمُتَبَعَّةِ فِيهَا، غَيْرُ أَنَّ اِخْتِلَافَ الْوَضْعِ الْإِقْتَصَادِيِّ وَالْمَسْتَوِيِّ
الْإِجْتِمَاعِيِّ لِبَعْضِ الْبَلَدَانِ يَظْهُرُ التَّفَاقُوتُ أَحيَانًاً، فَطَعَامُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ يَخْتَلِفُ عَنِ
الْعَامَةِ. وَقَدْ كَانَ طَعَامُ بَعْضِ السَّلَاطِينِ طَعَامَيْنِ، طَعَامُ الْعَامَةِ وَطَعَامُ الْخَاصَّةِ، وَمَجْلِسُ
كُلِّ إِنْسَانٍ لِلطَّعَامِ مُعِينٌ لَا يَتَعَدَّاهُ وَلَا يَزَاحِمُ أَحَدًا^(٣).

وَسَلَّطَتْ بَعْضُ الرِّحَالَاتِ الضَّوءَ عَلَى طَعَامِ بَعْضِ السَّلَاطِينِ فِي رَمَضَانَ، حِيثُ كَانَ
بعضُهُمْ يَفْطَرُ عَلَى ثَرِيدٍ فِي صَفْحَةٍ صَغِيرَةٍ عَلَيْهِ الْعَدْسُ مَسْقُى بِالسَّمْنِ وَالسَّكَرِ،
وَيَقْدِمُونَ الثَّرِيدَ تَبَرِّكًا بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٤)، أَمَّا مَوَائِدُ بَعْضِهِمُ الْآخَرِ
فَقَدْ كَانَتْ مَلِيئَةً بِالدَّجاجِ الْمَشْوِيِّ وَفَرَّاحِ الْحَمَامِ، وَالْخَبَزِ الْمَعْجُونِ بِالسَّمْنِ، وَالْكَعَكِ
وَالْحَلْوَى وَمُخْتَلِفَ أَنْوَاعِ الْفَوَاكهُ^(٥) فِي حِينٍ اتَّصَفَ بَعْضُ السَّلَاطِينِ بِالْبَخْلِ، إِذَا لَا يَقْدِمُونَ
يَقْدِمُونَ مَا يَسْتَحِقُّ التَّقْدِيرِ فِي الْوَلَاتِ^(٦).

(١) الأنثروبوجيا: دراسات الشعوب، وأدواتها، وطرز مساكنها، وأنواع الألبسة... إلخ. انظر، سليم، شاكر مصطفى، ١٩٨١).

قاموس الأنثروبوجيا، ط١، جامعة الكويت، ص ٢٧٠، ٢٢٤، ٣١٤.

(٢) انظر، فهيم، حسين (١٩٨٧). "التِّراثُ الشَّعْبِيُّ فِي أَدْبِ الرِّحَالَاتِ"، مجلَّةُ الْمَأْثُورَاتِ الشَّعْبِيَّةِ، العددُ (٥) -السَّنَةُ الثَّانِيَةُ، ص ٧٤-٨٣، وانظر كتابه، أدب الرحلات، دراسة تحليلية من منظور أنثوجرافي، ص ٤٩-٧٤، ١١٧-١٢٩.

(٣) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٦٦/٢٦٦، ٢٦٦/٢.

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٦٠/١.

(٥) انظر، المصدر نفسه: ١/٣٣٤، وانظر أيضًا في ترتيبات موائد الطعام، المصدر نفسه: ١/٣١١، ٢/٢١.

(٦) انظر، المصدر نفسه: ٢/٢٧٥-٢٧٦، وانظر أيضًا عن البخل، رحلة التجاني، ص ٨٥-٨٧.

ووصف لسان الدين بن الخطيب، أنواع المأكولات والمشارب التي ملأت موائد أهل جبل هنناته^(١) احتفاء بهم، فقال: "ولم يكدر يقرّ القرار، ولا تنزع الخفاف، حتى غمر من الطعام البحر، وطما الموج، ووقع البهت، وأمل الطهو، ما بين قصاع الشيزي فأعمها الثرد، وهيل بها السمن، وتراءكت عليها السمان الحملان الأعجاز، وأخونة تنوء بالعصبة أولي القوة، خاصة من الأننية بالمبذب والممحكم، مهديّة كلّ مختلف الشكل، لذيد الطعم، مهان فيه عزيز التابل، محترم عنده سيدة الأحاحمة الثلاثة، إلى السمك الرضراض والدجاج فاضل أصناف الطيّار، ثم تتلوها صحنون نحاسية تشتمل على الطعام خاصّ من الطير والكبّاب واللقالق.. وييتلو ذلك من أصناف الحلواه بين مُسْتَبْطَن للباب البر، ومعالج بالقلو، وأطباق مُذخر الفاكهة... وقد قام السماط من خدام وأساودة أخذتهم الآداب وهدّبّتهم الـدُّربة فخفتّ منهم الحركة.." ^(٢).

ولعلّ من أشهر الموائد، تلك المائدة التي ذكرها ابن العربي، ومن قوله فيها: "شاهدت المائدة بطور زيتا^(٣) مراراً وأكلت عليها ليلاً ونهاراً، وذكرت الله سبحانه فيها سرّاً وجهاراً، وكانت صخرة صلداء لا تؤثر فيها المعامل و كان الناس يقولون مسخت صخرة.. والذي عندي أنها صخرة في الأصل وقطعت من الأرض محلّاً للمائدة النازلة من السماء، وكلّ ما حولها حجارة مثلها وكان ما حولها محفوفاً بقصور، وقد نحتت في ذلك الحجر الصلب بيوت أبوابها منها، ومجالسها منها مقطوعة فيها..." ^(٤).

وقد ألقى بعض كتب الرحلات الضوء على بعض العادات المتّبعة في الطعام، وفيها عادة أنّ المرأة في بعض البلدان "لا تأكل مع زوجها، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة"^(٥). ومن عادات سكان بعض المدن في رمضان تناولهم طعام الإفطار في دار السلطان^(٦).

(١) انظر الدراسة هنا ص ٤٥، الحاشية ١.

(٢) ابن الخطيب، رحلة خطرة الطيف، ص ١١٧.

(٣) طورزيتا "جبل مشرف على المسجد (مسجد القدس) وفيما بينهما وادي جهنم". انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٤/٤٨.

(٤) المقرري، نفح الطيب: ٢/٣٧.

(٥) رحلة ابن بطوطة: ٢/١٧٨.

(٦) انظر، لمصدر نفسه: ٢/٦٥-٦٦.

أما الأشربة، فيبدو أنّ اللبن مادة غذائية هامة في معظم البلدان التي قصدها الرّحالة، فقد اشتهرت مدينة دمياط في مصر بها، وألبانها "لا مثل لها في عذوبة الطعام وطيب المذاق"^(١)، وفي السودان الغربي طعامهم اللبن والعسل بالدرجة الأولى. "وهو الصيافة الكبيرة عندهم"^(٢). ومن جانب آخر، فقد أشارت بعض كتب الرّحلات إلى انتشار القحط والفقير والمجاعات والأوبئة في بعض البلدان، وفقدان الأرواح الكثيرة نتيجة ذلك^(٣).

ثالثاً: صورة المرأة

أظهرت كتب الرّحلات صورة (المرأة المثقفة الشاعرة) صاحبة العلم وراوية الأحاديث، والحربيّة على أداء الفريضة وزيارة المدينة المنوره^(٤) ويصف ابن جبير يوم طواف النساء فيقول: "أفرد البيت للنساء خاصة، فاجتمعن من كلّ أوب .. ولم تبق امرأة بمكة إلا حضرت المسجد الحرام ذلك اليوم ... وأفرج الناس لهنّ عن الطواف وعن الحجر ولم يبق حول البيت المبارك أحد من الرجال تبادر النساء إلى الصعود، ... وتسلسل النساء ببعضهنّ ببعض وتشابكن حتى تواقعن، فمن صائحة ومعولة ومكّرة ومهللة، ..."^(٥)، وصوّرت الرّحلات كذلك حرص المرأة في بعض المدن على أداء صلاة الجمعة في المساجد، وقد وصف ابن العربي نساء مدينة نابلس بقوله: "... فإني أقمت فيها أشهر، فما رأيت امرأة في الطريق نهاراً إلا يوم الجمعة، فإنّهن يخرجن حتى يمتلئ المسجد منهن،

(١) المصدر نفسه: ٣٥/١.

(٢) المصدر نفسه: ٢٧١/٢.

(٣) انظر، التّجبيبي، مستفداد الرّحلة، ص ٣٢٧، ورحلة ابن بطوطه: ٩٢/١، ١٢٨، ٩٢٥، ٥٤/٢، ٢٣٥، ١٤٩، ٨٣، ٢٥٠، ١٤٩. ٢٥١.

(٤) انظر، هذه الدراسة، ص ٧١، والحاشية رقم ٣، من الصفحة نفسها، ورحلة ابن بطوطه: ٣٥٠/١، والبكر، خالد، الرّحلة الأندلسية إلى الجزيرة العربية، ص ٥٤-٥٢.

(٥) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١١٦-١١٥، ورحلة ملء العيبة: ٢١/٥، ومستفداد الرّحلة، ص ١٤٥، ١٨٤، ١٥٩، ٤٣٩.

فإذا قضيت الصلاة وانقلبن إلى منازلهن لم تقع عيني على واحدة منهن إلى الجمعة الأخرى...^(١).

وكانت نساء بعض المدن يجتمعن لسماع الوعظ كل يوم اثنين وخميس وجمعة في المساجد وربما "اجتمع منها الآلاف والآلاف، بأيديهن المراوح يرددن على أنفسهن من شدة الحر"^(٢)، هذا وقد ارتبطت مكانة المرأة في بعض المجتمعات الإسلامية بالعنابة بتشريفها ثقافة دينية راقية، حيث خصّصت لهنّ مراكز تعليمية ترعاهنّ وتشرف على تعليمهنّ وتحفيظهن القرآن الكريم^(٣).

ولم تقف الرحلات عند هذا الحدّ، بل أعطت صورة جلية لما قمّعته المرأة في بعض المدن من تحرر من القيود، ومن أبرز مظاهر هذا التحرر: إبداء المرأةرأيها في اختيار الزوج المناسب لها فقد امتنعت ابنة وزير سلطان جزائر ذيبة المهل (المالديف) عن الزواج بابن بطوطة، وقال له الوزير: "إنّ بنته امتنعت وهي مالكة أمر نفسها .."^(٤)، ولم تكتف المرأة بالمساواة مع الرجل بل تفوقت عليه في الحقوق، فهي أعظم شأنًا من الرجال في بلاد الترك وبعض مدن المغرب^(٥)، وأفضل منهم في مهنة حراسة القوافل^(٦)، وركوب الخيل^(٧)، وحسن الرماية والقتال كما هو الحال عند نساء الترك وببلاد الصين^(٨). وكانت المرأة تعمل خارج المنزل وتشترك في التجارة والبيع ومن ذلك ما وصف به ابن بطوطة نساء الأتراك حيث تأتي إحداهن إلى السوق "ومعها عبيدها بالغنم واللين، فتبيعه من

(١) ابن العربي، أحكام القرآن، ١٥٣٥/٣.

(٢) رحلة ابن بطوطة: ١٨٣/١.

(٣) انظر، المصدر نفسه: ١٥٨/٢.

(٤) انظر، المصدر نفسه: ١٨٥/٢.

(٥) انظر، المصدر نفسه: ٢٨٧/٢، ٣٠١/١.

(٦) انظر، المصدر نفسه: ٢٧٩/٢.

(٧) انظر، المصدر نفسه: ٢٧٩/١، ٢٢٠/٢.

(٨) انظر، المصدر نفسه: ٢٢٠/٢، وانظر، البكري، جغرافية، الأندلس، ص ١٧٠.

الناس بالسلع العطرية، وربما كان مع المرأة منه زوجها فيظنه من يراها بعض خدامها..^(١)

وكذلك نساء الأعراب في أرض برقة - ببلاد طرابلس - حيث كان الأعراب يستعملون نسائهم في البيع والشراء...^(٢). وهي إلى ذلك أيضاً تهتم بحسنها وجمالها، فقد كانت نساء مكة المكرمة "يكتنن التطيب حتى إن إحداهم لبيت طاوية وتشترى بقوتها طيباً".^(٣)

أما نساء مدينة زبيد اليمنية، فلهن الحسن الفائق، حيث يصف ابن بطوطة مشاركتهن في سبوب النخل، وذلك "أنهم يخرجون في أيام البدر والرطب، في كل سبت إلى حدائق النخل، ولا يبقى بالمدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء... وتخرج النساء ممتنيات الجمال في المحامل، ولهن مع ما ذكرناه من الجمال الفائق والأخلاق الحسنة والملકارم، وللغرير عندهن مزية، ولا يمتنعن من تزوجه كما يفعله نساء بلادنا، فإذا أراد السفر خرجت معه وودعته، وإن كان بينهما ولد فهي تكفله وتقوم بما يجب له إلى أن يرجع أبوه، ولا تطالبه في أيام العيادة بنفقة ولا كسوة ولا سواها. وإذا كان مقیماً فهي تقنع منه بقليل النفقة والكسوة، لكنهن لا يخرجن عن بلدنهن أبداً، ولو أعطيت إحداهم ما عسى أن تعطاه على أن تخرج من بلددها لم تفعل".^(٤)

ومن مظاهر تحرر المرأة أيضاً، خروج النساء في جماعات كثيرة للمشاركة في توديع واستقبال مواكب بعض السلاطين، واحتلاطهن بالرجال فقد وصف الرحالة ابن الحاج التميري النساء وقد خرجن يشاركن في توديع السلطان أبي عنان حين قرر القيام برحلته داخل المغرب الأقصى والبلدان الإفريقية، حين يقول: "فما راق العيون كالهواجر التي علت فوق ذرى البزل الهواجر، وبدت كأنها الأكمات المكللة بأنواع الأزاهر، سامية

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١٧٨/٢، ٣٠١/١.

(٢) العبدري، الرحلة المغربية، ص.٨٦.

(٣) المصدر نفسه: ١٣٦/١.

(٤) رحلة ابن بطوطة: ٢٢٤/١.

الهامات في الجو المنخرق. جامعة الحسن بين المتفق والمفترق .. إلى غير ذلك من الأنوثاب العراقية والأندلسية والرومية كلّ يسبّي الألباب بألوانه المختلفة .. وبباب كلّ هودج جارية عليها الحل والحل، ... وجميعهنّ يغنين بذكر الحروب، والملاحم التي طال بها عن المضاجع تجافي الجنوب. داعيات إلى ركوب الجياد .. وسلّ السيف البارزة من الأغماد^(١). أمّا ابن الخطيب فيشير إلى خروج النساء في جماعات كبيرة واختلطهن بالرجال للمشاركة في استقبال سلطان غرناطة أبي الحجاج يوسف الأول، وذلك بعد عودته من رحلة تفقدية لأحوال الشعور الشرقية لمملكة غرناطة سنة ١٣٤٧هـ/١٧٤٨م، ومن قوله: "واختلط النساء بالرجال، والتّف أرباب العجا بربات الرجال، فلم نفرق بين السلاح والعيون الملاح، ولا بين حمر البنود وحمر الخدود.."^(٢). كما دخلت المرأة ميدان السياسة، وتولّت مقاليد الحكم في بعض البلدان، وكانت تصدر الأوامر السلطانية باسم السلطان، فالنساء لدى الآتراك والتر لهنّ حظّ عظيم، وهم إذا كتبوا أمراً يقولون فيه: "عن أمر السلطان والخواتين"^(٣)، وكانت المرأة تشارك في الأمور العامة^(٤)، وتدرّب المؤامرات ضدّ السلطان^(٥). في حين أنّ المرأة في بعض مدن السودان كانت صورة للفساد حيث تقيّم مع الرجال دون صداق، فيدخل الرجل بيته "فيجد امرأته ومعها صاحبها، فلا ينكر ذلك"^(٦) وقد أثار هذا الأمر الرّحالة ابن بطوطة، فسأل أحد الرجال وقد كانت امرأته مع

(١) انظر، ابن الحاج التميري، فيض العباب، ص ٦٨-٦٩، كذلك الصفحتان، ٢٣٦-٢٣٧، ٢٨٦.

(٢) ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص ٥٣.

(٣) رحلة ابن بطوطة: ٢٠٤/١، وانظر المصدر نفسه: ٢٧٩/١، ١٧٩/٢، ٢٧٩/١، وانظر دور المرأة في الحياة السياسية، ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ص ١٣-١٥.

(٤) كان للمخدومة جهان أم سلطان الهند دور كبير في مساعدة المحتاجين وكانت كثيرة الصّدقات، وعمّرت زوايا كثيرة، وجعلت فيها الطعام للوارد والصادر، وكذلك زوجة السلطان محمد أوزبك خان، ابنة مالك القسطنطينيّة، السلطان تكفور التي كانت تهتم بالغرباء وتقديم لهم الطعام والكساء والدرّاهم، وانظر، رحلة ابن بطوطة: ٣٦٠/١، ١٠٩/٢.

(٥) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٠٤/١.

(٦) المصدر نفسه: ٢٧٢/٢.

صاحبها: "أترضى بهذا..؟ فقال له الرجل: "مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة، ولا تهمة فيها، ولسن كنساء بلادكم"^(١). وفي بعض بلدان آسيا الصغرى كانت النساء يدخلن الحمام مع الرجال، فمن أراد الفساد فعل ذلك من غير منكر عليه"^(٢).

ومن صور الفساد أيضاً، تعرّي جسد المرأة، فقد كان النساء يظهرن للناس عرايا بadiات العورات، لا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن^(٣)، ونساء جزر المالديف "لا يلبس أكثرهن إلا فوطة واحدة تسترها من السرة إلى أسفل، وسائر أجسادهن مكشوفة وكذلك يمشين في الأسواق وغيرها"^(٤).

رابعاً: الأعياد والأعراس والاحتفالات الشعبية

لا شك أن الاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي في مختلف البلدان التي زارها الرّحالة، قد ساهمما في إبراز الكثير من المظاهر الاحتفالية، وما رافقها من ترتيبات لافتة بمختلف تلك المناسبات، وقد حظيت هذه المظاهر باهتمام الرّحالة فكتبو عنها، وعما كان يجري فيها من شعائر وطقوس اتسم أكثرها بالصفة الشعبية أو الطابع الفلكلوري. ويلحظ في ما كتبه الرّحالة عن هذه الأعياد والأعراس والاحتفالات، أن معظمها احتفالات دينية وبعضاها الآخر كان محلياً اجتماعياً، وقد شارك فيها السّلطانين والأمراء وأفراد الشعب.

وفي بعض كتب الرّحلات، يوجد الكثير من الشواهد الدالة على هذه المناسبات، فقد رسم الرّحالة صوراً للمجتمع المكي في مواسمها المختلفة، ووصفوا الشعائر التي اعتاد أهل مكة أن يؤدونها في مختلف المناسبات الدينية، مثل، استقبال الهلال الوليد، واحتفالهم

(١) المصدر نفسه: ٢٧٢/٢، وانظر، التجبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠١.

(٢) رحلة ابن بطوطة: ٢٦١/١، ٢٦٢-٢٦١.

(٣) انظر، المصدر نفسه: ٢٧٢/٢، ٢٨٢.

(٤) المصدر نفسه: ١٧٧/٢، وانظر، التجبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٦.

بالعمرة الرجبيّة، وما كان يجري فيها من خروج الناس ليلتها إلى شوارع مكة بالهواجح التي تلوح على ظهور الإبل كالقباب المضربة، وإشعالهم النار على جانب الطريق وإيقادهم الشموع، وضربهم الطبول والبوقات عند رؤية الهلال إشعاراً بأنّها ليلة الموسم، وكذلك وصف الرّحالة، ممارسة الناس لأنّ العاب الفروسية أمام موكب الأمير، كلّ عيّبهم بالسيف والتّرس، ورميّهم الحراب إلى الهواء وتناولها بسرعة، وركوب الأعراب الجمال ومسابقة الخيّل لها، ومراقبة الأمير إلى منزله على هذا النحو.

وكان المؤذن يؤذن في قبة زمز ويهنئ بالموسم، والرجال في أثناء ذلك يتلاّقون في تصافحون ويتهادون الدّعاء والنّساء كذلك. والكل قد لبس أحسن الثياب واحتفل احتفال أهل البلاد للأعياد، وقال ابن جبير: "فمن لم يشاهدها بمكة لم يشاهد مرأى يستهدي ذكره غرابة وعجبًا".^(١)

ووصف بعض الرّحالة احتفالات الهند والمسلمين في الأعياد والزواج، فإذا كان يوم العيد خرج الناس للصلة في المساجد، وعليهم الثياب الحسان النظيفة، ورگب السلطان على رأسه الطيلسان^(٢)، ولا يلبسوه إلا في العيددين، ويلبس كلّ من القاضي والخطيب والفقهاء طيلسانهم في كلّ يوم، وفي الطريق إلى المسجد يسير الناس بين يدي السلطان، وهم يرفعون أصواتهم بالتكبير وبين يديه العلامات الحمر من الحرير.. ثم يصلي ويقف الخطيب بعد ذلك بين يديه يلقي موعظة، وبين المصلّين يقف رجل في يده رمح يترجم موعظة الخطيب إلى لغتهم. وبعد العصر من أيام العيد يخرج السلطان إلى مجلسه ويجيء رجاله يحملون السلاح العجيب من الذهب والفضة ودبابيس من البُلور، ثم يأتي ترجمانه

(١) رحلة ابن جبير، ص ١١٠-٤٦١، وانظر أيضًا في مختلف الاحتفالات الدينية بما فيها المولد النبوى رحلة ابن بطوطة: ٤٦١، وابن الحاج النميري، فيض العباب، ص ٨٧-٨٦، وابن الأحمر، نثیر فرائد الجمان، ٣٢٤-٣٢٥، وابن أبي زرع الفاسي، علي، الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرinية، دار المنصور للطباعة والوراقه، الرياط، ١٩٧٢، ص ١٢٤، ١٦٠، وابن خلدون، التعريف، ص ١١٢-١١٦.

(٢) ضرب من الأكسية، والطيلسان، ليس بعربي، انظر، ابن منظور، لسان العرب: ١٢٥/٣.

بنسائه الأربع وجواريه ويبلغ عددهنّ نحو مائة وهنّ في هذه المرة غير عرايا بل عليهنّ الثياب الحسان وعلى رؤوسهن عصائب الذهب والفضة، ثم ينصب لترجمانه كرسي يجلس عليه ويضرب على آلة من قصب ويغتّي بشعر يمدح فيه السلطان ويدرك غزواته وأفعاله الحسان، وتغني النساء والجواري معه ويلعبن بالقسيّ ومعهنّ نحو ثلاثين من الغلمان عليهم ثياب حمر وعلى رؤوسهم عصائب بيض، وكلّ واحد منهم متقلد طبله يضربه. ثم يأتي الصبيان فيلعبون ويتقابلون في الهواء، ولهم في ذلك رشاقة وخفّة بدعة ويلعبون بالسيوف أجمل لعب وكذلك يلعب الترجمان، ثم يأمر السلطان للجميع بالإحسان^(١).

أما الأعراس، فقد تحدّث عنها بعض الرّحالة موضحين مراسمها وترتيباتها الخاصة بها، ووصف ابن بطوطة عرس ابن ملك جاوة الذي شارك في الاحتفال به، فعُدَّ لذلك شاهد عيان على ما كان يجري من مظاهر احتفالية بهذه المناسبة، من مثل مجيء العروس من داخل قصرها على قدميها بادية الوجه ومعها نحو أربعين من الخواتين يرفعن أذياها، من نساء السلطان وأمرائه وزرائه، وكلّهنّ بadiات الوجه ينظر إليهنّ كلّ من حضر من رفيع أو وظيف. وليس تلك بعادة لهنّ إلا في الأعراس خاصة. وصعدت العروس المنبر، وبين يديها أهل الطرف، رجالاً ونساء يلعبون ويغتّون، ثم جاء الزوج على فيل مزيّن على ظهره سرير وفوقه قبة... والتاج على رأس العروس... وعن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك والأمراء، قد لبسوا البياض وركبوا الخيل المزيّنة، وعلى رؤوسهم الشّواشي المرصّعة، وهم أتراك الزوج ليس فيهم ذو لحية. ونشرت الدنانير والدرّاهم على الناس عند دخوله، وقعد السلطان بمنظره له يشاهد ذلك. ونزل ابنه فقبل رجله، وصعد المنبر إلى العروس، فقامت إليه وقبلت يده، وجلس إلى جانبها والخواتين يرددن عليها، وجاءوا بالفوفل والتبول، فأخذته الزوج بيده وجعل منه في فمه، ثم أخذت هي بيدها وجعلت في فمه. ثم أخذ الزوج بفمه ورقّة تنبول وجعلها في فمهما، وذلك كله على

أعين الناس، ثم فعلت هي كفعله، ثم وضع عليها السّتر، ورفع المنبر وهمما فيه إلى داخل القصر، وأكل الناس وانصرفوا. ثمّ كان من الغد جمع الناس، وأجرى له أبواه العهد، وبايده الناس، وأعطائهم العطاء الجزء من الثياب والذهب ..^(١).

وكانت تقام بعض الاحتفالات بشفاء السلاطين والملوك من الأمراض^(٢) أو لعودتهم سالمين من أسفارهم، فحين قدم سلطان الهند محمد شاه من أسفاره زُيّنت الفيلة، وصنعت قباب من الخشب مقسومة على طبقات، وتكسى بثياب الحرير، ويكون في كل طبقة الجواري المغنيات عليهنَّ أجمل لباس وأحسن حلية، ومنهنَّ رواقص، "ويكون ما بين القباب مفروشاً بثياب الحرير، يطاً عليها مركب السلطان. وتزيّن حيطان الشّارع الذي يمّرّ به من باب المدينة إلى باب القصر- بثياب الحرير، ويمشي- أمامه المشاة من عبيده وهم آلاف، وتكون الأفواج والعساكر خلفه...".^(٣)

أما الجنازات، فكان لها ترتيباتها الخاصة بها في بعض البلدان، ففي دمشق كانوا "يمشون أمام الجنازة بقراء يقرأون القرآن بأصوات شجية وتلاحين مبكية تكاد تنخلع لها النّفوس شجواً وحناً" يرفعون أصواتهم بها، فتتلقاها الآذان بأداء الأجهاف، وجنائزهم يصلّى عليها في الجامع قبلة المقصورة، فلا بد لكلّ جنازة من الجامع، فإذا انتهوا إلى بابه قطعوا القراءة ودخلوا إلى موضع الصلاة عليها ... فإذا استكملوا أو فرغوا من القراءة وانتهى المجلس بهم منتهاه قام وعاظهم واحداً واحداً بحسب رتبهم في المعرفة، فوعظ وذكر ونبه على خدع الدنيا وحدّر...^(٤)" وكانوا يرفعون أصواتهم بالنداء لكلّ من يصل للعزاء من كبار البلدة وأعيانها ويقولون: "بسم الله فلان الدين"، من كمال وجمال وشمس وبدر وغير ذلك، فإذا أتمّوا القراءة، قام المؤذنون فيقولون: "افتدركوا واعتبروا، صلاتكم

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٤٢-٢٤٣/٢.

(٢) انظر، المصدر نفسه: ٣٩/١.

(٣) انظر، المصدر نفسه: ٦٤-٦٥، وابن الحاج التميري، فيض العباب، ص ٤٥، ٥٦، ٢٣١، ٢٣٧، ومواضع متفرقة من الرحلة.

(٤) رحلة ابن جبير، ص ٢٦٧-٢٦٨.

على فلان الرجل الصالح العالم ... ويصفونه بصفات من الخير، ثم يصلون عليه، ويذهبون به إلى مدفنه^(١).

ولم يقف الرّحالة عند هذه الظواهر الاجتماعية والدينية وحسب، بل تجد في بعض رحلاتهم إشارات لظواهر اجتماعية ودينية أخرى، ارتبط بعضها بالمؤثر والمعتقد الشعبيّ، ومنها السحر والشّعوذة، والتّنجيم^(٢).

وقد روى ابن سعيد أنَّ الأمير عبد الرحمن الأوسط^(٣)، قد قال عن التنجيم: "إِنَّه مخرقة ورجم بالغيب" وأراد ابن الشمر^(٤) أن يبرهن على صدق ما جاء به فقال للأمير: اختبر في مقامك بما شئت، فقال: إنَّ أنبأتنى على أي باب من أبواب المجلس أخرج في قيامي صدقت بعلمك، فكتب ابن الشمر في ورقة مختومة ما اقتضى- له الطالع، ودعا الأمير من فتح له باباً محدثاً في غارب المجلس الذي يلي مقعده، ثمَّ خرج منه، وترك الخروج من أبواب المجلس الأربع، وفتح الورقة فوجد فيها ما فعله الأمير، فتعجب ووصله^(٥).

كما ألقت بعض كتب الرحلات الضوء على بعض المعتقدات الشعبية أو الحكايات الدّالة على نوع من الثقافة الطّبّية، فأهل السودان، مثلًاً كانوا يكافحون القمل بالزئبق^(٦) بالزئبق^(٧) وكذلك وصف ابن بطوطة طريقة علاجهم لسمّ الحية، حيث كانوا ينحرون جملًاً، وتدخل يد المصاب في كرشه، وتترك كذلك ليلة، ثمَّ يتناشر لحم أصبعه، فتقطع من

(١) رحلة ابن بطوطة: ٩٨/١، وانظر بعض العادات في الجناز والدفن، المصدر نفسه: ١٢٨/٢، ٢٣٧، ١٢٨/٢، وانظر، ابن الحاج النميري، فيض العباب، ص ٤٠-٣٨.

(٢) انظر، رحلة أبي حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ١٣٧، ورحلة ابن بطوطة: ٤٢/٢، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٧، ٢٣٣، رحلة التجاني، ص ٣١٤.

(٣) انظر ترجمته في الدراسة، ص ٣٤، والحاشية رقم ٥.

(٤) هو عبد الرحمن بن الشمر منجم الأمير عبد الرحمن الأوسط، انظر، المقربي، نفح الطيب: ١٣٠/٣.

(٥) انظر، ابن سعيد المغربي، المغرب، قسم الأندلس: ١٢٧-١٢٦/١.

(٦) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٦٩/٢.

الأصل^(١). وكان "لبعض البربر المجاورين لنهر من أنهار بلاد المغرب تجارب منها أنّ المريض إذا أرادوا أن يعلموا هل هو يستريح أو يموت حملوه لرأس العين بذلك الموضوع المهول، فيغطّسونه فيه حتى يقرب أن يطفى، ثم يخرجونه فإن خرج على فمه دم فيستبشرون بحياته وإن لم يخرج من فمه دم أيقناً بهلاكه"^(٢).

وبعد، فقد امتازت المدن الإسلامية في العصور الوسطى بحياة اجتماعية ودينية متنوعة الثقافات ومتباينة المؤسسات والمنشآت ومتعددة العادات والتقاليد تبعاً لاختلاف الأوضاع الجغرافية والجذور الحضارية، ومهما يكن الأمر، فإنّ الروح الإسلامية وتعاليم الدين جعلت بين تلك المجتمعات قدرًا كبيراً من عناصر الوحدة يجمع بينهما.

خامساً: صورة الآخر

كانت الفتوحات الإسلامية والتجارة والانتقال بين البلدان والحروب الصليبية، نوافذ للاتصال بالآخر، واكتشاف ثقافته وحضارته. ومع اتساع أرجاء الدولة الإسلامية التي أصبحت مترامية الأطراف، نشطت الرحلة وتوسّعت مجالاتها، وأخذت تخضع رؤيتها إلى الآخر مقاييس الجميل والقبيح في مختلف الجوانب والمظاهر الحياتية، والأخلاقية والعادات والتقاليد، وكلّ ما يساهم في حدوث الازدهار الحضاري، فدفعها الجميل لوصفه والإشادة به، في حين أنّ القبيح دعاها لنبذه ونقده، مخالفة تعاليم الدين الإسلامي.

وجاءت الرحلة في مواجهة بين الذات، الأنّا، والآخر، الغير، لاكتشاف الآفاق الأخرى والتكيّف مع قيم الإنسانية، ورسم ملامح هذه الصورة من خلال تسلیط الضوء على ملامح الحياة الثقافية والاجتماعية والدينية للذات والآخر في تلك العصور التي تمثل نظاماً معرفياً فكريّاً للدولة الإسلامية، يقوم على أساس مفاضلة العربي على الأعجمي^(٣).

(١) انظر، المتصدر نفسه: ٢٧٠/٢، ٢٣٧/١، ٣٤٩، ٢٧٥/٢.

(٢) مؤلف مجهول، الاستبصار، ص ١٨٤.

(٣) انظر، فهيم، حسين محمد، أدب الرحلات، ص ١٩١-١٩٩.

وتعُد رحلة ابن جبير نموذجاً لدراسة الذّات والآخر، فقد تضمنَت بعض الإشارات الذّالة على حضور الذّات والآخر في الرّحلات^(١)، كما أظهرت هذه الرّحلة، ثقافة الذّات وتميّزها الديني والحضاري من خلال الإشادة بعدل صلاح الدين الأيوبي، وإزالته للضرائب التي كانت تؤخذ على الحجاج، وغيرها من المكوس التي كانت تؤخذ على كلّ ما يباع ويشتري "فكمى الله المؤمنين على يدي هذا السلطان العادل حادثاً عظيماً وخطباً أليماً".^(٢)

وقد كان لبعض الأندلسيين والمغاربة دور أساسى بالغ الأهميّة في الوقوف ضدّ الصّليبيين من أجل تحرير مدينة القدس، حيث لم تتخذ المقاومة للصّليبيين ببلاد الشّام شكلاً فردياً، وإنّما اتّخذت صورة جماعيّة، الأمر الذي جعل الصّليبيين في المغرب يلجؤون إلى اتّخاذ إجراءات ضدّ المغاربة تجسّدت بفرض ضريبة عليهم دون غيرهم، وذلك جراء مشاركتهم العرب المشارقة في حربهم ضدّ الإفرنج. وذكر ابن جبير أنّ أحد الحصون كان مكاناً لتمكيس القوافل، "وبسببها أنّ طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين أحد الحصون فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسيّة ألموها رؤوسهم، فكلّ مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم. وقال الإفرنج: إنّ هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزاهم شيئاً، فلما تعرّضوا لحربنا وتآلبو مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم، فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذّكر الجميل في نكايتهم العدو يسهّله عليهم ويخفّف عنهم عنهم".^(٣)

(١) أفاد في الحديث عن الإشارات والذّلالات في رحلة ابن جبير: IAN RICH, ARO NETTON(١٩٩١) "Basic Structures And Signs of Alienation in The Rihla of Ibn Jubayr", Journal of Arabic Literature, XXII, p. ٢١-٣٧

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٣١.

(٣) رحلة ابن جبير، ص ٢٧٤.

إن الإشارات المنتشرة في نص رحلة ابن جبير، تكشف عن حضور الوجود المسيحي في العالم الإسلامي، هذا الحضور الذي بدا من تلك الإشارات أنه طفل، كما كشفت أيضاً أن هذا الدخيل الغريب في الحضارة الدينية يلعب دوراً ما. ومن هذه الإشارات:

- **الصليب المسيحي الإفرنجي**، وقد عده ابن جبير إشارة للظلم والاضطهاد، والرمز الأساسي للمعتدي الذي احتل بعضاً من المواقع والأماكن المقدسة لدى المسلمين، كما في مدينة عكا التي " تستعر كفراً وطغياناً، وتغور خنازير صلباناً .. انتزعها الإفرنج من أيدي المسلمين في العشر الأول من المئة السادسة، فبكي لها الإسلام ملء جفونه، وكانت أحد شجونه. فعادت مساجدها كنائس، وصوماعها مضارب للنواقيس.." ^(١).

وارتبط الصليب الإفرنجي في نص ابن جبير بالقذارة الفاحشة التي أحرقت المدن الإسلامية، فقد أصبحت مدينة عكا "قدرة مملوقة كلّها رجساً" ^(٢). أمّا مدينة مسينة من جزيرة صقلية فهي "ظلمة الآفاق بالكفر لا يقر فيها مسلم قرار، مشحونة بعيدة الصّلبان ... مملوءة نتناً ورجساً" ^(٣). وعاش عبدة الصّلبان في هذه المدينة المملوئة بالرّخاء والرّفاهيّة " والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم، قد حسنوا السّيرة في استعمالهم واصطناعهم -لذلك- ضربوا عليهم إتاوة في فصلين من العام يؤدونها.." ^(٤).

وقد عانى المسلمون الكثير من الآلام النفسيّة تحت ظلم عبدة الصليب الإفرنجي في مدن جزيرة صقلية، فكان الصليب رمزاً للردة عن الدين، حيث بذل عبدة الصليب كلّ ما بوسعهم ليفارق المسلمين دينهم، وينغمسمون في النصرانية، ويحفظون الإنجيل وقوانين شريعتهم، ويحوّلون مساجدهم كنائس. وعلق ابن جبير على ما سمع من تحول بعض

(١) المصدر نفسه، ص ٢٧٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٩٦.

(٤) رحلة ابن جبير، ص ٢٩٧.

المسلمين عن دينهم، فقال: "ومع ذلك فأعلمكنا أنه يكتن إيمانه، فلعله داخل تحت الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقْلَبَهُ مُطْمَئِنٌ بِالْإِيمَانِ﴾"^(١).

وأظهرت رحلة ابن جبير أنَّ الصليب علامة ترمز للثروة والرخاء والازدهار الاقتصادي الذي غمر المسيحيين في مدن جزيرة صقلية، وقدم ابن جبير وصفاً لذلك من خلال عدد الكنائس الضخمة المزخرفة المراصدة كلها بخصوص الذهب، التي صيغت صلباتها من الذهب والفضة^(٢). وكان ابن جبير يصرّح برأيه في أولئك عبدة الصليب الإفرنجي وأصحاب القذارة والرجس، من خلال إشارات قليلة جاءت في رحلته، ومنها: "أنَّهم ملعونون، وخنازير، وكذلك أطلق على أمهاتهم".^(٤)

- ملك صقلية، غلام الذي وصفه ابن جبير، بأنَّ شأنه عجيب "في حسن السيرة"^(٥). وقد أدهش ابن جبير إعجاب هذا الملك بالحضارة الإسلامية، واستعماله لل المسلمين في إدارة مملكته وحكمها^(٦)، فهو "كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله .."^(٧)، وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله، وتفخيم أبهة الملك وإظهار زينته بملوك المسلمين .. ومن عجيب شأنه أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به: الحمد لله حق حمده، وكانت علامة أبيه: الحمد لله شكرًا لأنعمه".^(٨).

(١) سورة النحل / الآية، ١٠٦.

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٣١٣.

(٣) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٣٠٣-٣٠٦، وأبي حامد الغرناطي، رحلة المغرب، ص ١١، ١٧٥-١٧٦، ورحلة ابن بطوطه: ٢٧٤، ٢٧٤، ٢١٩، ٣٢٢.

(٤) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٢٧٤-٢٨٢.

(٥) المتصدر نفسه، ص ٢٩٧.

(٦) موافي، عثمان، (١٩٧٣). لون من أدب الرحلات، الإسكندرية، ص ١٥.

(٧) رحلة ابن جبير، ص ٢٩٨.

(٨) رحلة ابن جبير، ص ٢٩٨.

وعلى الرغم من ذلك فقد عَدَه ابن جبير مشركاً، كافراً بالله، عنيفاً تجاه مسلمي صقلية فيما يخص الإجبار على التحول إلى دين أو مذهب جديد، ويدعو أن ينقد الله المسلمين من إثمه وتجبره، "وكفى الله المسلمين عادتيه وبسطته"^(١). كما دعا المسلمين إلى اليقظة والحذر من هؤلاء المسيحيين المهزبيين، الذين يهدفون من وراء هذه السلوك المذهب تجاه المسلمين -كما يرى ابن جبير- إلى إحداث الفتنة، فالشهامة واللطف ما هما إلا تضليلًا، وفي ذلك يقول: "وطوائف النصارى يتلقوننا فيبادرون بالسلام علينا ويؤنسوننا، فرأينا من سياستهم ولین مقصدهم مع المسلمين ما يوقع الفتنة في نفوس أهل الجهل، عصم الله جميع أمة محمد، صلى الله عليه وسلم، من الفتنة بهم بعزته ومنه"^(٢).

وقد تنبه بعض الرحالات أيضاً مثل هذا الخطر حين أصبحت أرضهم تحت النفوذ النصراني وفضلوا البقاء في وطنهم، ولكنهم كانوا مهددين في قيمهم الدينية والحضارية، فشعر هؤلاء الرحالات بأنّ واجب الأخوة الدينية يفرض عليهم أن يقدموا خدمات لهذه الأقلية، التي كان يهددها خطر الجهل بتعاليم الدين، وما يتبع ذلك من خطر التنصير الاختياري أو الإجباري، لذا عمد الرحالات عبد الله بن الصبّاح الأندلسي -ومن خلال رحلته- إلى التأكيد على بعض المظاهر الدينية التي كانت الغاية منها تمجيد الإسلام وتعزيزه في نفوس أهله من المدججين. وهو في حديثه لم يقتصر على ذكر الأماكن المقدسة الإسلامية، وإنما ذكر الأماكن المقدسة النصرانية واليهودية أيضاً^(٣).

أما ابن بطوطة، فقد عَدَ النصارى الإفرنج أهل غدر^(٤)، وثار حين سمع أصوات النواقيس في الكنائس، وأمر أصحابه أن يصدعوا الصومعة ويقرأوا القرآن ويدركوا الله

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠٢.

(٣) انظر، شيخة، جمعة، (١٩٩٤). بعض المظاهر الدينية في رحلة عبد الله بن الصبّاح الأندلسي، دراسات أندلسية، عدد (١٢)، ص ٣٧-٣٨.

(٤) رحلة ابن بطوطة: ٣١٤/١، وانظر، ابن خلدون، التعريف، ص ١٢٥.

ويؤذنوا ففعلوا ذلك.."^(١) . كما ثار وغضب لرؤيته طيباً يهودياً يقدم على المسلمين في بلاط أحد سلاطين الدول الإسلامية، فأخذ يشتمه ويصفه بـ"الملعون، إذ كيف يجلس فوق قراء القرآن وهو يهودي؟".^(٢)

- العرس المسيحي في مدينة صور، فقد سحر ابن جبير به، واعترف بأنه منظر مثير، حيث أعجب بملابس وحلى العروس، وصلّى ليقى بعيداً عن أي فتنة قد تبرز من خلاله، ويلمح هنا استخدام ابن جبير لكلمة الفتنة مرة أخرى، وقد استعاد بالله منها. ومن وصفه لهذا العرس، قوله: "وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساء واصطفوا سماطين عند باب العروس المهدأة، والبوقات تضرب والمزمير وجميع الآلات اللهوية ... حتى خرجت تتهادى بين رجلين يسكنها من يمين وشمال كأنهما من ذوي أرحامها، وهي في أبهى زيه، وأفخر لباس تسحب أذیال الحرير المذهب سجناً على الهيئة المعهودة من لباسهم، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حُفت بشبكة ذهب منسوجة، وعلى لَبَّتها مثل ذلك منتظم، وهي رافلة في حلْيها وحُللها، تمشي فتراً في فِتر مشيًّا - الحمامات أو سير الغمامات، نعوذ بالله من فتنة المناظر..".^(٣)

- أعياد النصارى، حيث يحتفلون بها صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً، ويوقدون الشموع ويصلّون صلاتهم، وقد لبست النصرانيات ثياب الحرير المذهب، وتعطّرن وتختضن وتزيّن بالحلي والجواهر، ووصف ابن جبير - وهو في عكا - عيداً لهم، فقال: "احتفلوا له في إسراج الشمع، وكاد لا يخلو أحد منهم، صغيراً أو كبيراً، ذكراً أو أنثى، من شمعة في يده، وتقدم قسيسون لهم للصلوة في المركب بهم، ثم قاموا واحداً واحداً لوعظهم وتذكيرهم بشرائع دينهم، والمركب يزهر كله أعلى وأسفله سُرْجاً متقدة".^(٤)

(١) المصدر نفسه: ٢٩٥/١.

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٧٢/١.

(٣) رحلة ابن جبير، ص ٢٧٩-٢٧٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٨٦، وانظر أيضاً، المصدر نفسه، ص ٣٠٧.

وممّا سبق، فإنّ ما ذكره ابن جبير عن النصارى لا يعد تضارياً في الآراء، فالجوانب الإيجابية التي لمحها في صورة الآخر برأّها فخّاً يحاولون إيقاع المسلمين فيه، وجذبهم نحو دينهم، وهو وإن أعجب بجماعة مسيحية وبعاداتهم وطبعاتهم من وقت لآخر، إلا أنه لم يحبّ حقيقة المسيحية، فقد أعجب وأشاد بالمهارة البحريّة لقائد بحريّ مسيحيّ، وهو كاره بوضوح لحقيقة أنّ ذلك القائد البحريّ يرث ممتلكات كلّ من الحجاج المسيحيين والمسلمين الذين يموتون في الرحلة البحريّة على متنقارب المبحر من عكا^(١).

وابن جبير، حين يصور ردة فعل الذات العربيّة المسلمة التي اتسمت بالتقوى والطاعة والإيمان بالقضاء والقدر، وهي تواجه تحطم السفينة التي يركبونها، يصور الآخر المفعوم بالحزن والأسى وقلة الإيمان، ثم يسلط الضوء على الحضور الخارق للملك المسيحي في حادثة السفينة الغارقة، مصوّراً ذلك باللطف الإلهي تجاه المسلمين "ومن جملة صنع الله -عزّ وجلّ- لنا ولطفه بنا، في هذه الحادثة، كون هذا الملك الرومي حاضراً فيها".^(٢)

وقد كانت تلك الإشارات وغيرها، هي نفسها التي تلقى الضوء على تلك الشعوب وهي تعيش في جوّ من التسامح وال العلاقات التجارية الوديّة، حتى إنّ بعض البلدان كانت "ملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الأفاق"^(٣) وكان تاجر النصارى يشكلون مصدر دخل عظيم للدولة الإسلاميّة، لهذا كان حكام تلك الدول يحرصون على أنفسهم وحمايتهم^(٤). وقد تضمنّت بعض كتب الرحلات بعض الإشارات التي كشفت عن التقاء بعض الرّحالّة بعدد من علماء اليهود والنصارى^(٥)، ورغم ما كان يلاقيه المسلمون من اليهود والنصارى في البر والبحر من أسر وهجوم وممارسات سيئة^(٦)، إلا أنّ الرّحالّة

قد

(١) الم المصدر نفسه، ص ٢٨٧.

(٢) رحلة ابن جير، ص ٢٩٥.

(٣) الم المصدر نفسه، ص ٢٧٦.

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطه: ٢٩٥/٣٠-٢٩١، وابن الخطيب، خطرة الطيف، ص ٤٨.

(٥) انظر، ابن العربي، قانون التأويل، ص ٩٦-٩٥، وابن خلدون، التعريف، ص ١٢٨.

(٦) انظر، العبدري، الرحلة المغاربية، ص ٣٧، وابن خلدون، التعريف، ص ١٢٥.

اعترفوا بذكاء بعض أولئك العلماء وبراعة اليهود والنصارى في فن العمارة وبعض الصناعات، ومن ذلك ما ذكره ابن خلدون حين زار القدس، بأنه انصرف إلى مدفن الخليل عليه السلام، ومرّ في طريقه إليه ببيت لحم "وهو بناء عظيم على موضع ميلاد المسيح، شيدت القياصرة عليه بناء بسماطين من العمد الصخور، منجدة مصطفة، مرقوماً على رؤوسها صور ملوك القياصرة، وتاريخ دولهم، ميسرة لمن يتغير تحقيق نقلها بالترجمة العارفين لأوضاعها، ولقد يشهد هذا المصنع بعظم ملك القياصرة وضخامة دولتهم"^(١).

أما السفن التي كانت تنقل المسلمين والنصارى، فقد بدت رمزاً للتوحد والصدقة، حيث جمعت بينهما في عالم صغير من الكل الفسيح، والمتتحرر بعلاقات المسلمين والمسيحيين بلامح من الثقة والعرفان، في حين أن القتال كان دائراً بين الطائفتين^(٢).

وبعد، فقد استطاع الرحال أن يقدموا للأجيال صفحات من تاريخ البلدان التي كانوا يمرون بها في سلمها وحربيها، "فحملت كتب الرحلات في طياتها قدرأً كبيراً من الأحداث مما جعلها تدخل في عداد مصادر التاريخ سواء في جانبه السياسي والاقتصادي أو الثقافي والاجتماعي، وهي مادة تفيد المؤرخين والدارسين وتفتح لهم بعض الآفاق التي قد لا تيسرها لهم مصادر التاريخ"^(٣).

(١) ابن خلدون، التعريف، ص ٣٨٥، وانظر أيضاً، رحلة ابن جبير، ص ٣٠٦-٣٩٨، ورحلة بنiamين التطيلي، ص ٩٩-١٠٠، والعبدري، الرحلة المغربية، ص ٤٠-٤١، ورحلة ابن بطوطة: ٢٥٧/١، ٢٢١، ٢٤٥.

(٢) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٢٦٠.

(٣) الجباري، عباس، (١٩٧٧). "الرحلات كمصدر للتاريخ"، مجلة الفيصل، السنة الأولى، العدد (٦)، ص ٦٠.

الفصل الثاني الرّحلات والتّفاعل الثّقافي

كانت الرّحلات لوناً من ألوان التّبادل الفكري والأدبي، إذ مثّلت واسطة احتكاك بين الثقافات المختلفة من جانب، وأداة تفاعل داخل الثقافة الواحدة من جانب آخر، بحيث أفادت الشعوب بعضها من بعض، كما مس الرّحالة الفوارق بين مختلف الثقافات في البلدان التي قصدها، وألمّوا بمظاهر الحضارة في تلك البلدان، وربما أصبح بعضها جزءاً من التّكوين الثقافي للرّحالة، أو شُكّل بعضها الآخر صراعاً حضارياً في فكر الرّحالة، لا سيّما مواقف الحرية والمساواة، فابن بطوطة يثير دهشته أنّ لرجال مدينة إيوالاتن في السودان، صواحب من النساء الأجنبية، حيث يقول: "دخلت يوماً على قاضٍ بإيوالاتن بعد إذنه في الدّخول، فوجدت عنده امرأة صغيرة السنّ بدعة الحسن، فلما رأيتها ارتبت وأردت الرّجوع، فضحتك مني ولم يدركها خجل، وقال لي القاضي: لم ترجع؟ إنّها صاحبتي! فعجبت من شأنهما، فإنّه من الفقهاء الحجاج"^(١). وقد أدّت الرّحلة دوراً كبيراً في الكشف عن مختلف الثقافات الإنسانية: الثقافية واللغوية والدينية، وجوانب الحياة اليومية: البيئة، والملبس، والماكل، والعادات والتقاليد، والاحتفالات، والحكايات الشعبية... وقارن الرّحالة بين واقع مجتمعاتهم والمجتمعات الأخرى التي قصدها، حيث اتصل الرّحالة بشعوبهم، ثم انتقلوا إلى شعوب أخرى وثقافات جديدة، وعادوا بعد ذلك إلى بلادهم بشخصية صقلتها التجارب، وبثقافات زوّدتهم بها حضارات وثقافات متعددة.

ويرى عبد القادر زمامنة أنّ ابن رشيد والتجيبي ومعاصريهما الرّحالة العبدري قد خرجوا من المغرب بعدهما طبعتهم ثقافتها بطبع خاص، ودفعتهم إلى محاولة المزيد من المعرفة مع الربط بين ما عاشوا فيه من عطاءات مغربية وأندلسية وبين ما تحفظ به أمصار تونس ومصر والشام والحجاج من عطاءات أخرى جادت بها قرائح، وموهاب شتّى .. في موضوعات شتّى..^(٢).

(١) رحلة ابن بطوطة: ٢٧٢/٢

(٢) زمامنة، عبد القادر، (١٩٨٢). الرّحالةان السبتيان ابن رشيد والتجيبي، مجلة المناهل، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، المغرب، العدد (٢٢)، ص ٥٤٥-٥٤٤.

ويؤكد شوقي ضيف الدور الكبير للمشرق في إفادة الأندلسيين علمًا وفكراً، فجلّ "ما أفادوه أنادهم من المشرق، إذ نقلوا الثروة العلمية المشرقة إلى بلادهم بكلّ ما فيها من فقه ولغة ونحو وفلسفة وطب.." ^(١) فمعظم كتب الأدب والتاريخ والترجم الأندلسية والمغربية تتحدث عن أعمال وضعها الذين نزحوا نحو المشرق لتحقيق غاية ما، وقضوا شطراً من حياتهم بالأندلس والشطر الآخر في المشرق، ولعل خير نموذج لهؤلاء الرحالّة ابن سعيد المغربي ^(٢).

وتشير بعض المصادر إلى كثرة امتحلين الأندلسيين والمغاربة إلى المشرق، فقد سمي أحد أرباض غرناطة الخارجية بـ "حوز الوداع"؛ لكتّة عدد المسافرين من غرناطة حيث اعتاد الغرناطيون في هذا المكان توديع أهلهם وأحبابهم قبل رحيلهم ^(٣).

ولم يقف الأمر عند انتقال علماء الأندلس والمغرب إلى المشرق أو ارتحالهم إليها، بل إنّ علماء المشرق كانوا يفدون إلى الأندلس والمغرب، وكانت كتبهم ترافقهم في رحلاتهم، مما أثّر بحركة ثقافية متبادلة ساهمت في نمو الحركة العلمية والفكرية في الأندلس والمغرب، فقد انتقلت الحياة اللغوية والأدبية في الأندلس والمغرب إلى طور جديد على المستوى بإسهامات عدد من علماء المشرق، ومنهم القالي ^(٤) حيث قام بالتدريس في

(١) ضيف، شوقي، (١٩٦٠). الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط٣، القاهرة: دار المعارف، ص٣٧.

(٢) تجول ابن سعيد المغربي في مختلف الأمصار، والتلقى بأكابر العلماء، ورأى أفضل كتب المغارقة، انظر، نفح الطيب ملخصاً من الإحاطة: ٢٠٩/١، ٢٧٢/٢، ٢٧٣-٢٧٤.

(٣) انظر، ابن الأحمر، أبو الوليد الأمير إسماعيل بن يوسف بن محمد، (ت ٨٠٧هـ). نثیر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، تحقيق محمد رضوان الديا، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧، ص ٢٩٥.

(٤) هو أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي (٢٨٨-٣٥٦هـ) صاحب الأقالي والنواود، وفُد على الأندلس أيام الناصر أمير المؤمنين عبد الرحمن، انظر ترجمته، ابن خلkan، وفيات الأعيان: ٢٢٧-٢٣٦/١، وياقوت الحموي، معجم الأدباء: ٢٥/٧، وابن العماد الحنبلي، الشذرات: ١٨/٣، والمقرئي، نفح الطيب: ٧٥-٧٠/٧، وبالنسبة، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ١٧٢. والأمثلة الدالة على كثرة امتحلين من علماء المشرق إلى الأندلس والمغرب تتعجب بها كتب المصادر، ومنها نفح الطيب الجزء الثالث.

قرطبة، وخرج عدداً كبيراً من العلماء، وزود الأندلس بمجموعة ضخمة من الكتب المحرّرة المطبوعة في مجال الشعر واللغة^(١).

وعليه، فقد عدّت الرّحلة عاملاً مهمّاً من عوامل التّفاعل الثقافي حيث ترك الرّحالـة الأندلسيـون والمغاربـة آثاراً قيـمة في الـبلدان التي قصـدواها، كما نهـلوا معرفـة واسـعة من تلك الـبلدان أفادـوا بها شعوبـهم بعد عودـتهم لـبلادـهم، وتمـثـلت جوانـب التـفاعل الثقـافي في الرـحلـات الأندلسـية والمغاربـية بصـورـ عـدـة، حـاولـت الـدرـاسـة إـجمـالـها بما يـليـ:

أولاً: الحياة الاجتماعية والدينية

لا شك أنّ تنوع العناصر والفنـات والطبقـات والطوائف في المجتمعـات، ترك أثـراً واضحـاً في الحياة الاجتماعية والدينـية في العـصور الوـسطـى، فقد عـكـست الرـحلـات صـورـ مظـاهرـ الحـضـارةـ والتـقدـمـ في مختلفـ الـبلـدانـ التيـ قـصـدـهاـ الرـحالـةـ، فأـلـقـتـ الرـحلـاتـ الضـوءـ علىـ أحـوالـ المـعيشـةـ، والـعادـاتـ والتـقـالـيدـ والأـعيـادـ والأـعـراسـ والأـزيـاءـ، والـمـائـامـ، وأـصنـافـ الـأـطـعـمـةـ والأـغـذـيـةـ، وـغـيرـهاـ حيثـ أـخـذـ الرـحالـةـ يـعـقـدونـ مـقـارـنـاتـ عـدـةـ لـاستـجـلاءـ أـوجهـ الشـبـهـ أوـ الـاخـتـلـافـ بـيـنـ مـظـاهـرـ التـلـاقـيـ والتـفـاعـلـ فـيـ الجـوانـبـ الـاجـتمـاعـيـةـ والـديـنـيـةـ والـثقـافـيـةـ وـالـفـكـرـيـةـ بـيـنـ مـخـتـلـفـ شـعـوبـ الـبـلـدانـ الـتـيـ زـارـوهـاـ، وـقـدـ حـاـولـتـ الـدرـاسـةـ حـصـرـ بـعـضـ هـذـهـ الـمـؤـثـراتـ فـيـ الـمـجاـلـاتـ التـالـيةـ:

أ. المصـاهـراتـ

إنـ الـإـمـتـازـ وـالـتـفـاعـلـ بـيـنـ أـفـرـادـ الـمـجـتمـعـاتـ، وـخـاصـةـ عـنـ طـرـيقـ الـمـصـاهـرـاتـ قدـ سـاـهـمـ فيـ اـزـدـيـادـ الـصـلـاتـ وـتـوـثـيقـهـاـ وـقـاسـكـهاـ، ولاـ شـكـ فيـ أـنـ هـذـاـ التـماـزـجـ الـاجـتمـاعـيـ وـالـعـرـقـيـ أـثـرـ تـأـثـيرـاًـ وـاضـحـاًـ فيـ الـمـجـالـ الثـقـافـيـ، فـتـلـاقـتـ الـثـقـافـاتـ، وـتـحاـورـتـ الـحـضـارـاتـ، ضـمـنـ مـبـداًـ التـأـثـيرـ وـالتـأـثـيرـ^(٢)ـ.

(١) انظر، ابن الفرضي، أبو الـولـيدـ عبدـ اللهـ بنـ محمدـ بنـ يوسفـ، (تـ ٤٠٦ـهـ). تاريخـ الـعـلـمـاءـ بـالـأـنـدـلـسـ، طـ ١ـ، تـحـقـيقـ رـوحـيـةـ عبدـ الرحمنـ السـوـيفـيـ، دـارـ الـكـتبـ الـعـلـمـيـةـ، بـيـرـوـتـ، لـبـانـ، ١٩٩٧ـ، صـ ٦٧ـ.

(٢) انـظـرـ، المـعطـانيـ، عبدـ اللهـ بنـ سـالمـ، (١٩٩٤ـ). "المـنظـورـ الـحـضـارـيـ للـتـرـاثـ الـأـدـبـيـ بـيـنـ الـأـنـدـلـسـ"، حـولـيـةـ الجـامـعـةـ الـتـونـسـيـةـ، العـدـدـ (٣٥ـ)، تـونـسـ، صـ ١٤٦ـ.

وقد أشارت الرحلات الأندلسية والمغربية إلى بعض النماذج من زواج العلماء والرّحالة بنساء أجنبيات، ومنها زواج أبي حامد الغناطي في بلاد المجر بجاربة رومية، حيث رزق منها بولد ومات، فأعتقها وسماها مريم^(١). وكذلك تزوج ولده الأكبر حامد بسيدين من أهالي بلاد المجر ورزق أولاداً^(٢)، كما اتّخذ الرحالة إبراهيم الساحلي إماماً للتسري من الزوجيات ورزق أولاداً منهن وهو في بلاد السودان^(٣).

أما ابن خلدون، فحينما زار الأندلس، تزوج بفتاة إسبانية، تدعى هند، ولعل هذا ما شجّع ابن الخطيب على أن يطلب من سلطان المغرب أبي سالم المريني أن يهديه جارية إسبانية^(٤). في حين دخلت المرأة حياة ابن بطوطة بشكل واسع لاسيما في بلاد الترك، حيث كان ابن بطوطة موضع تكريم المسلمين وحكامهم في مختلف البلاد التي قصدها، فأنعموا عليه بالكثير من الجوالي وتزوج عدداً من النساء^(٥)، وبهذا فإنّ الرّحالة قد جسّدوا صورة هذا التمازج الاجتماعي والثقافي لأنّهم جمعوا في أنفسهم ثقافات مختلفة وتأثروا بها.

ومن جانب آخر، أظهرت بعض الرحلات حرص المسلمين على مشاركة جيرانهم النصارى في أغراضهم، حيث يصف ابن جبير مشاركة المسلمين والنصارى في احتفال النصارى بعرض نصراني في مدينة صور، فيقول: "والمسلمون وسائل النصارى من النّظر قد عادوا في طريقهم سماطين، يتطلّعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك، فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها، وأقاموا يومهم ذلك في وليمة"^(٦).

(١) انظر، أبو حامد الغناطي، تحفة الألباب، ص ١٤٠.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٢.

(٣) هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأنصاري، ولد (٧١٣هـ). جواب الآفاق دخل مصر والسودان ودمشق والعراق...، بقي في السودان أوائل ٧٣٩هـ، انظر ترجمته، ابن الخطيب، الإحاطة: ٣٣٧/١-٣٧١، والمقرئي، نفح الطيب: ٤٠/٣.

(٤) انظر، ابن الخطيب، نفاضة العراب، ص ٦٨، نشر أحمد مختار العبادي.

(٥) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٤/١، ٣٣٩، ٢٤٩، ٩٤/٢، ١٨٦-١٨٥.

(٦) رحلة ابن جبير، ص ٢٧٨-٢٧٩.

أما الطلاق، فقد حاول بعض الرّحالة تغيير بعض العادات السيئة والخاطئة، حيث ذكر ابن بطوطة أئمّه عندما ولّي القضاء في دلهي أراد أن يغيّر بعضاً من العادات السيئة، وأولّ ما غير مكث المطلقات في ديار المطلقين، وكانت إحداهن لا تزال في دار المطلق حتى تتزوج غيره، ويقول ابن بطوطة: "فحسمت علّة ذلك، وأوقي إلى بنحو خمسة وعشرين رجلاً من فعل ذلك، فضربتهن وشهرتهن بالأسواق، وأخرجت النساء عنهم. ثم اشتددت في إقامة الصلوات.. وجهدت أن أكسو النساء، فلم أقدر على ذلك"^(١). وفي هذا ما يؤكد دور الرّحالة في التأثير في بعض المجتمعات التي زاروها، وقدرتهم على تغيير بعض الجوانب الخاطئة في حياة تلك المجتمعات.

ب. الأعياد والاحتفالات

إنّ عيد الفطر والأضحى وعيد المولد النبوى^(٢)، من الأعياد الدينية التي شاركت فيها الأندلس والمغرب العام الإسلامي، فقد نجم عن تعامل الأندلسين والمغاربة مع مختلف عناصر المجتمع، شيوع بعض المظاهر التي تمثل التمازن الثقافي والحضاري بين سكان الأندلس والمغرب كافة، حيث اتسعت دائرة الاختلاط، فالمسلمون والنصارى في مدينة أطربانش من جزيرة صقلية يقيمون معًا، ولكلّا الطرفين المساجد والكنائس^(٣)، وفي مدينة عكا كانت المحاريب "تجمع المسلمين والإفرنج معًا يستقبل هذا مصلاه وهذا مصلاه"^(٤).

وحفلت كتب الرّحلات بالعديد من صور التّفاعل بين شعوب البلدان التي قصدها الرّحالة: البلاد الإفريقية والآسيوية، وبعض البلاد الأوروبيّة، وأشار بعض الرّحالة إلى

(١) رحلة ابن بطوطة: ١٨٦/٢.

(٢) انظر، المصدر نفسه: ١١٤/٢، ١١٥، ٢٧٩، وابن الحاج التميري، فيض العباب، ص ١٤٩-١٥٠، وابن خلدون، التعريف، ص ١١٦-١١٢.

(٣) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٣٠٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٧٧.

نواحي التمازج بين الحضارات، حيث وصف ابن بطوطة - بشيء من التفصيل - نواحي التمازج بين الحضارتين الإسلامية والهندية، فذكر العديد من الأعياد والاحتفالات التي تشير إلى تنوع الثقافات وتباين التقاليد والعادات، وطبيعة التفاعل بين الهندو وغيرهم. ومن ذلك ما وصف به ابن بطوطة ليلة العيد في قصر سلطان دلهي محمد شاه، حيث يقول: "إذا كانت ليلة العيد بعث السلطان إلى الملوك، والخواص، وأرباب الدولة، والأعزّة، والكتاب، والحجاب، والنقباء، والقواد والعبيد، وأهل الأخبار الخلّاع التي تعمهم جميعاً، فإذا كانت صبيحة العيد زُينت الفيلة كلها بالحرير والذهب والجوهر .. ويركب السلطان فيلاً منها، وترفع أمامه الغاشية، وهي ستارة سرجه وتكون مرصعة بأنفس الجواهر.. ويمشي بين يديه عبيده وممالike.. ويمشي بين يديه أيضاً النقباء.. ويركب قاضي القضاة. وكبار الأعزّة من الخراسانيين والعرaciين، والشاميين، والمصريين، أو المغاربة، كل واحد منهم على فيل.." ^(١).

وحرص الأندلسية والمغاربة على الاحتفال بعيد المولد النبوّي، احتفالاً كبيراً، حيث أخذ بعض الرحالـة ينظمون الأشعار في مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - وذكر معجزاته ^(٢)، وممّا تميزت فيه هذه الاحتفالات أيضاً، إيقاد الشموع الملونة وإطعام الأطعمة المختلفة، وتوزيع ماء الورد، كما كانت توزع صلات كثيرة، وتؤدي الديون عن المسجونين الذين عجزوا عن أداء الديون ... وعن الأموات كذلك ^(٣). وقد أشار الفشتالي إلى أنّ شيخه أبا مروان كان يذبح - في مولد النبي عليه السلام - من البقر والغنم ما يكفي الآلاف من الناس، فياكل المحترق والمتحترم، والفقراء يقتربون إليه من البلدان،

(١) رحلة ابن بطوطة، ٦٢/٢.

(٢) انظر، ابن خلدون، التعريف، ص ١١٦-١١٢، والفشتالي، تحفة المغتب، ص ١٠٨، وانظر نماذج من هذه الأشعار، الدراسة هنا، ص ٧٠.

(٣) انظر، ابن الحاج التميري، فيض العباب، مقدمة المحقق، ص ٨٧، وانظر، رحلة ابن بطوطة: ١، ٢٧٧/١ . ١٢٩/٢

فيرون على أخصب ما كان من بشاشة وبر وإمكان، فيبقى الإطعام والسماع في كل ناحية ثمانية أيام متالية^(١).

أما المراسيم والاختلافات التي كانت تقام لاستقبال الحكام والأمراء أو السفراء وبعض الرّحالـة، فقد شارك النصارى واليهود أهل الأندلس والمغرب والشرق في بعضها، حيث استقبل تجار الروم السلطان الغرناطي أبا الحجاج يوسف الأول في جولة له على الشغور، فيقول ابن الخطيب: "وتألق من تجـار الروم من استخلاص العدل هواه وتساوي سره ونجواه، في طرق من البر ابتدعوها، وأبواب من الاحتفـاء شروعـها، فرفعـوا فوق الركـاب الملوـي على عـدم السـاج، مـظلة من الـديـاج، كانت على قـمر العـليـاء غـمامـة، وعلى زـهر المـجد كـمامـة، فـراقـتنا بـحسن المعـانـي..."^(٢).

وقد أعجب بنـيـامـين التـطـيلـي بما شـاهـدـه في وـادـيـ الرـافـدـينـ من جـمـاعـاتـ يـهـودـيـةـ، كانت يـؤـمـئـذـ تـنـعـمـ بـالـطـمـائـنـيـةـ في ظـلـ الخـلـافـةـ إـلـيـةـ إـسـلـامـيـةـ، فـمدـحـ خـلـيـفـةـ الـمـسـلـمـيـنـ الـمـسـتـنـجـدـ بـالـلـهـ العـبـاسـيـ، وـوـصـفـ مـوكـبـهـ فيـ طـرـيقـهـ إـلـىـ الجـامـعـ لـإـقـامـةـ فـريـضـةـ الصـلـاـةـ يـوـمـ العـيـدـ، وـابـتـهـاجـ الرـعـيـةـ بـرـؤـيـتـهـ، وـسـجـلـ هـتـافـهـ وـتـهـليلـهـ وـتـكـبـيرـهـ، ثـمـ ذـكـرـ الجـمـاعـةـ الـيـهـودـيـةـ بـيـغـدـادـ وـعـلـمـائـهـمـ^(٣)، وـأـشـارـ إـلـىـ أـعـيـادـهـمـ، وـمـنـهـ عـيـدـ الـكـفـارـ، وـمـهـرجـانـ التـورـةـ، وـعيـدـ العـنـصـرـةـ^(٤).

وفي مدينة مالي، استقبل سكانها الرّحالـةـ ابنـ بطـوطـةـ بـحـفـاوـةـ كـبـيرـةـ، وـتـنـافـسـواـ فيـ تـقـدـيمـ الضـيـافـةـ لـهـ^(٥)، وإنـ دـلـ هـذـاـ عـلـىـ شـيءـ فإـنـهـ يـدـلـ عـلـىـ مـدـىـ التـقـدـمـ الـحـضـارـيـ الـذـيـ وـصـلـتـ إـلـيـهـ مـدـيـنـةـ مـالـيـ نـتـيـجـةـ تـفـاعـلـ الـحـضـارـاتـ الـمـصـرـيـةـ وـالـسـوـادـنـيـةـ وـالـمـغـرـبـيـةـ، وـقـماـزـجـهاـ

(١) الفشتالي، تحفة المخترب، ص ١٠٨.

(٢) ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص ٤٨، ومشاهدات لسان الدين بن الخطيب، ص ٤٤-٤٣.

(٣) انظر، رحلة بنـيـامـينـ التـطـيلـيـ، ص ٢٦.

(٤) انظر، المصدر نفسه، ص ١٤٣، ١٧٢.

(٥) انظر، رحلة ابن بطـوطـةـ: ٢٧٤-٢٨٢.

معاً، لتشكل حضارة متطورة برزت ملامحها بجلاء في وصف ابن بطوطة للمناسبات الدينية التي يشارك فيها الحكام وشعوبهم على حد سواء.

ومن جانب آخر، فقد شارك أهل المشرق والأندلس والمغرب إخوانهم المسيحيين في عدد من أعيادهم واحتفالاتهم^(١)، وأشار بعض المؤرخين إلى وصف بعض الرحالات لتلك الأعياد، ومظاهر احتفال النصارى بها، وذلك على أساس نظرة احترام المسلمين للسيد المسيح والديانة المسيحية، فاحتفل المسلمون بعيد التروز أو النوروز، وخاصة في بغداد، وكان ذلك من المؤثرات الفارسية^(٢).

ويذكر ابن سعيد المغربي عيد التروز أو النوروز، فيقول: "النوروز المعروف عندهم بنيري"^(٣)، ومن مظاهر مشاركة أهل الأندلس في هذه الأعياد أُهتم كانوا يصنعون مدينة في التروز من العجينة، وبأصناف الألوان احتفالاً بتلك الأعياد^(٤).

ويصف ابن جبير عيدها للنصارى المعروفي بالبلغرين - حين كان في مدينة عكا، في ليلة الخميس الرابع والعشرين لرجب المذكور، وهو أول يوم من نوفمبر - تشرين الثاني - العجمي. كان للنصارى عيد مذكور عندهم، احتفلوا به في إسراف الشمع، وكاد لا يخلو أحد منهم، صغيراً، أو كبيراً، ذكراً أو أنثى، من شمعة في يده...^(٥) وفي وصفه إحدى الكنائس في مدينة صقلية، يقول: "أبصرناها يوم الميلاد، وهو يوم عيد لهم عظيم، وقد احتفلوا لها رجالاً ونساء..."^(٦).

(١) انظر، العبادي، أحمد مختار، (١٩٧٩). الإسلام في أرض الأندلس، مجلة عام الفكر، المجلد العاشر، العدد

.٢٩١

(٢) انظر، البيروفى، أبو الريحان محمد بن أحمد، (ت ٤٨٠ هـ). الآثار الباقية عن القرون الخالية، ط ليبرج بغداد، ١٨٧٨، ص ٢١٥-٢٢٤.

(٣) ابن سعيد المغربي، المغرب: ١/٢٩٤، وانظر، المقرى، نفح الطيب: ١٢٥/٣.

(٤) انظر، ابن سعيد المغربي، المغرب: ١/٢٩٤، والمقرى، نفح الطيب: ٤/٦٣، ١٣١، والأوسى، الذيل والتكميلة، ١، ق. ٥، ص ٥٦٠-٥٦١.

(٥) رحلة ابن جبير، ص ٢٨٦.

(٦) المصدر نفسه، ص ٣٠٦، وانظر، هذه الدراسة، ص ١٣١.

وقد رافق هذه الأعياد وغيرها من المناسبات والسفارات، تبادل الهدايا حيث كان حُكَّام الأندلس والمغرب والأذباء يتبارون الهدايا بينهم، وبين ملوك الإفرنج أيضاً^(١). أما الألعاب التي كانت تقام احتفالاً بتلك المناسبات، فقد أشارت بعض الرحلات إلى عدد منها، حيث كانت تقام بعيد الميلاد في قسطنطينية "المصارعة بين ضروب الحيوان من ضواري وسباع ودببة وفهود وحمر وحشية وطيور جارحة مدربة"^(٢).

وقد مثلت المرأة المسلمة في الرحلات الأندلسية والمغربية جانبًا من جوانب التفاعل وصورة من صور التسامح الديني، فجواري ملك صقلية، غليام، مسلمات كلهن، والإفرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة، تعدها الجواري المذكورات مسلمة..^(٣). كما شاركت نساء المسلمين في عزاء غير المسلمين وارتدبن ثياب العزاء البيضاء^(٤).

ج. الأطعمة والأزياء

قدمت الرحلات تصوّراً واضحاً عن مدى التنوّع والاختلاف في العادات والتقاليد المحليّة، ونقل الرّحالة صوراً واضحة عن كلّ المناطق التي قصدوها؛ ليؤكدوا أنّ الثقافة الإنسانية متنوّعة ومتعددة لجميع المناسبات والعادات وتقاليد الشعوب الأخرى، وعكسوا بذلك حقيقة التّفاعل بين الإنسان والمجتمع، كما "قدّموا صورة للاحتكاك والثّلاّق الحضاري بين المشرق والأندلس والمغرب وبعض الدول الأجنبية، فكان للرّحلات بلا ريبـ أثر كبير على التّفاعل الثقافي والأدبي والاجتماعي والاقتصادي"^(٥).

(١) انظر، ابن الحاج التميري، فيض العياب، ص ٢٩، ورحلة ابن بطوطة: ٦٨/٢، وابن خلدون، التعريف، ص ١٢٨، ٤١١.

(٢) رحلة بنiamin التطيلي، ص ٨٠.

(٣) رحلة ابن جير، ص ٢٩٩.

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٣٧/٢.

(٥) انظر، مرتاض، عبد الملك، (١٩٨٢). الجدل الثقافي بين المغرب والمشرق، ط ١، دار الحداثة، ص ٧٢، وبوتسيش، إبراهيم القادي، (٢٠٠٤). "محطات في تاريخ التسامح بين الأديان بالأندلس"، مجلة دراسات أندلسية، عدد (٣).

وقد تفاعل الرّحالة الأندلسيون والمغاربة مع العناصر الأخرى في مختلف البلدان التي قصدوها، وفي المجتمع الأندلسي الذي كان يزخر بالعناصر المتعددة في تلك العصور سواء من حيث المأكل والمشرب والملبس، والعادات والمناسبات، أو في الفكر والفن واللغة.

وقد تحدث بعض الرّحالة الأندلسيين والمغاربة عن الطعام عند العامة والخاصة^(١)، حديثاً يُستشفّ منه دلالات كثيرة من أحوال المجتمع الاجتماعية والاقتصادية، وارتفاع الشعوب من بعضها من خلال انتقال بعض الأفكار والعديد من العادات والتقاليد المتعلقة بأمّاط الغذاء وأساليبه، وطرق الضيافة، ضمن إطار التفاعل، حيث يذكر الرّحالة تلك الأطعمة التي تلائم سكان المناطق الأخرى، أو قد لا تلائم بعضهم الآخر، ففي الخليج العربي يصف ابن بطوطة نوعاً من الطعام لم يأكل قبله ولا بعده، صنعه بعض تجار عُمان، "وهو من الذرة، طبخها من غير طحن، وصبّ عليها السيلان، وهو عسل التمر، وأكلناه"^(٢).

ومن جانب آخر، يصف ابن بطوطة طعاماً تناوله ورفاقه في مدينة مالي، حيث يقول: "وأكلنا بعد عشرة أيام من وصولنا عصيدة، تصنع من شيء شبه القلقاس يُسمّى القافي، وهي عندهم مفضلة على سائر الطعام، فأصبحنا جميعاً مرضى، وكنا ستة فمات أحدهنا، وذهبت أنا لصلاة الصبح، فغشى عليّ فيها، وطلبت من بعض المتصريين دواء مُسهلاً، فأتي بشيء يسمى بَيْدَر، وهو عروق نبات، وخلطه بالأنيسون والسكر ولته بالملاء، فشربته وتقيأت ما أكلته من صفراء كثيرة، وعافاني الله من الهلاك، ولكنني مرضت شهرين ..."^(٣).

كما نقل بعض الرّحالة بعض العادات الخاصة بتناول الحلوي بعد الطعام، يقول ابن بطوطة حين زار سلطان الهند: "أمر بالطعام، فأكلت .. فلما فرغنا من الطعام أكل

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٦٥-٦٦، والدراسة هنا، ص ١١٩-١٢٥.

(٢) المصدر نفسه: ٢٤١/١.

(٣) المصدر نفسه: ٢٧٥/٢.

الحلواء ثم شرب الفقاع بعد ذلك، وأخذنا التنبول وانصرفنا^(١). ويذكر أيضاً أنه بعد الانتهاء من أكل الولائم في حضرة سلطان الهند يجعل "أمام كل إنسان من الشرفاء والفقهاء، والمشايخ والقضاة، وعاء شبه المهد، له أربع قوائم منسوج سطحه من الخوص، وجعل عليه الرقاق، ورأس غنم مشوي، وأربعة أقراس معجونة بالسممن مملوئة بالحلواء.. وطبقاً صغيراً مصنوعاً من الجلد فيه الحلوء والسموسك..."^(٢).

ووصف بعض الرّحالة موائد الطعام وطرق إعدادها والآنية المستخدمة في ذلك، ففي احتفال السلطان محمد الخامس الغني بالله بالمولد النبوى الشريف سنة ١٧٦٤هـ، استخدمت أوعية وأطباق خشبية رومية، مما يطرف بها تجار جنوه وما يصاحبها من الجزائر الروميات، ملبيسة بالورق الذهبية، مرصعة بالزجاج المرسوم فيه صور الحيوان والأشجار.^(٣) أمّا سلطان مدينة بري، إحدى مدن آسيا الصغرى، فيذكر ابن بطوطة أنّ خدم السلطان كانوا يأتون إلى مجلسه "بصحف من الذهب والفضة مملوئة بالجلاب المحلول قد عصر فيه ماء الليمون، وجعل فيه كعكات صغار مقصومة وفيها ملaque ذهب وفضة، وجاءوا معها بصحف صيني فيها مثل ذلك وفيها ملaque خشب...".^(٤) ويبرز في ذلك انتقال ثقافة جانب إلى آخر، وتأثره بها.

ويبدو احترام الرّحالة لثقافات الآخرين واضحاً سواء في حالة استحسانهم للطعام، أو استقباحهم له، ومحاولتهم التفاعل مع مختلف أنواع الأطعمة، فقد ورد في الاستبصار أنه كان "لمذراة الإسكندرية مجتمع في العام يسمونه بخميس العدس، وهو أول خميس من شهر ماية لا يتخلّف في مدينة الإسكندرية عن الخروج إلى المنار في ذلك اليوم أحد، وقد أعدوا لذلك اليوم الأطعمة والأشربة، ولا بدّ في ذلك الطعام من العدس".^(٥)

(١) المصدر نفسه: ١٢٦/٢.

(٢) رحلة ابن بطوطة: ١٢٩/٢.

(٣) ابن الخطيب، نفاضة الجراب: ٢٧٨/٣، وانظر، رحلة ابن بطوطة: ١، ٣٤، ٢٦٣/١، وابن الخطيب، خطرة الطيف، ص ١١٧.

(٤) رحلة ابن بطوطة: ٢٧٢/١.

(٥) مؤلف مراكشي مجھول، الاستبصار، ص ٩٨.

أما الزي فقد وصف ابن جبير زي النصرانيات في إحدى مدن جزيرة صقلية، حيث يقول: "زي النصرانيات في هذه المدينة، زي نساء المسلمين، فصيحات الألسن، ملتحفات، متنقبات، خرجن في هذا العيد المذكور -يوم الميلاد- وقد لبسن ثياب الحرير المذهب، والتحفن بالحلف الرائقة، وانتقن بالنقّب الملوّنة، وانتعلن الأخفاف، المذهبة، وبرزن لكتائهن أو كُنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلّي والتّخضب والتعطر"^(١). ويظهر في ذلك رسوخ التقاليد والعادات الإسلامية في الجزيرة المذكورة، وتأثر الآخرين بها.

وأشير أيضاً إلى أن بعض ملوك الإفرنج قد تأثروا بالعرب وقوانينهم وأساليبهم حيث يذكر ابن جبير أنه "ليس في ملوك النصارى أترف في الملك ولا أنعم ولا أرفه منه -غليام ملك صقلية-، وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتضخيم أبهة الملك وإظهار زينته بملوك المسلمين.."^(٢).

وقد تأثر بعض الرحالـة الأندلسـيين والمغاربة بـزي أهل المـشرق، حيث يصف ابن الخطيب هـيئة الرحالـة البلـوي الذي كان يرتدي أحسن الملـبس عند مشاركتـه لاستقبال سـلطان غـرانـطة أـبي الحـجاج يـوسـف الـأـول، فيـقـول: "أـرمـي من الـبـياـض طـيلـسانـاً، وـصـبغ لـحيـته بالـحنـاء والـكـتم، وـلـاث عـامـمـته، وـاخـتـتم"^(٣). وـكانـ البلـوي "يتـشـبهـ بالـمـشارـقةـ شـكـلاً وـلـسانـاـ"^(٤).

وـحـفـلتـ بـعـضـ كـتـبـ الرـحالـاتـ بـتـسمـياتـ لـلـأـزيـاءـ وـالـحـلـيـ، فـفيـ جـزـرـ الـمـالـدـيفـ يـصـفـ ابنـ بـطـوطـةـ خـلـالـ نـسـاءـ السـلـطـانـ، وـكـانـتـ تـسـمـيـ الـبـايـلـ، وـقـلـائـدـ ذـهـبـ...ـ يـجـعـلـنـهاـ عـلـىـ صـدـورـهـنـ، وـيـسـمـونـهاـ الـبـسـدـرـ"^(٥).

(١) رحلة ابن جبير، ص ٢٠٧.

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٢٩٨، ولمزيد من التعرّف على ملامح التأثير والتأثير في الزي العربي أو الأوروبي، انظر، ابن الخطيب، الإحاطة: ١٢٤-١٢٣/٢، و ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ط ٢، تحقيق بروفيسـالـ، بيـرـوتـ، ١٩٥٠، ص ٥٦١.

(٣) ابن الخطيب، خـطـرةـ الطـيفـ، ص ٤١.

(٤) التبكتـيـ، نـيلـ الـإـتـهـاجـ، ص ١١٥.

(٥) رحلة ابن بطوطـةـ: ١٧٨/٢.

إنّ ما قام به الرّحالة من وصف مأكّل ومشرب وملبس أهل كُلّ بلد قصدها يعده في ذاته إشارة تحمل دلالة التفاعل، حيث تطلّع الشعوب على عاداتها وتقلّيداتها، فما ذكره إبراهيم الطرطوشى، مثلاً، عن زيّ رسّل ملك البلغار حين وفدوه على هوتوا، نقل إلينا بجلاء صورة عن ملابسهم وحليّهم، حيث يقول: إنّهم "يلبسون ملابس ضيقّة، ويتمنّطقون بأحزمة طوال قد ركبّ عليها ترامس الذّهب والفضة، وملكتهم عظيم القدر، يضع على رأسه النّاج .."^(١). أمّا ابن بطوطه، فيذكر أنّ نساء مدينة لاذق في آسيا الصغرى، "نهن عمامئ كبار".^(٢).

ويidel ما وصفه الرّحالة من طرق الطّبخ وأنواع الأطعمة وصناعة الحلويات وتنوع الأزياء، دلالة واضحة على تداخل الحضارات وتنوع العادات والثقافات في مختلف البلدان التي قصدها الرّحالة، ولعلّ رحلة ابن بطوطة تمثل معجماً لفنّ الطّبخ وتنوع الأزياء واللحلي في مختلف البلدان التي زارها.

د. الحجّ وزيارة الأماكن المقدسة

كانت الرّحلات من الأندلس والمغرب إلى المشرق، أكثر من رحلات المشارقة لديارهم، وذلك لوجود الكعبة المشرفة، وبيت المقدس، ومنارات العلم في المشرق، حيث اتجهوا نحو المشرق لأداء فريضة الحجّ، فتأثّروا بما وجدوه هناك من حضارة وعلوم، فالمشرق قبلة القاصد، وكعبـة طلاب العلم والحجّ بفضل أماكنها المقدسة، ومراكمها العلمية، وقد هيّأت هذه الرّحلات الالقاء بالأئمّة والعلماء في المدينة المنورة ومكة المكرّمة، ودمشق، وحلب، والقاهرة، وبيت المقدس، والأخذ عنهم وتبادل المعارف والعلوم والثقافات معهم والحصول على الإجازات، فترك علماء المشرق أثراً كبيراً في التكوين الثقافي للرّحالة الأندلسيّين والمغاربة مثلما ترك الرّحالة الأندلسيّون أثراً علمية وثقافية عميقّة في العلماء الذين التقوا بهم.

(١) البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا، من كتاب المسالك والممالك، ص ١٥٤-١٧٠، ٨١-٨٠.

(٢) رحلة ابن بطوطه: ٢٦١/١.

يتضح من ذلك أن العامل الديني شكل عامل جذب في التفاعل الثقافي، ورغبة ملحة تدفع المسلمين والنصارى واليهود إلى قطع المسافات، واقتحام المخاطر، لحج البيت الحرام أو بيت المقدس، والتبرك بقبور الأنبياء ومقامات الصالحين، فاليهودي كان يشعر بلهفة متاججة إلى زيارة أماكن التوراة ومثوى الأنبياء غير عابئ بأنه لا يتمتع بحماية سلطان أو حاكم سيما أيام الحروب الصليبية، بل إن من نعمة الله عليه أن يتاح له حجّ البلاد المقدسة، لذا كان بيت المقدس خلطيًا من كل أمّة ولسان^(١) وموئلًا للعلماء والمفكرين والفلسفه المسلمين واليهود والنصارى. وكانت مكّة المكرّمة مركز استقطاب للمسلمين بوجود الكعبة المشرفة فيها.

وقد كانت الأماكن المقدّسة تستقبلآلاف العجّيج والزائرين والمجاورين في كل الأوقات، فتهيأ بذلك الجو لتعايش الوافدين، وتبادل المعرفة وامتداد العلاقات بين الأئمة والعلماء، وكان التلاقي والتفاعل في شتى ميادين المعرفة. ويذكر الرحالة ابن الصّبّاح الأندلسي في رحلته النصارى واليهود مرات متعددة في حديثه عن عزة الإسلام في بيت المقدس، ويصف الأماكن المقدّسة النصرانية واليهودية، كجبل الطور الذي نزلت فيه التوراة على موسى، وبيت لحم حيث ولد المسيح، ثم يتحدث عن علاقته الوطيدة مع الرهبان وحجّاج هذه الأماكن المقدّسة، ويذكر أنّهم طلبو منه وصف الكعبة لهم ففعل، وطلبو منه أن يدعوا لهم - وهو الحاج صاحب البركة - فاحتار في كيفية الدّعاء، ولكنّه في نهاية الأمر تفطن وقال: اللهم أنتم على خير الأديان، فقالوا: آمين^(٢).

ويبدو واضحًا أنّ بيت المقدس، ومكّة المكرّمة، أثراً كبيراً في نفوس جميع الطوائف، حيث يصف ابن بطوطة ملكاً راهباً في مدينة القدس، وقد أخذ بيد ابن بطوطة، حين علم بأنه زار بيت المقدس، وقال له: أنا أصافح اليد التي دخلت بيت

(١) رحلة بنiamين التطيلي، ص ٩٩، واظر، مؤنس، حسين، (١٩٥٩). فجر الأندلس، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى الدولة الأموية، ط ١، القاهرة: الشركة العربية، ص ٢٠٧.

(٢) انظر، شيخة، جمعة، بعض المظاهر الدينية في رحلة عبد الله بن الصّبّاح الأندلسي، مجلة دراسات أندلسية، ص ٤٣.

المقدس، والرجل التي مشت داخل الصخرة، والكنيسة العظمى التي تسمى قيامة وبيت لحم^(١) ويقول ابن بطوطة: "وجعل يده على قدمي ومسح بها وجهه، فعجبت من اعتقادهم، في من دخل بتلك المواقع من غير ملتهم"^(٢). ويذكر ابن بطوطة أن الكنيسة المعظمة بالقدس يحجّها النصارى، وهي التي يعتقدون أنّ قبر عيسى- عليه السلام بها^(٣).

أما ركب الحجاج الذي سافر فيه ابن بطوطة، فيصفه بقوله: "وخرجنا بعد طواف الوداع إلى بطن مرّ - والمطراد مرّ الظهران- في جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والأعاجم، لا يحصى عددهم، توج بهم الأرض موجاً ...".

ولعل في ذلك إشارة إلى أنّ الحجّ إلى الديار المقدّسة، كان "بمتابة رابط روحي عميق، وكانت فريضة الحجّ دائمًاً عاملاً قوياً من عوامل خلق حياة مشتركة في الإسلام"^(٤). وعمالاً مؤكداً على أن ما جمع تلك الشعوب وعناصرها المختلفة هو وحدة الثقافة والعقيدة. وقد وصف ابن جبير التّفاعل بين المغرب والمشرق حين أشار إلى المكانة الدينية المقدّسة لبيت المقدس، حيث كان المسلمين يهبون للدفاع عنها، فشارك المغاربة مع إخوانهم المشارقة في حروبهم ضدّ الصليبيين، الأمر الذي دفع الإفرنج لقول: إنّ هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا ترزاهم شيئاً، فلما تعرّضوا لحربنا وتآلوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم .."^(٥).

ووصف ابن جبير مكانة المكرمة في موسم الحج، ودورها في التّفاعل الثقافي حيث يجتمع أهل المشرق والمغرب، ويتعاونون الذخائر النفيسة وأنواع الطيب المتعددة التي تجلب

(١) رحلة ابن بطوطة: ٣٢٣/١.

(٢) المصدر نفسه: ٣٢٣/١.

(٣) انظر، المصدر نفسه: ٦١/٦، ٣٢٢-٣٢١.

(٤) المصدر نفسه: ١٥٣/١-١٥٤.

(٥) أوليري، ديلاس، (١٩٦١). الفكر العربيّ ومكانه في التاريخ، ترجمة قام حسان، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة، ص ٢٣٩، وانظر، ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص ١٣٢.

(٦) رحلة ابن جبير، ص ٢٧٤، وانظر، جرار، صلاح، "العلاقات بين فلسطين والأندلس"، مجلة الفيصل، السنة الثالثة، العدد (٢٩)، ص ١١١-١١٥.

من الهند والحبشة، كما كانوا يتعاونون الأ متّعة العراقية، واليمانية، إلى غير ذلك من السلع الخراسانية، والبضائع المغربية، ويقول: "فالطريق إليها -يقصد مكة المكرمة- ملتقي الصادر والوارد، ... والثمرات تجبي إليها من كل مكان ... ولو لم يكن لها من المتاجر إلا أوان الموسم ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب، فيباع فيها في يوم واحد، فضلاً عما يتبعه من الذخائر النفيسة كالجوهر... ومن أنواع الطيب: المسك، والكافور ... إلى غير ذلك من جلب الهند والحبشة، إلى الأ متّعة العراقية واليمانية، إلى غير ذلك من السلع الخراسانية، والبضائع المغربية..."^(١).

وقد ظهرت بذور التلّاق في رحلة ابن جبير حين استقلَّ من عَكَ مركباً مسيحيّاً إلى صور فنزل بها وطاف ثم اتجه إلى صقلية، حيث نزل بها وتعرّف بأهلها^(٢). ويصف ابن جبير أيضاً ركوب النصارى السفينة معهم "وهم حجاج بيت المقدس، عالم لا يحصى، ينتهي إلى أزيد من ألفي إنسان".^(٣) . ويدرك ملوكهم غليام الذي كان يسأل عن مكّة مشاهدها المعظمة، وعن مشاهد المدينة المقدّسة، ومشاهد الشام، وهو يذوب شوقاً وتحرّقاً، ويقول ابن جبير: "واستهدى منا -يقصد الملك غليام- بعض ما استصحبناه من الطُّرف المباركة من مكّة والمدينة قدّسهما الله".^(٤) .

إنْ تسامح المسلمين في الأندلس والمغرب والشرق إزاء مختلف الطوائف، ساهم في تشكيل وحدة ثقافية رسمت أبعاد الشخصية الحضارية الأندلسية والمغربية والشرقية. فابن بطوطة كلّما ذكر الروايا وانتشارها في مختلف البلدان، ذكر مثيلاتها في بلاد النصارى، وهي الأديرة أو المانسترارات^(٥) .

(١) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٩٧، ١٥٨، ١٦٣.

(٢) انظر، المصدر نفسه، ص ٤٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٨٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٩٩.

(٥) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٣٢٢/١، وانظر، مثل ذلك، الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ١٨٠-١٨١.

ويصف ابن جبير أحد مساجد مدينة عَكَّا، ويذكر أنَّ عند محرابه قبر النبي صالح عليه السَّلَامُ، وفي شرقي عَكَّا عينًا باسم عين البقرة، عليها مكان مسجد ويقتضي السكان المسلمون، والنصارى على السواء، فهم في أرض واحدة وتراث شعبي مشترك^(١).

ومن جانب آخر، أذت هذه الأماكن المقدسة دوراً كبيراً في التَّفَاعُلِ النَّقَافِيِّ، من خلال عقدها لحلقات التَّنَاطُرِ والتَّحَاوُرِ الْعُلُمِيِّ وَالْأَدْبَرِيِّ، حيث شارك الرَّحَّالَةُ في مثل تلك الحلقات العلمية والأدبية، التي كانت تجري بين العلماء الذين تواجدوا من مختلف أنحاء البلاد الإسلامية، فتعلَّم الرَّحَّالَةُ وعلَّمُوا^(٢).

وكان استقطاب هذه الأماكن المقدسة للعديد من العلماء والأدباء والشعراء قد أدى إلى اتساع دائرة التأثير المتبادل بين المشرق والأندلس والمغرب وفتح أبواب الحوار والتَّفَاعُلِ مع الآخرين، حيث يصف الرَّحَّالَةُ ابن العري بيته المقدس، بأنَّها كانت تعج بالعلماء من أهلها الوفدين، وأنَّها ملتقى المتناظرين في الأديان الثلاثة: الإسلام والنصرانية واليهودية. وذكر ابن العري، أيضاً، أنه حضر مجلساً تناظر فيه حبر اليهود المعروف بالتستري، حيث وصفه بأنه كان "لقناً فيهم ذكيًّا بطريقتهم"^(٣).

ويشارك ابن العري في الكثير من المنازرات والمحاورات التي كانت تحدث في بيته المقدس، حيث يقول: "عمدُ إلى مدرسة الشافعية بباب الأسباط، فألفيت بها جماعة علمائهم في يوم اجتماعهم للمناظرة، ... وهم يتنازرون على عادتهم ... فاتخذت بيته المقدس مبَاءَة، والتزمت فيه القراءة .. وأدخل إلى مدارس الحنفية والشافعية في كل يوم لحضور التَّنَاطُرِ بين الطَّوَافِ ..."^(٤).

(١) انظر، رحلة ابن جبير، ٢٧٦-٢٧٧.

(٢) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٤، وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ترجمة ابن رشيد: ١١٢-١١١/٤.

(٣) انظر، ابن العري، قانون التأويل، ص ٩٥-٩٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٩١-٩٥.

ويتبّع من ذلك، أنَّ الرِّحَالَةَ كَانُوا يَتَطَلَّبُونَ إِلَى مَرَاكِزِ الإِشَاعَةِ الْعُلْمِيِّيِّ أَيْنَمَا وَجَدُوا، مَمَّا مِثْلِ تِيَارًا عَلَمِيًّا، نَقْلُ مَعِهِ الْكَثِيرُ مِمَّا عَنِ اهْلِ الْمَشْرِقِ مِنْ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ، فَهِيَا ذَلِكُ فَرَصَّةُ لِلِّإِفَادَةِ الْمُتَبَادِلَةِ بَيْنِ الْ ثَقَافَاتِ وَتَقْرِيبِ الْأَفْكَارِ، وَكَمَا اسْتَقْطَبَ الْمَشْرِقُ الْكَثِيرُ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْفَقَهَاءِ وَالْأَدْبَاءِ، اسْتَقْطَبَتِ الْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبُ الْعَدِيدَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْفَقَهَاءِ وَالْأَدْبَاءِ، فَكَانَتِ الرِّحَالَاتُ وَسِيلَةً لِنَقْلِ الْمَعَارِفِ وَالْعِلْمَ وَالْ ثَقَافَاتِ مِنْ شَعْبٍ إِلَى آخَرٍ.

أَمَّا التَّعَايشُ بَيْنِ الْأَدِيَانِ، فَقَدْ خَلَقَ جُوَّاً مِنَ التَّوَافُقِ، وَمَجَالًا لِلِّقاءِ، تَكَوَّنَتِ فِيهِ هُوَيَّةً اجتماعِيَّةً ثَقَافِيَّةً مِنْ نَسْبَجِ وَاحِدِ تَالِفِ مِنْ طَوَافَّ وَعَنَاصِرِ مُخْتَلِفَةٍ، فَالتَّعَايشُ بَيْنِ الْأَدِيَانِ، عَنِ "الاعترافُ بِالآخرِ الْمُخَالِفِ فِي الرَّأِيِّ، وَالْمُبْدَأِ وَإِمْكَانِيَّةِ الإِقَامَةِ مَعَهُ فِي مجَمِعٍ وَاحِدٍ، وَمَدِّ الْعَلَاقَاتِ مَعَهُ، وَالْإِقْرَارُ لِهِ بِحُرْبِيَّتِهِ الْعَقَائِدِيَّةِ وَالْمَذَهِيَّةِ، فَكُلُّ هَذَا يَخْلُقُ الْحَوَارَ وَاللِّقاءَ، وَالْتَّسَامِحَ، وَالْتَّلَاقَ بَيْنِ الْأَدِيَانِ"^(١). وَقَدْ رَفَقَ ذَلِكَ كِتَابُ التَّرَاجِمِ، وَالرِّحَالَاتِ الَّتِي دَوَّنَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الْمَظَاهِرِ الْحَضَارِيَّةِ لِلْبَلَدَانِ الَّتِي مَرَّ بِهَا الرِّحَالَةُ وَالْعُلَمَاءُ الَّذِينَ قَصَدُوا الْحَجَّ وَزِيَارَةَ الْأَماَنَّ الْمَقْدَسَةِ.

(١) شهر، عبد العزيز، (١٩٩٥). "التعيش بين الأديان في الأندلس من خلال نصوص شعرية أندلسية"، دراسات أندلسية، العدد (١٤)، ص. ٣٠.

ثانياً: الحياة الثقافية والسياسية

أ. التأثيرات اللغوية والترجمة

قدّم الرحالة - من خلال تجوالهم في مختلف البلدان - صوراً للتأثيرات اللغوية والترجمة، أغنت حصيلتهم الثقافية، ليس هذا وحسب، بل إنَّ بعض الرحلات كانت أشبه بمعاجم لغوية، زودتنا بالعديد من لغات الشعوب ولهجاتها، حيث اطّلع الرحالة على لغات لهجات الأمم التي زاروها أثناء تجوالهم، وأشاروا إلى لغات يعرفونها، وأخرى لا يفهمون منها شيئاً، وذكروا ما كان يواجههم من صعوبة التّفاهُم بين الشعوب في الدول خارج البلاد العربية، إلا أنَّهم حاولوا تذليل تلك الصعوبات، مما جعلهم أدوات لنشر اللغات المختلفة هنا وهناك، وساعدوا في أعمال الترجمة بين تلك اللغات. ولعل الدراسة هنا، تجمل بعض الصور التي نقلتها الرحالة على التّفاعل الثقافي، ومنها:

- دقة الرحالة البكري في رسم الأعلام الجغرافية، وتفسيره بعض أصولها اللاتينية، ومن ذلك قوله: "ومعنى طليطلة باللاتيني تولاطو، ومعناه فرح ساكتوهـا، يريدون لحصانتها ومنعتها"^(١) وقوله عن مدينة إشبيلية: "زعم أهل العلم باللسان اللاتيني أنَّ أصل تسميتها إشباري، ومعناه المدينة المنبسطة"^(٢) وقوله في وصف ماردة "وقد أحدق بالمدينة سور عرضه اثنا عشر ذراعاً، وارتفاعه ثمانية عشر ذراعاً وعلى بابها كتابة ترجمتها بالأعجمية، براءة لأهل إيلياء "بيت المقدس"^(٣).

وأشار البكري، أيضاً إلى وقوع عدد كبير من نساء المسلمين في أسر الروم، ولعلهن كنّ وسيلة من وسائل نقل الثقافة والمعرفة العربية إلى البلاد الأوروبيّة، حيث كان بعضهن يُعرفن الموسيقى العربية، ويختين بالعربية في قصور ملوك أوروبا^(٤).

(١) البكري، جغرافية الأندلس، ص ٨٦-٨٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٢، ١١٩-١٢٠.

(٤) انظر، المصدر نفسه، ص ٤٢، والمقرئي، فتح الطيب: ٤٥٠-٤٥٣.

- أمّا العبدري، فيبدو عارفاً باللهجة الأمازيغية المستعملة، وفي رحلته ما يؤكّد ذلك، فقد تعرّض لأخطاء الجغرافي الأندلسيي الرّحالة أبي عبيد البكري، فقال: "إنه - البكري- ذكر ببلاد الصحراء بلداً يقال لها تدمكة وترجمها -البكري- فقال: معنى تاد الهيئة أي أنها على هيئة مكّة وليس معنى تاد الهيئة كماذكر ولا لهيئة اسم في لسانهم ألبنة، وإنّما معنى تاد هذه، وهي من أسماء الإشارة عندهم يقولون لهذا واد، ولهذين ويد، لهذه تاد، ولهاتين وهؤلاء تيد، وليس للمثنى عندهم عبارة سوى عبارة الجمع، إلا في ألفاظ العدد فمعنى تاد مكّة، هذه مكّة أي مشبهتها"^(١).

- ووصف بعض الرّحالات، تأثر بعض حكام الإفرنج بالعرب والإفادة منهم، فقد ذكر ابن جبير أنّ غليام ملك صقلية، كان يقرأ ويكتب بالعربية، وأنّه اتّخذ علامه ملوك الإسلام "الحمد لله حقّ حمده" وفي ذلك دلالة على التّفاعل وتذوق الحضارة الإسلامية^(٢). وأشار ابن جبير، أيضاً، إلى إتقان بعض الوعاظ للسّانين العربي والأعجمي، حيث وصف واعظاً خراسانياً صعد منبر الوعظ في شهر رمضان المبارك، فقال: "فصعد واعظ خراساني حسن الشارة مليح الإشارة، يجمع بين اللسانين عربيّاً وعجميّاً، فأقى في الحالين بالسحر الحال من البيان، فصيح المنطق، بارع الألفاظ، ثم يقلب لسانه للأعاجم بلغتهم، فيهزّهم إطراياً، وينذيهم زفات وانتحاباً"^(٣).

وذكر بعض الرّحالات وجود من كان يترجم تلك اللغات، ممّن كان يعرف اللغة العربية من أبناء تلك البلاد، أو من العرب الذين استقرّوا فيها كما عرف بعض حكام البلاد غير العربية، اللغة العربية، وإن لم يحسن عدد منهم التّحدث بها^(٤).

(١) العبدري، الرّحلة المغربية، ص ١٥٩.

(٢) انظر رحلة ابن جبير، ص ٢٩٨.

(٣) المتصدر نفسه، ص ١٥٩، وانظر، المتصدر نفسه، ص ٢٧٥.

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١١٥/٢، ١٢٠، ١٧٨، ٢٧٢، وانظر أيضاً، دور الترجمان في سفارة يحيى الغزال المقربي، نفح الطيب: ٢٥٧-٢٥٩.

- ويقول الفشتالي على لسان شيخه أبي مروان، حين زار زاوية في خراسان "وهي على حد الصحراه، لم أعدّها يميناً ولا شمالاً. قال: فسلمت على الشيخ وعلى أصحابه، وكانوا نحو ثلاثة رجال، وكانت لا أفهم لسانهم الفارسي ولا يفهمونني ... ومن يوم دخولي عليهم، لم يتكلموا إلى أن ورد فقير يفهم لسانهم، فقلت له: لعلّي أسأّل الأدب عليهم في دخولي، فغيّرتهم، فسألتهم^(١)، فإن كان من قبلي انقباضهم استغفرت الله وتتأذّب بأدبهم ... فذكر لهم ما قلت له، فقالوا: "و الله ما صدر منه ما يكره وإنما رأينا انفرادنا دونه بطيب الكلام سوء أدب في عشرته، فوافقتناه في الصمت. وأماماً من اليوم فأنت لسانه لنا، ولساننا له"^(٢).

- أمّا ابن بطوطة، فلعله أكثر الرحالة إدراكاً لأهمية التّخاطب بلغة الشعوب التي نزل في بلادها، حيث اهتم بتعلم شيء منها -من خلال الطّواف في البلدان- لتكون عوناً له في تيسير معاشه، وانتقاله بين المدن، فعرف الفارسية إلى جانب العربية، ثم التركية، وألم ببعض ألفاظ وتركيبات لغات ولهجات معظم البلدان التي قصدها، فقد قال معلقاً على حديث أحد الفتيان مع شيخه في إحدى مدن الأناضول باللسان التركي "وم أكن يؤمئذ أفهمه"^(٣).

وحين نزل ابن بطوطة ورفاقه بزاوية أحد الأخويه في مدينة كاوية، إحدى مدن آسيا الصغرى، وتكلّموا معه فلم يفهم أحدهم ما عنى الآخر، ويصف ابن بطوطة ذلك بقوله: "فكلّمناه بالعربيّة فلم يفهم، وكلّمنا بالتركية فلم نفهم عنه، فقال: اطلبوا الفقيه فإنه يعرّف العربيّة .. فأتى الفقيه فكلّمنا بالفارسية، وكلّمناه فلم يفهمها منّا، فقال للفتى: إيشان عربّيكهنا ميقوان، ومن عربّينوميدانم، وإيشان معناه هؤلاء، وكهنا قديم، وميقوان

(١) يقول محقق رحلة تحفة المغارب: "هكذا في الأصل ولعل صحتها فاسأّلهم"، وانظر، الفشتالي، تحفة المغارب، ص ٨٧، حاشية رقم ١.

(٢) الفشتالي، تحفة المغارب، ص ٨٧-٨٦.

(٣) رحلة ابن بطوطة: ٢٥٨/١، وانظر، المصدر نفسه: ٢٧٢/٢، ١١٥/١.

يقولون، ومن أنا، ونو جديـد، وميدانـم تعرفـ. وإنـما أرادـ الفقيـه بهـذا الكلامـ سـترـ نفسهـ عنـ الفضـيحةـ، عـنـدـما ظـنـنـوا أنـهـ يـعـرـفـ اللـسانـ العـرـبـيـ فهوـ لاـ يـعـرـفـهـ، فـقـالـ: "هـؤـلـاءـ يـتـكـلـمـونـ بـالـعـرـبـيـ الـقـدـيمـ، وأـنـاـ لـاـ أـعـرـفـ إـلـاـ العـرـبـيـ الـجـدـيدـ". فـظـنـ الفتـىـ أـنـ الـأـمـرـ عـلـىـ ماـ قـالـهـ الفـقـيـهـ. وـنـفـعـنـاـ ذـلـكـ عـنـدـهـ وـبـالـغـ فـيـ إـكـرـامـنـاـ، وـقـالـ: هـؤـلـاءـ تـجـبـ كـرـامـتـهـمـ لـأـنـهـمـ يـتـكـلـمـونـ بـالـلـسانـ العـرـبـيـ الـقـدـيمـ، وـهـوـ لـسـانـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ تـسـلـيـمـاـ وـأـصـحـابـهـ. وـلـمـ نـفـهـمـ كـلـامـ الفـقـيـهـ إـذـ ذـاكـ، لـكـنـنـيـ حـفـظـتـ لـفـظـهـ، فـلـمـاـ تـعـلـمـتـ اللـسانـ الـفـارـسـيـ فـهـمـتـ مـرـادـهـ^(١). وـمـنـ الـأـمـثـلـةـ الدـالـلـةـ عـلـىـ تـعـلـمـ اـبـنـ بـطـوـطـةـ الـفـارـسـيـ، وـصـفـهـ لـقـدـومـهـ عـلـىـ سـلـطـانـ الـهـنـدـ، حـيـثـ يـقـولـ: "... ثـمـ سـأـلـنـيـ وـصـافـحـنـيـ، وـأـمـسـكـ يـدـيـ، وـجـعـلـ يـخـاطـبـنـيـ بـأـحـسـنـ خـطـابـ، وـيـقـولـ لـيـ بـالـفـارـسـيـ: حـلـتـ الـبـرـكـةـ، قـدـومـكـ مـبـارـكـ، ... ثـمـ سـأـلـنـيـ عـنـ بـلـادـيـ، فـقـلـتـ لـهـ: بـلـادـ الـمـغـرـبـ: ..."^(٢).

وـقـدـ رـصـدـتـ الـدـرـاسـةـ جـمـلـةـ مـنـ الـأـلـفـاظـ وـالـتـرـاـكـيـبـ وـالـمـوـاـقـفـ الـتـيـ تـبـرـزـ مـدـىـ تـأـثـرـ اـبـنـ بـطـوـطـةـ بـلـغـاتـ وـلـهـجـاتـ شـعـوبـ الـبـلـدـانـ الـتـيـ زـارـهـاـ، مـمـاـ سـاعـدـهـ فـيـ التـعـرـفـ عـلـىـ ثـقـافـاتـ تـلـكـ الشـعـوبـ، وـنـقلـهـاـ إـلـىـ ثـقـافـةـ بـلـادـهـ، وـمـنـهـ^(٣):

- گـسـايـ، وـهـوـ اـسـمـ اللـهـ -عـزـ وـجـلـ- عـنـ أـهـلـ الـهـنـدـ، فـقـدـ وـصـفـ اـبـنـ بـطـوـطـةـ بـعـضـ أـهـلـ الـهـنـدـ، وـهـمـ يـغـرـقـونـ أـنـفـسـهـمـ فـيـ أـحـدـ الـأـنـهـارـ، وـيـقـولـ أـحـدـهـمـ مـنـ حـضـرـهـ: لـاـ ظـنـنـواـ أـنـيـ أـغـرـقـ نـفـسـيـ لـأـجـلـ شـيـءـ مـنـ أـمـورـ الـدـنـيـاـ، أـوـ لـقـلـةـ مـالـ، إـنـماـ قـصـدـيـ التـقـرـبـ إـلـىـ گـسـايـ، وـکـسـايـ اـسـمـ اللـهـ -عـزـ وـجـلـ- بـلـسـانـهـمـ.."^(٤).
- وـكـانـتـ اـمـرـأـةـ فـيـ الـهـنـدـ تـحرـقـ نـفـسـهاـ مـعـ زـوـجـهاـ عـنـدـ مـوـتـهـ، وـيـقـولـ اـبـنـ بـطـوـطـةـ: "وـقـدـ حـجـبـتـ النـارـ بـلـحـفـةـ يـمـسـكـهـاـ الرـجـالـ بـأـيـدـيـهـمـ لـلـاـ يـدـهـشـهـاـ -امـرـأـةـ- النـظرـ إـلـيـهاـ،

(١) المـصـدرـ نـفـسـهـ: ٢٨٠/١.

(٢) المـصـدرـ نـفـسـهـ: ١١٥/٢، وـانـظـرـ أـيـضاـ نـفـسـ المـصـدرـ وـالـجـزـءـ، صـ٢٠، ١٧٨، ١٧٧، ٢٧٢.

(٣) انـظـرـ، المـصـدرـ نـفـسـهـ: ٢٦٧/١، ٢٦٨، ٢٧١، ٣٢٦، ٣٠١، ٢٦٨، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٤، ٨/٢، ٨٧، ١٧، ١٢٨، ١٢٥، ٨٧.

(٤) رـحـلـةـ اـبـنـ بـطـوـطـةـ، ٢٧٢/٢.

فرأيت إحداهم لما وصلت إلى تلك الملحفة، نزعتها .. وقالت: ماوا ميتراساني أزاطش من ميدانم أواطش إست رهاكني مارا، ومعنى هذا الكلام: أبالنار تخوفوني؟ أنا أعلم أنها نار محقة^(١).

● سراكنوا، ومعناه المسلمين، فقد رافق ابن بطوطة ركب ابنة إمبراطور القسطنطينية، زوجة أوزبك خان، ذاهبة لزيارة أبيها، وعند وصولهم إلى قصر الإمبراطور، سمع الرجال يقولون: سراكنوا، سراكنوا، ومعناه المسلمين^(٢).

● جيكس، وهو من الألفاظ الفارسية، ومعناه مَنْ أنت؟ وللشاد، ومعناه القلب الفارج^(٣).

● أمّا أسماء بعض الأطعمة في المدن التي قصدها ابن بطوطة، فيذكر منها، ما يطلقه أهل مدينة أصفهان على الخبز، وهو نان، وعلى اللبن ماس^(٤). "والسمك بالفارسية، شيرماهي، ومعناه أسد السمك، لأنّ شير هو الأسد وما هي السمك -ويقول ابن بطوطة: وهو يشبه الحوت المسمى عندنا بتارزت"^(٥) ويعرف الموز في إحدى قرى مدينة قلهات بالمرواري، ويقول ابن بطوطة: " والمرواري بالفارسية، هو الجوهر"^(٦)، والرمان في جزائر ذيبة المهل يسمى أنار، وجلنار بالفارسية: جل، الزهر، الزهر، ونار الرمان^(٧).

● ويذكر ابن بطوطة، أيضاً، أسماء بعض المواقع، ويتتحقق من تفسير تلك التسميات، ففي مدينة الماجر، إحدى مدن الترك، موضع يقال له: " بش دغ،

(١) المصدر نفسه: ٢٧/٢.

(٢) المصدر نفسه: ٣١٩/١.

(٣) المصدر نفسه: ١٤٤/٢.

(٤) المصدر نفسه: ١٤٥/٢.

(٥) المصدر نفسه: ٢٤١/١.

(٦) المصدر نفسه: ٢٤٣/١.

(٧) المصدر نفسه: ٢٣/٢.

ومعنى بش عندهم خمسة، ومعنى دغ الجبل؛ أي الجبال الخمسة^(١). أمّا في الهند، فهناك موضع يقال له: "بنج هير، ومعنى بنج خمسة، وهير الجبل، فمعناه خمسة جبال"^(٢).

● أمّا الحُكَّام والسلاطين، فقد حظيت رحلة ابن بطوطة، بالعديد من المواقف الداللة على تفاعلهم مع مختلف العحضرات، فحين ولّي ابن بطوطة القضاء في دهلي، خاطبه السلطان باللسان العربي "بل أنت سيدنا ومخدومنا" تواضعاً منه وفضلاً وإيناساً^(٣) وعندما دخل ابن بطوطة قصر امبراطور القدسية، وفُتّش قال له أحد اليهود هناك بالعربي "لا تحف، فهكذا عادتهم أن يفعلوا بالوارد، وأنا الترجمان، وأصلي من بلاد الشام، فسألته: كيف أسلم؟ فقال: قل السلام عليكم. ثم وصلت إلى قبة عظيمة، والسلطان على سريره.. ثم وصلت إليه فسلمت عليه، وأشار أن أجلس فلم أفعل، وسألني عن بيت المقدس، وعن الصّخرة المقدّسة، وعن القيامة، وعن مهد عيسى، وعن بيت لحم، وعن مدينة الخليل -عليه السلام- ثم عن دمشق ومصر والعراق وببلاد الروم، فأجبته عن ذلك كلّه، واليهودي يترجم بيني وبينه، فأعجبه كلامي وقال لأولاده: أكرموا هذا الرجل وأمنوه، ثم خلع على خلعة، وأمر لي بفرس مسرج ملجم، ومظلة من التي يجعلها الملك فوق رأسه، وهي علامة الأمان..."^(٤).

إنّ سؤال امبراطور القدسية لابن بطوطة عن هذه الأماكن يؤكّد دور الرّحالة في نقل المعرفة والثقافات عبر الأقطار التي كانوا يمرون بها.

ويصف ابن بطوطة أيضاً، وهو في مدينة الخنسا - من أعمال بلاد الصين - خروج ابن أمير الصين معهم، في نزهة بحرية، وقد كان معهم في السفينة أهل الطرب والمسيقى،

(١) رحلة ابن بطوطة: ٣٠٢/١.

(٢) الم المصدر نفسه: ٣٦١/١.

(٣) الم المصدر نفسه: ١١٩/٢.

(٤) الم المصدر نفسه: ٣٢٠/١.

وكانوا يغنوون بالصيني وبالعربي وبالفارسي، فيقول: "وكان ابن الأمير معجباً بالغناء الفارسي، فغنوا شعراً منه، وأمرهم بتكريره مراراً حتى حفظه من أفواههم".^(١)

ولعل في وصف ابن بطوطة لسلطان فاس أبي عنان، دلالة واضحة على مدى التفاعل الثقافي الذي أثّر في التكوين الثقافي لشخصية ابن بطوطة، حيث يقول: "فأنستني هيبة سلطان العراق، وحسن ملك الهند، وحسن أخلاقه حسن خلق ملك اليمن، وشجاعته شجاعة ملك الترك وحملمه حلم ملك الروم، وديانته ديانة ملك تركستان، وعلمه علم ملك الجاوية"^(٢) إن هذه المقارنات التي يعقدها الرّحالة لا تهيا لهم إلا بسبب رحلاتهم ومعرفتهم بعادات الشعوب وخصائصها وأنظمتها السياسية والاجتماعية وغيرها مما يجعل منهم بحق علماء في علم الاجتماع المقارن.

وقد كان لبعض الرّحالة دور في نشر العلم والمعرفة في مختلف البلدان التي قصدوها، فأبو حامد الغرناطي يقول عند دخوله أنقرة: "وما دخلت بين أولاد المغاربة أكموني، وعلّمتهم شيئاً من العلم وأطلقت ألسنة بعضهم بالعربية، وكانت أجتهد معهم في الإعادة والتكرار في فرائض الصلاة وسائر العبادات، ... فعلموا صلاة الجمعة، فعندهم اليوم أكثر من عشرة آلاف مكان يخطب فيه يوم الجمعة ظاهراً وباطناً، لأنّ ولائهم عظيمة".^(٣) كما حفلت رحلة أبي حامد الغرناطي "المُعرب" بأسماء الأشهر باللغات المختلفة: العربية، والفارسية، والرومنية، وأسماء شهور المغاربة وشهور الهند^(٤).

ودخلت بعض الألفاظ المشرقية إلى اللهجة الغرناطية، ومنها ما ذكره ابن الخطيب، خوند، وخوند لفظ تركي أو فارسي وأصله خُد أو نُد بضم الخاء ومعناه

(١) المصدر نفسه: ٢٣٣-٢٣٢/٢.

(٢) رحلة ابن بطوطة: ٢٥٧/٢.

(٣) الفشتالي، تحفة المختب: ص ١٣٨، وانظر، المصدر نفسه، ص ١٢٥، ١٤١.

(٤) أبو حامد الغرناطي، رحلة المُعرب: ص ٤٦-٥١.

السيد أو الأمير^(١). وفي ترجمة ابن الخطيب لابن الحاج النميري يقول: "العذب الجامع بين جزالة المغاربة ورقة المشارقة"^(٢).

أما ابن خلدون فيشير إلى أنَّ الشاعر الغرناطي ابن زمرك^(٣)، قد أرسل بقصائد من وضعه إلى مصر يمتحن فيها السلطان برقوق^(٤)، ويذكر ابن خلدون الذي كان في مصر وقت وصول هذه القصائد أنه كان لا بدَّ أن تنقل هذه الأشعار المكتوبة بالخط المغربي إلى خط مشرقي لتسهل قراءتها في مصر^(٥).

وكان للرحلة دور كبير في نقل الكتب والمؤلفات بين المشرق والمغرب وبين العرب والنصارى فأدوا بذلك دوراً هاماً في الاتصال والتفاعل الثقافي، حيث كانوا يعودون إلى الأندلس والمغرب، وقد بلغ الواحد منهم مبلغ العلماء بما اكتسب من علم وحمله من كتب، وما حصله من معرفة وثقافة جالباً معه ما أمكنه الحصول عليه من كتب ومصنفات كان لها الأثر العلمي الكبير في تطور ثقافة بلده، ويصف ابن العربي أثر العائدين من الرحلة، فيقول: "لولا أنَّ الله تعالى منْ بطائفه تفرقت في ديار العلم، وجاءت بباب منه .. فرشوا من ماء العلم على هذه القلوب الميتة وعطروا أنفاس الأمة الزهرة، لكان الدين قد

(١) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، المقدمة: ٢/٢، وانظر، ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص ١٠٧، والمقرري، نفح الطيب: ١٧٨/٢.

(٢) المقرري، نفح الطيب: ١٠٧/١، وانظر، ابن الخطيب، الإحاطة: ٣٥٠/١-٣٧١.

(٣) هو أبو عبد الله، محمد بن يوسف بن محمد، أصله من شرقى الأندلس، ولد عام ٧٣٤هـ وأعمل الرحلة في طلب العلم والازدياد، فترقى إلى الكتابة عن ولد السلطان أمير المسلمين بال المغرب أبي سالم إبراهيم ابن أمير المسلمين أبي الحسن، وقيل قتل بعد عام ٧٩٥هـ انظر ترجمته، المقرري، نفح الطيب: ١٤٥٧ وما بعدها، وابن الخطيب، الإحاطة: ٢٢١/٢، وابن خلدون، التعريف، ص ٢٦٤، وبالثانية، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ١٣٩-١٤٢.

(٤) هو أبو سعيد برقوق بن أنس، ويعرف ببرقوق العثماني نسبة إلى فخر الدين عثمان بن مسافر تولى الملك أول مرة سنة ٧٨٤هـ، واستبدل بالملك حتى مات سنة ٨٠١هـ انظر ترجمته، تاريخ ابن خلدون (١٩٧١)، منشورات مؤسسة الأعلمي بيروت: ٤٥٤-٤٦٢.

(٥) انظر، ابن خلدون، التعريف، ص ٣٠٧-٣٠٨.

ذهب، ولكن تدارك الباري سبحانه بقدرته ضرر هؤلاء، وتماسكت الحال قليلاً^(١). والحمد لله تعالى^(٢).

وقد وضع بعض الرحالة الأندلسيين والمغاربة مصنفاتهم التي تضمنت أخبار رحلاتهم بعد أن زاروا مختلف البلاد، فابن سعيد المغربي جال الديار المصرية والعراق والشام، فجمع وصنف كتابه "المشرق في حلى المشرق"، حيث أتاحت له الفرصة الاطلاع على نخبة من كتب المشارقة، فهو الرحالة "الإخباري العجيب الشأن في التجول في الأقطار، ومداخلة الأعيان والتمتع بالخزائن العلمية، وتقييد الفوائد المشرقة"^(٣).

وذكر بعض الرحالة أنهم قد اطّلعوا أثناء تجوالهم في بلاد المشرق، على عدد من الكتب والمصنفات الفقهية، ودرسوها، وأخذوا عنها، مثل صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وغيرها^(٤)، وذكر ابن بطوطة أنه أثناء زيارته لبلاد السودان، وفي مدينة منها نسيي اسمها، وجد عند أميرها كتاب المدهش لابن الجوزي^(٥)، ويقول: "فجعلت أقرأ فيه"^(٦). وقد حصل بعض الرحالة على إجازات برؤاية مؤلفات بعض الفقهاء ومرؤوياتهم، حيث أجاز الفقيه شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن^(٧)، الرحالة التنجيبي ما قرأ عليه من مؤلفاته، يقول التنجيبي: "... وكتاب فضل الخيل قرأت عليه جميعه، ووهبني نسخة... وكتاب فضل إتباع صوم رمضان بست من شوال، قرأت أيضاً عليه جميعه ووهبني نسخة

(١) التنبكتي، نيل الابتهاج: ٢٨٤/١.

(٢) المقرري، نفح الطيب: ٢٧١/٢.

(٣) انظر، ابن رشيد، ملء العيبة: ١٦٢/٥، ١٧٣، ٢٣٧، والتجيبي، مستفاد الرحالة، ص ٣٨١، ٣٨٣، ٣٨٥، ٣٦٦، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٨، ٣٨٤، ٣٨٨-٣٨٤، ورحلة التجاني، ص ١٦، ٤٣، ١٠١، ١٠٦، ١٠٢، وانظر، زياد، نقولا، (١٩٦٦).

دمشق في عصر المماليك، بيروت، ص ٢١٣-٢١٢.

(٤) هو "كتاب المدهش في المحاضرات" لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي البغدادي، انظر ترجمته، ابن خلakan، وفيات الأعيان: ١٤٠/٣-١٤٢.

(٥) رحلة ابن بطوطة: ٢٨٦/٢، والمقرري، نفح الطيب: ١٦١/٥.

(٦) انظر ترجمته، السبكي، طبقات الشافعية: ١٣٣/٦، والتجيبي، مستفاد الرحالة، ص ٨٢-٣٧.

بخط يده أثابه الله... وكتاب معجم مشائخه قرأته عليه بعضه، وأجازنا سائره وهو مجلدان ...^(١). ومن الرّحالة أيضًا، الذين حفلت رحلاتهم بالروايات والكتب المقروءة والمسموعة والمصنفات التي أجزيز بها في مختلف العلوم والفنون، ابن رشيد. وعدّ بعض الباحثين، أنّ ابن جبير أكثر الرّحالة تأثراً بالشرق وبأفكاره، وكان لكتبه تأثير كبير في ظهور أدب الرّحلات في بلاد الأندلس والمغرب^(٢).

وكان الرّحالة بذلك مؤثرين في الغير لا متأثرين فقط، فالتواصل الثقافي والفكري، ظلّ متواصلاً مع الشرق، وقد نقل كثير من العلماء الأندلسية والمغاربة كتب أهل المشرق معهم إلى بلادهم، حيث بعث ابن زُمرك إلى صديقه ابن خلدون أثناء وجوده في مصر، يطلب منه إرسال بعض المؤلفات المشرقية "والمرغوب من سيدي أن يبعث لي ما أمكن من كلام فضلاء الوقت وأشيائهم على الفاتحة ..."^(٣).

ومن الكتب التي جُلبت من المشرق، كتاب الأمالي لأبي علي القالي^(٤)، وقد أشار ابن خلدون إلى أنّ "القالي قدم من المشرق، فأورث أهل الأندلس علمه"^(٥). فتأليفه مطلب كل المثقفين في الأندلس والمغرب، وكان تأثير أبي علي القالي كبيراً في نقل علوم اللغة والشعر والأدب في الأوساط والمجالس الثقافية في الأندلس والمغرب^(٦). أما كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، فقد أرسل في طلبه الخليفة المستنصر^(٧).

(١) التجيبي، مستفاذ الرحلة، ص ٤٧-٤٨ وما بعدها.

(٢) انظر، أبو دياك، صالح محمد، (١٩٨٧). التبادل الفكري بين المغرب والأندلس وشبه الجزيرة العربية" مجلة الدارة، السنة ١٣، العدد (٢): ص ١٠٣.

(٣) ابن خلدون، التعريف، ص ٣٠٩-٣١٠.

(٤) وستمر ترجمته في صفحة ١٣٤ من هذه الدراسة، حاشية رقم ٣.

(٥) تاريخ ابن خلدون: ١٤٦/٤.

(٦) انظر، المقربي، نفح الطيب، ٣٨٦/١، وانظر، أمين، حسين، (١٩٨٥). "العلاقات الثقافية بين الأندلس وبغداد في العصر العباسي". المناهل، السنة ١٢، العدد (٣٣)، ص ١١٩.

(٧) هو الحكم الثاني المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ). أكثر الخلفاء الأندلسية تسامحاً وحرية فكر، انظر ترجمته، الصّبّي، بغية الملتمس: ٤٠١/٤٢، والمقربي، نفح الطيب: ٣٨٢/١ وما بعدها.

ولعل معظم الكتب التي اقتنتها مكتبات قرطبة الخاصة وال العامة، هاجرت مع العلماء والطلاب والتجار وغيرهم إلى أنحاء الأندلس المختلفة^(١)، وكانت هي التي صدعت كبد الرحالّة ابن العربي، وقرعت خلده، وكان عدم فهم فقهاء بلدته لتلك الكتب، هو ما جعله يقرر الرحالة في طلب العلم، حيث يقول: "وناهيك من أمّة يجلب إليها هذا القدر الطفيف، فلا يكون منهم أحد يضاف إليه، إلا بصفة العاجز الضعيف ونذرته في نفسي طيّة، لئن ملكت أمري لأهاجرن إلى هذه المقامات، وألأدنّ على أولاء الرجالات، ولأتمرسن بما لديهم من العقائد والمقالات، ..."^(٢).

لهذا، لم يكتف الرحالّة الأندلسيون والمغاربة بجلب الكتب وحسب، بل خاض بعضهم غمار الحركة الفكرية، فأولوا العلوم التشريعية عنابة خاصة، حيث خصصوا لها العديد من المصنفات، ودونوا المسائل الفقهية، وتناولوها بالاختصار أو الشرح أو التعليق، ومنهم أبو بكر العربي، وابن رشيد، والتجيبي، وابن تومرت، ومحيي الدين بن عربي، الذي قيل عن كتبه "لها ببلاد اليمن والروم صيت عظيم"^(٣). وفي ذلك دلالة على عنابة الأوروبيين بكتب المسلمين.

أما ابن الخطيب وابن خلدون، فقد تركا مؤلفات عديدة، ذاعت وانتشرت بين البلدان، لتشهد على براعتها في التاريخ والأدب والرسائل والشعر.

ويظهر من ذلك أن الثقافة المشرقية، قد تركت ظلّها في الثقافة والفكر الأندلسيين والمغاربيين، حيث وفق الأندلسيون والمغاربة بين ثقافة المشارقة وثقافتهم، إلى أن أخذت تنمو حضارة مميزة للأندلسيين والمغاربة، لها شخصيتها وطابعها.

(١) انظر، المقرري، *نفح الطيب*: ١٠٥/١، ٣٨٥-٣٨٦.

(٢) ابن العربي، *قانون التأويل*، ص ٧٦-٧٧.

(٣) المقرري، *نفح الطيب*: ٢/١٦٦.

كما انتقلت الثقافة الإسلامية إلى الدول الأوروبية، وتطورت لتترك أثراً كبيراً في الفكر المسيحي واليهودي، فعبر هذا الامتزاج اللغوي عن تفاعل الحضارة العربية الإسلامية بالحضارات الأخرى، مما جعلها بحق لغة الحوار الحضاري الأندلسي والمغربي آنذاك^(١).

بـ. السّفارات والاستفادة من ثقافة الآخر
 أدّت السّفارات دوراً مهماً، ساعد على تطوير العلاقات الثقافية وتعزيزها، فقد مثّلت نصاً من نصوص الرّحلات، وعكس صورة التّفاعل الثقافي بين مختلف الحضارات.
 وكانت مجالس الخلفاء والسلطانين والملوك، تمثّل صورة من صور التّفاعل الثقافي، فقد مثل بلاط روجر الثاني ملتقى الحضارة العربية والأوروبية، حيث صورت خرائط الإدريسيـ العالم للأوروبيين، وعدّ كتابه "أكثر كتب الجغرافية باللغة العربية رواجاً وصيتاً في أوروبا"^(٢).
 وكان تكليف روجر الثاني "لعام عربي بالذات بوضع وصف للعالم المعروف آنذاك لدليل ساطع على تفوق الحضارة العربية في ذلك العهد وعلى اعتراف الجميع بهذا التفوق...".
 أمّا ابن بطوطة، فقد وصف إحدى الليالي في مجلس السلطان أوزبك خان، حيث يقرأ القراء بالأصوات الحسان، ثم يأخذون في الغناء "يغتون بالعربي ويسمّونه القول، ثم بالفارسي يسمّونه الملمع..."^(٣).

(١) وله من الاطلاع على هذا الامتزاج اللغوي وأثره في التّفاعل الثقافي بشكل عام، انظر، بالنيابة، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٤٨٥-٤٨٨، وزيريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٥٢٩، والأندلس قرون من التقليبات والعطاءات، كحيلة، عبادة عبد الرحمن رضا، الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية، الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ١٩٩٧، ط ١: ٤٤١/٢، وانظر، العبادي، أحمد مختار، ١٩٧٩). الإسلام في أرض الأندلس، مجلة عام الفكر، مجلد ١، عدد (٢)، ١٩٧٩، ص Nicholson, R.A, (١٩٩٦). Aliterary History of the Arabs. India : S. Sajid Ali, ١١٠-٥٩

Watt, W.M, (١٩٦٧) A History of Islamic Spain (Islamic Surveys, ٤, P. ٤١٥)

Edinburgh, University Press, P. ١٥١

(٢) كراتشيفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٤٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٩.

(٤) رحلة ابن بطوطة: ١/٢٩٩.

ولعل أهم جوانب الحياة السياسية، التي عكست صورة التفاعل الثقافي وخلقت جوًّا من حوار الحضارات والثقافات، هي السفارات^(١) ومارافقها من ترتيبات أمنية واهتمام خاص بنظام التشريفات، وتبادل للهدايا بين الملوك، فقد حرصت الدول من خلال السفارات على المحافظة على كيانها وتقرير علاقاتها مع الدول الأخرى من مستوى المحايدة إن لم يكن مستوى الصداقة، حيث شكلت السفارات بين الدول مجالاً واسعاً للانفتاح على مختلف الجوانب الحضارية، فكان لا بد من اتصال الحكام وأمراء الأقاليم المختلفة ببعضهم، ولا بد، أيضاً، من اتصالهم بغيرهم من حكام غير المسلمين، فالظروف السياسية الداخلية والخارجية، كانت تستوجب وجود السفارات وتعدد السفراء، لعقد التحالفات والمعاهدات، وصولاً إلى الأمان والاستقرار، وتنظيم العلاقات الدولية، وإبرام الاتفاقيات، بهذا يكون السفراء قد أدوا دوراً هاماً في زرع بذور الثقافة العربية الإسلامية، ونشر الثقافات المختلفة بشكل عام إلى أنحاء الدول الأخرى وقد كان بعض الرحالات سفراء بلادهم للبلدان الأخرى، ثم سفراء تلك البلدان إلى غيرها، حيث نقلوا صورة جلية عن أحوال البلاد العربية والإسلامية، وأحوال بعض الدول الأوروبية، فقدمت الرحالات، بذلك، أبرز ملامح التفاعل بين المسلمين والعناصر الأخرى، ولعل رحلة يحيى الغزال^(٢) تؤكّد دور السفراء في التفاعل الثقافي، من خلال عقدتهم لمجالس التحاور والتناظر التي ساهمت في تطور الثقافات وتمازجها، حيث كان للغزال مع الروم "مجالس مذكورة، ومقاوم مشهورة، في بعضها جادل علماءهم فيكتهم، وفي بعضها ناضل شجاعانهم فاثبتهم"^(٣). كم تحاور الغزال مع زوجة ملك الروم التي أعجبت به وبتحاوره معها واستمتعت بسماع شعره بعد أن يترجمه لها المترجم، ليس هذا وحسب، بل إن

(١) انظر، هذه الدراسة، ص ٢٣-٢٧.

(٢) انظر، ابن دحية، المطروب، ص ١٤٣-١٤٢، واطقري، نفح الطيب: ٢٥٧/٢-٢٥٩.

(٣) ابن دحية، المطروب، ص ١٤٢، وانظر، دور سفارة الغزال في التبادل الثقافي، جزار، زمان الوصل، ص ٢٤ - ٢٥.

سفارة الغزال كشفت عن دور المرأة في فتح باب التّواصل الثقافي والاطلاع على ما لدى كل طرف من أخبار وثقافة.

وكشفت سفارة ابن خلدون عن دور اليهود والنصارى، الذين يعملون في قصور الأندلسية والمغاربة والأوروبين، وتقرّبهم إلى السلاطين ليكونوا من خواص رجالات الدولة، ومنهم الطبيب اليهودي إبراهيم بن زرزر، كما وصف ابن خلدون الهدايا التي حملها إلى ملك قشتالة من السلطان الغنّي بالله، وما حمله ملك قشتالة من هدايا للسلطان الغنّي بالله ولابن خلدون^(١)، ويرى صلاح جرار أن سفارة ابن خلدون تدل على "عمق الاتصال الثقافي" بين الأندلس وقشتالة، وأدوات هذا الاتصال، فهو يكشف عن دور العلماء والمشفّفين الأندلسية - بما يحظون به من تقدير لدى الأوروبيين - في إنجاح مساعي التقارب بين الأندلس وجيانها الأوروبيين^(٢). كما أن سفارة ابن خلدون كشفت عن "دور بعض العناصر اليهودية والمسيحية الذي ينتقلون للعمل في قصور الأندلسية وقصور الأوروبيين في التّقريب بين الطرفين، وتعريف كلّ منهما بثقافة الآخر"^(٣). ويصف ابن خلدون أيضًا انتظامه في مجلس أبي عنان، وحصوله على الفائدة من السفراء، حيث يقول: "وعكفت على النّظر، والقراءة، ولقاء المشيخة من أهل المغرب ومن أهل الأندلس الوافدين في غرض السفارة وحصلت على الإفادة منهم..."^(٤).

أما الرّحالة ابن بطوطة، فقد كان له دور كبير في اتساع دائرة التّبادل الثقافي، من خلال سفارته^(٥) وزياراته للسلاطين والملوك، وتحاوره مع زوجاتهم، وتزويدهن بثقافة بلاده واكتسابه من ثقافة بلادهن، ومن ذلك حدثه مع ملكة مدينة كيلوكري - إحدى

(١) ابن خلدون، التعريف، ص ١٢٥، ١٢٨، ٤٠٦، ١٢٨، والمقرى، نفح الطيب: ١٢٠/٥، وانظر هذه الدراسة، ص ٢١، حاشية رقم ٥.

(٢) جرار، زمان الوصول، ص ٢٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٨.

(٤) ابن خلدون، التعريف، ص ١٠٢.

(٥) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١٣٥/٢، والدراسة هنا، ص ١٤، حاشية رقم ١.

مدن جاوهـ، التي كانت تتحدث بالتركـيـة، وترغب في الاطـلـاع على ما لدى الرـحـالة ابن بـطـوـطـة من ثـقـافـة وـمـعـرـفـة، مـمـا أـسـهـمـ في تـفـعـيل دور الرـحـالة ضمن إطار التـفـاعـل الثـقـافـيـ. يقول ابن بـطـوـطـة: "...وكـانـتـ تحـسـنـ الكـتابـ العـرـبـيـ فـقـالـتـ لـبعـضـ خـدـمـهـ: دـوـاهـ وـبـتـكـ كـاتـورـ، مـعـنـاهـ الدـوـاهـ وـالـكـاغـدـ، فـأـوـتـيـ بـذـلـكـ، فـكـتـبـتـ، بـسـمـ اللـهـ، الرـحـمـنـ الرـحـيمـ، فـقـالـتـ: مـاـ هـذـاـ؟ فـقـلـتـ لـهـاـ: تـتـضـرـيـ نـامـ. وـمـعـنـىـ ذـلـكـ، اـسـمـ اللـهـ، فـقـالـتـ: خـشـنـ. وـمـعـنـاهـ جـيـدـ. ثـمـ سـأـلـتـنـيـ: مـنـ أـيـ الـبـلـادـ قـدـمـتـ؟ فـقـلـتـ لـهـاـ: مـنـ بـلـادـ الـهـنـدـ، فـقـالـتـ: بـلـادـ الـفـلـفـلـ؟ فـقـلـتـ: نـعـمـ. فـسـأـلـتـنـيـ عـنـ تـلـكـ الـبـلـادـ وـأـخـبـارـهـاـ، فـأـجـبـتـهـاـ ..."

(١)

وكان لسفراء الـدـوـلـ الأـخـرـيـ دورـ فيـ تـزـوـيـدـ بـعـضـ الرـحـالةـ فيـ مـخـتـلـفـ الثـقـافـاتـ، ومـثـالـ ذـلـكـ مـاـ كـتـبـهـ ابنـ الخطـيـبـ فيـ كـتـابـهـ أـعـمـالـ الـأـعـلـامـ عنـ تـارـيـخـ الـمـمـالـكـ الـمـسـيـحـيـةـ الإـسـبـانـيـةـ، وـهـيـ قـشـتـالـةـ، وـأـرـاجـونـ، وـالـبـرـتـغـالـ، وـلـيـونـ، وـبـرـشـلـونـةـ، وـقـدـ اـسـتـعـانـ اـبـنـ الخطـيـبـ فيـ كـتـابـهـ هـذـاـ جـزـءـ بـسـفـيرـ مـمـلـكـةـ قـشـتـالـةـ يـوـسـفـ بـنـ وـقـارـ إـسـرـائـيـلـيـ فيـ أـثـنـاءـ زـيـارـاتـهـ مـمـلـكـةـ غـرـنـاطـةـ فيـ مـهـمـةـ رـسـمـيـةـ، وـفـيـ ذـلـكـ يـقـولـ: "وـقـدـ كـنـتـ طـلـبـتـ شـيـئـاـ مـنـ ذـلـكـ مـنـ فـطـنـتـهـ، وـهـوـ الـحـكـيمـ الشـهـيرـ، طـبـيـبـ دـارـ قـشـتـالـةـ وـأـسـتـاذـ عـلـمـاهـاـ، يـوـسـفـ بـنـ وـقـارـ إـسـرـائـيـلـيـ الطـلـيـطـيـ، مـاـ وـصـلـ إـلـيـنـاـ فيـ غـرـضـ الـرـيـاسـةـ عـنـ سـلـطـانـهـ، فـقـيـدـ لـيـ فيـ ذـلـكـ تـقيـيدـاـ أـنـقـلـ مـنـهـ بـلـفـظـهـ أـوـ بـعـنـاهـ مـاـ أـمـكـنـ، وـأـسـتـدرـكـ مـاـ أـغـفـلـ، إـذـ لـيـسـ بـقـادـحـ فيـ الغـرـضـ".^(٢)

ومنـ جـانـبـ آـخـرـ، فـإـنـ الـهـدـيـاـ وـالـهـبـاتـ وـالـأـعـطـيـاتـ التـيـ رـاقـقـتـ السـفـراءـ، وـتـبـادـلـهاـ مـلـوـكـ الـبـلـدـانـ الـمـخـتـلـفـةـ، عـدـتـ مـظـهـراـً مـنـ مـظـاهـرـ التـفـاعـلـ الثـقـافـيـ، وـنـقـلـ الـعـادـاتـ وـالـمـعـقـدـاتـ وـعـكـسـتـ صـورـاـً مـخـتـلـفـ جـوـانـبـ الـحـضـارـةـ فيـ تـلـكـ الـبـلـدـانـ، فـقـدـ وـجـهـ مـلـكـ الـرـومـ إـلـيـ أـبـيـ عـنـانـ "هـدـيـةـ اـحتـفـالـ بـهـاـ غـايـةـ الـاحـتـفـالـ، وـأـعـرـبـ بـهـاـ عـنـ مـخـافـتـهـ وـلـسانـ الـحـالـ أـفـصـحـ مـنـ لـسـانـ الـمـقـالـ. فـمـاـ سـيـقـ مـنـ بـلـادـهـ أـحـسـنـ مـنـ بـغـلـاتـهـ التـيـ أـوـفـدـهـاـ شـاجـعـةـ، حـافـظـةـ لـلـصـواـهـلـ أـرـحـامـاـ وـاشـجـةـ. مـنـ كـلـ مـشـرـفـةـ الـهـادـيـ نـشـأـتـ عـنـدـ الضـالـ، عـبـلـةـ لـمـ تـرـ

(١) انـظـرـ، رـحـلـةـ ابنـ بـطـوـطـةـ: ٢٢١/٢.

(٢) ابنـ الخطـيـبـ، أـعـمـالـ الـأـعـلـامـ، صـ ٣٣٨ـ٣٣٢ـ.

شاجحة عنترة إلا بهذه المواقف الكريمة والمحال ... نيرة اللون لا يسابقها ظليم، عجيبة قياس مشيهها منتج وهي عقيم، عالية القرى مرتفعة كنار القرى، ... ولحوافرها في زيارة الأرض ذات الطول والعرض... بغلات حسن لها فخار، وأنشدت وما الثانية باسم الشمس عار فهي بحار ركبت بحاراً، ووافت أعظم منها جواداً وإيثاراً...^(١).

إن هذه الاتصالات الدبلوماسية بين مختلف الأطراف وتبادل الوفود والسفارات، احتجت لترتيبات أمنية معينة في عملية الاستقبال والوداع، الأمر الذي دعا إلى تطور نظام التشريفات في تلك العصور، فقد كان ملك النصارى غليام يحيط نفسه بحرس من المسلمين، حيث يقول ابن جبير: "وشأن ملوكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجايب... وهو كثير الثقة بالمسلمين، وساكن إلיהם..."^(٢).

أما ابن الحاج النميري فيذكر في رحلته أن النصارى قد شكلوا عنصراً من عناصر السكان في فاس، وفضل جزء كبير منهم الخدمة والانضمام إلى الحاشية السلطانية، ومنهم من حمل السلاح وحارب إلى جانب الجيوش المغربية، وذكر أيضاً أن عناصر الجيش تألفت من "الأعلام الرومية، والمماليك الزنجية والأجناد الأندلسية، والطوائف التركية والتترية، والأفاريق العراقية، والمصرية والشامية واليمنية والهندية وسائر التركمانية"^(٣) بالإضافة إلى الجنود المغاربة.

وقد اتّخذ بعض السلاطين ترتيبات أمنية أخرى، بحيث يتم إخبارهم عمن يدخل أو يخرج من البلاد، حيث كان سلطان الهند محمد شاه جماعة من المخبرين فـ "إذا كتب المخبرون إلى السلطان بخبر من يصل إلى بلاده، استوعبوا الكتاب وأمعنوا في ذلك وعرفوه أنه ورد رجل صورته كذا، ولباسه كذا، وكتبوا عدد أصحابه و glamane، وخدماته ودوابه، وترتيب حاله في حركته وسكنه، وجميع تصرفاته، لا يغادرون من ذلك كله شيئاً..."^(٤).

(١) ابن الحاج النميري، فيض العباب، ص ٢٩، وانظر، المصدر نفسه، ص ٢٣٥-٢٣٧.

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٢٩٧-٢٩٨، وانظر المصدر نفسه، ص ١٧٧، ٢٠٦.

(٣) ابن الحاج النميري، فيض العباب، ص ٢٤٣، وانظر، رحلة ابن جبير، ص ٢٥.

(٤) رحلة ابن بطوطة: ٩/٢.

ومن الاحتياطات الأمنية، أيضاً، أنه من عادة ملك الهند "أنه يجعل مع كل أمير، كبير أو صغير، مملوكاً له يكون عيناً عليه ويعرّفه بجميع حاله، ويجعل أيضاً جواري في الدور يكُنْ عيوناً له على أمرائه، ونسوة يُسميهنَ الكنّاسات، يدخلن الدور بلا استئذان، ويخبرهنَ الجواري بما عندهن، فتخبر الكنّاسات بذلك ملك المخبرين، فيخبر بذلك السلطان..."^(١).

وقد ألمّت بعض الرحلات الضوء على كثير من صور الترتيبات الأمنية المتبعة في استقبال السلاطين للزّوار أو توديعهم لهم أو نظام التشريفات في مختلف المناسبات، لا سيّما في الأعياد، فابن بطوطة يصف الترتيبات المتبعة في محل قعود السلطان محمد أوزبك خان وسفره، حيث كانت أموره ترتب تربياً عجبياً، بحيث يتسلّى ملن أراد السلام عليه الوصول إليه، فمن "عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة في قبة تسمى قبة الذهب مزيّنة بدّيعة، وهي من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب، وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الفضة المذهبة وقوامّة فضة خالصة ورؤوسها مرصعة بالجواهر.. ويقف أسفل السرير على اليمين ولد السلطان.. وعن الشمال ولده الثاني.. وتجلس بين يديه ابنته.. وأما طيطغلي وهي الملكة.. فإنه يستقبلها إلى باب القبة، فيسلم عليها ويأخذ بيدها، فإذا صعدت على السرير وجلست، حينئذ يجلس السلطان.. ويأتي بعد ذلك كبار الأمراء فتنصب لهم كراسيم عن اليمين والشمال، وكل إنسان منهم إذا أتى مجلس السلطان يأتي معه غلام بكرسيه، ويقف بين يدي السلطان أبناء الملوك منبني عمّه وإخوته وأقاربه، ويقف مقابلهم عند باب القبة أولاد الأمراء الكبار، ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وعن شمال، ثم يدخل الناس للسلام الأمثل فالأمثل، ثلاثة ثلاثة، فيسلمون وينصرفون فيجلسون على بُعد"^(٢).

ويصف ابن بطوطة، أيضاً، ترتيبات خروج الخاتون زوجة أوزبك خان، -ابنة أمبراطور القسطنطينية- ثم يصف ترتيبات استقبالها في بلدها، فيقول: "وترجّل لها أخوها، لأنّه أصغر منها، وقبل ركبها، وانصرفت مع أخيها... ووصل أخو الخاتون ولي العهد

(١) الم المصدر نفسه: ٩٦/٢، وانظر أيضاً، الم المصدر نفسه: ٥٣/١

(٢) رحلة ابن بطوطة: ٣٠٣/١، ٣٠٤-٣٠٣، وانظر أيضاً، الم المصدر نفسه: ١٧-١٦/٢

في ترتيب عظيم وعسكر ضخم من عشرة آلاف مدرع، وعلى رأسه تاج وعن يمينه نحو عشرين من أبناء الملوك، وعن يساره مثلهم، وقد رتب فرسانه على ترتيب أخيه سواء، إلا أن الحفل أعظم والجتمع أكثر.. وضربت عند الصباح الأطفال والأبواق والأنفار، وركبت العساكر. وخرج السلطان وزوجته أم هذه الخاتون، وأرباب الدولة والخواص، وعلى رأس الملك رواق يحمله خضوع التجار المسيحيين وغيرهم لبعض القيد في الموانئ الإسلامية، إلا أن معظم الم辯لات جملة من الفرسان، ورجال بأيديهم عصى.. طوال في أعلى كل عصا شبه كرة من جلد يرفعون بها الرواق.. ولما أقبل السلطان اختلطت العساكر وكثير العجاج...^(١).

وقد هال ابن بطوطة تلك الترتيبات المتبعة لأي زائر يقصد إمبراطور القدسية يصف دخوله قصر إمبراطور القدسية، فيقول: "وفي اليوم الرابع بعثت إلى الخاتون الفتى سنبل الهندي، فأخذ بيدي، وأدخلني القصر.. فجزنا أربعة أبواب في كل باب سقائف بها رجال وأسلحتهم.. فلما وصلنا إلى الباب الخامس تركني الفتى سنبل ودخل، ثم أتى ومعه أربعة من الفتياں الروميين ففتشوني لثلا يكون معی سکین، وقال لي القائد: تلك عادة لهم، لا بد من تفتيش كل من يدخل على الملك...^(٢)".

وكما حرص الحكام والسلطان على الأمن داخل قصورهم، حرصوا على أمن البلاد وسكانها، فقد وصف ابن بطوطة حالة الأمن في بلاد الصين، وذلك بقوله: "وببلاد الصين آمن البلد وأحسنها حالاً للمسافر، فإن الإنسان يسافر منفرداً مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها، وترتيب ذلك أن لهم في كل منزل ببلادهم فندقاً عليه حاكم يسكن به في جماعة من الفرسان والرجال، فإذا كان بعد المغرب والعشاء جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه، فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين وختم عليها، واقفل باب الفندق عليهم، فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه، فدعا كل إنسان

(١) المصدر نفسه: ٣١٦/١، ٣١٧-٣١٨، وانظر أيضاً، المصدر نفسه: ٢٧٧/٢.

(٢) المصدر نفسه: ٣١٩/١.

باسمه وكتب به تفصيلاً، وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل الثاني له. ويأتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه، وإن لم يفعل طلبه بهم^(١). إن هذه الصور التي نقلتها الرحلات للسفارات والترتيبات الأمنية في البلدان العربية والإسلامية والأوروبية، أطلعت كل جانب على حضارة الجانب الآخر، في نظام تشريفاته وترتيباته الأمنية، بل إن ما قام به بعض الرحالات من مقارنات بين هذه الجوانب الحضارية، يقدم صورة جلية للمتلقى عن تلك الأنظمة في مختلف البلدان.

ج. الحياة الاقتصادية والنشاط العمراني

أظهرت الرحلات أن العلاقات بين الأندلس والمغرب والشرق وبعض الدول الأوروبية،أخذت تتسع لتعزز ملامح حضارية واحدة، فالمجتمع الأندلسيـ والمغربيـ اكتسب من العناصر المتنوعة مميزات كثيرة، فنهض في مختلف المجالات والأنشطة بحيث صهرت الرحلات تلك الحضارات والثقافات في وحدة حضارية مشتركة، فما هو إنساني تلاقى فيه الحضارات.

ومن تلك المجالات التي ألقت الرحلات الضوء على دورها في التفاعل الثقافيـ التجاريةـ، وقد أشارت الدراسة سابقاً^(٢)، إلى أن التجارة أدت دوراً هاماً في تطور الحضارة العربيةـ في العصور الوسطى، فكان التجار وسطاء فكر وثقافة ودعاة علم ومعرفةـ، مثلما كانوا وسطاء نقل للسلع المختلفةـ، ومثلت التجارة دافعاً هاماً إلى التجوال وتبادل الخبرـاتـ، ففتح عن هذه الصلـات التجاريةـ فوائد معرفـيةـ وثقافيةـ واجتماعـيةـ وماديـةـ متعددةـ، حيث مارس النصارـيـ واليهودـ في المدن الإسلاميةـ كافة ألوان النشـاط الاقتصاديـ وغير الاقتصاديـ، وتقدـلـوا المناصب الـهامةـ في الدولةـ.

إن تبادـلـ السلـع التجاريةـ في القرون الوسطـىـ، دلـالةـ على العلاقاتـ والتـواصلـ بينـ البلدـانـ والـاطـلاـعـ علىـ ماـ لـدىـ الدـولـ، ولـعلـ رـحـلةـ بنـيـامـينـ التـطـيليـ تـلـقـيـ الضـوءـ علىـ مثلـ

(١) رحلة ابن بطوطة: ٢٢٥/٢

(٢) انظر، هذه الدراسة، ص ٩٢-١٠٠.

هذا الدور، حيث كان الرّحالة نفسه تاجراً بدليل اهتمامه بالشّؤون الاقتصادية والأحوال التجارية للبلدان التي زارها، ووصفه لأحوال اليهود في كلّ مدينة زارها وظروفهم ومراكمتهم الاجتماعية، وطرق كسبهم وتجارتهم، كما يصور التاجر اليهودي الذي يجب الأقطار بعيدة، قادماً من أوروبا يحمل مختلف البضائع والسلع للبيع، ثم يعود إليها بمنتج الشرق الغني بخيراته ومحاصيله^(١).

ويذكر بنيمين التطيلي، كذلك، الواقع التجاري الهامة لليهود، مثل مدينة مونبليه الفرنسية التي كان يجتمع فيها التجار من نصارى ويهود و المسلمين، من مختلف الأمصار من المغرب وفرنسا وإسبانيا وإنجلترا من الذي يتحدثون بكلّ لغة ولسان^(٢)، ويشير أيضاً إلى أسواق الإسكندرية التي يؤمها التجار من الممالك النصرانية كافة، وتأتيها من الهند التوابل والعطور بأنواعها فيشتريها تاجر النصارى^(٣).

وقد أشارت بعض المصادر إلى بعض الواقع التي يلتقي فيها التجار من مختلف الطوائف فمدينة المريدة الأندلسية كانت ملتقى التجار المسلمين والروم وماراكبيهم^(٤). ويذكر ابن بطوطة أن في القدسية حيّاً خاصاً بالتجار الأجانب الذين يفدون عليها من جميع الجهات، وأنّ المدينة يعيش فيها مختلف الطوائف من الناس، بعضهم مسلمون ومنهم الروس والروم وهو نصاري^(٥)، ويذكر، أيضاً، أنّ هناك قسمًا خاصاً "بنصارى الإفرنج يسكنونه، وهم أصناف، فمنهم الجنويون، والبنادقة وأهل رومية وأهل إفريقيا"^(٦).

وذكّر بعض الرّحالة العملات وطرق التعامل النقدي في مختلف البلدان، من خلال مقارنتها بعملات الدول الأخرى، فمثل هذا الحديث يحمل في طياته ملامح التفاعل الثقافي^(٧).

(١) انظر، رحلة بنيمين التطيلي، ص ١٦، ١٩-٢٠، ٣٧-٣٨.

(٢) انظر، الم المصدر نفسه، ص ٥٣.

(٣) انظر، الم المصدر نفسه، ص ٧٨.

(٤) انظر، المقربي، نفح الطيب: ١٦٢-١٦٣.

(٥) رحلة ابن بطوطة: ١/٢٣٦.

(٦) الم المصدر نفسه: ١/٣٢٠.

(٧) انظر، الم المصدر نفسه: ٢٥٨/٢، وانظر، هذه الدراسة، ص ٩٩-١٠١.

أما ابن خلدون، فيشير إلى دور التبادل التجاري في التّفاعل الثقافي، لا سيما عن طريق مصر، حيث يقول: "ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر، فهي أم العالم، وإيوان الإسلام، وينبوع العلم والصناعات.." ^(١).

إن انتشار مصنوعات ومنتجات مختلف البلدان في مختلف الأقطار يؤكّد عمق التّفاعل الثقافي في مختلف المجالات، كما أنّ التّشابه في الإنتاج والصناعات يدل على أنّ الإسلام كان عامل توحيد تجاريّ إلى جانب كونه عامل توحيد دينيّ وثقافيّ بين بلدان العالم الإسلاميّ، فرغم الاقتصادية كانت تجري على أساس المساواة والاحترام المتبادل، وكانت السفن تحمل على متونها الناس من كلّ دين وجنس ودون تعصّب، فقد استخدم الرّحال ابن بطوطة، نفسه سفناً جنوبيّة ^(٢) في رحلاته، كما اشتري عجلة تجرّها فرس من طائفة نصرانية في بلاد الأتراك ^(٣).

ولاحظ ابن جبير حين زار دمشق، أنّ تجّار الطرفين المسلمين والنصارى يغدون ويروحون في ديار المسلمين وديار النصارى بدون أيّ صعوبة تعيق طريقهم: "ومن أعجب ما يُحدّث به أنّ نيران الفتنة تشتعل بين الفتئين المسلمين ونصارى، وربما يتلقى الجمuan ويقع المُصادف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم.. واختلاف القوافل من مصر إلى بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عَكَّة كذلك، وتتجّار النصارى أيضاً لا يُمنع أحد منهم ولا يعترض..." ^(٤). ويبدو من ذلك أنّ الطوائف المتعددة كانت تجتمع في الأسواق، وتجري العلاقات بينها بشكل عادي، فتوثّقت الصّلات بين التجّار على الرغم من اختلاف نحلهم، وقويت علاقات الودّ ووسائل المعرفة.

(١) المقدمة، ص ٤٥٣.

(٢) رحلة ابن بطوطة: ٢٩٤/١.

(٣) انظر، نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٤) رحلة ابن جبير، ص ٢٦٠.

ولعل في بعض عادات بعض الشعوب التي زارها الرّحالة ما ينطوي على ملامح التّواصل والانفتاح على ثقافة الآخرين، فإنّ أهل الصين يحتمون التجار من المسلمين غاية الاحترام ولا يؤخذ منهم أعشار في بيع أو شراء، ولا مكس^(١)، وفي مدينة بانياس يتشارط الإفرنج والمسلمون "الغلة على استواء، ومواشيهم مختلفة، ولا حيف، يجري بينهما فيها"^(٢).

أما النشاط العمري، فقد كان حكام المسلمين يستعينون بالصناع الإفرنج، فحين أمر أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ببناء الجامع الأموي، وجّه إلى ملك الروم بقسطنطينية يأمره أن يبعث إليه الصناع فبعث إليه اثني عشر ألف صانع...^(٣). ويصف ابن بطوطة جدة، فيقول: "وهي بلدة قديمة على ساحل البحر -يقصد البحر الأحمر-، يقال: إنّها من عمارة الفرس، وبخارجها مصانع قديمة"^(٤). أما ابن جبير فيذكر جامع مدينة حرّان^(٥) المكرّم، حيث يقول: "وهو عتيق مجدد قد جاء على غاية الحسن، وله صحن كبير فيه ثلاثة قباب مرتفعة على سوار رخام، وتحت كلّ قبة بئر عذبة، وفي الصحن أيضاً قبة رابعة عظيمة قد قامت على عشر سوار من الرخام دور كلّ سارية تسعه أشبار ... وهذه القبة من بنيان الروم، وأعلاها مجوف كأنّه البرج المشيد، يقال: إنه كان مخزناً لعدتهم الحربيّة.."^(٦).

وكان حُكَّامُ الْبَلْدَانُ الْمُخْتَلِفَةُ يَهْتَمُونُ بِعِرْفَةِ أَخْبَارِ الْمَشْرِقِ وَفَنِ الْعِمَارَةِ فِيهَا، لِذَا فَقَدْ كَانَ مُلُوكُ الْمُسْلِمِينَ يَأْمُرُونَ بِأَنْ يَدَارَ بِرْسَلُ مُلُوكِ الْرُّومِ فِي مُخْتَلِفِ الْمَدَنِ الْإِسْلَامِيَّةِ حَتَّى يَرُوا عِمَارَةَ تِلْكَ الْمَدَنِ.^(٧)

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٢٥، ٢٢٣/٢.

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٢٧٤-٢٧٣.

(٣) رحلة ابن بطوطة: ٨٣/١.

(٤) رحلة ابن بطوطة: ٢٢٠/١، وانظر، التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢١٨.

(٥) انظر الدراسة هنا، ص ٨١، حاشية ٨.

(٦) رحلة ابن جبير، ص ٢٢١.

(٧) انظر، العبدري، الرّحلة المغاربية، ص ١٢٨.

وبهذا، فإن الرحالة استطاعوا أن يرسموا صورة جلية لمعظم عادات الشعوب وتقاليدها، وأنظمتها الأمنية، ومختلف الأنشطة الثقافية والاقتصادية، حيث بينت الرحلات أن العلاقات بين مختلف العناصر كانت تقوم على أساس الأخذ والعطاء، ومساهمة كل طرف في تطور الحضارات وازدهارها، فلا غرابة في أن يحدث مثل هذا التأثر بين مختلف الطوائف في الأندلس: المسلمين، واليهود، والنصارى، فهم يعيشون في بيئه واحدة ولمدة طويلة، الأمر الذي ترك أثراً في نفوسهم جميعاً، فتشكلت حضارة إنسانية ذات أصل واحد، حيث لا حضارة معزولة عن الحضارات الأخرى، فكل حضارة تأخذ عن الأخرى ليس لهم ذلك في تكوين المجتمع الإنساني المزود بالكثير من المعلومات في شتى الميادين.

الفصل الثالث الرّحلة والسّيرة الذّاتيّة

أ- السيرة الذاتية: المفهوم والنشأة

إن حاجة المرء للتّعبير عن ذاته أمر طبيعي عند الناس جميعهم، فمنذ بداية الوجود الإنساني، وهو راغب في البقاء والخلود "يريد - جهد استطاعته- أن يؤكّد ذاته فكان يكتب اسمه وطراً من حياته على أحجار يبنّيها فوق مقبرته، وكان هذا أول غرض قصد إليه الإنسان منها".^(١)

وعلى الرغم من أهميّة الدراسات التي عنيت بالسيرة الذاتية، وعناصرها التي تميّزها عن الفنون الأدبية الأخرى مثل: المذكرات، واليوميات، والاعترافات، والرسائل، والرحلات، فإن هذه الدراسات لم تستوف كلّ ما يمكن أن يقال في فن السيرة الذاتية، الأمر الذي جعل من اعتبار السيرة الذاتية جنساً أدبياً مستقلاً في الأدب العربي، إشكالية كبيرة صعب معها ضبط الفوارق بين المذكرات، والاعترافات، واليوميات والرسائل، والسير الذاتية.

غير أن السيرة الذاتية تبقى نوعاً من الأدب الحميم .. الذي هو أشدّ لصوقاً بالإنسان من أيّة تجربة أخرى يعانيها".^(٢)

ومن التعريفات التي وقع عليها البحث للسيرة الذاتية، تعريف جبور عبد النور، حيث قال: إنّها "كتاب يروي حياة المؤلّف بقلمه، وهو يختلف مادة ومنهجاً عن المذكرات واليوميات".^(٣)

(١) انظر، ضيف، شوقي، (١٩٥٦). الترجمة الشخصية، القاهرة: دار المعارف، ص٧، وبدوي، عبد الرحمن، (١٩٦٢). الموت والعقبة، ط٢، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ص١٠٩.

(٢) شلق، علي، (١٩٧٤). النثر العربي في نماذجه وتطوره لعصرى النهضة والحديث، ط٢، بيروت: دار القلم، ص٣٤٢.

(٣) عبد النور، جبور، (١٩٧٩). المعجم الأدبي، لبنان، بيروت: دار الملايين، ص١٤٣.

وعند مجدي وهبة وكامل المهندس، *السيرة الذاتية* "سرد متواصل يكتبه شخص ما عن حياته الماضية"^(١) وفي الموسوعة البريطانية "السيرة الذاتية نوع خاص من السيرة يسرد فيه المؤلف حياته بقلمه"^(٢).

وبصورة أبسط يقول ستاروبنسكي: "هي سيرة شخص يرويها بنفسه"^(٣)، بحيث يكتب تاريخ نفسه بنفسه، فيسجل حواره وأخباره، ويسرد أعماله وأثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته، "أي أنها تبدأ من أصل الأسرة والطفولة، ثم تدرج حسب أذوار العمر، تسجل فيها الواقع يوماً فيوماً، أو دفعة واحدة، أو بصورة متقطعة بعد أن تُجمع عناصرها من مصادر متعددة"^(٤).

ويرى أحمد علي آل مرريع أن السيرة الذاتية تعني الشمول والامتداد الزمني والاختصاص بالذات والتركيز عليها وكشف معاملها الداخلية -ويرى أن- السيرة الذاتية أكثر استيعاباً ووضجاً ووعياً بالذات من سائر الأنواع السابقة، وأنها كلها بما فيها السيرة الذاتية أجزاء داخل فرع من فروع الأدب، يعني بالشخصيات الإنسانية، ويهتم بالبحث عن الـ (أنا) أو (الذات) ليفهمها أو ليثري ساحتها، ويثيري الإنسان بمختلف التجارب والعواطف أو ينبئ الناس إلى قيمتها وما قدّمته من تضحيات وما أنجزته من أعمال أو ليراقب حركتها وآقواتها في الحياة أو ليفعل ذلك كله معاً^(٥).

(١) وهبة، مجدي ، امهدنوس، كامل، (١٩٨٤). معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط٢، بيروت: مكتبة لبنان، لبنان، ص٩٤.

(٢) International copy right union(١٩٧٤)، The New Encyclopedia Britamnica، USA، (٢) Volume ١١، P. ٢٤

(٣) نقلأً عن، المبخوت، شكري، (١٩٩٢). سيرة الغائب، سيرة الآتي: السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين، تونس: دار الجنوب، ص٩.

(٤) أبو الخير، محمود، (١٩٨٠). "الترجمة الذاتية في الأدب العربي"، مجلة أفكار الأدبية، عدد (٤٩)، ص ٦-٧. وحسن، محمد عبد الغني، (١٩٥٥). الترجم و والسير، القاهرة: دار المعارف، ص ١٢٣.

(٥) آل مرريع، أحمد، (٢٠٠٣). الحد والمفهوم، أبيها: نادي أبيها الأدبي، ص ٨٤-٨٣، وانظر، مهران، رشيدة، (١٩٧٩) طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية، ط١، الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٢١.

أما فيليب لوجون، فقد حاول أن يقدم تعريفاً دقيقاً للسيرة الذاتية، إذ يقول إنها: "حكي استعادي ثريّ، يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة"^(١). وهو بتعريفه هذا ركز على أن الكلام في السيرة سرد لحياة صاحب السيرة، وأن حياته نفسها موضوع السيرة بصفة خالصة، وهذا ما تميل إليه الدراسة هنا.

وهذا ما يجب أن يدركه صاحب السيرة الذاتية، فشخصيته، وتقلبات حياته المادية والمعنوية، فضلاً عن أفعاله وموافقه وتصوراته، هي المحور الأساس، والأشخاص الآخرون والأحداث تدور في فلكه، فالسيرة الذاتية وإن عرضت للأحداث التاريخية في عصر كاتب السيرة، فإنها ليست وثيقة تاريخية^(٢)، فليس كل حديث عن النفس سيرة ذاتية، إذ "ليست الترجمة حديثاً ساذجاً عن النفس، ولا هي تدوين للمفاخر والمآثر"^(٣) بل هي قصة حياة إنسان يرويها بنفسه، فصاحب السيرة حين يكتب حياته إنما يقدم لنا شكلاً معيناً لتلك الحياة.

أما اليوميات، فهي "سجل للتجارب والخبرات اليومية، وحفظ الأخبار، والأحداث الحياتية للشخص"^(٤). وهي "إذ كانت تعمل على رصد المواقف عند وقوعها إلا أنها تفتقر للحكي الاستعادي في القص، وتتأتي على شكل متقطع غير رتيب".

(١) لوجون، فيليب، (١٩٩٤). *السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي*، ترجمة عمر حلي، بيروت: المركز الثقافي العربي، ص ٢٢.

(٢) الشاوي، عبد القادر، (٢٠٠٠). *الكتابة والوجود: السيرة الذاتية في المغرب*، بيروت: إفريقيا الشرق، ص ١٣٩.

(٣) عباس، إحسان، (١٩٥٦). *فن السيرة*، بيروت: دار بيروت، ص ٩٨.

(٤) شعبان، أنعام عبد الله، (١٩٩٠). *السيرة الذاتية في الأدب العراقي الحديث منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى بداية الحرب العالمية الثانية*، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة المستنصرية، العراق، ص ٣٨.

(٥) عبد الدايم، يحيى إبراهيم، (١٩٧٥). *الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث*، القاهرة: مكتبة النهضة، ص ٣.

ويبدو أن هذه اليوميات، لحظات يقف فيها الإنسان مع نفسه، ويدوّن ما يدور في داخله يوماً بيوم، ويدرك ملاحظاته عن الأحداث التي شاهدها أو رويت له من شهود عيان، ويسجل اتجاهاته إزاء الأحداث التي تتلاحق بسرعة متزايدة، ويأتي هذا التسجيل مرتبًا ترتيباً زمنياً قد يكون متسلسلاً أو متقطعاً. ف تكون كتابته هذه مؤشراً على تمثيل الإنسان بتلك اللحظات الحاضرة قبل أن تطويها المسافات الزمنية، وتحيلها جزءاً من الذكرة.

والذكريات -مثل السيرة- استجابة لحب البقاء والخلود، وإبعاد شبح النسيان، ولعل أكثر ما يميزها عن السيرة الذاتية، اهتمامها بالأحداث الخارجية، فكاتب المذكريات يعني بتاريخ عصره ومجتمعه، ويدركه من خلال رؤيته للأحداث، وهو بذلك يختلف عن المؤرخ الذي ينظر للحقائق نظرة موضوعية.

ويرى يحيى إبراهيم عبد الدايم، أن كاتب المذكريات "يعنى فيها بتصوير الأحداث التاريخية أكثر من عنايته بتصوير واقعه الذاتي"^(١)، فهو شخصية تتزم عادة بالتسجيل والتحليل والتوضيح "ما يدور حولها، أما ما يدور داخلها فيظل في الظل".^(٢)

حيث لا تهتم المذكريات بالتلغلل والتعمق والتفحص لذات الإنسان إزاء ما يواجهها من مواقف وأحداث وتجارب، وإن وصف بعضهم الحسرة والأسى وما ملأ أنفسهم من الهموم بسبب بعض المواقف التي مروا بها، فها هو الأمير عبد الله بن بُلقيين^(٣) يكشف النقاب، في مذكراته، عن الكثير من الأحداث السياسية، ومؤامرات الملوك ضد بعضهم، والصراعات الخارجية مع الأسبان، مما أدى إلى تصاعد أزمة الأمير، فعندما

(١) المصدر نفسه، ص ٣، وانظر، آل مرريع، الحد والمفهوم، ص ٦٠.

(٢) راغب، نبيل، (١٩٧٨). معلم الأدب العالمي المعاصر، القاهرة: دار المعارق، ص ٤٧.

(٣) هو، عبد الله بن بُلقيين بن باديس بن حبوس بن زيري، الملك الأخير لمملكة غرناطة، ولد في سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٧م، كتب مذكراته تحت عنوان: "البيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيري بغرناطة" ونشرها إ. ليفي بروفسال تحت عنوان: "مذكرات الأمير عبد الله". انظر، مذكرات الأمير عبد الله، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥، ص ٧-٨، وانظر، ابن الخطيب، الإحاطة: ٣٧٩-٣٨٢.

هاجم الفونس السادس غرناطة، اضطرّ الأمير عبد الله مهادنته بشروط قاسية، بحيث لا يتعدى أحد على الآخر، وأن يدفع للفونس عشرة آلاف مثقال في العام، ويقول الأمير عبد الله في ذلك: "فقبلنا قوله، ورأينا إعطاء عشرة آلاف في العام ندفع بها مضرّته خيراً من هلاك المسلمين وفساد البلاد، إذ لم تكن بنا قدرة على ملاقاته ومكابرته، ولا وجدها من سلطان الأندرس عوناً عليه إلا من يسوقه إلينا لهلاكاً"^(١).

وقد كان الأمير عبد الله صريحاً في سيرته، حيث يعترف في أكثر من موقف أنه قد أصيب بالارتباك وعدم الاستقرار، ولا سيّما في مواقفه أمام يوسف بن تاشفين^(٢) قائداً المرابطين واعترف أيضاً أنَّ وضع ملوك الطوائف كان يستلزم على يوسف بن تاشفين نزع الأندرس من بين أيديهم، إذ إنَّ الخلاف اشتَدَّ بينهم، فلم يعودوا أمناء على صالح الأندرس، يقول: "أخذ أمير المسلمين في الانصراف إلى بلاده، وهو قد اطلع عليناً وسماعاً من اختلاف كلمتنا ما لم ير وجهاً ليقائنا في الجزيرة"^(٣).

إنَّ مثل هذه المواقف والأحداث التي وصفها الأمير عبد الله قد ملأت نفسه حسرة وأسى حيث يقول: "والصّيّبة تحدث للإنسان هيجاناً وهموماً: كالمتّهم بالنظر في ماله، أو المشغّب بمحاولة ما يصلحه، فليس كلّ شغب ضاراً، بل يؤلم منه مكافحة الأعداء ومقاساة طلب العيش... والنفس توّاقة: متى سمت إلى مرتبة، تاقت إلى ما فوقها.. ولقد بلوت من نفسي بعض ذلك، إذ الطبع البشريُّ واحد، لا يكاد يختلف إلا في الأقل .."^(٤). ويبدو أنَّ الأمير عبد الله في مذكرةه في مذكرة في مذكرة تجربة من أيّ عصبية، فصور تاريخ بلاده، وإمارة أهله وإمارته هو تصویراً صادقاً سلْط من خلاله الضوء على عصر- أمراء الطوائف بالأندلس^(٥).

(١) مذكرات الأمير عبد الله، ص ٧٦.

(٢) انظر، ترجمته، المقرفي، نفح الطيب: ٤٣٨-٤٤٢، ١/٣٠١.

(٣) مذكرات الأمير عبد الله، ص ١٠٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٩٥-١٩٦.

(٥) انظر، ضيف، شوقي، الترجمة الشخصية، ص ٩٠-٩١.

وببناء على ذلك، فإنّ مادة المذكّرات أوسع مدى من السّيرة الذاتيّة، حيث يرصد كاتب المذكّرات الأحداث التاريخيّة ويدوّنها إلى جانب التّأملات، والانطباعات، والأحداث الخاصة التي تهمّ كاتب السّيرة الذاتيّة، بل إنّ مادة اليوميّات والمذكّرات قد تعين كاتب السّيرة على تذكّر الأحداث التي مرّت به قدّيماً، إلا أنّ السّيرة الذاتيّة تبقى ترتكز على الواقع الذاتي لصاحبها^(١).

وقد تأخذ المذكّرات شكل الاعترافات، وهي "لون أدبيٍّ" لصيق بفن السّيرة الذاتيّة يروي فيها المؤلّف مواقف نفسية أو عاطفيّة لا يعترف بها واضعو التّرجمة الذاتيّة عادة^(٢)، لأنّها أحداث لا يرغب الكاتب أن يتحدّث عنها، وتجارب لا يودّ أن يطلع عليها أحداً حتّى المقربين إليه، وتنبع قيمتها من شدّة وكثافة الصراعات داخل نفس صاحبها. أمّا باختين فيرى أنّ الاعترافات والمذكّرات هي أجناس تعبيريّة جوهريّة ضمن الجنس الروائي^(٣).

ولعلّ أشهر ما وصل إلينا من الكتب التي تضمّنت شيئاً من الاعترافات، واحتوت بعضاً من الملامح النفسيّة لصاحبها، كتاب "طوق الحمامنة في الألفة والألاف" لابن حزم الأندلسي^(٤)، حيث ذكر فيه تجاربه وأخلاقه، وتحدّث كثيراً عن نفسه وعلاقاته بالنساء، وعمّا يصيب المحبّين من البين الذي يعدّ شجى في القلب، وعرض لبين الموت الذي لا

(١) انظر، القلماوي، سهير، (١٩٦٠). "فن كتابة السيرة تاريخ أم أدب"، مجلة العربي، عدد (١٧)، ص ٥٤.

(٢) وهبة، والمهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص ٤٩.

(٣) باختين، ميخائيل، (١٩٨٧). الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، القاهرة: دار الفكر، ص ٩٠.

(٤) هو، أبو محمد علي بن أبي عمر أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي، ووالده كان من وزراء المنصور بن أبي عامر، ولد ٣٨٤هـ وتوفي ٤٤٦هـ انظر ترجمته، ابن خاقان، المطبع، ص ٥٥، والمراكيشي، عبد الواحد محى الدين بن علي التميمي، أبو محمد، (ت ٤٦٧هـ). المعجب، في تلخيص أخبار المغرب، ط ٣، تحقيق محمد بن سعيد العريان، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٣٠، والمقربي، نفح الطيب، ٢٧٧-٢٨٤.

يرجي للمحبوب بعده إيات، فيقول: "دعني أخبرك أني أحد من دُهْي بهذه الفادحة وتعجلت له هذه المصيبة، وذلك أني كنت أشد الناس كلّفًا وأعظمهم حبًا بخارية لي، كانت فيما خلا اسمها نعم. وكانت أمنية المتممّي.." ^(١).

ويعرف ابن حزم أنه تربى في حجور النساء، ونشأ بين أيديهن، فعرف من أسرارهن الكثيرة، حيث يقول: "ولقد شاهدت وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري، لأنّي ربّيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حدّ الشباب.. وهن علموني القرآن ورويني كثيراً من الأشعار ودرّبني في الخط.." ^(٢)، وهو بهذا الوصف يلقي الضوء على مجتمع الرجال والنساء في عصره، إذ لم يكن الفصل بين الجنسين بالشدة التي تفترض أحياناً، فقد كان الرجال والنساء في اختلاط منذ الطفولة، ولا يقتصر ذلك على قرابة الدم بل يشمل الأتباع ^(٣).

وقد اهتم ابن حزم بتصوير حالته النفسية، والكشف عمّا في داخلها من خلال اعترافاته وتصريحةاته للقارئ بتجاربه العاطفية، ومن ذلك قوله: "دعني أخبرك أني ما رویت قطّ من ماء الوصول ولا زادني إلا ظمآن.. ولقد بلغت من التمكّن بمن أحبّ أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرمى فما وجدتني إلا مستزيداً.." ^(٤)، وبهذه الصراحة النادرة الوجود -في تلك العصور- استطاع ابن حزم أن يتّجه بـ"طوق الحمامنة" نحو السيرة الذاتية، فالتجارب الوجدانية تكشف عن عوالم الإنسان الباطنية، والسيرة الذاتية تهتم في إبراز مثل هذه التجارب لأنّها "من أكثر تجارب البشر قيمة وخصوصية، وما

(١) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، (ت ٤٥٦هـ). طوق الحمامنة في الألفة والألاف، تحقيق حسن كامل الصيرفي، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٥٩، ص ٢٢٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٦.

(٣) كاكيا، بيير، (١٩٩٩). الأدب الأندلسي، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، في: الجيوسي، سلمى الخضراء، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ط ٢، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٤٨١/١، ٦٦٣.

(٤) ابن حزم، طوق الحمامنة، ص ١٨٤.

ذلك إلا لأنها خبرة وجدانية عميقة تشتمل على مضمون روحي باطنی^(١) ويقول إحسان عباس: ولذلك نرى أن ابن حزم الأندلسي كان فذاً في تلك النتف الاعترافية التي ضمّنها كتابه طوق الحمامـة^(٢)، كما لم يكتب أحد في موضوع الحب كتابة قائمة على التجربة والمشاهدة والاعتراف، وبعض التعمق النفسي، مثلما فعل ابن حزم..^(٣) فلا تكاد تمضي خطوات معه في طوق الحمامـة حتى تجد نفسك أمام فيض من ذكرياته^(٤).

وقد يصرّح بعض الرحالـة في أثناء وصف رحلاتهم بلحظات ضعفهم ومرضهم، وعدم مقدرتهم على متابعة الرحلة، مثل ما نراه عند التجانـي حيث يقول: "عرض لي في هذه الأيام عارض مرضي، رجوت أن يهون أمره فاشتـد، ورمـت أن يقصرـ أمده فامتدـ، وبلغ مني في هذه المترزلة أشدـ مبلغـ، فأقام مخدومـنا والمشارقة وجميع الركب بسببي هنالـك خمسـة أيام رجاءـ أن أجـد ابـلـلاـ أو أطـيقـ معـهم ارـتحـالـاـ، فـلم تـسـعـ الأـقدـارـ بذلكـ، فـعـزـمـ عـلـيـ مـخـدوـمـنـاـ فـيـ الرـجـوعـ مـنـ هـنـالـكـ، فـلـمـ أـطـبـ بـذـلـكـ نـفـساـ، وأـظـهـرـتـ تـجـلـداـ، وـقـوـةـ تـكـلـفتـ بـهـ الـارـتحـالـ مـعـهـ .. وـعـجزـتـ بـالـجمـلةـ عـنـ الرـكـوبـ فـلـمـ يـكـنـ بـدـ منـ الرـجـوعـ.."^(٥).

واعترف أبو بكر بن العربي، أن رحيله عن وطنه بصحبة والده جاء ضرورة فرضتها عليهما ظروف الحياة في بلادهما، ووصف ذلك قائلاً: "فخرجنـا والأـعدـاء يـشـمـتونـ بـنـا .. وفي علم الباري -جلـتـ قـدرـتهـ- آنـهـ ما مـرـ عـلـيـ يـوـمـ مـنـ الدـهـرـ كـانـ أـعـجـبـ عـنـديـ مـنـ يـوـمـ خـروـجيـ مـنـ بـلـديـ .."^(٦).

(١) إبراهيم، زكريا، (١٩٧١). مشكلة الحياة، القاهرة: مكتبة مصر، ص ١٣٨.

(٢) عباس، فن السيرة، ص ١٢١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٢-١٣٢.

(٤) انظر، مكي، الطاهر أحمد، (١٩٩٣). دراسات عن ابن حزم وكتابه "طوق الحمامـة"، طـ٤، القاهرة: دار المعارف، ص ١٨٨.

(٥) رحلة التجانـي، ص ٣١٦-٣١٧، وانظر، المصدر نفسه، ص ١٨٣.

(٦) ابن عربي، قانون التأويل، ص ٧٥.

أما ابن بطوطة فيصريح بمشاعر الحزن والأسى التي انتابته عند وصوله مدينة تونس، حيث برب أهلها للسلام على الشيوخ والعلماء، في حين لم يتقدم أحد للسلام عليه، ويقول في ذلك: "ولم يسلم عليّ أحد لعدم معرفتي بهم". فوجدت من ذلك في النفس ما لم أملك معه سوابق العبرة، واشتد بكائي^(١)، كما اعترف ابن بطوطة بالحظات الخوف التي كانت تمرّ به أثناء رحلته، ومن ذلك قوله: "وأصابتني الحمى، فكنت أشدّ نفسي بعمامة فوق السرج خوف السقوط، بسبب الضعف، ولا يمكنني النزول من الخوف، إلى أن وصلنا إلى مدينة تونس.." ^(٢)، ولم يكن ابن بطوطة -أيضاً- يخفي أنه نسي اسمًا ملوضع أو شخص قابله أو حاوره^(٣). أما القلصادي فيصف بعض المخاطر التي واجهته والمشاعر التي انتابته بقوله: "مشقات عظام، تحار في وصفها المحابر والأقلام، حتى وقع من كل لأمر الله الاستسلام، وصار الإنسان ينادي بلسان الحال "أنا الغريق فيما خوفي من البلل"^(٤). ومن هذه المحاولات، نرى أن الدارسين قد سلطوا الضوء في تعريفاتهم لفن السيرة على الصفات المشتركة بين السيرة الذاتية والأنواع الأدبية الأخرى، فالسيرة الذاتية "قد تتجسد عبر كتابة اليوميات أو المذكرات أو الرسائل، وهنا قد لا تنفع الذاكرة وحدها، إذ لا بد من جمع الوثائق وتدوين التواريخ، وهذه الوثائق يحاول كاتب السيرة من خلالها أن يرتب الواقع والأحداث بغية إكساب السيرة مقاييس الصدق والحقيقة"^(٥).

غير أن هذا التشابه بين السيرة الذاتية، والأنواع الأدبية الأخرى لا يصل إلى حدّ التطابق التام، إذ يوجد كذلك أوجه اختلاف بينها، فـ(نص السيرة الذاتية يحكي ماضياً

(١) رحلة ابن بطوطة: ٢٢١.

(٢) المصدر نفسه: ٢٨٥/٢.

(٣) المصدر نفسه: ٢٨٥/٢.

(٤) رحلة القلصادي، ص ١٢٤.

(٥) نور الدين، صدوق، (٢٠٠٠). سير المفكرين الذاتية: زيـنـجـيـبـ، لوـيـسـ عـوـضـ، إـحـسـانـ عـيـاسـ، مـحـمـدـ عـابـدـ الجـابـريـ، الدـارـ الـبـيـضاـءـ: المـركـزـ الشـفـاقـيـ الـعـرـبيـ، صـ ١٤ـ.

بسرد متواصل، فيما تكون المذكرات واليوميات عبارة عن مدونات لها قوة الوثيقة التي لا يمكن تعديل زمنها^(١). بالإضافة إلى أن اليوميات والمذكرات أجناس أدبية تفتقر إلى عنصر التكامل والترابط، الذي يلحظ في السيرة الذاتية.

وقد حاول إحسان عباس أن يصف السيرة الذاتية وميّزها عن غيرها، فعقد فصلاً كاملاً عن السيرة الذاتية بعنوان "السيرة الذاتية - نظرية عامة"، حيث أشار إلى أن كل سيرة ذاتية في حد ذاتها تجربة ذاتية لفرد من الأفراد، فإذا بلغت دور النضج، وأصبحت في نفس صاحبها نوعاً من القلق الفني، فإنه لا بد أن يكتبها، وأن هذه التجارب إنما أن تكون جسدية أو روحية، وأنها تتطلب أن يكون بطلها شخصاً ذا تميّز واضح في ناحية من النواحي، وتكون سيرته ذات حظ من عمق الصراع الداخلي، أو من شدة الصراع الخارجي، بحيث تكتب على أساس من التطور الذاتي في داخل النفس وخارجها، ومن ثم قد تجيء السيرة الذاتية صورة للإندفاع المتحمس، والتراجع أمام عقبات الحياة، وقد تكون تفسيراً للحياة نفسها، وفيها قد يرسم الكاتب الحركة الداخلية لحياته مغفلًا الاهتزازات الخارجية إغفالاً جزئياً، وقد تكون مجرد تذكرة اعتراضي موجه إلى قارئ متعاطف مع الكاتب. أمّا إذا اقتصر الكاتب على تدوين مذكراته أو يومياته، أو وجه سيرته لتصوير أحداث أكثر من تصوير(ذات)، فإن عمله حينئذ يلتقي مفهوم السيرة الذاتية وليس هو. ووصف إحسان عباس أيضاً قرب صاحب السيرة من القارئ، وثقة القارئ به^(٢)، فيما يشدّ القارئ نحو هذه الأنواع، هو ذلك التجاوب بين الطّباع، حيث يقارن القارئ بين عواطفه وتجاربه، وعواطف وتجارب الكاتب، فيجد أنّ محاور عدّة تتلاقى بينهما: الولادة، وتعلم العلوم، والتدريس، والوظيفة، وتكوين الأسرة، والتميّز في الثقافة والفكر... الخ.

(١) الصقر، حاتم، (١٩٩٤). كتابة الذّات، عمان: دار الشروق، ص ١٩٢.

(٢) انظر، عباس، إحسان، فن السيرة، ص ٩٨-١١٩.

وكما اختلف النقاد والدارسون في صياغة تعريف محدد ودقيق للسيرة الذاتية، اختلفوا في تحديد الزمن الذي نشأت فيه السيرة الذاتية، فعدّها بعضهم^(١) من أقدم أنواع الأدبية التي تحدث فيها كاتبها عن نفسه، في حين رأى البعض الآخر أنها من أحدث الأجناس الأدبية، التي أخذت ملامحها تظهر في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، فقد ورد في الموسوعة البريطانية، أنّ أول نماذج السيرة الذاتية ظهر في القرن الخامس عشر الميلادي^(٢). غير أنّ هذا الرأي بعيد عن الموضوعية، لأن جذور السيرة الذاتية موجودة بشكل منتشر في الأدب العربي منذ القدم، أمّا في العصر- الحديث، فإنّ كتاب السيرة الذاتية قد اطلعوا وتأثروا بما وصل إلينا من الأدب الغربي، وهذا لا يعني انفصالهم عن تراثهم العربي.

ولعلّ أقدم نماذج السيرة الذاتية، ما كان ينشئه القدماء على شواهد قبورهم، وقد أشار إلى ذلك شوقي ضيف، إذ قال: "واشتهر المصريون في عصور الفراعنة بكثرة ما نقشوا على قبورهم وأهراماتهم، وفي معابدهم وهياكلهم، من تواريخهم، وأفعالهم، وكانت تسرى هذه الروح في الأمم القديمة من حولهم".^(٣)

أمّا نقطة انطلاق السيرة في الأدب العربي القديم، فقد كانت شخصيّة الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث قام بعض المؤرخين^(٤) بكتابة سيرة الرسول عليه السلام، ثم قام بعضهم الآخر^(٥) بتهذيب هذه السير، فحذفوا الأقسام الضعيفة منها.

(١) ديورانت، ول، (١٩٥٦). قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مج ١، ج ١، ص ١١١، ٢٢٨.

(٢) انظر، ٢٥-٤٠، P. The New Encyclopedia Britannica.

(٣) ضيف، شوقي، الترجمة الشخصية، ص ٧.

(٤) ومنهم محمد بن إسحاق (١٥١هـ/٧٦٨م).

(٥) ومنهم ابن هشام (٢١٨هـ/٨٣٣م).

كما لم تخل بعض المصادر العربية القديمة من بعض القطع والنصوص المتناثرة، من السيرة الذاتية مثل: كتاب الأغانى لأبي فرج الأصفهانى (٩٦١-٥٣٠هـ)، حيث تضمن مجموعة من قصص الشعراء والمغنين، التي تمثل قطعاً من السير الذاتية، ومنها تلك القطع التي سردت شيئاً من سيرة المغني إبراهيم الموصلى (٨١٨٨هـ / ٤٠٨م)^(١)، إذ تقترب سيرته كثيراً من فن السيرة الذاتية. وهذه القطع وإن لم تكن سيراً تاماً إلا أنها تشـكـل جذور السيرة الذاتية عند العرب، فمثل هذه النتف الذاتية في بعض المصادر القديمة عند العرب تنبئ بوجود السيرة الذاتية، غير أن الكتابات الذاتية -في الأدب العربي- لم تستقل بكتب خاصة بها قبل القرن الخامس الهجري، وربما كان كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ في القرن السادس الهجري، وكتاب التعريف لابن خلدون في أواخر القرن الثامن الهجري، أقرب أثرين في القرون الوسطى إلى فن السيرة الذاتية، الذي انتشر في الأدب الغربي في أواخر القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين^(٢).

لهذا، فإنه لا يمكن أن نغفل دور العرب في السيرة الذاتية، حيث عرفها الأدب العربي بأشكالها المختلفة واتجاهاتها المتعددة التي أخذت تنمو وتطور لتأخذ مكانها في الوجود، فالسيرة الذاتية نشأت عند العرب قبل الغرب، لكنها لم تتحـدـ مصطـلـحاً خاصـاًـ بها في الأدب العربي القديم. ولعل أدب الرحلات يـمـثـلـ شكـلاًـ منـ أـشـكـالـ السـيـرـةـ الذـاتـيـةـ،ـ وـاتـجـاهـاًـ منـ اـتـجـاهـاتـهاـ المـتـعـدـدـةـ،ـ وـهـذـاـ ماـ قـمـيـلـ الدـرـاسـةـ إـلـىـ تـأـكـيدـهـ.

ب. مبررات كتابة السيرة الذاتية:

قد يشعر الإنسان بالفرد والتميز، وب حاجته إلى تبرير أفعاله التي قام بها، أو الأفكار التي جاء بها، ودافع عنها أمام الناس، وتصبح هذه الحاجة أكثر إلحاحاً حين يعتقد الكاتب أنه تعرض للظلم، فيقوى لديه الإحساس بأنه يجب أن يترجم حياته للأ الآخرين، رغبة منه بالبقاء حتى بعد موته، ودفاعاً عن النفس والاعتزاز بها، وتسجيل كل ما أثر في

(١) انظر، الأصفهانى، الأغانى، ج ١، ص ٢٥٩، ج ٥، ص ٢٦٧-١٥٧، ج ٨، ص ٢٩٣.

(٢) انظر ، عبد الغنى، حسن محمد، التراجم والسير، ص ١١١.

تكوينه العقلي، وتصوير حياته الفكرية، "فلا يمكن لأي شخص أن يروي للناس قصة حياته إلا إذا كان واعياً الوعي كله بما لوجوده من فرادة وتميز، حتى تكون سيرته الذاتية جديرة فعلاً بعنابة الآخرين".^(١)

ولعل فترات الاضطراب والتقلقل في تلك العصور، قد دفعت لكتابية السيرة الذاتية، ويري علي أدهم "أن الاتجاه إلى كتابة الترجم الذاتية يقوى ويشتد في عصور الانتقال وأوقات الاضطراب والتقلقل، وذلك لأن بعض النفوس الحساسة، تشعر في مثل تلك الأزمان، بأنها في حاجة إلى الملاعنة بين نفسها وبين الظروف المحيطة".^(٢) أما الألم، فهو المبرر الذي يدفع صاحبه للبوج و "يضطر الذات إلى أن تخلي على حياتها معنى، وما كتابة السيرة الذاتية إلا بهدف أن يخلع الكاتب على حياته معنى".^(٣)

ومن المبررات الأخرى، إحساس كثير من كتاب السير الذاتية بالحاجة لسبب أو آخر إلى تسجيل ما شهدوه من أحداث ومواقف، ورحلات قاموا بها، ولقاءات بالعلماء والأدباء والفقهاء، وربما يرغب الكاتب في استرجاع الذكريات، وقد يبوج بذكريات شبابه العاطفية، ومثال ذلك ابن حزم في كتابه "طوق الحمام".

ج. علاقة الرحلة بأنماط كتابة السيرة :

أدب الرحلات فنّ تغمره الحياة، ويزخر بالتجارب الحية، والحركة والانتقال من مكان لآخر، وهو بهذا يلتقي بالسيرة، ذلك أنّ الكلمة سار تدل على المسير والانتقال^(٤)، وتومي بطول الطريق، وقطع المسافات، وتعدد المراحل، وهذا يتفق مع الكتابات التي تؤرّخ لسيرة الإنسان منذ طفولته إلىشيخوخته.

(١) المبخوت، سيرة الغائب، سيرة الآتي، ص ١٠٥.

(٢) أدهم، علي، لماذا يشقى الإنسان: فصول في الحياة والمجتمع والأدب والتاريخ، القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ص ٢٦٤.

(٣) شرف، عبد العزيز، (١٩٩٢). أدب السيرة الذاتية، بيروت، مكتبة لبنان، ص ١٧.

(٤) انظر، ابن منظور، لسان العرب: ٤/٣٨٩.

وقد عمدت هذه الدراسة إلى القراءة الدّاخلية لبعض الرّحلات؛ لإلقاء الضوء على نقاط التلاقي بين أدب الرّحلات وفنّ السّيرة، وسعت للوقوف على أهم مقومات فنّ السّيرة داخل تلك الرّحلات، كما اهتمّت بتتبع أهم المحطّات الاجتماعيّة والسياسيّة والفكريّة لصاحب الرّحلة، ورصدت تفاعله مع تلك المحطّات، حيث ترجم الرّحالة حياتهم أفالطاً.

وبالتالي فإنّ مثل هذه الرّحلات تطلّعنا على سير أصحابها وعلى حقيقتهم، وتكشف عن مواهبهم ودوافعهم للقيام بتلك الرّحلات، والأثر الذي خلّفوه للأجيال. فرحلة ابن تومرت، وابن رشيد، والتّجبيي، والبلوي وغيرهم، وإن كانت تركز على الجوانب العلميّة، والرواية عن الشّيخ، وذكر المصنفات، إلا أنها أفادت في إلقاء الضوء على أخبار أولئك الرّحالة، وتجاربهم في الحياة وطرفًا من الحياة الاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة التي مثلت عصورهم.

وقد جاءت تجارب ابن عربي الروحيّة دافعة لكتابه سير رحلته^(١)، حيث يشرح لأتباعه ومربيّيه ما مرّ به من مجاهدات وتجارب روحيّة جديرة بأن تكتب، بحيث تفيد الآخرين وتوجّهم، فالحالة التي عاشها ابن عربي من التّجلّي، نتج عنها الدّافع القوي الذي جعله يبدأ بكتابه "كتاب الإسرا" و"الفتوحات المكّية" التي جاءت تتويجاً لكتاب الإسرا و"التّجلّي" هو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب، ولذلك تمّ وسم هذا التّلقي للصوفي بالتلقي المكاشف، وفي مثل هذا التّلقي ليس العارف من يتعرّف على النّص، ويكتشف أسراره بمقتضى نظره وتفكيره، وإنما النّص هو الذي يتعرف إليه ويتجلى له فتحاً وهبة من الله^(٢).

(١) انظر، عباس، إحسان، فن السّيرة، ص ١٠٣.

وانظر في مثل هذه الجوانب الروحيّة والصوفيّة، تحفة المغترب ببلاد المغرب حيث حرث الكثير من كرامات الشيخ أبي مروان أثناء انتقاله من مكان آخر، ص ٣١، ٣٢، ٣٣، ٥٠، ٦١، مواطن أخرى كثيرة في الرحلة.

(٢) بالأشهب، محمد، (١٩٩٨). "التلقي المكاشف: شروطه وحدوده، ابن عربي نموذجًا"، مجلة علامات، العدد (١٠)، مكناس، المغرب، ص ٥.

وقد بين ابن عربي أن "كتاب الإسرا" سيرة معرفية قدّمها لأصحابه من كبار المتصوفة، إذ يقول: "أما بعد فلئن معاشر الصوفية، أهل المعارج العقلية، والمقامات الروحانية، والأسرار الإلهية، والمراتب العليّة القدسية في هذا الكتاب المنمق الأبواب المترجم لكتاب الإسرا إلى مقام الأسرى، اختصار ترتيب الرحلة من العالم الكوني إلى الموقف الأزلي. وبينت فيه كيف ينكشف الكتاب بتجريد الأبواب لأولي البصائر والأباب، وإظهار الأمر العجاب، بالإسراء إلى رفع الحجاب"^(١).

إنَّ كتب ابن عربي كلُّها قد جاءت تصويراً لسيرته الصوفية القائمة على الإيمان بوحدة الوجود، وعلى المكاشفات والمشاهدات، وبهذا فإنَّ رحلات ابن عربي ذات علاقة بالسيرة الذاتية، حيث ترکز على التجربة الروحية، وإبراز الذات لنفسها بصورة متميزة عن ذوات الآخرين، كما تسعى لبلوغ أعلى درجات الارتقاء الروحي بما تتضمنه من كرامات ومكاشفات، وذلك لإشراك المتألق في إيحاءات تجاربهم لتقدم نمطاً تهذياً، وتجذب الناس إلى طريقتهم بما فيها من مواجد ومشاعر "حثاً على القدوة والاحتذاء، لأنَّ أصحابها من أعلام الصوفية، يخاطبون بها الأتباع والمربيين، حيث يصوّرون مواجهدهم وأذواقهم".^(٢)

أما رحلة ابن جبير، فقد أظهرت صاحبها كاتب يوميات دقيقاً، وبدا وقد خطط رحلته شهراً شهراً، اعتماداً على التقويم القمري الإسلامي، وكان يدعم ذلك بنظيره من التقويم المسيحي، ومن ذلك قوله: "ثم كان الخروج منها أول ساعة من يوم الإثنين التاسع عشر- لشهر سؤال المذكور وبموافقة اليوم الرابع عشر- لشهر فبراير المذكور أيضاً".^(٣) وعن شهر محرّم، قال: "استهل هلاله ليلة الثلاثاء، وهو اليوم السادس والعشرين من أبريل".^(٤)

(١) كتاب الإسرا إلى مقام الأسرى، ضمن رسائل ابن العربي: ٤٦/١.

(٢) عبد الدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص ٣٧.

(٣) رحلة ابن جبير، ص ٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٢.

وقد تابع ابن جبير جميع المواقف في مراحل رحلته حال حدوثها، وأنثت الواقع فلا ينسى فيها شيئاً، لذا ذخرت رحلته بالتفاصيل، والتعليقات، كما أثبت انطباعاته وأهاته، وهي وإن بدت عادلة إلا أنها كشفت النقاب عن ملامح شخصية ابن جبير، وعمق رؤيته "للآخر"، فقد وصف في يومياته بعض طبائع الفرنج، وأخلاقهم وعاداتهم وأعيادهم، وصفاً دقيقاً صريحاً حمل في ثناياه طابع الصراع الحضاري، وعكس صورة الآخر في مختلف جوانب حياته الاجتماعية والثقافية والسياسية، وهو لا يكتفي بذلك، بل يعمل على تحليل تلك الصورة ويقدم انطباعاته عنها بعبارات دالة تمثل رؤيته وقناعته، وعمق درايته بلامح تلك الصورة. ومثال ذلك ما وصف به ملك الفرنج غليام، حيث وصفه بالغلظة، والطاغية^(١)، ودعا الله أن يكفي المسلمين عاديته وبسطته^(٢).

وتحدّث ابن جبير، أيضاً، عن بعض المصاعب التي واجهتهم في الرحلة، فوصف حالة الاضطراب والخوف التي مرت بها هو ومن معه، ويقول واصفاً حالهم وقد عصفت بمراكبهم الريح: "ونحن نجري بريح شمالية موافقة، فذئرت وعصفت فطار لها المركب بجناحي شرائعه، وقد كننا .. نرجم الطُّنون، ونغازل المتنون، حذراً من نفاد الزَّاد والماء .. وأصبحنا يوم الأحد المذكور والهول يزيد، والبحر قد هاج هائجه، وماج مائجه، فرمى بموج كالجبال، يصد المركب صدمات يتقلب لها على عظمه تقلب الغصن الرَّطيب.. واستشرى عصوف الريح. فخطّت الشرع.. واستسلمت التفوس لباريها وتركتنا بين السفينتين ومجريها..."^(٣)، وقد أبرزت هذه الأحداث شخصية ابن جبير الدينية المؤمنة بقضاء الله وقدره، ولطفه بعباده^(٤).

وفي الوقت الذي اعتمد فيه ابن جبير على التوثيق اليومي والشهري الدقيق للأحداث رحلته، اعتمد ابن بطوطة على الذّاكرة في إثبات مراحل رحلته، وربما يكون

(١) المصدر نفسه، ص ٣١٣-٣١٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٩٨.

(٣) رحلة ابن جير، ص ٢٨٩-٢٩٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٩٢.

قد دون ملاحظاته ولكنها فقدت منه أثناء تعرّضه لقطعان الطرق، وهو يتنقل من مكان لآخر^(١).

وقد عدّ بعض الدارسين^(٢) رحلة ابن بطوطة سيرة ذاتية تصوّر حياته على ما يزيد عن ربع قرن قضتها في الحركة والانتقال في مختلف البلدان، وترى الدراسة هنا، أنّ رحلة ابن بطوطة جاءت بمزوجة بشيء من التاريخ والمجتمع والبيئة والحيوان والنبات، ومليئة بصور لمشاهدات ابن بطوطة وتجاربه في الحياة، فشخصيته حاضرة في رحلاته، كما حوت تلك الرحلات في داخلها مذكريات تمسّ الواقع والأحداث الاجتماعية والسياسية التي عدّت مصدراً عظيم الأهمية، لا سيّما فيما يتعلّق بأخبار الدول الإسلامية في إفريقيا وببلاد الهند، وهي من جانب آخر تخلو من الحديث عن طفولة صاحبها، فلا نعرف شيئاً عن طفولته وأسرته، وما ذكره عنهم كان مجرّد إشارات خاطفة وردت في ثنايا رحلته، تؤكّد اشتغال بعض أفراد أسرته بالقضاء، وقد أشار إلى أحدّهم وهو ابن عم له اسمه أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة، التقى به أثناء رحلته إلى الأندلس، وكان يعمل قاضياً^(٣). وبالتالي فإنّ رحلة ابن بطوطة - في شكلها العام - مزيج من السيرة الذاتية والمذكريات.

ويبدو أنّ ابن بطوطة لم يفكّر يوماً بأسرته، وكأنّه لم يكن وثيق الصلة بها، فحين سمع وهو في الغربة بنباً وفاة أبيه لم يعلّق على ذلك بشيء يذكر^(٤)، كما لم يزر قبر أمّه في طنجة، عند عودته إلى أرض الوطن، إلا بعد أن ذهب إلى السلطان أبي عنان بحضورته في فاس^(٥)، ومثل هذه الإشارات تناقض ما قاله ابن بطوطة في بداية رحلته "فحزمت"

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢٠٦/٢.

(٢) انظر، مصطفى، أحمد أمين، (١٩٩٢). الحياة في القرن الثامن الهجري كما تصورها رحلة ابن بطوطة، القاهرة: مطبعة السعادة، ص ١٥.

(٣) رحلة ابن بطوطة، ٢٦٤/٢.

(٤) المتصدر نفسه، ٢٤٨/٢.

(٥) رحلة ابن بطوطة، ٢٥٧/٢، ٢٥٨/٢.

أمرى على هجر الأحباب من الإناث والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور. وكان والدي بقيid الحياة، فتحمّلت لبعدهما وصباً^(١) ويرى بعض الدارسين^(٢) أنَّ هذه العبارة إضافة من ابن جزي، حيث إنَّ مراحل الرحلة جميعها لا تحوى ما يؤكّد مثل تلك المشاعر عند ابن بطوطة، ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل إنَّ ابن بطوطة في رحلته لم يكن كثير الاهتمام بأسرته التي يكونها في معظم البلدان التي قصدها، فهو يذكر نسائه وأولاده، ثم يتركهم حيث هم، ليرحل إلى مكان آخر، ويقول في حديثه عن دمشق: "وكتت تركت بها زوجة لي حاملاً، وتعرفت وأنا ببلاد الهند أنها ولدت ذكرًا"^(٣)، "وَلَا أدرى ما فعل الله فيها".^(٤)

ويبدو أنَّ ابن بطوطة كان مأخوذاً بالترحال والتّجوال، فيتحدث عن أسرته وكأنَّها لا تعنيه، أو ربما ظنَّ أنَّ مثل هذه الأحداث ليست هامة أو نافعة للناس كي يطلعهم عليها. ولو آتاه وأشار إلى شيء من طفولته وصباه ومراحل تلقّيه العلم، ومكانة أسرته في المجتمع، فلربّما كانت تلك الإشارات كفيلة بالكشف عن سبب حبه الشديد للسفر والترحال والاغتراب عن وطنه.

أمّا ما أشار إليه من باعث عودته إلى الوطن بعد رحلته الطويلة، فيتضح من قوله: "مع ما شاقني من تذكرة الأوطان والحنين للأهل والخلان، والمحبة إلى بلادي التي لها الفضل عندي على البلدان .."^(٥)، فلا يحسّ القارئ بحرارة ذلك الحنين، حيث يتبيّن له بعد ذلك أنَّ الбаّعث الحقيقّي لعودته، سعيه إلى كرم السلطان أبي عنان^(٦) في حين يميل القارئ إلى

(١) الم المصدر نفسه: ٢٠٢/٢.

(٢) انظر، خصباك، شاكر، (١٩٧١). ابن بطوطة ورحلته، النجف الأشرف: مطبعة الآداب، ص ٢٢.

(٣) رحلة ابن بطوطة، ٢٤٨/٢، وانظر، الم المصدر نفسه: ٢٠٦/٢.

(٤) الم المصدر نفسه، ٩٤/٢.

(٥) الم المصدر نفسه، ٢٥٣/٢.

(٦) الم المصدر نفسه، ٢٦٤/٢.

تصديق مشاعر لسان الدين بن الخطيب، حيث وصف حزنه الشديد لفقده زوجته ويظهر ذلك في قوله: "في السادس الذي القعدة من عام اثنين وستين وسبعمائة، طرقني ما كدر شري ونعش عيشي، من وفاة أم الولد عن أصغر زغب العواصل بين ذكران وإناث في بلد الغربة، وتحت سرادق الوحشة، دون أذىال النكبة، تجلت عليها حسرتي واشتد جزعني... إذ كانت واحدة نساء زمانها جزالة وصبراً ومكارم أخلاق، حازت بذلك مزية الشّهرة .. ووقفت على قبرها وصدر عنّي مما كتب على ضريحها، وقد أغري به التنويم والاحتفال: عدنـي في اشتداد أحوال ذخيري حين خاني زمني

تعللاً بالمحال في الحال حرفت في داري الضريح لها

وكيف لي بعدها يامهال وبغبطة تهم المقام معـي

وتقتضي سرعتي و إعجالي فانتظرني فالسوق يقلقني

فعن قريب يكون ترحالي^(١) ومهدـي لي لديك مضطجعاً

ويقول أيضاً مصراً صراعه الداخلي في نفسه، وهو في السجن^(٢):
بعدـنا وإن جاورتنا البيوت

وكـنا نقوـت فيها نحن قـوـث وكـنا عظاماً فصرـنا عظاماً

عـربـنا^(٣) فناـحتـ عليها الـبـيوـثـ^(٤) وكـنا شـمـوسـ سمـاءـ العـلاـ

وفـاتـ وـمـنـ ذـاـ الـذـيـ لاـ يـفـوـتـ فـقـلـ للـعـدـاـ ذـهـبـ ابنـ الخطـيـبـ

(١) ابن الخطيب، الإحاطة: ٢-١٧/٢، وابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٣٢٢/٢.

(٢) المقربي، نفح الطيب: ١١٢-١١١/٥، وانظر، ابن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٩، ص ٨٦.

(٣) في النفح، غربـنـ.

(٤) في النفح، السـمـوـثـ.

أما البجائي، فقد عَبَر عن معاناته حين انقطعت المراسلات بينه وبين صديقه المشدالي، فأخذ يسأل عنه الركبان والحجيج، ويتطلع إلى أخباره، ثم أخذ يعاتب صديقه على سكوته، لأنَّ الخليل لا يجفو خليله، إلى أن جاء ردّ المشدالي معتبراً البجائي على خشونة عتابه له، فاستوجب ذلك ردّ أبي عصيدة البجائي، الذي سُمِّاه "رسالة الغريب إلى الحبيب"، يوضح فيها أسباب تلك الخشونة في اللُّفْظ والشَّدَّة في الخطاب، إذ يقول: "بل و الله إنما كانت كلمات خفيقات صدرت عن فكرة ضئيلة من نفس عليلة، وعين المحب عَمِّن يحب كليلة.." ^(١). ثم صور مشاعر الحزن والألم لفراقه، وأنَّ الفراق ما زاده إلا تعليقاً به، فيقول: "يا أخي من لم يذق مرارة الفراق، لم يدر ما حلاوة التلاق، إذا وصل الغريب إلى دار الحبيب، وجد في التّقريب كُلَّ أمر عجيب، وإذا وقف بالباب عرف لذة الاغتراب .. فالعاقل يكون في نفسه غريباً وقلبه في صدره غريباً وروحه في ذاته غريباً، وسره في حاله غريباً، فلا يستريح من همَّ الغربة ما لم يصل إلى الحبيب.." ^(٢).

ومثل هذه المشاعر نجدها عند الرحالـة البلويـيـ، الذي وصف مشاعره وعواطفه الشخصية حين التقى بصديقه ابن الحاج النميريـ في الإسكندريةـ، فكان اللقاء مثيراً للمشاعر العاطفـيـة، وحديث الذكريـات ^(٣).

ويرى بعض الدارسينـ، أنَّ السيرة قد نشأت في حضن التـاريـخ "وترعرعت واتخذت سمتاً واضحاً" ^(٤)، وأنَّ بعض الرـحالـة قد سجلوا إلى جانب ملاحظاتهم ومشاهداتهم وتأملاتهمـ، واتصالاتهمـ اليومـيـة بكثيرـ من أدباءـ بيئتهمـ وعصرهمـ، التقـليـباتـ والتطـورـاتـ السياسيـةـ في الدـاخـلـ والخارـجـ، ومنـهمـ ابنـ الحاجـ النـميرـيـ، فهوـ وإنـ كانـ كاتـبـ رحلةـ "فيـضـ العـبابـ"ـ، وأـبـوـ عنـانـ المـريـنيـ القـائـمـ بـمراـحلـهاـ، فإـنهـ قدـ اـرـتـبـطـ بالـرـحـلـةـ، وبـالـكـثـيرـ منـ عـناـصرـهـاـ، وـتـحـمـلـ نـفـسـ المسـؤـولـيـةـ، وـكـانـ النـاطـقـ الرـسـميـ بـلـسـانـ السـلـطـانـ أـبـيـ عنـانـ.

(١) البجائيـ، رسالةـ الغـريبـ إلىـ الحـبيبـ، صـ ٤٥ـ.

(٢) البجائيـ، رسالةـ الغـريبـ إلىـ الحـبيبـ، صـ ٧٥ـ.

(٣) انظرـ، البلـويـ، تـاجـ المـفـرقـ، ٤٣/٢ـ.

(٤) عـبـاسـ، إـحسـانـ، فـنـ السـيـرةـ، صـ ١١ـ.

أما ابن خلدون، فقد كان السفر والرّحال من الأمور التي ارتبطت بكتابه، ورغبة في الوصول إلى تحقيق الذات وكان أكثر من اختلطت سيرته الذاتية بالرحلة، فعدت رحلته نموذجاً قريباً من السيرة الذاتية، حيث سلطت الضوء على مراحل هامة من حياة ابن خلدون، ومنها:

- مرحلة الوجود داخل عائلته، وتبدأ بالولادة والنسب الشّريف الذي لعب دوراً كبيراً في التعريف بذات ابن خلدون ومركزها الفريد، حيث يقول: "أما نشأتي فإني ولدت بتونس، في غرة رمضان سنة اثنين وثلاثين وسبعيناً^(١)". وتحدث كذلك عن أصول عائلته التي أرجعها إلى عرب اليمن، فقال: "ونسبنا حضرموت، من عرب اليمن، إلى وائل بن حجر من أقبال العرب...^(٢)". وقد شاركت أسرته في مختلف المجالات الدينية والعلمية والسياسية، وكانت تربطها بالأسرة الحاكمة في تونس صداقات وعلاقات عائلية خاصة، فعدّ هذا المناخ التواه التي ارتبطت بها شخصية ابن خلدون^(٣).

- مرحلة تلقي العلم، وكانت البداية على يد والده، حيث ارتكز على قراءة القرآن، ثم انتقل داخل بلاده وأخذ العلم عن عدد كبير من العلماء والفقهاء، إلى أن ختم القرآن الكريم على إمام في القراءات السبع، وحفظ كتاب الأشعار السّتة والحماسة للأعلم^(٤)، وشعر أبي قيام، وشعر المتنبي، وكثيراً من أشعار الأغاني، وهو بذلك يطلعنا على جوانب عدّة من ثقافة عصره وشيوخه، وإقباله على مجالس العلم^(٥)، وهو إقبال

(١) ابن خلدون، التعريف، ص ٦١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٠.

(٣) انظر، المصدر نفسه، ص ٥١-٦١.

(٤) هو، يوسف بن سليمان بن عيسى النحووي الشنتمرى المعروف بالأعلم (٤١٠هـ-٤٧٦هـ)، انظر ترجمته، السيوطي، بغية الوعاة: ٤٢٢/١، ابن خلkan، وفيات الأعيان، ٤٦٥٢، المقرى، نفح الطيب:

٧٥-٧٩.

(٥) انظر، ابن خلدون، التعريف، ص ٦٢-٦٨.

دائم، حيث يقول: "لم أزل منذ نشأت، وناهضت مكبًا على تحصيل العلم، حريصاً على اقتناء الفضائل، متنقلًا بين دروس العلم وحلقاته"^(١).

أما الشعر، فيعترف ابن خلدون، أنه قد يرغم نفسه على قوله -وكأنه من مستلزمات ثقافة الأديب والفقير والمؤرخ- فيقول: "ثمأخذت نفسي بالشعر فانثال عليّ منه بحور توسيط بين الإجاده والقصور"^(٢).

- مرحلة الوظائف والمناصب الرفيعة، والرحلات والاتصال بالسلطانين والملوك، فقد تدرج ابن خلدون في سلم العلم والمعرفة، والبحث عن الأمثل، والارتقاء والنضوج العلمي والفكري، ليشكل طريقه في تكون الشخصية المتفردة والمتميزة، لذا ترجم ابن خلدون حياته للآخرين، رغبة منه في البقاء، ودافعاً عن النفس والانتصاف لها، وتبريراً لما كان يحدث له، حيث اتهم بالمشاركة في بعض الانقلابات والمؤامرات، وتنكر له حتى أعز الأصدقاء، مثل لسان الدين بن الخطيب، فقد شعر ابن خلدون بتائبته عليه وشمّ منه رائحة الانقياض، حيث قال: "لم يلبث الأعداء وأهل السعيات أن خيّلوا الوزير ابن الخطيب من ملابستي للسلطان، واشتماله على حرّكوا له جواد الغيرة، فتنكر وشمت منه رائحة الانقاض مع استبداده بالدولة وتحكمه في سائر أحوالها"^(٣). ورغم ذلك فقد سعى ابن خلدون لطلاق سراح ابن الخطيب، وإخراجه من سجنه، إذ يقول: "وبعث إلى ابن الخطيب من حبسه مستصرحاً بي، ومتواصلاً، فخاطبت في شأنه أهل الدولة، فلم تنجع تلك السعية، وقتل ابن الخطيب بحبسه"^(٤).

ويُنصح من ذلك، أن رحلة "التعرّيف" سيرة ذاتية قد سلطت الضوء على صراعات السلطة والأحداث السياسية والتقلبات والمؤامرات التي عاش ابن خلدون صراعاتها، ورأى أنها تستحق التسجيل.

(١) الم المصدر نفسه، ص ٩٩.

(٢) الم المصدر نفسه، ص ١١٢.

(٣) الم المصدر نفسه، ص ١٣٦.

(٤) الم المصدر نفسه، ص ٢٦٤.

كما لم تخل سيرة ابن خلدون من غرض آخر هو "تصوير الشّهرة العريضة والمنزلة الرّفيعة التي نالها في الحياة السياسيّة والاجتماعيّة"^(١). وما لقاء ابن خلدون بتيمورلنك في دمشق إلا دليل على ذلك، بما يحمل من دلالات كشفت عن شخصيّة ابن خلدون الطموحة، وقدرته على مواجهة شخص عرف بقوّته وسطوته، فقد استطاع ابن خلدون بذكائه، وسعة اطّلاعه في التاريخ والأمم والشعوب، وبحنكته ودرايته بملوك العرب والفرس والترك أن يقف أمام سلطان التتر، ويفاوضه في أمر أهل مدينة دمشق بعد أن حاصرها، ويهديه مصحفاً رائعاً حسناً، وسجادة أنيقة، ونسخة من قصيدة البردة للبوصيري^(٢)، ويصف ابن خلدون دخوله على تيمورلنك فيقول: "فلما دخلت عليه، فاتحت بالسلام، وأوّمت إيماءة الخضوع، فرفع رأسه، ومدّ يده إلى قبّلتها، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت"^(٣).

وقد علق بعض الدّارسين^(٤)، أنّ موقف ابن خلدون أمام تيمورلنك من المواقف الدّالة على نفسيّته في عهد الشّيخوخة، وحرصه على السّلامة، حتى أصبحت شخصيّته أقرب إلى الإِسلام والانسحاب من المصاعب والصراعات التي تواجهه، وفي ذلك مفارقة واضحة لروحه المغامرة وشجاعته قبل ذلك في أيام القضاء وتمسّكه بما يعتقد أنه العدل والحقّ، ومن قوله في ذلك: "قصدت في ذلك بالحقّ، وكبحت أعنّة أهل الهوى والجهل، ورددتهم على أعقابهم، وكان فيهم مُلْتَقطُون سقطوا من المغرب، يشعوذون بمفترق من اصطلاحات العلوم هنا وهناك، لا ينتمون إلى شيخ مشهور، ولا يعرف لهم كتاب في فنّ، قد اتخذوا الناس هزؤاً، وعقدوا المجالس مثلبة للأعراض .. فأرغمهم ذلك متنّ، وملاهم حسداً وحقداً على.."^(٥). وبذلك يكون ابن خلدون قد لعب دوراً خطيراً في الأحداث والشؤون السياسيّة المغاربية.

(١) عباس، إحسان، فن السيرة، ص ١٢٣.

(٢) انظر، ابن خلدون، التعريف، ص ٤١١.

(٣) المتصدر نفسه، ص ٤٠.

(٤) انظر، عباس، فن السيرة، ص ١١١.

(٥) ابن خلدون، التعريف، ص ٢٩٣.

من هنا، فإن إحساس ابن خلدون بفرديته قد دفعه لكتابه سيرته ذات الصلة الوثيقة بالأحداث التاريخية، حيث أضفى على ما كتبه من أحداث صبغة ذاتية بما ثبت من آرائه وأحكامه الشخصية، فلم يهتم بوصف الطرق والمسافات والناس وطبائعهم وأحوالهم الاجتماعية، بل كان هدفه تصوير حياته وظروفه منذ نشأته حتى قبيل وفاته، ويرى أنيس المقدسي أن الغاية الرئيسة مما كتبه ابن خلدون عن نفسه هي "أن يثبت الواقع التي ذكرها في تاريخه، وبهذا لم يخرج تعريفه بنفسه عن نطاق التاريخ إلا في مواضع قليلة جداً"^(١). في حين يرى عبد السلام المسدي أن فن السيرة الذاتية في كتاب "التعريف" جاء "غرضًا مقصودًا لذاته"^(٢) استطاع ابن خلدون أن يسجله من خلال رحلته، ويرى كامل العسلي أن "التعريف"، ليس من كتب الرحلات بالمعنى الدقيق للكلمة بل هو في الحقيقة سيرة ذاتية وضعها ابن خلدون، ووصف فيها ما مرّ به من أحداث، وذكر فيها الرحلات التي قام بها، والتي فرضتها عليه ظروف حياته المتقلبة، فقد كان أحياناً رحالة على الرغم منه^(٣). أمّا إحسان عباس، فيرى أن ابن خلدون يروي معظم الأحداث والمصائب التي كانت تجري حوله وكأنها بعيدة عن شخصيته وفكرة ولا تعنيه، فهو "يعزل ثم يولي، ثم يعزل ثم يولي، ويقترب هذه الأمور كأنها أحداث بمعزل عنه، وعن تفكيره وتقديره"^(٤). ويفرق أهله جميعاً في سفينةقادمة من تونس ويكتفي بالقول: "فركبوا البحر من تونس في السفينة، فما هو إلا أن وصلوا إلى مرسى الإسكندرية، فعصفت بهم الرياح، وغرق المركب بمن فيه، وما فيه، وذهب الموجود والمولود، فعظام الأسف، واختلط الفكر"^(٥)،

(١) المقدسي، أنيس، (١٩٦٣). الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة الحديثة، بيروت: دار الكتاب العربي، ص .٠٠٧

(٢) المسدي، عبد السلام، (١٩٨٣). النقد والحداثة، بيروت: دار الطليعة، ص ١١٤.

(٣) العسلي، كامل، بيت المقدس في كتب الرحلات، ص ٨٠.

(٤) عباس، إحسان، فن السيرة، ص ١٢٠.

(٥) ابن خلدون، التعريف، ص ٣٢٠.

"وذهب الموجود والسكن والمولود فعظم المصاب والجزع، ورجح الزهد"^(١) "وفرغت لشأني من الاشتغال بالعلم تدريساً وتأليفاً"^(٢). فلم يجد ابن خلدون عزاء إلا في العودة إلى العلم والتدريس والقراءة، وموقفه هذا يشبه موقفه من فاجعة فقده لوالديه بمرض الطاعون، ووصف ذلك فقال: "إلى أن كان الطاعون الجارف، وذهب بالأعيان، والصدور، وجميع المشيخة، وهلك أبواي، رحمهما الله"^(٣).

وقد يكون اكتفاء ابن خلدون بهذه العبارات متعمداً، وذلك ظناً منه أن ذكر مثل تلك المواقف والأحداث التي تثير المشاعر والعواطف، وتبعث على الحزن والأسى، شيء ينقص في الرجلة أو القدرة على التحمل، أو ربما لاعتقاده أن مثل هذه الأحداث لا تقدم نفعاً للقارئ.

إن "التعريف" سيرة ذاتية يلاحظ فيها المنظور الاستيعادي الذي تروي به الأحداث، وتكتيف الأفعال ودوابعها وأسبابها ونتائجها، فتبدو شخصية ابن خلدون، شخصية العالم الفقيه، والمؤرخ، وشاهد العيان لأحداث ذلك العصر. كما تظهر رحلته وقد استطاعت أن تربط الأحداث التاريخية في العالم الإسلامي شرقاً وغرباً، حيث تنقل في بلاده وارتقي أعلى المناصب ابتداء من كتابة العلامة، وهي وضع "الحمد لله والشكر لله" بالقلم الغليظ وما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم^(٤)، ووصولاً للقضاء. ثم رحل إلى المشرق ليؤدي فريضة الحجّ، ولكنّه لا يواصل رحلته، حيث استوقفه القاهرة بما فيها من نشاط علمي، ويقول: "فانتقلت إلى القاهرة أول ذي القعدة، فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العام، ومحشر الأمم، ..."^(٥).

(١) المصدر نفسه، ص ٢٩٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٩.

(٤) ابن خلدون، التعريف، ص ٩٩.

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٨٤.

ويصف إقبال الطلبة عليه هناك "ولما دخلتها أقامت أياماً وانثال على طلبة العلم بها يلتمسون الإفادة.. فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها"^(١). ثم عزم على أداء فريضة الحجّ "واعترضت على قضاء الفريضة، فودعت السلطان والأمراء، وزردو وأعانوا فوق الكفاية، وخرجت من القاهرة ..."^(٢). وشدّه الحنين إلى زيارة بيت المقدس، فدخل المسجد الأقصى، وتبّرك بزيارته والصلة فيه، ثم انصرف إلى الخليل لزيارة قبر إبراهيم الخليل، ومرّ في طريقه ببيت لحم، ثم إلى غزة ومنها توجه إلى مصر^(٣).

- مرحلة الاعتزال والانشغال بالكتابة والانقطاع لها، فبعد تلك الوظائف السياسية والدبلوماسية والقضاء والتّدريس، أدرك ابن خلدون أنّ السياسة قد جرت عليه الكثير من المتاعب، فتركها وقرر الاعتزال والانقطاع للكتابة، فلجاً إلى قلعة بنى سلمة، متخلّياً عن الشواغل السياسية والدنيوية^(٤) التي ولدت له الحساد الذين أخذوا في السعاية والكيد له، وبسبب ذلك عزل من القضاء غير مرّة، ثم حطّت رحال ابن خلدون في القاهرة، حتّى أدركته المنيّة سنة ١٤٠٦هـ/٨٠٨م.

وبعد، فإنّ هذه الرّحلات قد شكلّت أصولاً للسيرة الذاتيّة الحديثة، وافتتحاً يكشف عن وجود روح واحدة بينهما من خلال المشاهدة والمعاينة السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة، كما أنّ اهتمام الرّحلات بالتّاريخ الزّمني للتّدوين والكتابه قربها من المذكّرات "والالأصل أنّ أدب المذكّرات بمثابة النّواة الأساسية لفنّ السيرة الذاتيّة"^(٥)، وبهذا تكون هذه التماذج قد أددت نوعاً ما وظائفها، كإضاءة حياة أصحابها، وإبراز دورهم الفكريّ والسياسيّ والاجتماعيّ، لتصبح آثارهم مرجعيات فكرية وأدبية.

(١) المصدر نفسه، ص ٢٨٦.

(٢) المصدر نفسه، ٢٩٧-٢٩٦.

(٣) انظر، المصدر نفسه، ص ٣٨٤-٣٨٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٦٥.

(٥) صدوق، نور الدين، سير المفكرين الذاتيين، ص ٧١.

ومن جانب آخر، فإنّ هناك أشكالاً أخرى أقلّ أهميّة عند الحديث عن أصول السيرة الذاتيّة، لأنّ أصحابها اقتصرّوا على ذكر أسماء المشايخ والترجمة لهم، وذكر مصنفاتهم والكتب التي يدرسونها، ورواياتهم.

وبالنّالي فإنّ الأدب العربيّ القديم، لا يقدّم لنا سيرة ذاتيّة تبرز فيها ملامح السيرة الذاتيّة الحديثة، حيث لا نجد نموذجاً، تناول فيه مؤلفه ذاته بصفتها ذاتاً مستقلّة، ورغم ذلك فإنّ السيرة ليست نصّاً مغلقاً، أو مجالاً ضيقاً محدوداً، وإنّما هو نصّ مفتوح على الكثير من الأجناس الأدبيّة، حيث إنّها "نوع يدفع إلى الانفتاح على مجالات ذاتيّة عدّة، فكلّ نصّ يبدو أنّ مؤلفه يعبرُ فيه عن حياته وإحساساته" ^(١). لذلك فإنّ أدب الرّحلات يعدّ من الكتابات الذاتيّة في التّراث العربيّ القديم، ومن أصول السيرة الذاتيّة، وإن لم يكن سيراً ذاتيّة بمفهومها الحديث.

(١) لوجون، فيليب، السيرة الذاتيّة، الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة عمر حلمي، مقدمة المترجم، ص ٥٧.

الفصل الرابع

الدراسة الفنية لأدب الرحلات

يمكن أن تدرس الرّحلات بوصفها فناً سرديّاً، ذا طابع أدبي، له سماته وملامحه الذاتيّة، التي تميّزه عن غيره من الفنون الأدبيّة، بحيث يساعد ذلك في استجلاء هذا النوع من الأدب، وكشف خصائص البناء الفنيّ له؛ كيف بدأت الرّحلة، وكيف انتهت؟ وعنّاصر تلك البداية والنهاية التي يحكمها الزّمان والمكان، واللغة والشخصيّات التي يمسيوّياتهم المختلفة؛ الاجتماعيّة، والثقافيّة، والفكريّة، وانطباعات تلك الشخصيّات التي كثيراً ما تكون شيّقة وتقرّب الرّحلات من الحكاية، لذا فإنّ الرّحلات بحاجة إلى دراسات جديدة وجهد كبير من الدارسين والباحثين لاستكناه الأبعاد القصصيّة، وتحليل جماليات الصور السرديّة في كلّ رحلة على حدة، من حيث هي بناء فنيّ، وإبداع أدبي، يتضمن الحياة بكلّ ما فيها من أساطير، وقصص، وأشعار، وأمثال، ورسائل؛ فكتب الرّحلات وإن كانت مصدرًا تاريخيًّاً لمعرفة أحوال بعض المجتمعات، أو مصدرًا جغرافيًّا لاتصاله بعلوم كانت في صميم الجغرافيا، كعلم السكان والاقتصاد، والتجارة، وغيرها، فهي تهتمّ بحياة الناس اليوميّة وعاداتهم وتقاليدهم وأساطيرهم ومعتقداتهم، وغير هذا كثير، ثم أخذ تدوين الرّحلات يتطوّر شيئاً فشيئاً، حيث أصبح لكتابه الرّحلات تقاليد فنيّة يلتزم بها مدّونو الرّحلات، مما يتطلّب توجيه النظر إلى دراستها لمعرفة إلى أيّ مدى يمكن أن تتحذّز هذه الرّحلات فتاً أدبيًّا له جذور قصصيّة، ويمكن تطبيق سيمياء القصة عليها بما فيها من إشارات ودلائل، وبما جمع فيه كاتبه من الأساليب الأدبيّة؛ كدقّة وصف، وجمال لفظ، وحسن تعبير.

وقد حاولت الدراسة هنا، أن تخطو خطوة في تبيّن ملامح تلك السّمات والأبعاد القصصيّة، حيث تمّ اختيار بعض النماذج من رحلات الأندلسيّين والمغاربة، لإبراز تلك السّمات والأبعاد القصصيّة، التي يبدو فيها تأثير بعض الرّحالة بأساليب المشارقة الأدبيّة، وقد أشار ابن بسام في كتاب الذخيرة إلى ذلك بقوله: "إِنَّ أَهْلَ هَذَا الْأَفْقَ -الأندلس- أَبْوَا إِلَى مَتَّبِعَةِ أَهْلِ الْمَشْرُقِ، يَرْجِعُونَ إِلَى أَخْبَارِهِمُ الْمُعْتَادَةِ... حَتَّى لَوْ نَعَقْ بِتِلْكَ الْأَفَاقَ غَرَابَ، أَوْ طَنْ بِأَقْصِي الشَّامِ وَالْعَرَاقِ ذَبَابَ، لَجَثُوا عَلَى هَذَا صَنْمَاءً، وَتَلَوْ ذَلِكَ كِتَابًا مَحْكَمًا".^(١)

(١) ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، (ت ٥٤٢هـ). الذخيرة في محسان أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩، ق٢، مج٢، ص١٢.

أولاً: الأسلوب واللغة والمنهج

تأثر الأندلسيون والمغاربة بأسلوب الكتابة الأدبية المشرقية، وكان تأثيرهم بطريق القاضي الفاضل^(١) واضحًا، وهي طريقة تعتمد على المبالغة في الجناس والسجع المتتكلّف، وكثرة التوريات، والطباقي، والاقباس، وقد شاعت هذه الطريقة في عصر ابن خلدون وابن الخطيب.

وباستعراض نصوص الرحلات الأندلسية والمغاربية التي بين أيدينا يمكن أن نقف على بعض المواضع التي يتضح فيها العديد من الظواهر الفنية التي يبدو أنها -في العصور الأولى للوجود الإسلامي في الأندلس والمغرب- لم تصل درجة الالتزام بها وتتكلّفها، فنجده طباقاً وجنساً وسجعاً وتورية، وغير ذلك، لكنّها فنون قليلة الانتشار وقريبة من الطّبع، وعفوية لا تُتّصل على السمع، بحيث أضافت لأسلوب الرحلات قوّة مؤثّرة. وفي أواخر القرن الرابع الهجري، وصلت المحسنات البديعية إلى مستوى متقدّم وملحوظ من التأنق والزخرفة، فوجدت النصوص التي احتوت سجعاً متتكلّفاً زادت سيطرته في أواخر العهد الإسلامي في الأندلس والمغرب.

ومن جانب آخر، فإنّ غنى موضوعات الرحلات، قد جعل معظم أصحابها يؤثرون التعبير السهل المؤدي للغرض بدلاً من التتكلّف، وتزويق العبارة، ولعل التجارب التي مرّ بها معظم الرحالة كان لها دور في نضج الأسلوب العلمي السليم في كتاباتهم، لما وصلوا إليه من علم غزير، فحرصوا على تدوين ملاحظاتهم أولاً بأول، ومن لم يفعل ذلك، دون رحلته بعد عودته إلى بلاده معتمداً على قوّة ملاحظاته في وصف مشاهداته، فقدّمت

(١) القاضي الفاضل، هو أبو علي عبد الرحيم البيساني، نسبة إلى بيسان بين حوران وفلسطين، وزير صلاح الدين الأيوبي، قال النويري فيه: "إلى القاضي الفاضل انتهت صناعة الإنسانا ووقفت"، عُرف أسلوبه بالتزام السجع الطويل والتشبيه والاستعارة، توفي سنة ٥٩٦ هـ ترجمته، ابن خلkan، وفيات الأعيان: ١٥٨/٣، والنويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت ٧٣٣ هـ). نهاية الأربع في فنون الأدب، تحقيق حسين نصار، يصدرها المجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣: ٠١-١٠/٨.

رحلاتهم مادة علمية متنوعة الموضوعات مما ترتب عليه ازدهار فن الرحلة الأندلسية والمغربية، كما وفر لنصوص الرحلات الانسجام مع الذوق والطبع العربي الأصيل، وحسن الواقع على الأذن، فكانت نماذج حالفها التوفيق والنجاح.

جاءت ألفاظ معظم الرحلة سهلة وواضحة، وبعيدة عن التعقيد والغرابة، فقد كان ابن جبير، يفتح بعض كلامه بفقرات مجوّدة مزيّنة بالسجع والجناس والطباقي، ولكن دون إسراف أو مبالغة تخرجه إلى حد التكلّف، حيث يرسل عباراته إرسالاً لطيفاً، ومن ذلك ما وصف به مدينة مَسِينَة^(١)، إذ يقول: "هذه المدينة موسم تجّار الكفار، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار، كثيرة الأرفاق برخاء الأسفار، مظلمة الآفاق بالكفر، لا يقرّ فيها مسلم قرار، مشحونة بعيدة الصّلبان، ..."^(٢). ومن قوله أيضاً في ذكر مدينة حُرَان^(٣): "بلد لا حُسْنَ لدِيهِ، ولا ظلٌّ يتوسّط بَرْدِيهِ، قد اشْتُقَّ من اسْمِهِ هواوه، فلا يألف البرد مأوه، ولا تزال تَتَّقدُ بِلْفَحِ الْهَجِيرِ سَاحَاتُهُ وَأَرْجَاؤُهُ ..."^(٤).

وقد جاءت عبارات ابن جبير سهلة تخلو من الغرابة والوعورة والتعقيد، فبينما يهتمّ بمقدماته فتخرج قطعاً أدبيّة فريدة، فإنه يكتفي في مواضع أخرى بتسجيل مشاهداته وملحوظاته بأسلوب سهل ودقيق حتى إذا خرج عن ذلك أتى بعبارات عامّة خالية من التكلّف والإبتداع على نحو ما يذكر عن مساجد أو أسواق بغداد وازدحام الناس فيها واحتتمالها على "بشر". لا يحصرهم إلا الله تعالى الذي أحصى كل شيء عدداً^(٥).

وممّا تميّز به أسلوب ابن جبير أيضاً ما وصل إليه من حكمة تمخضت عن التجارب التي مرّ بها خلال مراحل رحلته، حيث يقول: "... وإن كان المحذور لا يُعني عن المقدور شيئاً."^(٦).

(١) مَسِينَة، بلدة على ساحل جزيرة صقلية، انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١٣٠/٥ - ١٣١.

(٢) رحلة ابن جبير، ٢٩٦.

(٣) وردت ترجمتها، الدراسة هنا ، ص ٨٢، الحاشية رقم ٤.

(٤) رحلة ابن جبير، ص ٢١٩.

(٥) المُصْدَرُ نَفْسُهُ، ص ٢٠٤، وانظر، المُصْدَرُ نَفْسُهُ، ص ١٨٢، ١٩٠، ٢٨٣، ومواضع أخرى متفرقة.

(٦) المُصْدَرُ نَفْسُهُ، ص ٢٩٠.

ومن جانب آخر، يُلحظ في أسلوب ابن جبير أنَّه يتسم أحياناً بالعفوية والاضطراب، غير أنَّ ذلك لا يؤثِّر سلباً في عرض الأفكار، ومن ذلك حديثه عما يناله الحاج بعيذاب وجدة من أذى بسبب المكبس، فعند توجيهه من الإسكندرية إلى قوص، ووصفه لجانيي النيل، يتذكَّر خبراً فيقطع حديثه بعبارة "ذَكْرٌ مَا اسْتَدْرَكَ خَبْرُهُ، مَمَّا كَانَ أَغْفَلَ، وَذَلِكَ أَنَا مَلِّحَلَنَا الْإِسْكَنْدَرِيَّةَ .. عَائِنَا مَجْتَمِعاً مِنَ النَّاسِ عَظِيمًا"^(١) ويسترسل في الحديث ثم يعود ليقول: "رَجَعَ الذَّكْرُ، وَمِنَ الْمَوْضِعَاتِ الَّتِي احْتَزَنَا عَلَيْهِ فِي الصَّعِيدِ..."^(٢).

وقد أشاد عدد من الدارسين بأسلوب ابن جبير، ووصفوه بأنه "من أوسع الرحالين العرب فكراً وأشملهم ملاحظات، وأجملهم أسلوباً وأنقاهم تعبيراً، وأسلسهم بياناً وأعمقهم استنتاجاً وإدراكاً وأكثرهم اهتماماً بأوضاع السياسة الإسلامية العامة في زمانه، وأشدّهم اهتماماً بتتبع أحوالهم واستقصاء أدواتها وعلاجها...".^(٣)

أما العبدري، فقد كان حاد الطبع، كثير النقد، حريصاً على مجالسة العلماء والأخذ عنهم، وفي الوقت ذاته امتاز بذوق أدبي، وقدرة عالية على التصرف في قواعد اللغة العربية، الأمر الذي أغايه على تبع أخطاء بعض الأدباء والعلماء وتقديم رأيه وتوجيهاته لهم، فجاء أسلوبه توجيهياً، بعيداً عن النفاق، حيث كان يمدح ما يوفق رغبته، ويثور ويغضب مما لا ينسجم مع رغبته وأفكاره.

ويظهر طبع العبدري الحاد حين يدخل مدينة فلا يعثر فيها على عام، حيث يعود ذلك المكان كأنه معدوم، فلا وجود لمكان علا فيه الجهل وخلا من العلماء، ويزاد غضبه إذا كان لذلك المكان ماضٌ عريق، فهو قد سافر من أجل العلم والبحث عن المعرفة، فإذا لم يجد ذلك في المدن التي قصدها، تضطرب نفسه، وتعلو حدة أسلوبه إلى حد الهجاء،

^{٣٤} (١) المصدر نفسه، ص

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٥، وانظر مثل ذلك، المصدر نفسه، ص ٥٤.

(٣) الأنباري، عبد القدس، مع ابن جبير في رحلته، ص ١٦. وانظر، كراتشيفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٣٥، وقنديل، فؤاد، ط ٢، القاهرة: مكتبة الدار العربية لل الكتاب، ٢٠٠٢. ٣٨٩-٣٩٠.

ولعله قصد بأسلوبه هذا شحد همة سكان تلك المدن، ليراجعوا أحوالهم، ويحاولوا الخلاص من الجهل، حيث يقول العبدري: «وَرَبِّا حَمْلَ الْإِمْتَاعَ لِحَزْبِ الْفَضَائِلِ عَلَى فَرْطِ تَحْزِبٍ وَتَأْلِبٍ عَلَى فَتَّةِ الرَّذَائِلِ، فَيَقُولُ فِي الْلَّفْظِ إِقْدَاءُ^(١) وَإِقْدَاعُ^(٢) وَيرْسِمُ فِي بَابِ هَمْزَهُمْ تَمْكِينَ مَدًّا وَإِشْبَاعً، لَا جَهَلًا بِمَوْاقِعِ الْإِغْضَاءِ^(٣) مِنْ أَخْلَاقِ ذُوي الْآدَابِ، وَلَا مِيلًا إِلَى مَا عَابَهُ الشَّرْعُ مِنْ مَذْمُومِ الْإِغْتِيَابِ، وَإِنَّمَا هُوَ لِغَرْضِ صَحِيحٍ لَا يُرِمُّ بِسَهْمِ التَّقْبِيجِ، وَهُوَ إِعْطَاءُ ذِي الْحَقِّ حَقًّ، وَأَنَّ لَا تَكُونُ الْفَضَائِلُ لِغَيْرِ أَهْلِهَا مُسْتَحْقَّةً، فَيَكُونُ الْفَاضِلُ فِي الْوَصْفِ مَبْخُوسًا، وَيُرِي النَّاقِصُ فِي غَيْرِ مَنْبَتِهِ مَغْرُوسًا، وَقَدْ يَرِدُعُ الْمُسِيءَ عَنِ إِسَاءَتِهِ، مَا يَرِي وَيَسْمَعُ مِنْ مَسَاءَتِهِ وَمِنْ التَّأْدِيبِ كُلَّ مَا كَفَّ الْمَرءُ عَنِ زَلْلَهِ، وَنِيَّةُ الْمُؤْمِنِ أَبْلَغُ مِنْ عَمَلِهِ وَعَلَى أَيِّ يَعْلَمُ اللَّهُ قَلْ مَا أَمْتَعْضُ لِنَفْسِيِّ - أَوْ أَزْجَرُ فِي غَرِبَاهَا عَنْسِيِّ - وَمَا أَغْرَيْتُ قَلْمَبِي بِالْأَنْتَصَافِ وَلَا أَعْمَلْتُهُ فِي ذِكْرِ ذَمِيمِ الْأَوْصَافِ إِلَّا لِحَرْمَةِ الْفَضْلِ أَشْلَاؤُهَا مُمْزَعَةً، أَوْ وَظِيفَةً مِنْ الشَّرْعِ أَحْكَامُهَا مُضِيَّعَةً»^(٤).

ومثل مشاعر الانفعال هذه، نجدتها عند الرحالـة ابن سعيد المغربيـ، حيث امتزجت صورهـ بـانفعالـات الغضـبـ التي لا تخلوـ أحـيانـاًـ من طـابـعـ السـخـرـيةـ، فقد رسمـ صـورـةـ سـاخـرـةـ تـعبـرـ فـيـ الـوقـتـ ذـاتـهـ عـنـ شـدـدـةـ سـخـطـهـ لـبعـضـ الـمـاـشـاهـدـ التي رـآـهـاـ فـيـ الـقـاهـرـةـ مـثـلـاًـ، حينـماـ اـضـطـرـ لـرـكـوبـ الـحـمـارـ مـنـ بـابـ زـوـيلـةـ فـيـ الـقـاهـرـةـ إـلـىـ الـفـسـطـاطـ، وـقـدـ عـدـاـ بـهـ الـأـزـقـةـ فـاـكـتـحـلـتـ عـيـونـهـ بـالـغـبـارـ وـلـمـ يـرـحـ الـمـكـارـيـ صـراـخـهـ وـلـمـ يـرـقـ لـهـ، مـمـاـ أـدـىـ بـهـ إـلـىـ الـوـقـوعـ سـجـودـاًـ عـلـىـ وـجـهـهـ، وـجـاءـتـ هـذـهـ الصـورـةـ بـحـرـكـاتـ مـتـلـاحـقـةـ، سـاعـدـ فـيـ تـسـارـعـهاـ استـخدـامـ قـافـيـةـ الـرـاءـ التـيـ عـكـسـتـ اـضـطـرـابـ ابنـ سـعـيدـ وـغـبـهـ، وـفـيـ الـوقـتـ ذـاتـهـ عـكـسـتـ رـوحـ النـكـتـةـ لـدـيـهـ، حيثـ يـسـجـلـ ذـلـكـ شـعـرـاًـ ظـرـيفـاًـ، فيـقـولـ:

(١) إِقْدَاء: فساد، انظر، ابن منظور، لسان العرب: ١٥/١٧٤.

(٢) إِقْدَاع: الفحش من الكلام الذي يصبح ذكره، انظر، المتصدر نفسه: ٨/٢٦٢.

(٣) الإِغْضَاء: الصر على الأذى، انظر، المتصدر نفسه: ١٥/١٠٨.

(٤) العبدري، الرحلة المغاربية، ص. ٢.

لقيت بمصر أشد الـ^(١) وار

وخلفى مُكار يفوق الْرِّيَا

أَنَادِيهُ: مَهْلًا! فَلَا يَرْعَوْيٌ^(٣)

وقد مدّ فوق رواق الثري

أَمَا يَحِيى الغَزَالُ فَقَدْ بَرَزَ أَسْلوبُهُ الْفَكَاهِيُّ فِي رَحْلَتِهِ حِيثُ سَأَلَتْهُ زَوْجَةُ مَلِكِ الرُّومِ يَوْمًا عَنْ سَنِّهِ "فَقَالَ مَدَاعِبًا لَهَا: عَشْرُونَ سَنَةً، فَقَالَتْ لِلتَّرْجِمَانَ: وَمَنْ هُوَ ابْنُ عَشْرَيْنَ سَنَةً يَكُونُ بِهِ هَذَا الشَّيْبُ؟ فَقَالَ: وَمَا تَنْكِرِينَ مِنْ هَذَا؟ أَلَمْ تَرِ قَطُّ مَهْرًا يَنْتَجُ وَهُوَ أَشْهَبُ؟ فَضَحَّكَتْ وَأَعْجَبَتْ بِقُولِهِ"^(٥).

وقد حرص عدد من الرحالة على أن يكون كلامهم منسقاً، يعتمد على السجع غير المتكلّف، واقتباس كثير من المعاني من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ويلتزم قواعد اللغة العربية وال نحو والبلاغة والعرض، مما يساعد ذلك على تتبع إنتاج الأدباء والعلماء، فقد اعتمد العبدري في نقهـ لـ لكـثـيرـ من إـنـتـاجـ الأـدـبـاءـ وـالـعـلـمـاءـ عـلـىـ ذـوقـهـ الـأـدـبـيـ ومصادر معرفته وثقافته اللغوية وال نحوية، ويتضح ذلك من الأمثلة المتعددة، في رحلته، حيث ناقش بعض الشعراء في قصائدهم، وعلق عليها، ومن ذلك ما أورده من قول لأبي عبد الله محمد بن عمر بن خميس^(١) في قصيدة يقول فيها:

ومن العجائب أن أقيمت ببلدة يوماً وأسلم من أذى جهالها

(٢) استطمار الغيار، اذا انتش في الهواء. انظر ، المصدر نفسه: ٤/١٣.

(٣) يقصد: لا ينكر ولا ينجز. انظر، المصدر نفسه: ١٤/٣٢٩.

(٤) اطقم، نفح الطيب: ٣٤٠/٢

(٩) ابن دحية، الطبراني، ج ٤، ح ١٤٤، واطقى، نفح الطرس، ٢٥٧/٢.

(٦) انظر، ترجمته، العبدري، «الحلقة المغربية»، ص ١٥، والمقدمة، نفح الطيب: ٣٥٩/٥ - ٣٧٨.

إلى أن يقول:

فأعظم ما يि منه أيسرـ ما بـي

ولا تحسبوا أئـى على الدـهـر عـاتـبـ

وشـيـبـ أـبـ إـلـاـ نـصـابـ خـضـابـ^(١)

وـماـ أـسـفـيـ إـلـاـ شـبـابـ خـلـعـتـهـ

فقد أدرك العبدري بذوقه وحـسـهـ الأـدـيـ، أـنـ مـقـطـعـ القـصـيـدـةـ الـأـخـيـرـ، لـاـ يـنـسـجـمـ مـعـ
ماـ قـبـلـهـ، وـلـهـذاـ قـالـ بـعـدـ ذـكـرـهـ، هـذـهـ القـصـيـدـةـ مـهـذـبـةـ الـأـلـفـاظـ وـالـمعـانـيـ، الـذـ منـ نـغـمـاتـ
الـمـثـالـ وـالـمـثـانـيـ، إـلـاـ أـنـ مـقـطـعـهـ قـلـقـ نـابـ، لـاـ يـلـيـنـ وـلـوـ مـضـغـ بـضـرـسـ وـنـابـ، لـيـسـ يـلـتـئـمـ بـماـ
قـبـلـهـ وـلـاـ يـمـتـزـجـ، وـلـاـ يـزـالـ السـمـعـ بـهـ يـقـلـقـ وـيـنـزـعـ^(٢).

وـهـوـ بـهـذـاـ يـرـىـ أـنـ الـانـسـجـامـ الـمـعـنـوـيـ يـكـمـنـ أـصـلـاـ فـيـ نـسـجـ الـقـصـيـدـةـ، لـأـنـ التـدـرـجـ إـلـىـ
الـمـقـطـعـ يـجـعـلـ الـمـسـتـمـعـ مـسـتـأـنـسـاـ بـماـ يـسـمـعـ، وـقـدـ خـشـيـ أـنـ يـكـونـ حـكـمـهـ سـرـيـعـاـ غـيرـ مـبـنـيـ
عـلـىـ الـمـارـاسـةـ، لـذـاـ يـذـكـرـ أـنـهـ قـرـأـ الـقـصـيـدـةـ عـدـةـ مـرـاتـ كـيـ يـحـسـ بـالـالـتـحـامـ، فـلـمـ يـشـعـرـ بـذـلـكـ
وـلـمـ يـهـتـدـ إـلـيـهـ. فـهـذـاـ التـدـخـلـ مـنـ الـعـبـدـرـيـ تـدـخـلـ ذـاتـيـ، وـقـدـ كـانـ يـتـدـخـلـ أـحـيـاـنـاـ تـدـخـلـاـ

لغـويـاـ أـوـ عـرـوـضـيـاـ مـبـنـيـاـ عـلـىـ مـعـرـفـةـ وـاسـعـةـ، وـمـنـ ذـلـكـ أـنـ اـبـنـ خـمـيـسـ حـيـنـماـ قـالـ:

وـلـكـنـهـ الـدـنـيـاـ تـكـرـ عـلـىـ الـفـتـىـ

وـإـنـ كـانـ مـنـهـاـ فـيـ أـعـزـ نـصـابـ

فـإـمـاـ سـمـاءـ أـوـ تـخـومـ تـرـابـ^(٣)

وـعـادـتـهـاـ أـلـاـ توـسـطـ عـنـدـهـاـ

علـقـ العـبـدـرـيـ بـعـدـ ذـلـكـ، فـقـالـ: "قولـهـ فـإـمـاـ سـمـاءـ أـوـ تـخـومـ تـرـابـ الـوـجـهـ فـيـهـ وـإـمـاـ
تـخـومـ تـرـابـ بـتـكـرـيرـ إـمـاـ بـعـدـ حـرـفـ الـعـطـفـ، وـقـلـ ماـ يـؤـتـيـ بـهاـ غـيرـ مـكـرـرـةـ إـلـاـ نـادـرـاـ، ..."^(٤).
وـيـظـهـرـ هـذـاـ أـنـ الـعـبـدـرـيـ كـانـ يـنـظـرـ لـلـإـنـتـاجـ الـأـدـيـ بـعـينـ النـاقـدـ الـبـاحـثـ عـنـ الـظـواـهـرـ

(١) العبدري، الرحلة المغاربية، ص ١٤-١٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٥. وهناك ملاحظات عديدة ذكرها العبدري في رحلته، تؤكد خبرته بعلم العروض
والإيقاع والذوق المرهف في المجال الأدبي اللغوي، انظر، رحلته، ص ١٧، ٣٥.

الجمالية في النصوص، والتوازن بين اللفظ والمعنى، فهي التي تكسب الأدب الجاذبية القوية. ولعل مثل هذه الروح النقدية، لم يكن جميع الرّحالة يمتلكونها، فالرّحالة أبو حامد الغناطي لم يكن يمتلك الروح النقدية لما يسمع، وقد رأى شوقي ضيف أنّ ملكة نقد الأخبار عنده لم تكن واسعة^(١).

أما ابن بطوطة، فيمتاز عن غيره من الرّحالة، بأنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا اهتم بها، وفضل الحديث عنها، وكان من أشد الرّحالة عناية بالتحديث عن الحالة الاجتماعية والعادات والتقاليد، وامتاز أسلوب كاتب رحلته بالبساطة والوضوح ودقة الملاحظات، وخللت عباراته من السجع والجناس وأشكال البيان إلا ما ورد في مقدمة الرحلة وخاتمتها، وكذلك كل مقدمة لوصف مدينة عظيمة، ولعل ذلك عائد إلى ابن جزي، الذي أدى دوراً هاماً في خلق عمل فني متماساً لرحلة ابن بطوطة ليظهر ببراعته، فهو كاتب أديب في حاشية السلطان أبي عنان^(٢).

ولغة ابن بطوطة سهلة بسيطة تخلو من التكليف، وميل إلى لغة المحادثة العاديّة، فقد كان جل اهتمامه أن يقص ما لديه من حكايات ومشاهدات. في حين بلغ أسلوب الرّحالة ابن الحاج النميري حد التكليف، فقد طغى السجع على أسلوبه منذ بداية الرحلة حتى نهايتها، ومن ذلك قوله: "وكم من رجال عاثتهم الأغلال، وبئث في أعضادهم من أهل الأصلال والإذلال، وحملوا من الأحزان كل ثقيل المحمّل، وأهملوا فلم يعرفوا من الكتب إلا تقييد المهمّل، ..." .^(٣)

(١) انظر، ضيف، شوقي، الرحلات، ص ٥٦، وكراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٢٧.

(٢) انظر، المقربي، نفح الطيب: ١٧٠/٢، ورحلة ابن بطوطة: ٣١٢/٢، وانظر، غريب، جورج، ((١٩٧٢)). أدب الرحلة، تاريخه وأعلامه، بيروت، لبنان: دار الثقافة، ص ٦٤-٦٥.

(٣) ابن الحاج النميري، فيض العباب، ص ٣٤.

ومن كلامه عن أهل قسنطينة "وسكنت زماجر نزالهم، ونشطت مزاحم قتالهم، ولانت معاجم مجالسهم، وخدمت نيران جلادهم..."^(١).

ويلاحظ اضطراب الأسلوب عند ابن الحاج في بعض الأحيان، مثلاً عندما تحدث عن افتداء أبي عنان للأسري كلّما عقد صلحاً أو هدنة مع الإفرنج، وتحدث عن الغائب ثم يخاطبها، ويقول: "فما كان بأسرع من انطلاق نسائهم، وقد لطمن صفحات خوددهن"^(٢). حيث يبدو أنّ هناك شيئاً قد حذف، ويلاحظ أيضاً في رحلة ابن الحاج أنّ هناك تنقلات عشوائية من موطن إلى آخر ثم العودة إلى الموضع الأول وهكذا، وهو كذلك يختتم رحلته بشكل مفاجئ، إذ يتحدث عن سجن شيخ بنى مرين، وعن وفاة أبي عنان، وعن من تولى الحكم بعده^(٣).

وقد يلجأ ابن الحاج إلى التطويل والاختصار أو التفسير أو الإطناب، ولعل ذلك كان بحكم خدمته عند السلطان إذ ظلّ خاضعاً لإرادة السلطة القوية، فلم يكتب بموضوعية، ويقول محقق الرحلة "فلم يكن ابن الحاج والحالة هذه سوى أدلة طيعة لكن عن اقتناع سُرّتها يد أبي عنان لرسم لوحة كاملة تعكس بصدق وأمانة معالم شخصيته..."^(٤).

أمّا لسان الدين بن الخطيب، فقد امتاز أسلوبه بكثرة الإطناب، حيث تطول جمله، فتتكرر المعاني، ويذكر المقرّي وصف بعض علماء المشرق لأسلوب ابن الخطيب: "هو كاتب مرسل بلّيغ، لولا ما في إنشائه من الإثار الذي لا يخلو من عشار، والإطناب الذي يفضي إلى الاجتناب، والإسهاب"^(٥). ويُوضّح تأثير ابن الخطيب بأسلوب القاضي الفاضل، في بناء جمله على أساس انتقاء اللفظ وتمديد الجملة والإطناب في التعبير، ومزج الشعر

(١) المصدر نفسه، ص ١٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٤، وانظر أيضاً المصدر نفسه، ص ١٩، ٥٣، ٥٤، ٢٨٠.

(٣) انظر، المصدر نفسه، ص ٢٩٣-٢٩٤.

(٤) ابن الحاج النميري، فيض العباب، المقدمة، ص ٢٠.

(٥) المقرّي، نفح الطيب: ٢٦/٦.

بالنثر^(١). ويعلّق المقرّي على ما وُصف به أسلوب ابن الخطيب، فيقول: "فإن لسان الدين وإن أطّنِب وأسْهَب، فقد سلك من البلاغة أحسن مذهب...". وأظهرت رحلة ابن الخطيب إلى جبل هنّاتة^(٣)، توسيع الرّحالة في استخدام الصنعة اللغظية^(٤). وعلى الغالب فإنّ لغة ابن الخطيب سهلة واضحة، تكثر فيها الاستعارات والتشبيهات، والصور المجازية.

وقد اعتبر بعض الدارسين لسان الدين بن الخطيب، "قطب الشعر والنثر في عصره، ومحور الحركة الفكرية الأندلسية"^(٥). وأنّه "كان مستجبياً للذوق السائد في ذلك العصر، ومواكباً لأساليب النثر المشهورة، وفي مقدمتها طريقة القاضي الفاضل"^(٦)، كما "أنّ نثره يتسم بدقة الوصف، وغزارة المعنى"^(٧).

إنّ هؤلاء الرّحالة وإن اعتمدوا على السجع والمحسنات البديعية، والصور البينية، فهم لم يغفلوا الحقائق والمعلومات، بل هم في هذا الجانب امتازوا بالدقة والشمول. ويبدو أنّ بعض الرّحالة قد حاول التخلص من سيطرة المحسنات البديعية عليه، حيث يقول ابن خلدون: "إن تكلّف المحسنات البديعية ومعاناتها يصير إلى الغفلة عن التراكيب الأصلية للكلام،... ولا يبقى في الكلام إلا تلك التحسينات، وهذا هو الغالب اليوم على أهل

(١) البلوي، تاج المفرق: ٩٩/١.

(٢) المقرّي، نفح الطيب: ٢٧/٦.

(٣) وردت ترجمته، الدراسة هنا، ٤٥، حاشية رقم ١.

(٤) انظر، ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص ١١٧-١١٦، مؤنس، حسين، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ٩١.

(٥) عنان، محمد عبد الله، (١٩٨٨). دولة الإسلام في الأندلس، ط ٣، القاهرة: مكتبة الخانجي، ص ٤٨١، وابن الخطيب، الإحاطة: ٥٣/١.

(٦) الشكعة، مصطفى، (١٩٧١). الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، بيروت: دار النهضة العربية، ص ٥٧٢.

(٧) أمين، أحمد، ظهر الإسلام، (١٩٥٥). القاهرة: مكتبة النهضة المصرية: ٢١٩/٣.

العصر".^(١) . ويقول ابن خلدون عن نفسه، عندما كتب للسلطان أبي سالم المرينسي، واصفًا أسلوبه: " واستعملني في كتابة سره، والترسيل عنه والإنشاء مخاطباته، وكان أكثرها يصدر عنني بالكلام المرسل بدون أن يشاركتي أحد ممن ينتحل الكتابة في الأسجاع لضعف انتحالها، وخفاء العالى منها على أكثر الناس، بخلاف المرسل، فانفردت به يومئذ، وكان مستغرباً عندهم بين أهل الصناعة".^(٢)

ويُتَضَّحُ من ذلك، أنَّ ابن خلدون متمكِّنٌ من اللُّغَةِ والأَدْبِ وصياغته صياغة فصيحة رصينة، ويدلُّ على ذلك مصادر ثقافته ومعرفته المختلفة، فقد تعلَّم صناعة العربية على والده وعلى علماء تونس، وحفظ كثيراً من كتب الشعر^(٣) ، لهذا اتسم أسلوبه، في الغالب، بالجزالة والقومة مع الوضوح، أمَّا استخدامه للبديع فقليل، حيث كان مجاملةً لأصحابه ممَّن تأثَّروا بالسمات الفنية لتلك العصور، ومن هذا قوله في رسالته إلى ابن الخطيب: "يا سيدي، ونعمَ الذخر الأبدِي، والعروة الوثقى التي اعتلقتها يدي، أسلِّمُ عليكم سلامَ القدوم، على المخدوم، والخضوع، للملك المتبوع، لا بل أحِيكم تحيةَ المشْوَق، للمعشوق، والمُدْلُج، للصباح المتبلاج، وأقرُّ ما أنتم أعلم بصحِّح عقدي في من حبِّي لكم، ومعرفتي بمقداركم، وذهابي إلى أبعد الغaiات في تعظيمكم، والثناء عليكم، والإشادة في الآفاق بمناقبكم، ديدناً معروفاً...".^(٤)

وعلى الجملة، فإنَّ جمل الرِّحلات كانت سهلةً مألوفةً ودقيقةً طريفةً، رُكِّزَتْ على الأفعال؛ لاتفاقها وطبيعة الرِّحلة، ولسماحها بالحركة المتتالية للصور ذات الانتقال السريع، لهذا امتاز الأسلوب بالتلائمة، والاسترسال، ووضوح المعاني، فقد كان للأفعال دور كبير في بيان دلالات بعض الرِّحلات، حيث أظهرت رحلة ابن عربي دلالة فعل

(١) مقدمة ابن خلدون: ١٣١/١.

(٢) ابن خلدون، التَّعرِيف، ص ١١١-١١٢.

(٣) انظر، المُصدِّر نفْسَه، ص ٦١-٩٢.

(٤) المُصدِّر نفْسَه، ص ٨٠-١٨٦.

السفر، فالسفر إرادي يتم بالجهد الشخصيـ ولا إراديـ، حيث يتعلّق الإنسان بالقدرة الإلهية، دون حول ولا قوّة.

وقد نُوع الرّحالة في استخدامهم للضمائر المتصلة بتلك الأفعال حيث وردت أفعال أَسندَها الرّحالة إلى ضمير الجمع وأخرى إلى ضمير المتكلّم المفرد، ومنها، (أقلعنا، وشاهدنا، وركبت البحر، وتملّكتني...)، الأمر الذي أكسب الأفعال حيوية وحركة تنسجم مع فعل الرّحلة.

وتحفلت كتب الرّحلات، كذلك، بالجمل المعترضة، وبخاصة الدعائين، ثم إنّ تكرار هذه الجمل لم يؤثّر سلباً في أسلوب الرّحلات، ولعلّ عنایة الرّحالة بها يعود لاعتبارها "من الأصول التي يعتمدّها التعبير الأدبي في العصور كافة، والمعبّرة عن التعظيم لله تعالى والدعاء للسامعين بال توفيق والرحمة"^(١). ومن أمثلة ذلك، " واستقبلنا البلدة حرستها الله ..."^(٢) و "استقبلنا المريّة"^(٣)، عصمتها الله ...^(٤) و "ركب السلطان أيده الله ثالث يوم ..."^(٥) و " منهم من يقول: إنّ مقصدك مَيْرَقة "^(٦)، حرستها الله، ومنهم من يزعم أنّ مقصدك إفريقيّة، حماها الله...^(٧).

ويبدو الأثر الديني واضحـاً في أسلوب الرّحالة، فقد كان القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة أساس ثقافتهم، ومصدر بлагتهمـ، فكثير الأخذـ منهاـ،ـ ولا غرابةـ في ذلكـ فالعامل الدينيـ من الدوافعـ الهامةـ للرّحلاتـ،ـ وكانـ الاقتباسـ فيـ اللّفظـ والنّصـ وفيـ

(١) الكلاعي، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الإشبيلي من أعلام القرن السادس، إحكام صنعة الكلام، تحقيق محمد رضوان الذاية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦، ص ٨٠-٧٢.

(٢) ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص ٣٤.

(٣) هي مدينة كبيرة من كورة إلبيرة من أعمال الأندلس، انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١١٩/٥.

(٤) ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص ٤٧.

(٥) المتصدر نفسه، ص ٤٩، والرّحلة تعج بمثل هذه الجمل الدعائية.

(٦) مَيْرَقة: جزيرة في شرق الأندلس، انظر، معجم البلدان: ٢٤٦/٥.

(٧) رحلة ابن جبير، ص ٣١٠، وانظر، المتصدر نفسه، ص ٨٣، ٨٧، ١٠٣، ومواضع متفرقة كثيرة.

المعنى، فغدت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة أسلوباً من الأساليب والأدوات الفنية للرحلات، فبرز الاهتمام بالجمل والعبارات، وتحقيق الانسجام بين الألفاظ والمعاني، وورد في كلام الرحالة الاقتباس من القرآن والتضمين من الأحاديث النبوية الشريفة كذلك تضمين الأمثال والمزج بين الشعر والنشر، فاتسعت، تبعاً لذلك، المعاني.

ويظهر أثر القرآن الكريم في نفوس الرحالة، جلياً، حيث كان الرحالة يستبشرون بالآيات القرآنية، فيجعلون القرآن الكريم معهم في جميع مراحل رحلاتهم، ويقول ابن بطوطة: "فتحت المصحف أنظر فيه فكان في أول الصفح،... ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُه﴾^(١). فاستبشرت بذلك"^(٢).

ووظف ابن جبير^(٣) النص القرآني في رحلته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ أَكْرَهَ وَقَبِيلُهُ مُطْمَئِنٌ بِالْإِيمَانِ﴾^(٤)، و﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾^(٥). ويظهر تأثيره بالآيات القرآنية في بعض عباراته، ومن ذلك قوله: "وَفَرْ مِنْهُمْ مَنْ قَضَى اللَّهُ بِنْجَاتَهُ، وَحَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ"^(٦)، وهو بذلك يشير إلى تأثيره بقوله تعالى: ﴿وَسَيِّقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمِّرَا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ حَرَّثُهَا أَلَمْ يَأْتُكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتَلَوَّنَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيَنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمَكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكُمْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٧)، ويقول ابن جبير أيضاً: "ثم بعد ذلك غشى البحر ضباب رقيق سكنت له أمواجه فعاد كأنه صرح ممرداً من قوارير"^(٨)، حيث تأثر بقوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْخَ فَلَمَّا رَأَتْهُ

(١) سورة الحج، آية ٤٠.

(٢) رحلة ابن بطوطة: ١٧٠/٢.

(٣) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١٥٨، ١٩٨، ٢٥٨، ٣٠٤، ومواقع أخرى متفرقة من الرحالة.

(٤) سورة النحل، الآية ١٠٦.

(٥) سورة آل عمران، الآية ٩٦.

(٦) رحلة ابن جبير، ص ٣١٥، وانظر مثل ذلك، ص ٢١٣، ٢٤٦، ومواقع أخرى.

(٧) سورة الزمر، الآية ٧١.

(٨) رحلة ابن جبير، ص ٢٨٦.

حَسِّيْنَةُ لَجَّةٌ وَكَشَقَتْ عَنْ سَاقِيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْخٌ مُهَرَّدٌ مِنْ قَوَارِبِ رَبِّ إِنَّهُ طَلَمْتُ نَعْسِيْ
وَأَسْلَمْتُ مَعَ سَلِيمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(١)). ويبيّن ابن جبير في أسلوبه عن التكرار والاستطرادات، وهو حين يستخدم السجع، يستخدمه دون تكليف.

ويبدو أن التأثر بالآيات القرآنية عند ابن الحاج، كان يقصد به تأكيد المعاني في عباراته، ومن ذلك قوله: "وتلا سان مجازاته، إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم"^(٢)، قوله حين وصف أهل قسنطينة عند طلوع الجبوش كبيرة العدد والعدة: "وقد بلغت قلوبهم الحناجر"^(٣)، ويقتبس من القرآن الكريم قوله تعالى: **﴿سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾**^(٤).

أما ابن الخطيب، فيتضح تأثيره بالقرآن الكريم في مختلف رحلاته، فيقول في رحلته إلى جبل هنتاتة: "والتوّكّو على النمارق المصفوقة، والزرايي المبتوثة، في المتبوا الكريم، واستتقّال طلعة البدر ...^(٥)".

ويقول ابن خلدون في بعض عباراته وصوره، متأثراً بالقرآن الكريم: "ونور ضربت الأمثال بمشكاته وزيته"^(٦)، ويقول أيضاً: "وتركتكم على أنتم ما ارضاه... وإن فسح الله في

(١) سورة النمل، الآية ٤٤.

(٢) رحلة فيض العباب، ص٨، ويشير إلى الآية القرآنية **﴿لَهُ مُعَقِّلَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْعَطُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعِيرُ مَا يَقُولُ حَتَّى يُعِيرُوا مَا يَأْنَفُسُهُمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُولُ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالِ﴾** سورة الرعد، الآية ١١.

(٣) ابن الحاج النميري، فيض العباب، ص ١٣١-١٣٠، ويشير إلى الآية القرآنية **﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقَكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ رَأَيْتُ الْأَبْصَارَ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَنَطُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا﴾**. سورة الأحزاب، الآية ١٠.

(٤) سورة الحج، الآية ٢.

(٥) ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص ١١٩، ١١٦، ويشير إلى تأثيره بالآيات القرآنية **﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْتُوْتَهُ ١٦﴾**، سورة الغاشية، الآيات ١٦-١٥.

الأمد، وقضى الحاجة، فأمل العودة إلى ولدي وتربيتي، وإن قطع الأجل، فأرجو أن أكون ممن وقع أجره على الله^(١).

وقد ضمّن بعض الرحالات الأحاديث النبوية الشّريفة^(٢)، لا سيما تلك الأحاديث التي تؤكّد أهمية الأماكن المقدّسة، كبيت المقدس، وقبة الصخرة، يقول البلوي: "ولو تبعثت الأحاديث المأثورة، والأخبار المشهورة لملأت وملأت...". ومن الأحاديث التي أوردها البلوي في رحلته: "لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد الرسول، والمسجد الأقصى"^(٣)، و"إِنَّمَا يُسافِر إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدٍ: الْكَعْبَةُ وَمَسْجِدُ إِبْرَاهِيمَ"^(٤).

(١) ابن خلدون، التّعريف، ص ١٢٦، وابن خلدون هنا يشير إلى قوله تعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثُلُّ نُورُهُ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مُصْبَاحٌ الْمُصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الرُّجَاجَةُ كَانَهَا كَوْكَبٌ دُرْرِيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُونَاهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَقْسِسْهُ تَارِيْخُ نُورٍ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، سورة النور، الآية ٣٥.

(٢) ابن خلدون، التّعريف، ص ١٨٩-١٨٨، ويشير ابن خلدون بذلك إلى تأثره بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يَدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، سورة النساء، الآية ١٠٠.

(٣) من الرحالات الذين ضمّنوا رحلاتهم الأحاديث النبوية، العبدري، الرحلة المغاربية، انظر، ص ١٩٧، ١١٠، ٢١٥، ٢٦٤، ٢٧٣، وموضع آخر من الرحلة.

(٤) البلوي، تاج المفرق: ٢٥٦/١.

(٥) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، (ت ٥٢٦ هـ). صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان: ١/١، ٢٢٠/٢، ٥٧، ٥٨، ومسلم، أبو الحسين، (ت. ٢٦١ هـ). صحيح مسلم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، مج ٢، ج ٢، ص ١٢٦.

(٦) مسلم، صحيح مسلم، مج ٢، ج ٢، ص ١٢٦.

ويذكر ابن بطوطة^(١) أنَّ الرسول صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد ذكر أهلَ الْبَلَادَ الْمَوَالِيَةَ مَلْكَةً وَأُنْثَى عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد دَخَلَهُمْ فِي عَوْمَ قَوْلَهُ: "الإِعْيَانُ يَمَانُ وَالْحَكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ". وَمِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي أُورَدَهَا ابْنُ الْحَاجِ، لِرَسُولِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي رَحْلَتِهِ، إِنَّ "مَثْلَ الْمُؤْمِنِ كَمَثْلِ الْخَاتِمِ مِنَ الزَّرْعِ"^(٤). وَقَدْ اشْتَمَلَتْ بَعْضُ بَعْضِ الرَّحْلَاتِ عَلَى مَجْمُوعَةَ كَبِيرَةَ مِنْ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَرْحَلَةِ ابْنِ رَشِيدٍ.

أَمَّا الشِّعْرُ، فَلَهُ فِي مَعْظِمِ الرَّحْلَاتِ وَجُودٌ مُلْحَوظٌ، وَكَانَ مِنْ مَحْكَيَاتِ الرَّحْلَةِ مُثْلَهُ مُثْلَ الْأَحَادِيثِ وَالْأَخْبَارِ، وَالْمَشَاهِدَاتِ، وَالْقَضَايَا الْلُّغُوِّيَّةِ، وَغَيْرَهَا، لِهَذَا عُدِّتِ الرَّحْلَاتُ مِنَ الْمَصَادِرِ الْهَامَةِ الَّتِي حَفِظَتِ الْكَثِيرُ مِنَ النَّصُوصِ الشِّعْرِيَّةِ مِنَ الضِّيَاعِ، وَرَبِّما تَضَمَّنَتْ نَصَوْصًا لَا تَوْجُدُ فِي مَصَادِرِ أُخْرَى، وَهُوَ مَا يَضْفِي عَلَى هَذِهِ الرَّحْلَاتِ قِيمَةً أَدْبَرِيَّةً كَبِيرَةً.

إِنَّ تَضْمِينَ الشِّعْرِ فِي بَعْضِ الرَّحْلَاتِ، احْتَلَّ فَضَاءً ضَمِّنَ فَضَاءَ الرَّحْلَةِ النَّثَرِيَّةِ، لِيَصِّبِّ بُنْيَةً وَمَوْضِعًا أَسَاسًا فِي النَّصِّ وَاسْتَمْرَارًا لِلْسِّيَاقِ النَّصِّيِّ، وَتَنْوِيَّعًا لِهِ لِيَصِّبِّ الشِّعْرَ الْمُتَضَمِّنَ جَزءًا لَا يَجُوزُ فَصْلُهُ عَنِ الرَّحْلَةِ^(٥)، حِيثُ حَرَصَ بَعْضُ الرَّحَالَةِ^(٦) عَلَى تَضْمِينِ رَحْلَاتِهِمْ أَبِيَاتًا شِعْرِيَّةً تَارِيَّةً تَكُونُ مِنْ نَظَمِهِمْ وَإِبْدَاعِهِمْ، وَأَخْرَى تَكُونُ مِنْ أَشْعَارِ

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١٤٨/١، وانظر، المصدر نفسه: ٨٥/١، ١٠٩، ١٢٧، ١٣٤، ١٣٥، ومواقع أخرى متفرقة.

(٢) مسلم، صحيح مسلم، مج ١، ج ١، ص ٥٢.

(٣) انظر، ابن الحاج التميري، فيض العباب، ص ٣.

(٤) مسلم، صحيح مسلم، مج ٤، ج ٢، ص ١٣٦.

(٥) انظر، صالح، صلاح، (٢٠٠٣). سردِياتِ الروايةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ، ط١، الْقَاهِرَةُ: الْمَجْلِسُ الْأَعْلَى لِلثَّقَافَةِ، ص ٢٢١.

(٦) ومنهم ابن بطوطة، انظر رحلته: ٤١/١، ٤٨، ٥٩، ٧١-٧٠، ١١٧، ١٢٠/٢، ٢٩١-٣٠٤، ومواقع متفرقة.

وابن الخطيب، خطرة الطيف، ص ٣٣-٣٩، ٤٢-٤٥، ٤٨، ٥٠، ٥١، ومواقع متفرقة. وابن خلدون،

التعریف، ص ٦٩-٧٥، ١٢٦، ١٢٣-١١٢، ٩٢-٩٣، ١٣٦-١٢٩، ١٠٩، ومواقع أخرى متفرقة.

غيرهم، وهم بذلك يحاولون إظهار مهاراتهم وقدرتهم في النظم والنشر، وهي سمة بارزة تلفت النظر في بعض الرحلات، بل إن بعض الرحلات أشبه ما تكون بمختارات شعرية، مثل رحلة العبدري، وتجاوز بعض الرحالـة ذلك إلى تضمينهم الرسائل في رحلاتهم، مثل رحلة ابن الحاج النميري، ورحلة ابن خلدون.

وقد جاء هذا التضمين حسب ما تقتضيه الحال، مما يزيد من روعة الأسلوب، وجلالـه، فالـحالـة ابن رشيد أنشد لنفسه شـعراً في حـينـيه لـماـشـاهـدـ الدـيـارـ المـقـدـسـةـ، والـشـوـقـ إلىـ معـالـمـهاـ وأـعـالـمـهاـ، مـخـتـنـمـاـ فـرـصـةـ مـرـورـهـ بـخـلـيـصـ وهوـ منـزلـ نـزـلـهـ الحـجـاجـ بـعـدـ رـابـغـ فيـ تـوـجـهـهـمـ منـ مدـيـنـةـ إـلـىـ مـكـةـ حـيـثـ قـالـ:

أـهـلـ وـدـيـ لاـ تـدـيـنـواـ بـالـصـدـودـ
بـذـمـامـ كـانـ فـيـ وـادـيـ زـرـودـ^(١)

وـخـلـيـصـ إـذـ وـرـدـنـاـ خـلـصـةـ
فـرـعـىـ اللـهـ أـوـيـقـاتـ الـوـرـودـ^(٢)

وـكـذـلـكـ أـنـشـدـ الـبـلـوـيـ لـنـفـسـهـ شـعـرـاـ يـصـفـ فـيـهـ حـنـينـهـ لـلـدـيـارـ المـقـدـسـةـ:
عـلـىـ الـحـلـ وـالـرـحـالـ لـيـ غـايـةـ الـأـنـسـ
وـكـيفـ رـحـيـلـيـ عـنـ مـعـاهـدـ مـتـزـلـ

أـرـوـخـ وـأـغـدـوـ بـيـنـهـ شـيـقاـ لـهـاـ
وـأـصـبـحـ فـيـهـ مـسـتـهـاماـ كـمـاـ أـمـسـيـ^(٣)

وقد صرّح العبدري بقصده من تدوين الأبيات الشعرية المفردة، والمقطوعات، والقصائد، إذ يقول: "وقد رأيت أن أثبت القصيدة هنا بجملتها لحسنها وإعجازها وهي ...".^(٤) وهو لا يكتفي بتدوين أشعار غيره، بل يثبت شعره كذلك، ومن ذلك قصيدة بعث بها إلى ولده، يقول قبل إثبات القصيدة: "وقد نظمت بالقيروان قصيدة بعثت بها إلى ولدي

(١) وهو واد بطريق الحاج من الكوفة، انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٣/١٣٩.

(٢) ابن رشيد، ملء العيبة: ٥/٧٦.

(٣) البلوي، تاج المفرق: ٢/٤١-٥١.

(٤) العبدري، الرحلة المغاربية، ص. ٢٠.

محمد وفّقه الله ... فرأيت إثباتها في هذا الرسم، إذ هو أليق الموضع بها بحول الله تعالى، وهي هذه^(١):

أَصْخَ سَمِعًا أَوْصِكَ يَا بَنِي
وَصَيْةَ الَّدْ بَرْ حَفَّي

جَرِي الْقَدْرِ الْمُتَّيَّحِ لَنَا بَيْنَ
قَضَاءِ جَاءَ مِنْ مَلِكٍ عَلَي

وَقَدْ فَتَّتْ نَوَّاكِمْ فِي فَوَادِي
وَأَشْجَتْ بِالْأَسْيِ قَلْبَ الْخَلِي

ولم يقف العبدري عند هذا الحدّ، فكتب في رحلته قصيدة شعرية ختم بها رحلته النثّيّة، ويقول عنها: "وهذه قصيدة نظمتها في الرّحلة، رأيت أن أختتم بها هذا التقىيد"^(٢).

ولعلّ قصد العبدري، واضح، وراء هذا الأسلوب، ففي رحلته النثّيّة أراد إفاده الملتقى بالمعارف، ووصف البلدان والمشاهدات المختلفة، وأحوال الناس. أمّا مقصده من رحلته الشّعرية، فهو الوعظ، حيث ختم رحلته بقصيدة وعظيّة، وقد أشار إلى ذلك في بداية رحلته النثّيّة^(٣).

ومن جانب آخر، افتتح أبو عصيدة البجائي رحلته بقصيدة شعرية من نظمه^(٤)، وضمن رحلته أيضاً شعر غيره، فيقول: "وكفى الحياة حظاً إمهال اليوم لا لغد ولموت وإن أبطأ الفتى مرّة ما فهو كالطول المرخي وثنية باليد"^(٥) وهو بهذا يشير إلى قول طرفة بن العبد^(٦):

(١) الم المصدر نفسه، ص ٧٢-٧٤.

(٢) الم المصدر نفسه، ص ٢٨٠-٢٨٤.

(٣) الم مصدر نفسه، ص ٢.

(٤) انظر، البجائي، رسالة الغريب إلى الحبيب، ص ٤٢-٤٣ والدراسة هنا، ص ٧٤.

(٥) الم مصدر نفسه، ص ٥٣-٥٤، وانظر مثل ذلك، الم مصدر نفسه، ص ٧٦، ٦٢، ٧٦-٧٨.

(٦) هو، ابن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، كان في حسب كريم، وعدد كثير، قتل، وهو ابن عشرين سنة، انظر، الأصبهاني، الأغاني، مجلد ٤، ج ١٥، ص ٦٢، وانظر الزوزنبي، أبو

لعمرك إنّ الموت ما أخطأ الفتى

لـ^(١) كالطول المرخى وثنيةه باليد

وقدّمت بعض الرّحلات صورة عن السّمات الفنية لأسلوب الرسائل في تلك العصور، وذلك بما تتضمّنه تلك الرّحلات من رسائل عكست البنية الفنية لها^(٢)، فقد ضمّن ابن الحاج بعض الرسائل في رحلته، حيث سلط الضوء على أهم العناصر الفنية للرسائل في تلك الفترة:

- المرسل، من عبد الله المتوكّل على الله ...
- المرسل إليه، الشرفاء، والفقهاء، والأعيان، والخاصّة، والعامة.
- الإشارة إلى الموضوع
- السلام
- أمّا بعد حمد الله والصلة والرضى على آله ...
- ذكر الموضوع وتفاصيله والإطناب في ذلك.
- الخاتمة، حيث تشعر بنهاية الرّسالة بما تتضمّنه من دعاء طيّب للسلطان و الرّعية.

ويلاحظ في الرسائل التي أوردها ابن الحاج في رحلته، أنّها اختصرت اختصاراً، ويظهر ذلك من اقتصار الرّحالة على ذكر أهم أبوابها، باستعمال عبارة، "ومنها" التي وردت في الرّسالة الأولى، أربع مرات^(٣)، وثلاث مرات في الرّسالة التي تخبر بنتائج الرحلة والعودة إلى الديار^(٤)، ومن العبارات الأخرى الدّالة على أنّ الرسائل مختصرة في

عبد الله الحسين بن أحمد، (١٩٨٢). شرح المعلقات السبع، سوريا، حلب: دار الكتاب العربي، ١٩٨٢.
ص. ٨٦.

(١) الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص. ٨٦.

(٢) انظر، بعض الرسائل، في رحلة ابن خلدون، التعريف، ص ١٢٦-١٢٨، ١٣٦-١٣٨، ١٤٦-١٥٩، ومواقع متفرقة.

(٣) ابن الحاج التميري، فيض العباب، ص ١٣٨-١٣٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٧٣-٢٧٥.

رحلة ابن الحاج النميري، عبارة "ومن الكتاب المذكور"^(١). ومن هذه الرسائل، الرسالة المتعلقة بفتح تونس، حيث يقول فيها: "... لا جرم أنَّ الله تعالى مَنْ علينا بفتح تونس التي كانت لفتاح إفريقية مسك الختم ولبلنة التمام، وعنوان طرس النصر. الذي قام على أقدام الإقدام، وعدة الزَّمان الذي كتبها بمداد الليالي في قراطيس الأيام، ... تونس وما أدرك ما تونس حنة البلاد، ونزعه الحاج الحاضر والباد، ذات الجنات التي حلَّ سوادها من العين بالسواد...".^(٢)

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ وحسب بل ضمن بعض الرّحالة حديثاً لرّحالة غيرهم في وصفهم لبعض البلدان؛ فقد تضمنت رحلة ابن بطوطة حديثاً لابن جبير في وصف حلب^(٣) ودمشق^(٤) وبغداد^(٥)، ويبدو أنَّ ابن جزي هو من فعل ذلك إذ ربما لم يقنعه كلام ابن بطوطة فتركه ووضع مكانه كلاماً لابن جبير نقله بنصه. كما تجدر الإشارة إلى أنَّ بعض الرّحالة قد وظَّف الأمثال في رحلاته للتأكد على صحة المعاني التي يدعو إليها، ومن الأمثلة على ذلك ما أورده ابن بطوطة في رحلته، "كسير وعويرٌ وكلَّ غير خير"^(٦)، وهو ما جبان قرب البحرين^(٧)، ومن الأمثال الأخرى التي وردت عند ابن بطوطة ببطوطة "الكركدن رأس بلا بدِّن"^(٨). وكذلك وظَّف ابن الحاج النميري الأمثال في رحلته، حيث يقول: "ورمت كبولهم بدائها وانسلت"^(٩)، واحتلوا من السلامة بالحصن المشيد،

(١) المصدر نفسه، ص ١٨٤-١٨٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨٣-١٨٦.

(٣) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٦٩/١، ورحلة ابن جبير، ص ٢٢٥ هـ.

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٨٢/١، ورحلة ابن جبير، ص ٢٣٤ هـ.

(٥) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١٩٩/١، ورحلة ابن جبير، ص ١٩٣-١٩٤ هـ.

(٦) رحلة ابن بطوطة: ٢٥٠/١، وانظر، الميدياني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، (ت ٥١٨ هـ). مجمع الأمثال، ضبط وتعليق، سعيد محمد اللحام، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٩٢: ١٧١/٢-١٧٢.

(٧) انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٤٦١/٤.

(٨) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١١٢ هـ.

(٩) يشير إلى المثل القائل: "رمَّتني بدائها وانسلت"، انظر، الميدياني، الأمثال: ١/٣٥٥.

وأعجبت أرجلهم في حديثها المطلق لا المقيد، وأنست الكبoul منها مواعد عرقوب^(١)، ... " فلماً أعطيت القوس باريها"^(٢). وقد كثي ابن خلدون عن كثرة الجيش بقوله: "يجز الشوك والمدر^(٣) ... " ولعله بذلك نظر إلى المثل القائل: "جاء بالشوك والشجر"^(٤). وتضمنت رحلة العبدري، أيضاً، الكثير من الأمثال^(٥) الدالة على المعاني التي قصدها، ومن ذلك ما وصف به أهل القاهرة: "شجاعهم أجبن من صافر الجنادب^(٦)، وعاملهم أجهل من فراش^(٧)، ... ".

أما المنهج الذي اتبّعه الرّحّالة، فقد التزم بعضهم نظاماً معيناً أو ترتيباً زمنياً يثير الدهشة في سرده للأحداث ودقته في التّصوير، ومنهم ابن جبير، حيث ينقل المتكلقي إلى عالمه يوماً بيوم معتمداً على معاينته للمواقع أو سماعه للأخبار والأحداث، مما يشعر المتكلقي بصدق الرواية، في حين تبدو رحلة أبي حامد الغنّاطي "المُعرّب" لا تلتزم نظاماً معيناً أو ترتيباً تاريخياً أو جغرافياً، وإنما جاءت أحاديثه بالتداعي، فكُلّ ما يرد على ذهن الرّحّالة يدونه، لا سيّما ما يشير الدهشة، ولعله في ذلك قد خدم الأدب الشعبيّ. ويعلن ابن عربي تفوق معراجاته وانطواه على مستويات معرفية عجيبة، وأنّه سلك في معراجه منهجاً خاصاً، مؤكداً أنَّ الإخفاق الذي يحصل في فهم القارئ لأسلوب معراجه،

هو

(١) يشير إلى المثل القائل: "مواعيد عرقوب"، انظر، المتصدر نفسه: ٣٦٥/٢.

(٢) ابن الحاج التميري، فيض العباب، ص ٣٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢١٠، ويشير ابن الحاج إلى المثل القائل: "أُغْطِ القوس باريها"، انظر، الميداني، الأمثال: ٢٢٢/٢.

(٤) المدر: الطين اليابس المتماسك، انظر، ابن منظور، لسان العرب: ١٦٢/٥.

(٥) ابن خلدون، التّعرّيف، ص ١٤٤. وانظر، المصدر نفسه، ص ٢٤١-٢٤٠.

(٦) الميداني، الأمثال: ٢٠٨/١.

(٧) انظر، العبدري، الرحلة المغاربية، ص ١٢٦، ١٥١، ٥٠، ٢٨٤، ١٧١، ١٦٣، ١٧١، ومواقع أخرى متفرقة.

(٨) الميداني، الأمثال: ٢٣٠/١.

(٩) المصدر نفسه: ٢٣٤/١.

(١٠) العبدري، الرحلة المغاربية، ص ١٢٦، وانظر مثل هذه الأمثال، ابن الخطيب، خطرة الطّيف، ص ١٠٢.

مسؤولية القارئ، حيث يبدو أنَّ القارئ أقلَّ منزلة من ابن عرقي، ومن قوله في ذلك "فإنه لا يفهم كلامي إلا مَنْ رقا مقامي..."^(١)، فمعراجه "معراج أرواح لا معراج أشباح وإسراءُ أُسراء لا أسوار رؤية جنان، لا عنان، وسلوك معرفة ذوق..." ووصفت الأمر بمنثور ومنظوم، وأودعته بين مرموز ومفهوم، مسجّع الألفاظ ليُسهل على الحفاظ، وبيّنت الطريق وأوضحت التحقيق، ولوحت بسرِّ الصديق، ورتّبت المناجاة بإحصاء بعض اللّغات...^(٢).

وتحفلت رحلة ابن بطوطة بالكثير من المشاهدات والأحداث والقصص، ولعله لم يذكر جميع تلك الأحداث والقصص التي كان يعيش أحدها أو يسمع أخبارها، وإنما ينتقي منها ما ثبت في ذاكرته، وممّا يلحظ أيضًا في منهج ابن بطوطة تعقيبه وتعليقه على أصل عدد من الأعلام والمواقع التي وردت في أثناء حديثه^(٣). ورَكَّز بعض الرّحالة على الاتصال بالعلماء والشيوخ، وأخذ الإجازات وسماع الروايات، وحفظ الأسانيد، والاطلاع على الكتب والأخبار، وتراجم الرّواة والحافظ والمحدثين والفقهاء واللغويين، أمّا أخبار السّفر برأًّا وبحراً، ووصف المشاهدات والبلدان، فهو شيء ثانوي استخدمه الرّحالة للربط والتّوثيق، فكانت رحلاتهم أقرب إلى الفهارس العلميّة، فابن رشيد في وروده وصدره يسجل ما أخذه عن الشّيخ ويترجم لهم، ويدرك مؤلفاتهم وأسانيدهم بحيث يعكس ذلك الحالة العلميّة في تلك الفترة.

ويصف البلوي منهجه، فيقول "هذا تقييد أطّلعيه عون من الله وتأييده، قصدت به ضبط موارد الرّحلة الحجازيّة، وذكر معاهد الوجهة المشرقيّة، جعلها الله تعالى في ذاته وابتغاء مرضاته ..."^(٤). وقد رَكَّز البلوي على ذكر مراحل رحلة الحجّ ثم التّرجمة

(١) الإسرا في مقام الأسرى، ضمن رسائل ابن عرقي: ٤/١.

(٢) المصدر نفسه: ٣-٢/١.

(٣) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١٧٩/١، ١٧٩، ٢٠٩، ٢١١، ١٤٢/٢، ٣٠١، ٢٧٣، ١٧٤، ١٤٢/٢، ومواقع أخرى متفرقة.

(٤) البلوي، تاج المفرق: ١٤٢/١ وما بعدها.

لشيوخه، فيقول: .. إني خرجت قاصداً للحج وطالباً للعلم ...^(١). وكانت ترجمته لشيوخه تأتي في أثناء حديثه عن المدن والمساجد التي زارها. أمّا التجبي، فقد كان يهمل ذكر تواريخ ميلاد تراجممه أحياناً، ثم يذكر ذلك، آخر الترجمة^(٢)، وفي ذلك إشارة إلى تطلعه للاتصال بالعلماء والرواة والمؤرخين والاطلاع على الكتب والأخبار.

وقد امتاز منهج ابن الحاج النميري في رحلته بعدم التزام ترتيب معين للأبواب من بداية الرحلة إلى نهايتها، ويلمح ذلك في كثرة الانتقالات بين تلك الأبواب، والتكرار والتقديم والتأخير، فكثيراً ما نجد عبارة "رجع حديث" في جميع مراحل رحلته، ولعل مثل هذا المنهج قد يربك الأسلوب إلا أنَّ ابن الحاج قد التزم في رحلته، كما أكثر من مدح سلطانه وإبراز معالم شخصيته وحرص على أن يختتم أبوابه بعبارات التقدير والدعاء الصالح^(٣).

أمّا ابن خلدون، فكان يسوق الأحداث ويذكرها بعناية ودقة، لأنَّه يؤرخ حياته وتاريخ الدول التي اتّصل بها، ومع ذلك فلم تكن رحلته مجرد مادة سردية جافة، حيث ذكر الكثير من الرسائل والأشعار، وأولى المعاني عناية أكثر من عنايته بزخرفة الألفاظ^(٤).

وبهذا تكون معظم الرحلات قد أفرزت بشكل جلي الخطاب المركزي لها، وهو الخطاب الدينّي، فمعظم الرّحالة أصحاب ثقافة دينية انعكست في أسلوبهم حيث قصدوا جمع كلِّ ما يدعم هذا الخطاب، كما لم يكن الخطاب الدينّي مستقلّاً عن الخطاب التاريخي أو الاجتماعي، على سبيل المثال، ويمكن إدراك ذلك من حشد الرّحالة للأماكن المقدّسة الموصوفة، وجمع العبارات النصيّة الدينية والتاريخية والشعبية التي تكشف أبعادها وتثبت مركزيّتها.

(١) المصدر نفسه: ١٤٣/١.

(٢) انظر، المصدر نفسه: ٢٠٠/١، ٢٠٤، ٢٢٥، ٢٩٤، ٦٥/٢، ١٠١، ١٤٨، ١٣٩، ١٢٨، ومواقع أخرى متفرقة.

(٣) انظر، المصدر نفسه، ص ١٢٧، ١٠١، ١٤٨، ١٣٩، ١٢٨، ومواقع أخرى متفرقة.

(٤) انظر، ابن خلدون، التعريف، ص ١١٢، ١٢٤-١١٢، ١٣٥، ١٢٩، ٢٨٣-٢٧٤، ٤١٤-٤١٥، ومواقع أخرى متفرقة.

ثانياً: الوصف

احتلَّ الوصف مكانة كبيرة في الرحلات، التي كانت تمثِّل خطًّا طويلاً منه، فللوصف أبعاد جمالية، بما يقدِّم من رسم ملامح الشخصيَّات أو إضاءات عن الواقع والأحداث، حيث حاول الرَّحَالَة رصد كُلَّ ما شاهدوه وسمعواه، وسجَّلوا كُلَّ ما تقع عليه أعينهم من مشاهد شَتَّى تتعلَّق بمسالك وأممالك، والسُّكَّان والمخلوقات، وما يتعاطاه النَّاس من مختلف الأنشطة والمناسبات والأعياد والعادات والتقاليد، ونقلوا ذلك إلى كُلَّ من حالت دون رحيلهم الأسباب والعوائق.

وقد استطاعت هذه الأوصاف أن تعبّر عن انطباعات الرّحالة، وترسم صورة لشخصيّتهم، فهم ينقلون الأخبار والأحداث، ويصفونها بحيث تصل إلى عالم المحسوسات المدركة بالمشاهدة والسماع، بحيث يضفي الرّحالة على رحلتهم من مشاعرهم وعواطفهم، و يجعلونها تنبض بالحياة والحركة. فقدّمت الرّحلات بذلك، المتعة والتشويق للقارئ، وكشفت عن مكامن الجمال الطبيعيي لمختلف المخلوقات التي شاهدوها، ومختلف الواقع والبقاء التي زاروها.

ويتضح من خلال وصف الرحالة ولغتهم المستخدمة قدرتهم على الوصف الذي اتسم بالصدق - غالباً - والدقة والشمول، فقد وصف كراتشيفسكي عمل العبدري، مثلاً، فقال: "يقدم لنا المؤلف صنعاً دقيقاً للموضع والبقاء المختلفة مع تفاصيل وافية عن الآثار القديمة وأخلاق السكان المحليين"^(١).

كما عني عدد من الرّحالة، مثل ابن جبير، والبلوبي، والتجيبي، وابن بطوطة بالجانب الوصفي في رحلاتهم، وأعقب بعضهم وصفهم للمدن بآرائهم الشخصية، ومن العبارات الدّالة على ذلك قول التجيبي: "هو عندي من خرق العوائد.. فاستغربت ذلك

(١) كراتشковسكي، تاريخ الأدب الحغرافي العربي، ص ٣٩٨، وانظر، فهيم، حسين، (١٩٩٧). الرحلة والرحلة، دراسة انسانية، ط١، دب: ندوة الثقافة والعلوم، ص ٤٧.

جداً...^(١). ويصف ابن جبير مدينة صقلية فيقول: "هي بهذه الجزائر أَمُّ الحضارة، والجامعة بين الحسنيين غضارة ونضارة، فما شئت بها من جمال مَحْبُر ومنظر، ومراد عيش يانع أخضر عتيقة أئيقة، مشرقة مونقة، تتطلع بمرأى فتّان، وتتخايل بين ساحات وبسائط كُلُّها بستان، فسيحة السُّكُوك والشُّوارع، تروق الأَبصار بحسن منظرها البارع...^(٢)". ويفضي ابن جبير على وصفه فيضاً جميلاً من البيان، فيقول في وصف مدينة نصيبين: "فخارجها رياضي الشمائل، أندلسي الخمائل، يرف عصارة ونضارة، ويتألق عليه رونق الحضارة".^(٣)

ومن صوره الأخرى المثلثة بحركة الأجسام، تصويره للطواف، وقبائل السرو وتدافعهم -وهم أهل جبال حصينة باليلمن، تُعرف بالسّراة-، حيث يقول: "فهم إذا طافوا بالكعبة المقدسة يتظارحون عليها تطراح البنين على الأم المشفقة، لاذنين بجوارها متعلقين بأستارها، فحيثما علقت أيديهم منها تمزق لشدة اجتذابهم لها، وانكبابهم عليها. وفي أثناء ذلك تصدع ألسنتهم بأدعية تتصدّع لها القلوب وتتفجر لها الأعين الجوامد...^(٤)". وجاءت بعض صوره صوتية، حيث استعمل الألفاظ المعبّرة المثيرة للقارئ، فصور عاصفة بحرية داهمهة في البحر الأبيض المتوسط، وعبر عن اضطراب البحر قائلاً: "اشتد تلاطمه، وصكت الآذان غمامته".^(٥)

وتبدو قدرة ابن الحاج الواسعة على التصوير، حيث يكثر من التشبيهات والاستعارات، ويعتمد على العناصر الماديّة المحسوسة المستمدّة من العالم المحيط به؛ وهي صور تتشابه عند معظم الرّحالة لأنّها مستمدّة من الإنسان والحيوان ومظاهر الطبيعة المحيطة. كوصفه للخيول وبعض المواقع، فيقول واصفاً ألوان الخيول وحوافرها

(١) انظر، التجبي، مستفاد الرحلة، ص ٢١٨-٢١٩، وانظر في ذلك، رحلة ابن جبير، ص ٥٣-٥٤، والعبدري، الرحلة المغاربية، ص ٣١، ٣٤.

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٣٠٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢١٤.

(٤) رحلة ابن جبير، ص ١١١، وانظر مثل هذه الصور في المصدر نفسه، ص ٥٩ وما بعدها.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٨٩.

ورؤوسها وأذانها: "... وتصاهمت الجرد السّوابق، ولعبت ظلالها الضمر اللواحق، من كُل أدهم أشبه المسك العتيق، لكن خالطه الكافور فهو بوجهه تسمى غرة، وحکي الليل البهيم، لكن حجوله الصّبح الذي بهر أنواراً وراق سرّه، مسرج بالهلال، ملجم بالنجوم...^(١)".

النسيم...^(٢)، و "ضمّني الليل، وقد سدل المُسَخ راهبه"^(٣) و "تجري تحتها عين خرّارة كأعظم الأنهر فوق حصى كدر النحور، القريبة العهد بلحج البحور، أو كثنايا الحور"^(٤)، ومنها أيضاً، قوله: "وماشينا أدواح الزيتون والأشجار تساقها جَرِيَّات الأنهر، تخللها أطلال الحلل والديار نيفاً على شطر البريد لا تزال صفح ثراه الشمس ولا ترتاده الحرباء، تتجلّوب أصوات الحمام المطوق فوق غصونه ..."^(٥).

ووصف البلوي مدينة القدس وصفاً مزجه بالظواهر الطبيعية، فقال: "هي بلدة الأفق المنير ونجمه، والنجم الذي لا يمتنع صهواته، وصلناها والليل في سن الاكتهال وأيدينا ممتدة بالشكّر لله تعالى والابتھال ... ظلٌّ ظليل، وماء سلسيل، ورياضات تحفي التفوس بنسيمها العليل، ...^(٦)".

ومن وصفه قوله: "ولم نزل نخوض أحشاء كل وادٍ كالشعبان، ... فكأن تلك الأودية سيوف لقتل الأنس مسلولة، ولو لا زرقة ألوانها لقللت دماء مطلولة، خاتم نظامها ومسك ختامها، ومنتهى كمالها وقامتها، وأخر عذابها وانتقامتها يسمى (أبو جردة) قيل لأنّه يجرّد الإيمان من قلب شاربه، ...^(٧)".

(١) ابن الحاج النميري، فيض العباب، ص ١٢٥-١٢٦.

(٢) ابن الخطيب، رحلة خطرة الطيف، ص ٣٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٢١.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٢٧.

(٦) البلوي، تاج المفرق: ٢٤٥/١.

(٧) المصدر نفسه: ١٦٥/١.

أما القلصادي، فلم يتتوسّع في ذكر خصائص البلاد التي زارها، وممّيزات حياتها الاجتماعيّة، ولم يعرض لجزئيات الأحداث، ورغم ذلك، فقد جمعت رحلته بين وصف البلدان وذكر الأحداث متوكّلاً الإيجاز - غالباً - في وصفه، بحيث جاءت رحلته صغيرة الحجم.

ويبدو أنّ الرّحالة، منهم من كان وصفه مختصرًا، ومنهم من أسهب، فالبلوبي، مثلاً، لم يكن وصفه على درجة واحدة، فأحياناً يميل إلى الإيجاز، وأحياناً أخرى يسهب في الوصف، فقد كان يذكر اسم المدينة ويشير إلى موقعها فقط، مثل حديثه عن مدينة الجزائر التي "أحاط بها البحر إحاطة السّوار بالزناد، فأليس ذلك الجسم روح المجد ..."^(١). وكان يسهب، أيضاً، في الوصف، فيتتوسّع في حديثه، حيث يتعرّض إلى تاريخ بناء بعض المدن وآثارها، من ذلك وصفه لمدينة الإسكندرية^(٢) والقاهرة^(٣).

وتتوسّع بعض الرّحالات في وصف الحياة الاجتماعيّة، فتناول الكثير من جوانبها بالنقد والتحليل، واهتم بعضهم الآخر بعلم النبات والحيوان، فكانت الرّحلات بذلك أدّة تفاعل حضاريّ ووسيلة من وسائل التّقدّم، مما جعل الكثير من الدّارسين والمفكّرين يدركون قيمة ما دونه الرّحالة في كتبهم، فعمدوا إلى استخراج ما يمكن الاستفادة منه من الماضي واستغلال معطياته وتوظيفه في المجالات العلمية والأدبية، وليس هذا وحسب، بل ربّما سهلّت أساليب الرّحالة هذه على القارئ التّعرّف على المعايير العمانيّة وملامحها ومعاملتها من خلال رسم الصّور الفنّية الجميلة التي تقدّم الفوائد الأدبية والمادّية لبيئات اطلعت بكثير من المظاهر الاجتماعيّة والاقتصاديّة السائدة في عصور الرّحالة.

وقد كانت بعض تلك الأوصاف تطول أو تقصير. حسب أهميّة تلك المشاهدات وأثرها في نفس الرّحالة. فابن جبير يحاول أحياناً إبراز أثر المكان على نفسه، فقد وصف

(١) المصدر نفسه: ١٥٢/١.

(٢) انظر، المصدر نفسه: ١٩٨/٢، ١٩٩، وما بعدها.

(٣) انظر، المصدر نفسه: ٢١٥/٢ وما بعدها.

مشهد الكعبة في نفسه، حيث يقول: "فألفينا الكعبة الحرام عروساً مجلوة مزفوفة إلى جنة الرضوان محفوفة بوفود الرحمن"^(١). ووصف طراز البناء الذي شاهده قائلاً: "والبيت العتيق مبني بالحجارة الكبار الصّمّ السّمر، قد رُصّ بعضها على بعض وألصقت بالعقد الوثيق، إلصاقاً لا تحيله الأيام ولا تقصمه الأزمان"^(٢).

أما العبدري، فافتتح كلامه عن المسجد الأقصى بالوصف الجغرافي^(٣)، ولم يجد أجمل من البيان، يستعين به على تصوير الدّهشة التي تملكته حين رأه، ومعطيات جماله السّاحرة التي تدفع القارئ إلى تشرب ذلك الجمال بما تمنحه ومضات العبدري الوصفية للمكان حيث يقول: "وفي وسط فضاء المسجد قبة الصخرة، وهي من أعجب المباني الموضوعة في الأرض ... وتجلّت في جمالها الرائع كعروس حسناء جلست على منصة قامت مشرفة متبرجة على يفاع ..."^(٤).

وعن باطن القبة المثمّنة في المسجد الأقصى، يقول: "وأما باطنها فيكمل عن وصفه اللسان، ويختار في حسنها إنسان الإنسان. تبهر الناطق أشعنته الباهرة. وتستوقف الخاطر محاسنه الظاهرة، أسركت العقول فصارت لها عقالاً، وكلت الألسن فيما وجدت مقالاً فاقت حسناً وكاماً ...".

ومن جانب آخر، فإن بعض الرّحالة قدم وصفاً لبعض الأماكن امتاز بالشدة والمبالغة، فقد استاء العبدري من تضييع المساجد وإهمالها، في القاهرة "وقلة التّحفظ فيها حتى تصير مثل المزابل وتسود حصرها وحيطانها من الأوساخ"^(٥).

(١) رحلة ابن جبير، ص ٥٨، وانظر أيضاً، رحلة ابن بطوطة: ١٢٣/١.

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٧٥.

(٣) العبدري، الرّحلة المغاربية، ص ٢٢٩.

(٤) الم المصدر نفسه، ص ٢٢٩.

(٥) الم المصدر نفسه، ص ٢٣٠.

(٦) الم المصدر نفسه ، ص ١٢٧.

ويلاحظ في وصف الرّحالة للأماكن التي قصدها، انتقالهم من الوصف الكلّي إلى الوصف الجزئي، مدركين القيم الجمالية لتلك الأماكن، وقد تجلّى ذلك بإطلاقهم أحکاماً جمالية تنمّ عن إعجاب خاصّ بقداسة تلك الأماكن وجماليات الفنّ المعماري، فقبة الصخرة مثلاً "من أعجب المباني الموضوعة في الأرض..."^(١) و "أنقذناها وأغرّبها شكلًا، قد توفر حظها من المحسن وأخذت من كلّ بدبيعة بطرف ... فهي تتلألأ نوراً وتلمع لمعان البرق، يحار بصر متأملاً في محاسنها، ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها ..."^(٢).

وقد تتشابه أوصاف بعض الأماكن لدى بعض الرّحالات، مثلاً وصف بيت المقدس، فعند العبدري: "وله أبواب كثيرة من الشرق والغرب والشّمال ولا أعلم له باباً قبلياً سوى الباب الذي يدخل منه الإمام"^(٣)، وعند ابن بطوطه: "وله أبواب كثيرة في جهاته الثلاث، فأماماً الجهة القبلية منه فلا أعلم بها إلا باباً واحداً، وهو الذي يدخله الإمام".^(٤) وفي القبة يقول العبدري: "قبة مثمّنة على نشرز في وسط المسجد ويطلع إليها في درج من رخام، وقد أحاط بها ولها أربعة أبواب والدائر مفروش بالرّخام المحكم الصنعة"^(٥). أمّا ابن بطوطة، فيقول: "القبة قائمة على نشرز في وسط المسجد، يصعد إليها في درج رخام، ولها أربعة أبواب، والدائر بها مفروش بالرّخام أيضاً محكم الصنعة"^(٦). أمّا البحر، فقد أعطى الرّحالة مساحة واسعة ليظهروا براعتهم الأدبية، حيث وصفوا مخاطره وأهواله، فابن جبير استطاع في وصفه لأهوال البحر التي عانى منها في

(١) العبدري، الرّحلة المغربية، ص ٢٢٩.

(٢) رحلة ابن بطوطة: ٦١-٦٠/١، وانظر في وصف القلاع والقصور، ابن الحاج التميري، فيض العباب، ص ٢٢٢-٢٢١، وانظر، حمودة، ألفت، (١٩٨١). نظريات وقيم الجمال المعماري، الإسكندرية: دار المعارف، ص ٢٢٣-٢٢٢.

(٣) العبدري، الرّحلة المغربية، ٢٢٩.

(٤) رحلة ابن بطوطة: ٦٠/١، وانظر أيضاً، رحلة بنiamin التّطيلي، ص ١٠٠.

(٥) الرّحلة المغربية، ص ٢٣٠.

(٦) رحلة ابن بطوطة: ٦٠/١.

رحلته البحرية قادماً إلى مكة، وفي عودته إلى وطنه، أن يحرك المشاعر، ويجعل القارئ يعيش معه تلك الأحداث، التي أثرت في نفسه حيث يصف الأعاصير التي داهمته في البحر الأبيض المتوسط، وفي طريق عودته إلى وطنه، فيقول: "... ونحن نجري بريح شمالية موافقة، فذرت وعصفت فطار لها المركب بجناحي شراعة، والبحر بها قد جنَّ واستشرى لجاجُه، وقدفت بالزبد أمواجه فتخال غواربه المتموجة جبالاً مثلاجة، ..." ^(١).

ويصف ثورة أخرى لأمواج البحر الأبيض المتوسط، وعواصفه، وتعرض المركب إلى الغرق عند هبوبها، فالآمواج أمثال الجبال السائرة، حتى لم يثبت شراع، فلجاً إلى استعمال الشرع الصغار، ولما هدأت الأعاصير، سكن البحر، وسهلت الملاحة فيه، ومن وصفه لذلك: "وأصبحنا يوم الأحد المذكور والهول يزيد، والبحر قد هاج هائجه، وماج مائجه، فرمي بحوج كالجبال، يصد المركب صدمات تقلب لها على عظمه تقلب الغصن الرطيب، وكان كالسور علوًّا فيرتفع له الموج ارتفاعاً يرمي في وسطه بشأبيب كالوابل المنسكب فلما جنَّ الليل اشتَدَّ تلاطمه، وصَكَّتِ الآذان غمامته، واستشرى عصوف الريح. فحطَّت الشَّرْع، واقتصر على الدلَّالين الصغار... فيا لها ليلة يشيب لها سُود الدُّوائب، مذكورة في ليالي الشَّوائب، مقدمة في تعداد الحوادث والنواصب... فأسقطتنا الريح عن مجرانا... وخالفنا المجرى المعهود الميمون... وفي أثناء ذلك انبسَطَت الشمس، ولأنَّ البحر قليلاً، ..." ^(٢).

ويصف وصفاً آخر لأحوال ذلك البحر المتلاطم "ثم انقلبت الريح غريبة وأنشأت سحابة فيها رعد قاسف، وزجّتها ريح عاصف، وتقدمها برق خاطف، فأرسلت حاصباً من البرد صبّته علينا في المركب شأبيب متداركة، فارتاعت له النّفوس، ثم أسرع انقضاعها، وانجلت عن الأنفس ارتياعها ..." ^(٣).

(١) رحلة ابن جبير، ص ٢٨٨.

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٢٨٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٩١.

ووصف ابن جبير، أيضاً، بعض الأهوال البحريّة التي داهمتهم في البحر الأحمر، حيث يقول: "وهبّت ريح شديدة صرفت المركب عن طريقة راجعاً وراءه، وقادى عصوف الرياح واشتدت حركة الظلمة وعمّت الآفاق ... إلى أن أقى الله بالفوج مقتناً مع الصباح. فهذا قياد الريح، وأقشع الغيم وأضحت السماء، ولاج لنا برّ الحجاز على بعد لا نبصر منه إلا بعض جباله...".^(١)

أما التجيبي، فيصف أهوال البحر الأحمر ومخاطره، وأثر ذلك في نفوسهم، فيقول: "عصفت علينا الريح، وجاء منها ما أشفيينا به على التلّف، وعظم الموج ... وأظلم البحر، واشتدت سواده ... وعاينا الموت عياناً، وأيقنا بالتلّف لا محالة. وضجّ الناس بالصياح والبكاء والتصرّع إلى الله تبارك وتعالى بالدّعاء. وبهت الملاحون من شدة الهول ...".^(٢) إن مثل هذه الأوصاف، تضمنت عرضاً للأحداث التي تنتهي إلى العقدة أحياناً ثم تدرج في حلها، كما يلحظ تداخل السرد والوصف في بعض مشاهدات الرّحالة فيتعدّر عندها الفصل بينهما، فالسرد يبرز من خلال الأفعال: أصبحنا، هاج، فرمى، وصكت، وكان ...، أما الوصف فيتضح من خلال الأسماء: شَابِيب كالوابل المنسكب الرطيب، ليلة يشيب لها سود الذوائب، ليالي الشوائب..

أما الشّخوص في الرحلة، فتقول يمنى العيد: "إنّ الذات.. بانتمائها إلى مجتمع وتاريخ، ذات متباعدة بل متناقضة، ومتصارعة ولو في صحتها وعيها والصراع في رواية السيرة، هو بين الذات وذاتها، وداخل الـ(نحن) من جهة ومع آخر يتواتأ مع هذه الـ(نحن) ضدّها من جهة ثانية".^(٣) فالذات في بعض الرحلات صورة محورية، حيث صورت الرحلة، سيرة أصحابها، الواقع المعاش، والواقع المستمد من معايشة الآخرين، وهذا قرب الرحلات من الشكل الفني أكثر منها تسجيلاً جغرافياً.^(٤)

(١) المصدر نفسه، ص. ٥٠.

(٢) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص. ٢١٢-٢١٤.

(٣) العيد، يمنى، السيرة الذاتية الروائية، (١٩٩٧). فصول مجلد ١٥، العدد (٤)، ص. ٢٠.

(٤) انظر، المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

وقد جاءت الشخصيات -في الرحلات- في معظمها شخصيات لا متناهية، متعددة الأحوال، والمستويات الاجتماعية والفكرية والثقافية المختلفة، والصفات والطبقات: الملوك والسلطانين، والوزراء والقضاة والجيوش، والرواة والعلماء والأدباء والشعراء، والتجار، والماغنوون، والسحرة، والجواري، وبعض الفئات التي احترف بعضها السرقة والاعتداء على الحجاج، وسلب أموالهم، ويكثر انتشارهم في الطرق المؤدية إلى مكة والمدينة المنورة، ومن الشخصيات، أيضاً، الحيوانات، والنباتات، وبهذا التنوع، تتنوع الأحداث.

ولعل الشخصية التي اعتمدت其 الرحلات في المقام الأول شخصية الرحلة: الوصف، واللغوي، المهتم باللغات واللهجات، والمتصرف أو الفقيه؛ وهي شخصية كفلت الترابط بين أجزاء العمل الواحد بحيث دارت الأحداث جميعها في فلكه، ولم تشذ عنّه، فحضوره حضور دائم وفعال، حيث يكفل الوحدة الموضوعية للعمل ويضفي عليه السمة الفنية^(١).

وقد تكون هناك شخصية خلف شخصية الرحلة؛ فصاحب الرحلة في بعض الأحيان لم يكن يكتب رحلته بنفسه، إذ كان يملّيها أو يرويها، فابن جزي كاتب الرحلة ليس هو صاحبها، بل إنّ ابن بطوطة هو من قام بتلك الرحلة وأملأها على ابن جزي الذي دونها^(٢). أمّا ابن الحاج فقد تابع مراحل رحلة مخدومه، واستطاع أن يتقمص شخصيته وينفذ إلى أغوارها ليتمثلها أحسن تمثيل، بلغته وأسلوبه وصوره، وأن يعبر عن

(١) ومن أمثلة ذلك، رحلة ابن جبير، ص ١١٠-١١٣، ١١٧-١١٦، ١٦٤-١٦٦، ومواقع أخرى متفرقة، والعبدري، الرحلة المغربية، ص ٨٠-٧٩، ٣٩٢، ٣٠٤-٣٠٧، ومواقع أخرى متفرقة، والتجميبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٩٢،

وما بعدها، ومواقع أخرى متفرقة، ابن رشيد، وملء العيبة: ٧٥٠/٥، ٨٧-٧٥٠، ومواقع أخرى متفرقة، والبلوي، تاج المفرق: ٢٤٥/١، ٢٧٧-٢٧٩، ومواقع أخرى متفرقة، ورحلة ابن بطوطة: ٢٨١-٣٠، ٣٨، ٢٤١، ٢٠٩، ٨٧، ومواقع أخرى متفرقة.

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٣١٢/٢.

أعمال أبي عنان بشّي الوسائل والأساليب، فترجم أفكاره وعواطفه، في حين لم تظهر شخصية ابن الحاج بشكل واضح في مراحل الرحّلة، حيث اختفت شخصيّته وراء شخصيّة سلطانه، ولعلّ انشغاله بأعمال أبي عنان، وأعباء السلطة، هو ما جعله ينسى نفسه، غير أنّ بعض المواقف يمكن الاستدلال من خلالها على بعض سمات شخصية ابن الحاج، فهو ليس شديد الانفعال أو سريع الغضب، بل تنسّم شخصيّته بالثبات والاتزان، ولم يخرج عن ذلك إلا نادراً، وفي ظروف خاصة اضطرّته إلى التعبير عن غضبه، ورفضه للمنكر الذي ارتكب بمحضره، وهي جريمة تسبّبت في قتل شخصيات كثيرة شديدة الوفاء لسلطانه الذي خفي عنه الأمر "حتى تصوّر له الباطل في صورة الحق ...".^(١) ويبيّني غضبه على "الخائن الخائن، الغادر الماكر...".^(٢)

ويلاحظ من هذا، أنّ مادة الرحلات قد تكونت وجمعت عن طريق التجربة الشخصية للرّحالة، وعن طريق محادثتهم مع شخصيات واقعية، تعرّفوا عليها من خلال رحلاتهم، فمعظم شخصوص رحلة أبي حامد الغرناطي واقعية عاشت في أزمنة وأمكنة لها أبعادها التاريخية والجغرافية، وهي في الحكايات التي يرويها الغرناطي تحمل أسماء وألقاباً عرفت بها أثناء حياتها في الدنيا. وأصحاب هذه الشخصيات، منهم من ينتمي إلى السلطة السياسية^(٣)، ومنهم من كان من رجال الدين^(٤)، ومنهم من التقى به أبو حامد الغرناطي وعاشره وتحدّث معه^(٥). وقد أضفى أبو حامد الغرناطي على بعض تلك الشخصيات صفات أسطورية، رغم انتماء أصحابها إلى الواقع، حيث أضفى على شخصية أبي جهل صفات تبعد عن دنيا الناس، فبعد موته بسنين يظهر في صورة آدميّ أسود يشتعل ناراً من قرنه إلى قدمه، وفي عنقه سلسلة يجرها خلفه، وهو يصيح، ويطلب الماء^(٦).

(١) ابن الحاج النميري، فيض العباب، ص ٢٩٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧٠.

(٣) انظر، أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٣٣، ٤٤، ٤٩، ٦٩، ومواضع أخرى متفرقة.

(٤) انظر، المصدر نفسه، ص ٧٦، ٩٠، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١٣٠، ومواضع أخرى متفرقة.

(٥) انظر، المصدر نفسه، ص ٩٠، ١١٠، ١٣٧، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ومواضع أخرى متفرقة.

(٦) انظر، المصدر نفسه، ص ١٠٣-١٠٢، وانظر مثل هذه الحكايات، المصدر نفسه، ص ١٠٤، ١١١، ١١٧.

إيجاباً أو سلباً، حيث يشعر المتلقى بحركة الشخص وحيوية الأحداث فقد أشار ابن جبير إلى ما يقع لشخص رحلته من تفتيش أو لقاء الشيوخ والأخذ عنهم، والإفادة من علومهم، أو التعرض لأهوال البحر: "ووقع اليأس من الدنيا، وودعنا الحياة بسلام، وجاءنا الموج من كل مكان، وظننا أننا قد أححيط بنا، فيما لها ليلة يشيب لها سود الذوائب..."^(١).

وقد كانت الرحلات تحوي الكثير من الشخصيات العلمية ذات القيمة الأدبية أو الفقهية أو غيرها، كما مزج بعض الرحالة بين وصفهم لما يصادفهم في البلاد التي يقصدونها وبين الترجمة لشيوخهم^(٢). بل اهتموا أيضاً بضرورة وجود العلماء في البلاد التي يقصدونها، فالعبدري، مثلاً، كانت تنتابه موجات من الغضب كلما دخل مدينة، فلم يعثر فيها على عالم يأخذ عنه^(٣). ولعل ذلك يشير إلى البعد النفسيـ والفكري لشخصية الرحالة الباحثة عن التطوير والتأمـاء.

أما ابن بطوطة، فقد ركز في رحلته على شخصيات يعتبرها مهمة إذ ربما تنسجم مع ميله واهتماماته، فالأشخاص الذين يجدون عناء كبيرة من الرحالة ابن بطوطة هم الأولياء والمتصوفة، حيث كان يهتم بلقاء هؤلاء الأولياء، ورحلته حافلة بأسماء شيوخ ذوي كرامات وخوارق، ثم هو يهتم بعد ذلك بالسلاطين والقضاة والخطباء والفقهاء، وكل شخصية في رحلته لها قصة، حتى الحيوانات والنباتات، لها قصة، فكثيراً ما كانت الحيوانات تقوم بوظيفة في بعض الحكايات وتمثل شخصيات قصصية تنسب إليها الأفعال، فمن المشاهدات غير الواقعية مشهد السمكة التي رآها في مدينة هرمز -على ساحل البحر الأحمر- مطروحة عند باب الجامع، فقد كان رأسها "كأنه رابية وعيناه كأنهما بابان، فترى الناس يدخلون من إحداهما ويخرجون من الأخرى"^(٤). والسمك في

(١) رحلة ابن جبير، ص ٢٨٩.

(٢) من هذه الرحلات، رحلة التجيبي، وابن رشيد، والعبدري.

(٣) انظر، العبدري، الرحلة المغاربية، ص ٢٦-٢٧.

(٤) رحلة ابن بطوطة: ٢٤٥/١.

زمن أبي حامد الغناطي من سلالة السمك الذي أكل منه موسى ويوشع لذلك اكتسب قيمة كبرى عند اليهود والنصارى، حيث يحملونه إلى بلادهم ويتبرّكون به^(١)، وقد أفرد الغناطي بباباً خاصاً في الحديث عن البحار وعجائب حيواناتها^(٢).

ومن الكائنات الخرافية التي يسرد حكايتها بعض الرجال، طائر الرخ^(٣)، أو الكائنات التي تخرج من حباب^(٤) النحاس في حكاية مدينة النحاس، فقد ذكر الغرناطي أنَّ أحد الرجال "فتح منها حبًّا فخرج منه فارس من نار، على فرس من نار، في يده رمح من نار، فطار في الهواء وهو ينادي يا نبِيُّ اللَّهِ لَا أَعُود -النبي سليمان بن داود و..."^(٥).

وقد يكون الخيال لعب دوراً كبيراً في تصوير هذه المخلوقات إلا أنه بالتأكيد لم يتم اختلاق جُلّ تلك التَّصوُّرات اختلاقاً، حيث يبدو أنَّ بعض الرِّحالة قد صدق كُلَّ ما سمع من حكايات وأخبار مهما بلغت غرابةها، وقلَّ ما كان يحاول محاكمتها بالمنطق، وقد يعزى ذلك إلى كثرة ما شاهد الرِّحالة وسمعوا من حكايات أو لكتُور الأحداث التي مرروا بها، وطول المسافات وصعوبة المراحل التي أثْرَت في نفسيتهم.

ومن جانب آخر، فقد اهتمّ الرّحالة بسرد الواقع أكثر من اهتمامهم بالشخصوص الثانيّة، إذ إنّ التّمحور الأساسيّ يكون حول بطل الرّحالة، وفي بعض الرّحلات يكون حول صوت البطل، وصوت الكاتب؛ فالتعريف رحلة تمحورت حول شخصية ابن خلدون، الشخصية التي تحبّ الظهور والبروز في السلطة، وفي التفوّق العلميّ، وهي شخصية قدمّت نفسها من الداخل بحيث وضحت انفعالاتها، ثم أظهرت أثراًها الخارجيّ

(١) انظر، أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٨٩.

(٢) انظر، المصادر نفسه، ص ٨٣-٩٨.

(٣) انظر، المصدر نفسه، ص ٩٣، ورحلة ابن بطوطة: ٢٤٢/٢.

(٤) الحِبَاب بكسر الحاء جمع حُبْ بضم الحاء، وعاء للماء كالجزرة الضخمة، انظر ، ابن منظور، لسان العرب، ٢٩٥١.

(٥) أبى حامد الغنّاط، «تحفة الألباب»، ص. ٧٤.

أو بروزها في شكل أحداث، يعكس ابن الحاج الذي مثل صوت الكاتب الذي قدم شخصية أبي عنان من الخارج إلى الداخل، حيث صور أبو عنان من الفرسان الشجعان، يقتسم العقبات ويواجه جميع أنواع الصعوبات، ويصمم أمام الأخطار والأهوال^(١)، يقول ابن الحاج: "وملأ ركب مولانا - أيده الله - في موكبه الذي تضاءلت له المواكب. وظهرت في النهار بليل عجاجة الكواكب، والتقوى عليه أهل دخلته الذين هم مداراة^(٢) الحروب ومفارج الكروب... وأسود الغاب التي أنشبت أظفار سiovها بالخطوب ولم تكن مهمتها يوم الكريهة في السلب لكن في المسلوب..."^(٣).

وبهذا، فإن الرحلات قد مزجت بين الوصف الذائي والوصف الخارجي لشخصياتها؛ الثابتة التي لم تؤثر فيها الأحداث والشخصيات المتطرفة التي تتفاعل مع الحوادث وتكتشف لنا عنها شيئاً فشيئاً. وجاء خطاب تلك الرحلات متمحوراً حول بطل الرحلة / الرحال، والتجربة الذاتية، والمعرفة الموضوعية، مؤكدة أن تلك الشخصيات عاشت في عصرها وفي حضارة ذلك العصر، وأثرت في الأحداث وهي بذلك تعكس جزءاً من الحقيقة، فلم تكن مجرد وسائل لنقل الأحداث، وإنما كانت تنبض بالحياة إلى حد ما، ذلك أن حضور الرحال حضور دائم، وبه يتحقق وجود المحاورة التي تكسب الرحلات الامتناع، والحيوية وشد القارئ لمتابعة الأحداث، فكان الرحال بذلك كتاباً ورواية ومؤرخين سجلوا الكثير من الأحداث والواقع، ومثل بعضهم شخصية القاص المبدع.

ثالثاً: البناء الفني والسردي

إن القيمة الأدبية لكتب الرحلات "تتجلى في ما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني، وبرغم ما يتسم به أدب الرحلات من تنوع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف، فإن أبرز ما

(١) انظر، ابن الحاج النميري، فيض العباب، مقدمة المحقق، ص ٨٠، وانظر، المصدر نفسه، ص ١٢٧.

(٢) مدارة: الدفع، انظر، ابن منظور، لسان العرب: ٧٥-٧١١.

(٣) ابن الحاج النميري، فيض العباب، ص ١٢٨-١٢٩.

يميزه أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق، بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى^(١). فمادة أدب الرحلات وإن لم تصل إلى مستوى الفن القائم بذاته كالفنون الأخرى: القصة أو الشعر أو المسرحية أو المقالة الأدبية، مثلاً، إلا أن أساليب هذه الفنون ومضمونها تجتمع - بشكل عام - في أدب الرحلات^(٢).

ولأن معظم الدارسين لم يلتفتوا إلى البناء الفني والقصصي. لأدب الرحلات، بشكل كبير، فقد جاءت الدراسة هنا لتناول الوقوف على حقيقة هذا الجانب، فلكل رحلة بداية ونهاية، فهل كانت تلك البداية أو النهاية فنية أم تقليدية؟ وهل حكم عنصر الزمان والمكان تلك البدايات أو النهايات؟ وهل تضمنت الرحلات فضاءات فنية أخرى؟ كالشخص، أو الحوار أو السرد أو الخيال؟

وبالنظر إلى ما بين أيدينا من كتب الرحلات يلحظ التزام معظم الرجال محاور البناء الفني الأساسية:

المقدمة:

حيث تبدأ بحمد الله والثناء عليه والصلوة على رسوله ومن ذلك قول ابن الخطيب: "نحمد الله حمد معترف بحقه، ونشكره على عوائد فضله ورفقه، الذي جعل لنا الأرض ذلولاً نمشي في مناكبها، ونأكل من رزقه، ونصلي على سيدنا ومولانا محمد خيرته من خلقه"^(٣). في حين افتتح أبو عصيدة البجائي رحلته بقصيدة شعرية أشاد فيها بصديقه المشدالي ومكانته العلمية، ثم بالتحميد، حيث يقول: "الحمد لله الذي فتح بفاتح العقول أقفال الأفهام، ورفع حجب السرائر حتى ظهر ما كان محظياً في صدور أهل المحبة والغرام...".^(٤)

(١) حسين، حسني محمود، أدب الرحلة عند العرب، ص ١٠.

(٢) انظر، المصدر نفسه، ص ١١.

(٣) ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص ٣١-٣٢.

(٤) البجائي، رسالة الغريب إلى الحبيب، ص ٤٣.

أما ابن جبير، فرحلته تخلو من مثل هذه المقدمة، فهي موجزة سريعة حدد فيها أسباب الرحلة ودفافعها وزمن الخروج ومكانه، حيث "ابْتُدَى بِتَقْيِيدِهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ الْمُوْفَى ثَلَاثِينَ لِشَهْرِ شَوَّالِ سَنَةِ ثَمَانِ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ عَلَى مِنْ الْبَحْرِ بِمُقَابَلَةِ جَبَلِ شُلَيْرَ^(١) ... لِلثَّنِيَّةِ الْحِجَازِيَّةِ الْمُبَارَكَةِ، قَرَنَهَا اللَّهُ بِالْيُسُورِ وَالْتَّسْهِيلِ...".

فالمقدمة -على اختلافها- تأتي منسجمة مع المضامين التي احتوتها كتب الرحلات، حيث يُشعر البدء بالفكرة، ويهُدِّد للموضوع الذي يقصده الرحالة.

العرض :

يأتي بعد التمهيد، حيث توظف الرحلات كل الأسلوب والتعابير لإبراز الموضوع أو الهدف الذي من أجله كانت الرحلات، فالموضوعات وكل ما صادفه الرحالة من المشاهدات، تصور الصلة القوية بين عناصر البناء الفني، فتأتي الرحلة أكثر قوة وترابطاً.

الخاتمة :

ويختتم معظم الرحالة رحلاتهم بالحمد والصلوة على محمد الله وآلله وصحبه، ويحدد بعضهم الزمن الذي استغرقته رحلته من لحظة الخروج إلى لحظة الإياب، حيث ينهي ابن جبير رحلته بقوله: "فَكَانَتْ مَدَّةُ مَقَامِنَا مِنْ لَدُنِ خَرْوَجَنَا مِنْ غَرْنَاطَةِ إِلَى وَقْتِ إِيَابِنَا هَذَا عَامِينَ كَامِلِينَ وَثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَنَصْفًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"^(٢).

أما العبدري، فيختتم رحلته بقصيدة شعرية وعظيمة، يصور فيها مراحل رحلته النثرية، ثم يحمد الله ويسألي على محمد وآلله وصحبه^(٤). في حين ختم البجائي رحلته

(١) جبل شلير: جبل بالأندلس من أعمال إلبيرا لا يفارقه الثلج شتاء ولا صيفاً، انظر، ياقوت الحموي،

معجم البلدان: ٣٦٠/٣.

(٢) رحلة ابن جبير، ص. ٧.

(٣) المصدر نفسه، ص. ٣٢٠.

(٤) انظر، العبدري، الرحلة المغربية، ص. ٢٨٤-٢٨٥.

بانتظار جواب غير عادي من صديقه المشدالي يوضح فيه ما جاء في رسالته من أبيات شعرية وجّهها إلى البجائي ثم يصلّي الرّحالة على النبيّ محمد وآلّه وصحبه^(١). وممّا سبق، يُلحظ أنّ البناء الفنيّ في جميع الرّحلات يظهر بصورة نمطية، تتبع خطّ سير الرّحلة من انطلاقها إلى لحظة العودة، بحيث يكسب النصّ مجالاً واسعاً لتوظيف العناصر الأدبية، فعنابر البناء الفنيّ ترتبط بزمنية الخطاب، وتسعى إلى مواكبة الرّحلة من البداية إلى النهاية.

الفضاء الزّماني والمكانى

إنّ فعل الرّحلة لا ينفصل عن الزّمان والمكان، فالزمآن عنصرٌ هام في جسد نصّ الرّحلة، وعامل من عوامل ضبطه^(٢) حيث تمثّل الرّحلة في زمنها كُلّ مظاهر الحياة المختلفة، فقد رصدت الرّحلات جوانب حياة النّاس اليوميّة في مجتمع ما خلال فترة زمنيّة محدّدة. وزمن المغامرة في الرّحلة لا يقتصر على ترتيب الأحداث، فقصّة السّفر في الرّحلة تنقل وقائع تاريخيّة حقيقية، وتركّز على الزّمن الدّاخلي للنصّ؛ والفترة التّاريخيّة التي تجري فيها أحداث القصّة، وتترتيب الأحداث وتزامنها وتتابعها^(٣).

تقول يمني العيد: "للشيء الذي نقص عنه زمنه، لكن لفعل القصّ نفسه زمنه؟ أي زمن القصّ، وزمن الشيء الذي يقصّ عنه القصّ"^(٤). فرحلة ابن جبير مثلاً، عمل ممتع استمدّ وحدته من شخصيّة ابن جبير، والتّتابع الزّمني، الذي أولاه اهتماماً منذ لحظة

(١) انظر، البجائي، رسالة الغريب إلى الحبيب، ص ٩٨.

(٢) انظر، طعان، صبحي، (١٩٩٤). "زمن النّصّ"، مجلة المعرفة، السنة ٣٣، عدد (٣٧٠)، ص ١٣٧-١٤٧.

(٣) انظر، قاسم، سيزا، (١٩٨٥). بناء الرواية، ط١، بيروت: دار التنوير، ص ٣٣، وانظر، الموافي، ناصر عبد

الرازق، (١٩٩٥). الرّحلة في الأدب العربي، ط١، القاهرة: دار النشر للجامعات المصرية، ص ٢٤٤+٢٤٥.

(٤) العيد، يمني، (١٩٩٠). تقنيات السرد الروائي، ط١، بيروت: دار الفارابي، ص ٧٣.

الخروج حتى العودة، باتّباع طريقة العد التصاعدي للوحدات الزّمنيّة، متّخذًا شكل المذكّرات اليوميّة؛ ليؤرخ تنقلاته ومشاهداته، وفي إطار هذا الترتيب الزمنيّ كان الرّحالة يصف المكان وصفاً دقيقاً مركزاً على مكّة المكرّمة الهدف الأساسي لرحلات الحاج والعمرّة، وهذا لا ينفصل عن زمن الرّحلة، فهو زمن ينتمي إلى الماضي القريب لكنه ممتد على مستوى الانتقال بين مختلف الأماكن، لا سيّما الأماكن المقدّسة، إلا أنّ انشغال ابن جبير بالتقويم الزّمني، أدى إلى تباطؤ حركة الحكاية، ورتابة النصّ القصصي، وفقده لعنصر الحيويّة، باستثناء الأجزاء الأخيرة من الرّحلة.

أمّا العبدري، فيظهر اهتمامه بالزّمن من خلال وصفه للمراحل التي يقطعها ركب الحجيج بدءاً من مغادرتهم أرض الوطن، ووقوفهم في بعض البلدان، حيث يستكملون من أسواقها جهازهم وما يلزمهم، وعندما تحين ساعة السّفر تتحرّك القافلة وتقطع المسافات التي بين تلك البلدان في يومين أو ثلاثة أيام أو أكثر، وهكذا حتّى تصل القافلة إلى مكّة المكرّمة^(١). في حين أنّ ابن بطوطة لم يهتم كثيراً بالتّواريخ، وتسلسل الأحداث، إذ وجّه جل اهتمامه بالأحداث ذاتها وسرد مشاهداته في البلاد التي قصدها، وإن وُجدت توارييخ في رحلته فهي مبعثرة وغير منتظمة في النّصّ، ومن ذلك قوله: "وقد صرت بلاد الشّام، وذلك في منتصف شعبان سنة ست وعشرين ..."^(٢).

ومن جانب آخر، فقد جمع الرّحالة ابن الحاج بين الأزمنة في سياق واحد، وكأنّه يصف حدثاً واحداً، فلم يقدم الأحداث جميعها وفق تسلسل زمنيّ حسب وقوعها، بحيث يتحدّث عن حدث ما ثم يتوقف ليصف حدثاً آخر ناقلاً تفاصيله ونتائجها، ثم يعود إلى موضوع حديثه الأول بقصد استكماله، مما يربك المتلقي في عمليةربط الأحداث بعضها^(٣). فرحلة ابن الحاج لا يتوافر فيها زمن مضبوط إلا بعض الإشارات، مثل،

(١) انظر، العبدري، الرّحلة المغربيّة، ص ١٥٣-١٧٩.

(٢) رحلة ابن بطوطة: ٥٢/١، وانظر، المصدر نفسه: ٨٢/١، ١٠٤، ١٥٤، ومواقع أخرى متفرقة.

(٣) انظر، ابن الحاج التميري، فيض العباب، مقدمة المحقق، ص ٤٨-٤٩.

مرض أبي عنان سنة ٧٥٧ هـ^(١)، وبدء الحركة يوم الخميس سنة ٧٥٨ هـ^(٢)، ووصول السلطان أبي عنان تونس سنة ٧٥٨ هـ^(٣).

أما الزمن في تحفة أبي حامد الغرناطي، فيغلب عليه ميله إلى القديم، فهو زمن مطلق، وقد يعود الزمن في بعض الحكايات إلى عهد أقوام بادوا مثل قوم عاد وثمود وغيرهما^(٤)، وهو زمن غامض ليس له علامات تميّزه، وتحدد بدايته أو نهايته، وقد ينطلق الرّحالة في سرده لبعض الأحداث والواقع من زمن محدّد تاريخياً، بحيث يوهم بواقعية بعض الحكايات والزّمن الذي تحدث فيه، ثم سرعان ما يتحوّل هذا الزمن التاريخي إلى زمن لا تاريخي أو أسطوري، ليعود بعد ذلك إلى الزّمن الواقعي^(٥). فالزّمن عند الغرناطي لا يسير وفق سلسلة متصلة تفضي كلّ حلقة منه إلى الأخرى، بل ينطلق من الماضي السّحيق ثم تفقد بعض الحلقات الرّمنية، ليصل الرّحالة إلى العاشر الذي يعاشه، وهو زمن السّرد.

والغرناطي في تحفته ينطلق من زمن تاريخي واقعي إلى زمن لا تاريخي، وأسطوري، أو العكس، وهكذا يرتبط حضور الزّمن بعملية السّرد، كما أنّ الزّمن في الحكاية الأسطورية لا يترك أثراً في الأشخاص أو الأشياء، فعلي بن أبي طالب يبقى على حاله بعد موته بقرون "لم يذهب منه شيء أليته، وكفنه صحيح ..." ^(٦). والنبيّ هود يحافظ على صفاته الجسدية بعد مرور قرون عدّة على موته فـ "جسده على هيئة الأحياء لم يتغيّر، جميل

(١) انظر، المصدر نفسه، ص ٢، ١٩.

(٢) انظر، المصدر نفسه، ص ٦٠.

(٣) انظر، المصدر نفسه، ص ١٦١.

(٤) انظر، أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٣٢، ٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٤، ١٢٩، وموضع أخرى متفرقة.

(٥) انظر، المصدر نفسه، ص ٧٥، ٨٩، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٥، وموضع آخر متفرقة، وقد أشار إلى مثل ذلك، مال الله، علي محسن، ١٩٧٨). أدب الرحلات عند العرب في المشرق، نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجري، بغداد: مطبعة الإرشاد، ص ٣٣٧-٣٦٠.

(٦) انظر، أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ١١٩.

الوجه مع عظم جسده وعليه ثياب يمانية...^(١). وتطغى الأسطورية على الزَّمن في تحفة الغرناطي، فبناء مدينة قوم عاد يستغرق خمسماة عام، وتأثيثها يحتاج عشر سنوات، وأملك الذي أمر ببنائها يدخلها بعد الانتهاء من بنائها وتأثيثها^(٢)، فالزَّمن لم يفعل فعله في الأشخاص والأشياء حيث ظهرت العجائبية في البنية الزَّمنية لإثارة دهشة الملقي، ولفت انتباذه لغرابة تلك الأحداث.

ويتبَّع مما سبق أنَّ الزَّمن خيط يربط بين الأحداث في الماضي، والحاضر، والمستقبل، فقد اعتمد بعض الرِّحالة على الزَّمن التَّصاعدي في وصف الأحداث، وقد ينزاَح هذا الزَّمن عن سير الرِّحلة الطبيعي في بعض مشاهدتها، وذلك بذكر بعض السِّيارات التَّاريجيَّة، أو وصف الزَّمن المتعلَّق ببناء بعض الأمكنة وخاصة الأماكن المقدسة، أو بالترجمة الذَّاتية لصاحب الرِّحلة، بحيث يأتي تسلُّل الزَّمن عند بعض الرِّحالة متفاوتاً بين زمن التَّلْفُظ وزمن الحدث، فالبداية القصصية عند ابن خلدون كانت بالانتقال إلى زمن ماض يسبق زمن القص في الرِّحلة، وهو زمن يشير إلى مراحل تكوين الرِّحالة: الولادة والنشأة، وزمن الصَّبا الأول، ومرحلة الرِّجولة، حتى يصل إلى زمن الرِّحلة، ليظهر ذلك كله مع الزمن الذي يعاشه، وكأنَّه بذلك اتبع أسلوباً علمياً في إقناع الآخرين بما يسرد من أحداث.

وكما شَكَّل الزَّمان فضاء القصة في الرِّحلة، كان المكان، إذ لا يمكن الفصل بين الزَّمان والمكان حيث إنَّهما مرتبطان مع بعضهما، ويأخذان أهميتَهُما من ارتباطهما بالإنسان بحيث يتحول المكان من أوصافه الجغرافية والتَّاريجيَّة، ليصبح جزءاً من التجربة الذَّاتية^(٣). فالمكان يرتبط بالزَّمان، وقد شَكَّل المكان دوراً هاماً منذ خروج الرِّحالة من بلادهم إلى بلاد أخرى، ثم العودة إلى بلادهم، وفي ذلك حديث عن الغربة المكانية

(١) أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ١٠٤.

(٢) انظر، المصدر نفسه، ص ٤٦-٤٢.

(٣) انظر، إبراهيم، نبيلة، (١٩٨٦). قص الحداثة، فصول، المجلد ٦، العدد (٤)، ص ٩٦.

والغيبة الطويلة عن الوطن والحنين إليه، فالمكان والزمان لا يمكن أن يظهر أحدهم إلا في إطار الآخر.

وقد عرضت الدراسة هنا^(١) إلى دور الرّحالة في إبراز جمالية المكان، من خلال أسلوبهم في وصف الأمكنة، في ظل حركة الزمن وامتداده، حيث احتل هذا التوصيف الجغرافي مساحة واسعة، وقف فيها الرّحالة على معالم الأماكن وخاصة الأماكن المقدسة، حيث وصفوا القباب، والمحاريب، والمساجد، والأبواب، والأسوار وصفاً شاهداً على ذاكرة المكان. ويبدو بعض الرّحالة وقد انطلقوا من وصف الأماكن المتصلة بالواقع، وتحديد أبعادها التاريخية والحضارية، وذكر حدودها وخصائصها، لكنّهم سرعان ما يدخلون عالم الأسطورة، وكأن واقعية تلك الأماكن لا تشدّ القارئ، فيلجم الرّحالة إلى الخيال والأسطورة، ففي بعض الرحلات خرجت بعض الأمكنة عن إطارها الواقعي، إلى مكان أسطوريّ عجائبيّ، مثل اختفاء المدينة في حكاية قوم عاد مدة طويلة من الزمن، ثم ظهرها من جديد، وهذا يجعل منها مكاناً أسطورياً عجائبياً، ويعوّد ذلك ما ذكره الرّحالة أبو حامد الغرناطي عن مساحتها ولادة الرّمانية التي استغرقها البناء، والرجال الذين بنوها، حيث كانوا يتمتعون بقوّة جسدية كبيرة، فبناء هذه المدينة العجيبة يحتاج إلى أشخاص يتّصفون بالقوّة في الأجسام^(٢).

ويُتّضح من ذلك أنّ أبي حامد الغرناطي يحاول أن يضفي صفة الواقعية على حكاياته الأسطورية، وذلك بذكر الواقع الجغرافية للأماكن التي يصفها، فمدينة النحاس تظلّ مدينة أسطورية، رغم ما ذكره الرّحالة عن موقعها "فيافي الأندلس بالغرب الأقصى قريباً من بحر الظلمات"^(٣)، ويحاول تعزيز هذه الواقعية بأحداث تاريخية وأشخاص تاريخيين، فقد بنى المدينة الجن للنبي سليمان بن داود، ثم عثر عليها عسکر

(١) انظر، الدراسة، ص ٢١٥-٢٠٩.

(٢) انظر، أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٤٢-٤٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٤.

موسى بن نصير^(١)، وسار قائد حول سورها مدة ستة أيام، ليعرف مدخلها دون جدوى ثم حفر العسكر أساسها حتى بلغوا الماء ولكنهم وجدوا أساسها راسخاً، وصعد بعض العسكر سورها ليطّلعوا على ما فيها دون أن ينجحوا في التّوصل إلى شيء، فتبقى المدينة أسطورية، رغم محاولة الغرناطي إضفاء صفة الواقعية عليها. حيث كان يلجأ إلى وصف طبيعة المكان الغناء من عيون وأشجار ووحوش وأطياب، ليوهم الآخرين أحياناً، بواقعية تلك الأماكن، فقد وصف طبيعة مدينة النحاس بقوله: "أرض واسعة كثيرة المياه والعيون والأشجار والوحوش والأطياب والخشائش والأزهار.."^(٢). ويصف وادياً فيها، فيقول: "فأنزلنا في وادٍ كثیر العيون والأشجار والأراضي الخضراء النضرة التي تخللها الأنهر، قد أینعت بالأزهار، وقد حملت من اختلاف الثمار عليها من سائر الأطياب.."^(٣). ووصف الغرناطي خروج بعض الأمكنة عن إطار هيئتها الجامدة إلى إطار الحركة والانتقال، فعتبر علي بن أبي طالب انتقل من مكان إلى آخر بطريقة عجيبة أسطورية لا يقبلها العقل^(٤).

وبعد، فإن الزّمان والمكان فضاء دائري متغلق، يشكّل الإطار الخارجي للرّحلة، حيث ظهرت الرّحلة نصّاً سريّاً يتحقق في زمن، وينطلق معه من مكان الخروج لتتغلق الدائرة في ذات المكان، عند الرجوع. وبين زمن بداية الرّحلة، وزمن نهايتها، ينتقل الرّحالة من مكان إلى آخر، حيث يمتد فعل القصّ وسرد المشاهدات والواقع الاجتماعيّة، والأحداث السياسيّة إلى جانب مراحل التكوين التي مرّ بها الرّحالة: الولادة والنشأة، ... الخ، لتملاً بعد ذلك الأحداث المؤثّرات المكانية والزّمانية مراحل الرّحلة التي قطّعها الرّحالة بين مكان الخروج ومكان الرجوع.

(١) هو من التابعين، ولد سنة ١٩ هـ ينتمي إلى بكر بن وائل، وهو من أعظم الزعماء الذين وجهتهم الخلافة إلى الغرب، ترجمته في: ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣١٨/٥، الناصري، الاستقصاء: ٩٥/١، ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٥٨/٢.

(٢) أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٤٤.

(٣) أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٤٩-٤٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ١١٨-١٢١.

السرد والحوار

إنّ البناء الفني للرحلات، يتّضح أيضًا، في مستويات^(١): القول، وتواли فعل السرد بين الفضاء الزماني والمكاني، حيث تتمحور عناصر التخييل، والأساطير، والملكونات الواقعية، ليتمثل ذلك كله خطاب الرحلة القائم على الوصف الذي يتفاعل مع الكثير من الخطابات الدينية والاجتماعية لمختلف العوالم التي ينتقل فيها الخطاب من الواقعية إلى الغرائبية، فقد وظّف الرحالـة المأثورات الشعبية، مثل السحر والتجريم، والطلب الشعبي، وقصص الحيوان، والنبات، وذلك بهدف توصيل المعلومات وسرد المعارف ونقل التجارب إلى المتلقي حيث أدت وظيفة معرفية شعبية، واستطاعت الرحلات أن تقدم ذلك، وفق مستويات عدّة: المستوى العلمي، والثقافي، والفلوكلوري، والغرائي.

فقد جاء نص رحلة ابن جبير نصاً قصصياً سريّاً، يروي الأحداث، ويصور الشخصيات، حيث نوع ابن جبير في أسلوبه بين السرد القصصيـ المشوّقـ والوصف الدقيقـ والطريفـ للواقعـ والمشاعر الإنسانيةـ التي تحرك عواطفـ المتلقيـ، بما تحويه من سردـ للتجربة الذاتيةـ الغنيةـ بالصورـ والمفاجآتـ والمغامراتـ، فيقولـ: "... وفي أثناء ذلك انبسـطـ الشمسـ ولـانـ البحرـ قـليـلاًـ، وصـممـناـ نـرومـ أـخذـ مـرسـىـ فـيـ البرـ المـذـكورـ إـلـىـ أنـ يـقـضـيـ اللـهـ قـضاـءـهـ وـينـفذـ حـكمـهـ، ... فالـحدـرـ الحـذرـ، منـ رـكـوبـ مـثـلـ هـذـاـ الخـطـرـ، وإنـ كـانـ المـحـذـورـ لـاـ يـعـنيـ عـنـ المـقـدـورـ شـيـئـاًـ، وـحـسـبـنـاـ اللـهـ وـنـعـمـ الـوـكـيلـ ... وـتـعاـورـتـ^(٢)ـ الـرـيحـ وـالـأـمـواـجـ صـفـعـ المـرـكـبـ حتـىـ تـكـسـرـتـ رـجـلـهـ الـوـاحـدةـ، فـأـلـقـىـ الرـائـسـ مـرسـىـ مـنـ مـراسـيهـ طـمـعاـ فيـ تـمـسـكـهـ بـهـ، فـلـمـ يـصـلـ شـيـئـاًـ، فـقطـعـ جـبـلـهـ وـتـرـكـهـ فـيـ الـبـحـرـ، فـلـمـ تـحـقـقـنـاـ أـنـهـاـ هـيـ قـمـنـاـ فـشـدـدـنـاـ لـلـمـوـتـ حـيـازـيـنـاـ^(٣)ـ، وـأـمـضـيـنـاـ عـلـىـ الصـبـرـ الجـمـيلـ عـزـائـنـاـ، وـأـقـمـنـاـ نـرـتـقـبـ الـصـبـاحـ أـوـ الـحـينـ الـمـتـاحـ، وـقـدـ عـلـاـ الصـيـاحـ، وـارـتفـعـ الـصـرـاخـ...^(٤)ـ.

(١) انظر، امرزوقي، سمير، شاكر، جميل، (١٩٨٦). مدخل إلى نظرية القصة، بغداد، العراق: دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، ص ٧٣ وما بعدها.

(٢) تعاورت: تداولت، انظر، ابن منظور، لسان العرب : ٦١٩/٤

(٣) الحيزوم: الصدر، وشدّه يدل على التأهب، انظر، المصدر نفسه: ١٣٢/١٢.

(٤) رحلة ابن جبير، ص ٢٨٩-٢٩٠.

ومن الرّحّالة الذين أنشأوا خطاباً سريدياً لإظهار تجربتهم الذاتية، ابن خلدون، حيث ركّز على سرد الأحداث الخاصة التي تخدم وصوله إلى القمة وتحقيق الذات، وأجاد في سرده للكثير من المشاهدات، ومن ذلك حديثه الطويل في فساد القضاة وخراب ذمم الكتاب والمفتين في مصر، ووصفه لمحاولاته في إصلاح الأمر، فيقول: "... فقد كان البر منهم مختلطاً بالفاجر، والطّيّب ملتسباً بالخبيث، والحكّام ممسكون عن انتقادهم متباينون عما يظهرون عليه من هنائهم، كما يمُوهُون به من الاعتصام بأهل الشوكة، فإنّ غالبهم مختلطون بالأمراء، ... فعاملت الله في حسم ذلك بما آسفهم على وأحددهم..."^(١).

ولعل طبيعة بعض الرّحّالة التي تميل للسرد وللحكايات الطّريفة والغرائبية، هي ما دفعهم لرواية تلك القصص التي عاشوها أو سمعوا بها، وكان سردهم لهذه القصص بعفوية وحيوية؛ قربت الرّحلة من عالم القصّة، فأبو حامد الغرناطي، وابن بطوطة لم يهتما بالمحسنات البديعية والزخرفة اللغوية، فكان أسلوبهما أقرب إلى الاهتمام بالحدث أكثر من الزخرفة، ويبدو أنّ ابن بطوطة يحبّ القصّ، ويسرد الأحداث بألفاظ بسيطة، مبرزاً موقع تأزم الأحداث ثم حلّها من لحظة خروج الرّحّالة من بلده حيث تتضاعد الأزمات حتى يعود الرّحّالة إلى بلده. وقد اكتفى ابن بطوطة بالحكى، في حين قام ابن جزي بجمع تلك الحكايات المتفرقة في نسيج قصصي متماسك، ومن ذلك قول ابن بطوطة واصفاً زيارته لبلاد آسيا الصغرى: "ولما كان الصباح ركينا، وأتانا الفارس الذي بعثه معنا الفتى أخي من كينوك، فبعث معنا فارساً غيره ليوصلنا إلى مدينة مطربني وقد وقع في تلك الليلة ثلج كثير عفان^(٢) عن الطريق، فتقدّمنا ذلك الفارس، فاتبعنا أثره إلى أن وصلنا في نصف النّهار إلى قرية للتركمان، فأتوا ب الطعام فأكلنا منه، وكلّمهم ذلك الفارس، فركب معنا أحدهم، وسلك بنا أوّعاً وجبالاً، ومجرى ماء تكرر لنا جوازه أزيد من الثلاثين مرّة، فما

(١) ابن خلدون، التعريف، ص ٢٩٢، ٢٩٦.

(٢) عفان: غطى، فمما معناه الطريق، انظر، ابن منظور، لسان العرب: ٧٦/١٥.

خلصنا من ذلك، قال لنا الفارس: أعطوني شيئاً من الدرّاهم، فقلنا له: إذا وصلنا إلى المدينة نعطيك ونرضيك^(١).

ومن أمثلة المشاهد السردية التي تكشف عن روح الفكاهة في رحلة ابن بطوطة، ما دونه الرّحالة من مواقف طريفة أثناء زيارته لبلاد الهند، فقد جلس قاضي مدينة قلهات، وهو أعور العين اليمنى مقابل شريف بغداد، وهو شديد الشبه به في صورته وعوره، إلا أنه أعور اليسرى فجعل الشريف ينظر إلى القاضي ويضحك، فزجره القاضي، فقال له: لا تزجرني، فإني أحسن منك، قال: كيف ذلك؟ قال: لأنك أعور اليمنى، وأنا أعور اليسرى، فضحك الحاضرون، وخجل القاضي^(٢).

وقد برزت جماليات الصّور السّردية لدى بعض الرّحالات، من خلال أسلوب الوصف، وتتبع سمات النّص القصصي، فأبو حامد الغرناطي أجاد في وصف الألواح التي استخدمها بعض سكان آسيا الصغرى وأوروبا في سيرهم فوق الثلوج، ورسمها بدقة تدل على المشاهدة والمعاينة الحية، وتكشف عن قدرة على القص والحكى، إذ يقول: "... ويَتَّخِذُ النَّاسُ لِأرْجُلِهِمْ أَلْوَاحًا يَنْحَتُونَهَا، طَوْلُ كُلِّ لَوْحٍ بَاعُ وَعْرَضُهُ شَبَرٌ، مَقْدُّمُ ذَلِكَ اللَّوْحِ وَمَؤْخِرُهُ مَرْتَفَعٌ عَنِ الْأَرْضِ، وَفِي وَسْطِ الْلَّوْحِ مَوْضِعٌ يَضْعُفُ الْمَاشِي فِيهِ رَجْلَهُ، وَفِيهِ ثَقْبٌ قَدْ شَدُّوا فِيهِ سِيُورًا^(٣) مِنْ جَلُودٍ قَوِيَّةٍ يَشَدُّونَهَا عَلَى أَرْجُلِهِمْ،...".

أما ابن بطوطة، فيسرد الأحداث ومجرياتها، ثم تتحول تلك الحكايات إلى قصص تم تدوينها في الرّحلة، حيث سرد ابن بطوطة أخبار بعض السّحرة في دهلي، ولعلّ ما لفت انتباه ابن بطوطة إليهم هو اعتمادهم على المغامرة والخيال، فيقول: "بعث إلى السلطان يوماً، وأنا عنده بالحضرّة، فدخلت عليه وهو في خلوة، وعنده بعض خواصه ورجالان من هؤلاء الجوكيّة، وهم يلتحفون بملائحة ويقطّون رؤوسهم، لأنّهم ينتفونها بالرماد كما

(١) رحلة ابن بطوطة: ٢٨١/١.

(٢) المصدر نفسه: ١٥٥/٢.

(٣) سيور: ما يُقْدَّم من الجلد، انظر، لسان العرب: ٣٩٠/٤.

(٤) أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ١٣٣-١٣٢.

نتف الناس أباطهم. فأمرني بالجلوس فجلست، فقال لهم: إنَّ هذا العزيز من بلاد بعيدة فأرياه ما لم يره. فقالوا: نعم، فترفع أحدهما، ثم ارتفع عن الأرض حتى صار في الهواء فوقنا متربعاً، فعجبت منه وأدركني الوهم، فووقيعت على الأرض، فأمر السلطان أنْ أُسقى دواءً عنده، فأفاقت وقعدت وهو على حاله متربع... وهو ينزل قليلاً قليلاً حتى جلس معنا، فقال السلطان: ...لولا أني أخاف على عقلك لأمرتهم أنْ يأتوا بأعظم مما رأيت. فانصرفت عنه، وأصابني الخفقان ومرضت، حتى أمر لي بشربة أذهبت ذلك عني^(١).

ويُلحظ أنَّ ابن بطوطة قد استخدم الحوار استخداماً بارعاً، فجاءت أحداث حكاياته متحركة، نابضة بالحياة، ولعلَّ هذا ما جعل أسلوبه أقرب إلى أسلوب الأديب القصاص، إضافة إلى أنَّه لم يقصد أن يؤرِّخ الأحداث التاريخية أو الجغرافية بحد ذاتها، بل هدف إلى إمتناع المتلقي بما رصده من أحوال اجتماعية للمدن التي زارها. وبصورة عامة، فإنَّ الحوار في معظم الرحلات كان امتداداً للسرد والوصف كما قام بدور كبير في البناء القصصيٍّ في الرحلة، وساهم في الكشف عن نفسية الأشخاص الحافلة بالمعلومات والدلائل.

إضافة إلى القص المعتمد على السرد الذي يقطعه الحوار والوصف فقد مزج بعض الرحالات بين الحكاية والشعر، حيث عرضوا قدرتهم الشعرية من خلال المعارضات الشعرية لشعراء آخرين أو لهم^(٢)، وجاء الشعر متضمناً في قص الرحلة ليتخلل التحولات السردية للرحلة النثرية، فقد استخدم الغزال الشعر حيناً والنثر حيناً آخر، ووظف الحوار توظيفاً اكسب الرحلة كثيراً من الحيوية والحركة^(٣)، بحيث يتاح لشخصيات الرحلة أن تظهر بحرية لتعبر عن نفسها بنفسها. كما استحضر بعض الرحالات في رحلاتهم الرسائل التي انطوت على جانب كبير من الوصف والسرد^(٤)، الأمر الذي أكد الصبغة الأدبية للرحلات وأكسبها وظيفة قصصية.

(١) رحلة ابن بطوطة: ١٥٠/٢، وانظر أيضاً، المصدر نفسه: ٣٥٦/١، ٣٥٦/٢، ١٤٤/٢، ٢٣٣.

(٢) انظر في ذلك رحلة التجاني مثلًا.

(٣) انظر، الدراسة هنا، ص ١٩٣.

(٤) انظر في ذلك رحلة ابن الحاج، ورحلة ابن خلدون، مثلًا.

أما صيغ الأداء^(١) المتصلة بالكلام، مثل، أنسدنا، وحدّثنا، ورأيت، وسمعت من، وكنت مع،... الخ، فتشير إلى تركيز الرّحالة على الأفعال التي تعبر عن غرض قصصيّ وتصوّر الحركة، حيث تعبر عن وظيفة سردية تهدف إلى الإقناع^(٢).

ومن جانب آخر فإنّ بنية الضمير التي تتراوح بين تاء المتكلّم ويائه، والضمير المستتر، وضمير الغائب تدلّ في بعض الأحيان على مركبّية المتكلّم، ومن ذلك قول ابن عربي: "خرجت من بلاد الأندلس، أريد بيت المقدس ... وسرت على سوء الطريق، أبحث عن أهل الوجود .."^(٣).

ورحلة ابن عربي، مثلاً، تتضمّن سرداً يحوي سمات الشكّل الأدبيّ القصصيّ؛ فالشخصيات والحوارات موجودة، إضافة إلى احتواها نصوصاً شعرية، ومن ذلك الحوار الذي جرى بين ابن عربي -السالك- والفتى الروحاني عاصم، وهي شخصيّة سردية، قال السالك: "فلقيت... فتى روحاني الذات، ربّاني الصّفات، يؤمن إلى الالتفات. فقلت: ما وراءك يا عاصم؟ قال: وجود ليس له انصرام.. قلت له: فأين تريد؟ قال: حيث لا أريد، ...".^(٤)

إنّ ذلك كله يسهم في الحفاظ على القيمة القصصيّة في الرّحلات، فالسرد ينطلق من الواقع مكاناً وزماناً وأشخاصاً، ويسهم في بناء عالم قوامه الدّوال الخاصة بكلّ رحالة، ويتنوّع بين سرد المغامرات وسرد الانطباعات، كما أنّ المرويّات السّردية والوصفية والحكائيّة التي احتوتها الرّحلات، قد شكلّت نسيجاً داخلياً قرب تلك الرّحلات من الأدب.

(١) انظر، في صيغ السرد والأداء، يقطين، سعيد، (١٩٨٨). صيغ الخطاب الروائي وأبعادها النصية، الفكر العربي المعاصر، مركز الإمامين القوامي، العدد ٤٩-٤٨، ص ٣٩.

(٢) انظر، موير، إدوين، بناء الرواية، ترجمة، إبراهيم الصيرفي، ومراجعة، عبد القادر القط: دار الجبل، الدار المصرية للتأليف، ص ١١٨.

(٣) كتاب الإسرا إلى مقام الأسري، ضمن رسائل ابن عربي: ٢/١.

(٤) المصدر نفسه: ٢/١.

الحكايات والأساطير

يرى شوقي ضيف، أنّ بعض الرّحالة كانوا يكتبون بخييلة القصاص، الذي يسند الواقع بالخيال، والحقيقة بالأسطورة^(١)، فاحتوت رحلاتهم مادة غزيرة من الأساطير والحكايات التي استمدّها الرّحالة من خلال زيارتهم لمختلف البلدان، واحتلاظهم بالشعوب، وسماعها من النّاس، أو رسّمها خيالهم لأنفسهم ونسبوها إلى مشاهداتهم الخاصة، ففي كُلّ أسطورة جانب من الحقيقة، يتّسع باتساع الخيال الشّعبي.

ولعلّ استخدام بعض الرّحالة لخيالهم ومزجهم الحقيقة بالأسطورة جاء استجابة لروح المخمرة، الأمر الذي ساعد في إدراك الأشياء، وتطور الفنّ القصصي للرّحلة، فالخيال يضفي الحياة في الرّحلات ويعثّر فيها الروح.

ومن الأمثلة على تمازج الواقع والخيال، ما أورده ابن بطوطة من إسلام أهالي جزائر ذيبة المهل -المالديف-، حيث نسج الخيال الشّعبي أسطورة حول حدث وقع فعلًا، ذلك أنّ شيخاً مغربياً جاء إلى تلك الجزائر، وكان حافظاً للقرآن الكريم، وأسلم حاكم تلك الجزائر وأهلها على يديه، وأقنعهم أنّ تلاوة القرآن تدرأ الأخطار عنهم وتخلّصهم من شر العفاريت، فبتلاوته للقرآن غالب هذا الشيخ العفريت الذي كان يأتي إلى الجزيرة من البحر مرة كل شهر، فيقدم الأهالي له فتاة، قرياناً لإرضائه، وتجنّباً لإيذائه، وتحكي هذه الأسطورة أنّ هذا الرجل، قد توجّه عوضاً عن إحداهم ذات ليلة، فحل محلّها، وإنّ تلاوته القرآن أذهبت العفريت إلى غير رجعة، وأنقذت فتيات هذه الجزائر من الهلاك^(٢).

وتتضمنّ الأسطورة هنا، تصوّراً لحدث وقع فعلًا، ولشخص له "وجود تاريخي"، ولكن الخيال الشّعبي، أو التّراث في حرصه على تأكيد قيمة معينة أو رمزية خاصة، يلجاً

(١) انظر، ضيف، شوقي، الرّحلات، ص ٦، ٤١، ٦٠، وانظر أيضاً، كراتشковفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٣٠، ٤٦٦-٤٦٧.

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١٧٩-١٧٨/٢.

إلى تصوير ذلك الحدث أو تلك الشخصية في إطار من المبالغة والتضخم، وبالإضافة إلى ذلك، فإن الأسطورة تفهم في سياقات أخرى متعددة^(١).

ويرى كراتشکوفسکی أن شيوخ القصص البحريّة الشعبيّة، في تلك العصور، وقصص الأولياء والكرامات في العصور المتأخرة، قد أثرت في الرّحالة تأثيراً واضحاً، بحيث قبل بعضهم ما يروي له منها، وأغري بعضهم الآخر بحبّها، فأوردوا بعضها في رحلاتهم^(٢)؛ فالقصّ الشعبيّ مرتبط بالحياة ومعتقدات الإنسان، وتصوراته النفسية لتلك القصص.

ويذهب بعض الدارسين في تفسير، مثل هذه الحكايات والأساطير، إلى الخوف، حيث ذهب شوقي ضيف إلى أن الخوف لعب بخيال الرّحالة، وبخاصة الرّحالة في البحار، فصور كثيراً من الأوهام حقائق، وجسم لهم بعض الحقائق الصّغيرة، أشياء مفزعّة خطيرة^(٣).

في حين يرى حمادي المسعودي، أن الجانب الأسطوريّ في مثل هذه الحكايات، يعبر عن ميول ورغبات دفينة لدى الباحث، فلا يجد مجالاً لإفرازها، إلا بدخول تخوم الأسطورة عن طريق فن القصّ، وكأن الواقع لدى الرواذي يبدو عقيماً، لذلك التجأ إلى فضاء ثانٍ بدا أوسع، وأكثر ثراء^(٤). فميل النفس الإنسانية إلى العدل ورفضها للظلم، قد يدفعها إلى الاعتقاد بعالم الأسطورة، إذ إنّ الأسطورة قريبة من عقلية العوام، الذين يسمعون ويرددون العديد من الحكايات عن مصير الإنسان بعد موته، مثلًا، فعن طريق تلك الأساطير يتم الجزاء والاقتصاص من الظالم، ولو كان ذلك في عالم الخيال فقط، ومن

(١) فهيم، حسين، (١٩٨٧). "التراث الشعبي في أدب الرحلات"، مجلة المأثورات الشعبية، العدد (٥)، ص. ٧٩.

(٢) انظر، كراتشکوفسکی، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ١٥٢-١٦٦، ٣٨٧-٣٨٩، ٤٥٨-٤٦٦.

(٣) ضيف، شوقي، الرحلات، ص ٢٨.

(٤) المسعودي، حمادي، (١٩٨٩). "الواقعي والأسطوري والخارق في تحفة أبي حامد الغرناطي"، الحياة الثقافية، العدد (٥٤)، ص ٢٠.

أمثلة ذلك، حكاية قبر الأمير الظاهر في تحفة الغرناطي، فقد كان هذا الأمير ظالماً أثناء حكمه، فلما "مات بُني على قبره قبة عظيمة، وعُمل على قبره ألواح من الرخام الأبيض كاللّاج حسناً، فتقطع ذلك الرخام وأسودَ وأخترق، واسودَت القبة من الدخان الذي يخرج من قبره .. ولم يدفن أحد بقربه ميتاً".^(١)

وأفرزت بعض الرحلات أشكالاً قصصية، تقوم على الأسطورة التي تناهى عن الواقع اليومي، ومنها قصص الحيوان والنبات^(٢)، فقد حفلت تحفة الغرناطي برحالة ابن بطوطة، مثلاً بالكثير من الحكايات التي تصل حدّ الغرابة، ومنها ما نقله الغرناطي عن حكاية السمكة الجارية؛ ذلك أن بعض التجار خرجت إليهم سمكة عظيمة جداً، وجذبوها بالحبال، "وجرّوها فانفتحت أذنها، وخرج من أذنها جارية حسناء جميلة، بيضاء، سوداء الشّعر، حمراء الخدين..، ومن سرتها إلى نصف ساقها جلد أبيض كالثوب خلقه يتصل بجسدها، .. كالإزار دائِر عليها، فأخذتها الرجال إلى البر وهي تلطم وجهها، وتتنفّ شعرها، وتعرض ذراعها وثديها، وتصبح وتفعل كما تفعل النساء في الدنيا، حتى ماتت في أيديهم".^(٣)

ويتحدد الغرناطي أيضاً عن عجائب مصر ونيلها، فيذكر أنّ بنيل مصر نوعاً من السمك يسمى الرّعاد، "يُعمل من جلد طافية، وتلبس للصدع فيسكن".^(٤)

أما ابن بطوطة، فقد أنطق الجرادة لتعبر عن الظلم والواقع في البلاد، وهذا يخالف المنطق والعقل، حيث يقول في وصفه لمدينة مالي: "حضرت مجلس السلطان في بعض الأيام، فأتي أحد فقهائهم وكان قدم من بلاد بعيدة، وقام بين يدي السلطان، وتكلّم

(١) رحلة أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ١٠٢، وانظر مثل ذلك، المصدر نفسه، ص ١٠٣-١١٠.

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١٦٤/٢-١٦٥.

(٣) أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٩٧-٩٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٨٨، وانظر أيضاً، رحلة أبي حامد الغرناطي، المعرب عن بعض عجائب المغرب، ص ٧٨.

كلاماً كثيراً. فقام القاضي فصدقه ثم صدقهما السلطان ... وكان إلى جانبني رجل .. فقال: أتعرف ما قالوه؟ فقال: لا أعرف، فقال: إنّ الفقيه أخبر أنّ الجراد وقع ببلادهم فخرج أحد صلحائهم إلى موضع الجراد فهاله أمرها، فقال: هذا جراد كثير، فأجابته جرادة منها، وقالت: إنّ البلاد التي يكثر فيها الظلم يبعثنا الله لفساد زرعها...^(١).

وقد يبعث بعض الرّحالة في بعض الأشياء والحياة والروح، فإذا هي تتحرك وتقوم بما يقوم به الإنسان، وأحياناً تقوم بأفعال تُسند إلىقوى الغيبية في العقلية الشعبية، فالحجر مثلاً، قادر على إزالة المطر^(٢).

ومن الرّحلات التي برزت فيها بعض الجوانب الأسطورية، رحلة ابن الصّبّاح الأندلسيّ، حيث يرى جماعة شيخة أنّ ثقافة الرّحالة، ثقافة دينية متوسطة، وثقافة تاريخية أسطورية، تبعده عن صفة العالم، فقد تحدث ابن الصّبّاح الأندلسيّ عن قصة صلب المسيح عند دخوله إلى الإسكندرية، "فذكر أنّ إقلি�ش اليونانيّ من ولد أسطاطليس الحكيم، هو الذي بنى الإسكندرية، وكانت مع أمّه الخشبة التي صُلب عليه المسيح عليه السلام، وذات ليلة رأى إقلি�ش في منامه أنه وأمّه يبعدان هذا (الصلب) فكان أول من عبد الصليب، وتبعه من كتب عليه الشقاء والعذاب.. ويبدو أنّ هذه الأسطورة أثرت في ابن الصّبّاح، فرجع إلى أسفار اليهود، فدخله الوهم والشك في مسألة رفع عيسى عليه السلام، وزين له الشيطان عكس ما جاء في العقيدة الإسلامية، فكاد ينحرف عنها لولا أن هداه الله بنور القرآن...^(٣)".

إنّ حضور الأبعاد الأسطورية في بعض الرّحلات، لا يعني عدم مصداقية ما تقدمه تلك الرّحلات؛ وبؤكّد ذلك ما ذكره بعض الرّحالة في رحلاتهم، فأبو حامد الغرناطي، مثلاً، يجزم أنّ ما يذكره في تحفته هو من الواقع، ولا مجال للشك فيه، حيث يقول في نهاية

(١) رحلة ابن بطوطة: ٢٨٠/٢.

(٢) انظر، أبو حامد الغرناطي، تحفة الأباب، ص ٧٧، وانظر، المصدر نفسه، ص ٧٩.

(٣) شيخة، جمعة، "بعض المظاهر الدينية في رحلة عبد الله بن الصّبّاح الأندلسيّ، دراسات أندلسية، العدد ١٢، ص ٣٦، ٤٢.

مقدمة الرّحلة: "فلا تكن مكذبًا بما لا تعلم وجه حكمته .."^(١). ويعزو عدم تصديق حكاياته إلى نقصان العقل من جهة وإلى الجهل من جهة أخرى^(٢). ثم يسوق مجموعة من البراهين المتنوعة لإقناع المتلقي بحكاياته؛ منها ما هو نقلٌ مستمد من القرآن الكريم، ومنها ما ضمّنه رحلته من الأشعار، ومنها ما يعود إلى التجربة والمشاهدة الحية.^(٣)

أما ابن بطوطه، فيبدو أنه لم يعط بالأَ، أو يبذل جهداً ليتحقق، وينقد بعض تلك الحكايات، فتركها تقترب إلى الأساطير الشعبية، ولعل ميله إلى الجانب الصوفي دفعه لتصديق بعض تلك الحكايات والأساطير دون تردد. فما ذكره الرّحالة من الأعاجيب والغرائب كان سائداً بين الناس، فدونها الرّحالة في رحلاتهم، وصدقها بعضهم حتى صارت في أذهانهم حقيقة^(٤).

وإن كان هذا الحضور الشديد للأسطورة في بعض الرّحلات، قد أخذ يسيطر على مجريات أحداث الرّحلة، إلا أنّ تلك الرّحلات، تبقى ذات قيمة كبيرة، بما تحفل من مادة غنية، ومعلومات متنوعة عن أجزاء واسعة من البلدان التي قصدها الرّحالة. فغالبية هؤلاء الرّحالة المؤلفين كانوا كتاباً قبل كل شيء، فجاءت كتاباتهم يغلب عليها الطابع القصصي، يستندون به إلى الواقع أحياناً ويجنحون إلى الخيال أحياناً أخرى، ويستعينون فيه بالقصص للمساعدة التي تسمى به إلى مرتبة الأدب الفني الصرف في أغلب الأحيان^(٥). ويفصل حسين نصار الرّحلة الأدبية بقوله: "إن لم تكن الرّحلة الأدبية قصة ولا رواية بالمعنى الدقيق، فهي أخت شقيقة لها".^(٦)

(١) أبو حامد الغرناطي، *تحفة الألباب*، ص ٢٥.

(٢) انظر، المتصدر نفسه، ص ٢٤، وانظر، أيضاً، المتصدر نفسه، ص ٩١.

(٣) انظر، مال الله، على محسن، أدب الرّحلات عند العرب في المشرق، ص ٣٤٣.

(٤) حسين، حسني محمود، أدب الرّحلة، ص ١٦، ١٠.

(٥) نصار، حسين، أدب الرّحلة، ص ١٣٢.

وبهذا، يمكن القول إنّ نصّ الرّحلة، "هو نص فيه من الفن القصصي ما يمكن معه أن يمثل جذور القصة الأدبية، حيث اعتمد على عناصر أساسية واضحة؛ هي السّرد، والحووار، والوصف، والبدايات والنهايات، والتّشويق والاشتمال على هدف وغاية وهو أيضًا، يمثّل شكلاً أكثر اتساعاً، بما سمح من مساحة لعدد من المستويات اللغوية؛ أن تظهر شعراً كانت أم نثراً؛ "لتنقل المهم والجديد والممتع والنافع"^(١). إلا أنّ هذه الحكايات الخيالية والغرائبية، وطقوس السحر والأساطير، التي كانت ضرباً من ضروب البناء الفني في أدب الرّحلات، تظلّ بحاجة إلى دراسة مستفيضة مستقلة لمعرفة الدّواعي التي دفعت الرّحالة لذكرها.

(١) زيتوني، لطيف، (١٩٩٦). "السيميولوجيا وأدب الرّحلات"، عام الفكر، المجلد ٢٤، عدد (٣)، ص ٢٥٧.

الخاتمة

وبعد .. فقد حاولت هذه الدراسة أن تقدم صورة واضحة قدر الإمكان لأدب الرّحلات الأندلسية والمغربية، وسياقاتها المعرفية والثقافية والاجتماعية والدينية، وأن ترصد صدى التجربة الإنسانية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، كما حاولت الدراسة أيضًا من خلال نصوص الرحلات والمصادر والكتب التي درست هذا الأدب إبراز دور الرّحالة في التفاعل الثقافي، ونقل إبداعات الشعوب وثقافاتها إلى سائر أقطار العالم وتبيّن معاني الارتباط الروحي والمادي بين الأندلس والمغرب وببلاد المشرق، وغيرها من البلدان التي زارها الرحالة، حيث اقترن ذلك الاتصال بنهوض ثقافي، وتطور حضاري في مختلف تلك المجتمعات، التي وإن اختلفت في بعض أمميات حياتها بحكم البيئة، إلا أن تلك الحضارات صاغتها ثقافة واحدة، هي الثقافة الإسلامية رغم تباعد الأصقاع.

وقد تم تسلیط الضوء على المراحل التي مرّت بها الرّحلات الأندلسية والمغربية، حيث اتّخذت في بدايتها طابعًا دينيًّا علميًّا، بُرِزَ فيه الدور العلمي للأماكن المقدسة من خلال استقبالها وفود طلاب العلم المسلمين من جميع أنحاء العالم الإسلامي. ثم كانت الرحلة لزيارة معظم الأقطار، حيث أفرزت هذه الرحلات مذكرات ومشاهدات هؤلاء الرحالة، فنشأ ما يسمى بالرحلة الوصفية، التي اتسعت لتشمل وصف مراحل الرحلة: الأماكن، والمشاهدات، وأحوال الشعوب ...

وعبر الرحالة في وصفهم لمراحل رحلاتهم عن انطباعاته، فاستخدمو التضمينات الدينية والأدبية، إضافة إلى تأثرهم بعناصر البيئة المحيطة بهم حيث بُرِزَت بعض الصور النفسية لدى بعض الرحالة، مثل ابن جبير، مما أكسب الرحلات عنصر الامتناع، وقربها من الأدب، فكانت رحلات فنية، سُرِدت أخبارها في شكل قصصي.

بهذا، تكون الرحلات قد رصدت تنوّع المعالم الحضارية في مختلف الجوانب الحياتية في البلدان التي قصدها الرحالة، وعكست صورة واضحة عن أحوال الشعوب وعاداتها وتقاليدها... وكشفت عن الانتماء إلى ثقافة الذات والفهم لثقافة الآخر والافتتاح عليه. مبرزة الترابط بين كل العناصر البشرية والثقافية في البلدان التي زارها الرحالة.

المراجع

أ. باللغة العربية:

القرآن الكريم

آل مرعي، أحمد علي. (٢٠٠٣). الحد و المفهوم. أنها: نادي أنها الأدي. ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاوي، (ت ٦٥٨ هـ). التكملة لكتاب الصلة، ٤ ج، (تحقيق عبد السلام الهراس)، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥.

إبراهيم، ذكري. (١٩٧١). مشكلة الحياة. القاهرة: مكتبة مصر.

إبراهيم، نبيلة. (١٩٨١). قص الحادثة، مجلة فصول، المجلد ٦، العدد (٤). ص ٩٩-٩٥. ابن الأثير، أبو الحسن، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني، (ت ٦٣٠ هـ). الكامل في التاريخ، ط ١٠، ج، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.

أحمد، رمضان أحمد. (١٩٨٣). الرحلة والرحلة المسلمين. جدة: دار البيان العربية.

ابن الأحمر، أبو الوليد الأمير إسماعيل بن يوسف بن محمد، (ت ٨٠٧ هـ). نثر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، (تحقيق محمد رضوان الداية)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧.

الإدرسي، أبو عبد الله محمد بن إدريس، (ت ٥٦٠ هـ). نزهة المشتاق في اختراق الآفاق "صفة المغرب وأرض السوادن ومصر والأندلس"، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٨.

—. نزهة المشتاق، المغرب العربي، الجزائر، ١٩٨٣.

أدهم، علي. (١٩٩). طاز يشقى الإنسان. القاهرة: مكتبة نهضة مصر.

أرسلان، شكيب. (١٩٣٦). الحلل السندينية في الأخبار والآثار الأندلسية. ط ١، ٣ ج، فاس: المكتبة التجارية الكبرى، مصر: المطبعة الرحمنية.

إسماعيل، عز الدين. (١٩٧٦). الأدب وفنونه. ط ٦، القاهرة: دار الفكر.

الأصحابي، أبو الفرج علي بن الحسين، (٣٥٦ هـ). الأغاني، ج ٢٢. الأغاني، ج ٢٣، دار الفكر.

أمين، أحمد. (١٩٠٠). ظهر الإسلام. ٣ ج، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

أمين، حسين. (١٩٨٥). "العلاقات الثقافية بين الأندلس وبغداد في العصر- العباسى". المناهل، السنة ١٢، العدد (٣٣).

الأنصارى، عبد القدوس. (١٩٧٧). مع ابن جبير في رحلته، القاهرة: المطبعة العربية الحديثة.

— (١٩٨٠). موسوعة تاريخ مدينة جدة، ط ٢، جدة.

- الأوسي، حكمة علي. (١٩٧١). "يحيى بن الحكم الغزال سفير الأندلس وشاعره الواقعي"، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد ٢١، ص ٢١١-١٩٦.
- الأوسي، ابن عبد الملك المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد الانصاري، (ت ٧٠٣ هـ). الذيل والتكميلة لكتابي امتوصل والصلة، ٦ ج، (تحقيق إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥.
- أوليري، ديلاس. (١٩٦١). الفكر العربي ومكانه في التاريخ، ترجمة قمام حسان، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة.
- باختين، ميخائيل. (١٩٨٧). الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، القاهرة: دار الفكر.
- البаш، حسن، والسهلي، محمد توفيق. (١٩٨٠). المعتقدات الشعبية في التراث العربي، دمشق: دار الجيل.
- بالأشهب، محمد. (١٩٩٨). "التلقي الملاكاشف: شروطه وحدوده، ابن عربي نموذجاً". مجلة علامات، العدد (١٠)، مكناس، المغرب.
- بالنثيا، آنخل جنتالث. (١٩٥٥). تاريخ الفكر الأندلسي نقله عن الأسبانية، حسين مؤنس، ط١، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، (ت ٢٥٦ هـ). صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٤ مج، بدون ذكر سنة الطبع.
- بدوي، آمنة. (بدون ذكر السنة). تتبع رحلات الأندلسين والمغاربة المطبوعة والمخطوطة من القرن الثالث الهجري وحتى القرن التاسع الهجري، الجامعة الأردنية، الأردن، بحث لم ينشر بعد.
- بدوي، عبد الرحمن. (١٩٦٢). الموت والعقبالية، ط٢، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- . مؤلفات ابن خلدون، القاهرة: دار المعارف.
- ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، (ت ٥٤٢ هـ). الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٤ ج، ١١ مج، (تحقيق إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩.
- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك، (ت ٥٧٨ هـ). الصلة، ٣ ج، (تحقيق إبراهيم الأبياري)، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩.
- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله محمد اللواتي الطنجي، (ت ٧٧٩ هـ). تحفة الناظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٢ ج، اعتمت به وراجعه، درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ٤٢٠٠.
- البغدادي، إسماعيل بن محمد أمين بن سليم الباباني، (ت ١٣٣٩ هـ). إيضاح المكتوب في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ٢ ج، عني بتصحيحه وطبعه محمد شرف الدين، وكالة المعارف الجليلة، استانبول، ١٩٤١.

- البغدادي، عبد القادر بن عمر، (ت ١٠٩٣هـ). خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ٤ج، عني بنشره المطبعة السلفية ومكتبتها، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، ١٩٢٨.
- البكر، خالد عبد الكريم حمود، (ت ٢٠٠٢هـ). الرحلة الأندلسية إلى الجزيرة العربية من القرن الثاني حتى نهاية القرن السادس الهجري، ط١، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية.
- البكري، أبو عبيد بن عبد العزيز، (ت ٤٨٧هـ). جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، (تحقيق عبد الرحمن علي الحجي)، ط١، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٦٨.
- (١٩٧٧هـ). صفة جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك، ط١، (تحقيق عبد الله غنيم)، ذات السلسل.
- بلاثيوس، آسين. (١٩٧٩). ابن عربي: حياته ومذهبه، ترجمه عن الإسبانية، عبد الرحمن بدوي، الكويت، بيروت: وكالة المطبوعات، دار القلم.
- البلوي، خالد بن عيسى، (ت ٧٦٥هـ). تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ٢ج، (تحقيق الحسن السائحي)، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، د.ت، بدون ذكر السنة.
- بنيامين التطيلي، ابن يونه النباري الأندلسي، (ت ٥٦٩هـ). رحلة بنiamين التطيلي، ترجمة عزرا حداد، بغداد، ١٩٤٥.
- (٢٠٠٢هـ). رحلة بنiamين التطيلي، ترجمة عزرا حداد، دراسة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ط١، المجمع الثقافي، أبو ظبي.
- البهنسى، عفيف. (١٩٩٩). العمارة العربية، الرباط: المجلس القومى للثقافة العربية.
- بوتتشيش، إبراهيم القادري، (٢٠٠٤). "محطات في تاريخ التسامح بين الأديان بالأندلس". مجلة دراسات أندلسية، العدد (٣١): ٩٢-٧٣.
- بوروبية، رشيد. (١٩٨٢). ابن تومرت، ترجمة عبد الحميد حاجيات، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي، (ت ١٠٤٨هـ). الآثار الباقيّة عن القرون الخالية، ط١، ليُرِجَ، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٣٠.
- التجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، (ت ٧١٨هـ). رحلة التجاني، قدم لها حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٨١.
- التجيبي، القاسم بن يوسف السبتي، (ت ٧٣٠هـ). مستفاد الرحلة والاغتراب، (تحقيق عبد الحفيظ منصور)، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٧٥.

- التبنكتي، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أفيت عرف ببابا، (ت ١٠٣٦هـ). نيل الابتهاج بتطريز الديباج، فاس. د.ن، ١٨٩٩.
- ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد الكتافي الأندلسي، (ت ٦١٤هـ). رحلة ابن جبير المسمى تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، دار صادر، بيروت، ١٩٥٩.
- جرار، صلاح. (٢٠٠٤). زمان الوصل، دراسات في التفاعل الحضاري والثقافي في الأندلس، ط١، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان: دار الفارس للنشر والتوزيع.
- (١٩٧٩). "العلاقات بين فلسطين والأندلس"، مجلة الفيصل، السنة الثالثة، العدد (٢٩): ص ١١٥-١١١.
- (١٩٩٧). القدس في رحلات الأندلسين، ندوات القدس "٥٠٠٠" عام من الحقوق العربية، الندوة الثانية، جامعة آل البيت، عمان، بحث لم ينشر بعد.
- الجرياري، عباس. (١٩٧٧). "الرحلات كمصدر للتاريخ". مجلة الفيصل، السنة الأولى، العدد (٦): ص ٥٨-٦٢.
- الجزنائي، علي. (١٩٦٧). جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط.
- ابن الحاج الغرناتي، أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله النميري، (ت ٧٧٤هـ). فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسطنطينية والزاب، دراسة محمد بن شقرور، الرباط، ١٩٨٤.
- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي، (ت ٨٥٢هـ). الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط١، ع٢، ضبطه وصححه الشيخ عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٧.
- الحجي، عبد الرحمن علي. (١٩٩٤). التاريخ الأندلسي- من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ٥٩٢-٥٩٧هـ)، ط٤، دمشق: دار القلم.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، (ت ٤٦٠هـ). طوق الحمامنة في الألفة والألاف، (تحقيق حسن كامل الصيرفي)، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٩، وتحقيق فاروق سعد، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٠.
- حسن، زكي محمد. (١٩٤٥). الرحالة المسلمين في العصور الوسطى، القاهرة: دار المعارف.
- حسن، محمد عبد الغني. (١٩٥٥). الترائم والسير، القاهرة: دار المعارف.
- (١٩٦٩). ابن سعيد المغربي، المؤرخ، الرحالة، الأديب، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
- حسين، حسني محمود. (١٩٧٦). أدب الرحلة عند العرب، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- حمدان، جمال. (١٩٦٩). "تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس". تأليف حسين مؤنس، مجلة المجلة، العدد (١٤٥) : ص ١٢-٢٧.
- حمودة، ألفت. (١٩٨١). نظريات وقيم الجمال المعماري، الإسكندرية: دار المعارف.
- حميدة، عبد الرحمن. (١٩٦٩). أعلام الجغرافيين العرب ومقطوفات من آثارهم، دمشق.
- الحميدي، أبو عبد الله محمد بن فتوح، (ت ٤٨٨هـ). جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، ط ٢، ج، (تحقيق إبراهيم الأبياري)، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩.
- الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن المنعم، (ت ٩٠٠هـ). الروض المعطار في خبر الأقطار، (تحقيق إحسان عباس)، دار القلم للطباعة، بيروت، لبنان، ١٩٧٥.
- (١٩٣٧). صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من الروض المعطار، ط ٢، (تحقيق إ. ليفي بروفنسال)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة.
- الحوفي، أحمد. (١٩٧٢). "أدب ابن خلدون". مجلة مجمع اللغة العربية القاهرة، ج ٣٠: ص ٣١-٥٥.
- ابن خاقان، الفتح بن محمد بن عبد الله القسيسي الإشبيلي، (ت ٥٢٩هـ). مطبع الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، ط ١، (تحقيق محمد علي شوابكة)، ط ١، دار عمار، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣.
- خصباك، شاكر. (١٩٧١). ابن بطوطة ورحلته، النجف الأشرف: مطبعة الآداب.
- ابن الخطيب، لسان الدين الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد، (ت ٧٧٦هـ). الإحاطة في أخبار غرناطة، ٤ ج، (تحقيق محمد عبد الله عنان)، دار المعارف، مصر، ١٩٥٥، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- (١٩٥٦). تاريخ إسبانيا الإسلامية، أعمال الأعلام في مَنْ بُويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، ط ٢، (تحقيق إ. ليفي بروفنسال)، دار المكشوف، بيروت.
- (٢٠٠٣). خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف، ط ١، (تحقيق أحمد مختار العبادي)، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان.
- (١٩٧٣). ديوان الصيف والجهام والماضي والكهان، (دراسة وتحقيق محمد الشريف قاهر)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- (٢٠٠٤). اللῆمة البدريّة في الدولة النصرية، ط ١، (تحقيق محمد زينهم محمد عزب)، الدار الثقافية للنشر، القاهرة.

- (١٩٥٨). مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، مجموعة من رسائله، نشر وتحقيق أحمد مختار العبادي، الإسكندرية.
- (١٩٥٥). نفاستة الجراب في علة الافتراض، ٢ج، نشر وتعليق أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار الكاتب العربي، القاهرة.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، (ت ٨٠٨هـ). تاريخ ابن خلدون، المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ٦١، جديدة منقحة، ٧ج، تعليق تركي فرحان المصطفى، درا إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان. ١٩٩٩
- (٢٠٠٣). التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، ١ط، علق عليها محمد بن تاویت الطنجي، وحررها وقدم لها، نوري الجراح، دار السويدى للنشر، أبو ظبى، دار الفارس، عمان، الأردن.
- (١٩٧٨). مقدمة ابن خلدون، ٤ط، ٢ج، دار الباز للنشر والتوزيع، المطروه، مكة المكرمة.
- ابن خلkan، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، (ت ٦٨١هـ). وفيات الأعيان وأئماء أبناء الزمان، ٨ج، (تحقيق إحسان عباس)، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢.
- أبو الخير، محمود. (١٩٨٠). "الترجمة الذاتية في الأدب العربي". مجلة أفكار الأدبية، العدد (٤٩): ص ٦-١٣، عمان، الأردن.
- دار صادر. (دون ذكر سنة الطبع). ديوان الأعشى، بيروت، لبنان.
- دار المشرق. (١٩٨٠). المنجد في اللغة والأعلام، ٢٤ط، بيروت.
- ابن دحية، أبو الخطاب مجد الدين عمر بن الحسن بن علي، (ت ٦٣٣هـ). المطروب في أشعار أهل المغرب، (تحقيق إبراهيم الأبياري، وحامد عبد المجيد، وأحمد بدوى)، راجعه طه حسين، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٤.
- الدمياطي، محمود مصطفى. (١٩٤١). "رحلة ابن بطوطة، وما تنطوي عليه من نبات وشجر". مجلة المقطف، ١ج، موج ٩٩: ص ٥٣-٥٥. موج ١ج، موج ٩٨: ص ١٣٣-١٣٥.
- أبو دياك، صالح محمد. (١٩٨٧). "التبادل الفكرى بين المغرب والأندلس وشبھ الجزيرة العربية". مجلة الدارة، السنة الثالثة عشرة، العدد (٢): ص ١٠٣-١٢٤.
- ديورانت، ول. (١٩٥٦). قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، (ت ٧٤٨هـ). سير أعلام النبلاء، ط٧، ج٢، (تحقيق شعيب الأرنؤوط، صالح السمر)، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦.
- راغب نبيل. (١٩٧٨). معجم الأدب العالمي المعاصر، القاهرة: دار المعارف.
- ابن رشيد، السبتي، أبو عبد الله محمد بن عمر الفهري، (ت ٧٢١هـ). ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، (تحقيق الحبيب بن الخوجة)، ج١، ٣، ٥، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٢، و١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٨.
- الرعيني، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الرعيني الإشبيلي، يُعرف بابن الفخار، (ت ٦٦٦هـ). برنامج شيخ ابن الفخار الرعيني، (تحقيق إبراهيم شبوح)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٢.
- رومبة، وهب. (١٩٧٩). الرحلة في القصيدة الجاهيلية، ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- ابن أبي زرع الفاسي، علي. (١٩٧٢). الآئين المطروب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقه، الرباط.
- (١٩٧٢). الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقه، الرباط.
- الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم. (١٩٦٦). تاريخ الدولتين الموحديه والحفصيه، ط٢، (تحقيق محمد ماضور)، المكتبة العتيقة، تونس.
- الزركلي، خير الدين. (١٩٨٤). الأعلام، قاموس تراجم الأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والممثرين، ج٨، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
- الزوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين. شرح المعلقات السبع، سوريا، حلب: دار الكتاب العربي.
- زيادة، نقولا. (١٩٦٢). الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت: مكتبة المدرسة، ودار الكتاب اللبناني.
- (١٩٦٦). دمشق في عصر المماليك، مكتبة لبنان، بيروت.
- زيتونى، لطيف. (١٩٩٦). "السيميولوجيا وأدب الرحلات". عالم الفكر، المجلد ٢٤، العدد (٣): ص ٢٥١-٢٧٣.
- سام، السيد عبد العزيز. (١٩٨١). التاريخ والمؤرخون العرب، بيروت: دار النهضة العربية.
- (١٩٨٦). المساجد والقصور بالأندلس، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

- السامرائي، إبراهيم. (١٤٠٩). "فن السيرة الذاتية عرفه العرب قبل غيرهم"، مجلة الفيصل، العدد ٣٥-٣٣ (١٤٢).
- السبكي، تاج الدين، أبو نصر عبد الوهاب بن علي، (ت ٧٧١هـ). طبقات الشافعية الكبرى، ط ١، ٩ج، إدارة محمد عبد اللطيف الخطيب، المطبعة الحسينية المصرية، م.م.٥، ١٩٠٦.
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، (ت ٩٠٢هـ). الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ج، مكتبة القدس، القاهرة، ١٢٥٥، ومكتبة الحياة، بيروت، لبنان، بدون ذكر سنة الطبع.
- سعد الله، أبو القاسم. (١٩٩٠). "رحلة أبي عصيدة البجائي من بجاية إلى الحجاز". مجلة العرب، الأعداد (٩، ١٠) : ص ٦٢٧-٦٢٢.
- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى، (ت ٦٨٥هـ). المغرب في حل المغارب، القسم الخاص بالأندلس، ط ٢، ج، (تحقيق شفيق ضيف)، دار المعارف، مصر، القاهرة، ١٩٥٣.
- المغرب في حل المغارب، القسم الخاص بمصر، ١ج، تحقيق زكي محمد حسن وشفيق ضيف، وسيدة إسماعيل، القاهرة، ١٩٥٣.
- السلاوي، شهاب الدين أحمد بن خالد الناصري، (ت ١٣١٥هـ). الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ٨ج، أشرف على النشر محمد حجي، وإبراهيم بو طالب، وأحمد التوفيق، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، الدار البيضاء، ٢٠٠١.
- سليم، شاكر مصطفى. (١٩٨١). قاموس الأنثروبولوجيا، ط ١، جامعة الكويت.
- السيوططي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الشافعي، (ت ٩١١هـ)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ط ٢، ج، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار الفكر، القاهرة، ١٩٧٩.
- الشاوي، عبد القادر. (٢٠٠٠). الكتابة والوجود: السيرة الذاتية، في المغرب، بيروت: إفريقيا الشرق.
- ابن شداد، بهاء الدين يوسف بن رافع، (ت ٦٢٢هـ). النوادر السلطانية ومحاسن اليوسفية، تحقيق محمد درويش، شركة طبع الكتب العربية، مصر، ١٩٧٩.
- شرف عبد العزيز. (١٩٩٢). أدب السيرة الذاتية، بيروت: مكتبة لبنان.
- شعبان، أنعام عبد الله. (١٩٩٠). السيرة الذاتية في الأدب العراقي الحديث منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى بداية الحرب العالمية الثانية. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة المستنصرية، العراق.
- الشكعة، مصطفى. (١٩٧١). الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، بيروت: دار النهضة العربية.
- شلق، علي. (١٩٧٤). النثر العربي في نماذجه وتطوره لعصرى النهضة والحديث، ط ٢، بيروت: دار القلم.

- شهر، عبد العزيز. (١٩٩٥). "التعابير بين الأديان في الأندلس من خلال نصوص شعرية أندلسية." *مجلة دراسات أندلسية*. العدد (١٤): ص ٢٨-٦١.
- شيخة، جمعة. (١٩٩٤). "بعض المظاهر الدينية في رحلة عبد الله بن الصباح الأندلسي-", *مجلة دراسات أندلسية*. العدد (١٢): ص ٣٦-٤٤.
- الصادقي، حسن. (١٩٨٩). "الوجود المغربي في المشرق من خلال كتب الترافق المشرقة". *مجلة المناهل*. السنة ١٥، العدد (٣٨): ص ٢٩٢-٣١٦.
- الصالحي، عباس مصطفى. (١٩٧٤). *الصيد والطرد في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري*. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- صحراوي، عبد السلام. (١٩٨٧). *أمين الرياحاني، الأديب الرحالة*. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، دمشق.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك، (ت ٧٦٤هـ). *الوافي بالوفيات*. ط١، ج ٢٩، (تحقيق أحمد الأرناؤوط)، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠.
- الصكر، حاتم. (١٩٩٤). *كتابة الذات*. عمان: دار الشروق.
- الصنهاجي، عبد الله بن بلقين بن باديس، (ت ٤٨٣هـ). *مذكريات الأمير عبد الله آخر ملوك زيري بغناطة*. (تحقيق ونشر إ. ليفي بروفنسال)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٠.
- الصياد، محمد محمود. (١٩٨٥). *رحلة ابن بطوطة*. سوسة، تونس: دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع.
- القضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، (ت ٥٩٩هـ). *بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس*. ط١، ج ٢، (تحقيق إبراهيم الأبياري)، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩.
- ضيف، شوقي. (١٩٥٦). *الترجمة الشخصية*. القاهرة: دار المعارف.
- (١٩٦٥). *الفن ومذاهبه في النثر العربي*. ط٣، القاهرة: دار المعارف.
- ضيف، شوقي. *ولجنة من أدباء الأقطار العربية*. (١٩٥٦). *الرحلات*. القاهرة: دار المعارف.
- طعان، صبحي. (١٩٩٤). "زمن النص"، *مجلة المعرفة*. السنة ٣٣، العدد (٣٧٠): ص ١٣٧-١٤٧.
- العبادي، أحمد مختار. (١٩٧٩). "الإسلام في أرض الأندلس"، *مجلة عالم الفكر*. مج ١، العدد (٢): ص ٥٩-١١٠.
- (١٩٧١). *التاريخ العباسي والأندلسي*. بيروت: دار النهضة العربية.

- (١٩٨٠). "من مظاهر الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية". مجلة عام الفكر، مج ١١، العدد (١): ١٤٢-١٥٦.
- عباس، إحسان. (١٩٨٥). تاريخ الأدب الأندلسي، "عصر سيادة قرطبة". ط٧، بيروت: دار الثقافة.
- (١٩٦٢). تاريخ الأدب الأندلسي، "عصر الطوائف والمرابطين"، ط١، بيروت: دار الثقافة.
- (١٩٦٨). "رحلة أبي بكر بن العربي، كما صورها قانون التأويل". مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت، السنة ٢١، العدد (٤-٤): ص ٥٩-٩٥.
- (١٩٥٦). فن السيرة، بيروت: دار بيروت.
- عبد الدايم، يحيى إبراهيم. (١٩٧٥). الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- العبدري، أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الحيحي، (ت ٧٠٠ هـ). الرحلة المغربية، (تحقيق محمد الفاسي)، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، الرباط، ١٩٦٨.
- عبد المهدى، عبد الجليل. (١٩٨٠). الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى- في العصرتين الأيوبى والمملوكي، ط١، عمان: مكتبة الأقصى.
- عبد النور، جبور. (١٩٧٩). المعجم الأدبي، لبنان، بيروت: دار الملايين.
- عبد الوهاب، حسن حسني. (١٩٦٦). شهرات التونسيات، ط٢، منقحة، تونس: مكتبة المنار.
- العذري، أحمد بن عمر بن أنس. (ت ٤٧٨ هـ). ترصيع الأخبار، وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد.
- ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري، (ت ٥٤٣ هـ). أحكام القرآن، ٤ج، (تحقيق علي محمد البجاوى)، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧.
- قانون التأويل، ط٢، (تحقيق محمد السليماني)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠.
- ابن عربي، محبي الدين أبو بكر محمد بن علي بن عبد الله، (ت ٥٦٠ هـ). كتاب الإسرا إلى مقام الأسرى، وكتاب الإسفار عن نتائج الأسفار، ضمن رسائل ابن عربي، ٢ج، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٩٤٨.
- الفتوحات المكية، ٤ج، دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة، دون ذكر سنة الطبع.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، (ت ٥٧١ هـ). ولادة دمشق في العهد السلجوقى، ط٣، (تحقيق صالح الدين الممنجى)، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨١.
- العسلى، كامل جميل. (١٩٩٢). بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، عمان: المكتبة الوطنية.

- أبو عصيدة البحائي، أحمد بن أحمد، (ت ٨٦٥هـ). رسالة الغريب إلى الحبيب، ط١، عرّفها وعلق عليها، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣.
- العليمي، مجير الدين الحنبلي، (ت ٩٢٧هـ). الأننس الجليل بتأريخ القدس والخليل، ط١، ج٢، تحقيق محمد عودة الكعابنة، إشراف محمود علي عطا الله، مكتبة دنديس، ١٩٩٨.
- العماد الأصفهاني، محمد بن صفي الدين، (ت ٥٩٧هـ). الفتح القسي. في الفتح القدسي، (تحقيق محمد محمود صبح)، الدار القومية للطباعة والنشر.
- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي، (ت ١٠٨٩هـ). شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٨، القاهرة، ١٩٣١.
- عنان، محمد عبد الله. (١٩٨٨). دولة الإسلام في الأندلس، ط٣، القاهرة: مكتبة الخانجي.
- العيد، يمني. (١٩٩٠). تقنيات السرد الروائي، ط١، بيروت: دار الفارابي.
- (١٩٩٧). "السيرة الذاتية الروائية"، مجلة فصول، مج١٥، العدد (٤): ص ٢٠-٢٤.
- الغرناتي، أبو حامد محمد، (ت ٥٦٧هـ). رحلة تحفة الأبباب ونخبة الإعجاب، ط١، حررها، قاسم وهب، دار السويدى للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ودار الفارس للنشر، عمان.
- (١٩٩١). المُعرب عن بعض عجائب المغرب، (تحقيق إنريغued بيخارانو)، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع العالم العربي، مدرید.
- غريب، جورج. (بدون ذكر سنة الطبع). أدب الرحلة تاريخه وأعلامه، بيروت: دار الثقافة.
- الغزاوي، أبو حامد محمد بن محمد. (ت ٥٠٥هـ). تهذيب إحياء علوم الدين، (تحقيق عبد السلام الهراس)، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٨.
- ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف، (ت ٤٠٣هـ). تاريخ علماء الأندلس، ط١، تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية.
- الفشتالي، أحمد بن إبراهيم بن يحيى الأزدي القشتالي. (١٩٧٤). تحفة المغترب ببلاد المغرب ملن له من الإخوان في كرامات الشيخ أبي مروان، (تحقيق فرناند ودي لاجرانخا)، منشورات المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدرید.
- فهيم، حسين. (١٩٨٧). "التراث الشعبي في أدب الرحلات". مجلة المأثورات الشعبية، السنة الثانية، العدد (٥): ص ٧٤-٨٣.
- (١٩٩٧). الرحلة والرحلة، ط١، دي: ندوة الثقافة والعلوم.
- فوزي، حسين. (١٩٤٣). حديث السنديان القديم، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة.

- قاسم، سبزا. (١٩٨٥). بناء الرواية، ط١، بيروت: دار التنوير.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، (ت ٢٧٦هـ). الشعر والشعراء، مطبعة برييل، ليدن، ١٩٠٢.
- ابن القطان، أبو الحسن علي، (ت ٦٢٨هـ). نظم الجمان، (تحقيق محمود علي مكي)، المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، بدون ذكر سنة الطبع.
- القلصادي، أبو الحسن علي، (ت ٨٩١هـ). رحلة القلصادي، (تحقيق محمد أبو الأజفان)، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٨.
- القلماوي، سهير. (١٩٦٠). "فن كتابة السيرة، تاريخ أم أدب". مجلة العربي، العدد (٧): ص ٥٤-٥٨.
- كنديل، فؤاد. (٢٠٠٢). أدب الرحلة في التراث العربي، ط٢، القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب.
- كاكيا، بيير. (١٩٩٩). الأدب الأندلسي، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، في: الجيوسي، سلمى الخضراء، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ط٢، ج٢، ج، ١: ص ٤٦١-٤٧١. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- ابن الكثاني، أبو عبد الله محمد، (ت ٤٢٠هـ). التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، (تحقيق إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦.
- الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير. فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات، ط٢، ج٢، باعتمان إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٢.
- الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن، (ت ٧٦٤هـ). فوات الوفيات، ج٢، (حققه وضبطه وعلق عليه محمد محى الدين عبد الحميد)، مكتبة السعادة، مصر، ١٩٥١، (وتحقيق الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد المولود)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- كراتشковסקי، أغناطيوس يوليانيونفس. (١٩٨٧). تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله عن الروسية، صلاح الدين عثمان هاشم، ط٢، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- الكلاعي، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الإشبيلي الأندلسي من أعلام القرن السادس. إحكام صنعة الكلام، (تحقيق محمد رضوان الداية)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦.
- لوجون، فيليب. (١٩٩٤). السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة عمر حلي، بيروت: المركز الثقافي العربي.
- (ليون الإفريقي): الحسن بن محمد الوزان الفاسي. (١٩٨٣). وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية، محمد حجي، ومحمد الأخضر، ط٢، ج٢، دار الغرب الإسلامي: بيروت، والشركة المغربية للناشرين المتتحدثين: الرباط.

- ابن ماجة، أبو عبد الله بن يزيد القزويني، (ت ٢٧٣ هـ). سنن ابن ماجة، حققه بشار عواد معروف، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٨.
- مال الله، علي محسن عيسى. (١٩٧٨). أدب الرحلات عند العرب في المشرق، نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجري، بغداد: مطبعة الإرشاد.
- المبخوت، شكري. (١٩٩٢). سيرة الغائب، سيرة الآتي: السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين، تونس: دار الجنوب.
- محمد، محمود سالم. (١٩٨٧). المدائج النبوية في نهاية العصر المملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة دمشق، دمشق.
- المراكشي، عبد الواحد محبي الدين بن علي التميمي، أبو محمد، (ت ٦٤٧ هـ). المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط ٣، (تحقيق محمد بن سعيد العريان)، القاهرة، ١٩٤٩.
- مرتضى، عبد الملك. (١٩٨٢). الجدل الثقافي بين المغرب والشرق، ط ١: دار الحداثة.
- المرزوقي، سمير، شاكر جميل. (١٩٨٦). مدخل إلى نظرية القصة، بغداد، العراق: دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية.
- المسدي، عبد السلام. (١٩٨٣). النقد والحداثة، بيروت: دار الطليعة.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، (ت ٣٤٦ هـ). مروج الذهب ومعدن الجوهر، ط ٢، ج، مع الترجمة الفرنسية بإعتماد الأستاذين باربيه دمينار وباؤه دكورتل، مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان، تهران ناصر خسرو - ياسار مجیدی، طهران، إیران، ١٩٧٠.
- المسعودي، حمادي. (١٩٨٩). "الواقع والأسطوري والخرافي في تحفة أبي حامد الغرناطي". مجلة الحياة الثقافية، العدد ٥٤. إدارة الآداب، وزارة الثقافة والإعلام بالجمهورية التونسية.
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحاج القشيري، (ت ٢٦١ هـ). صحيح مسلم بشرح النووي، ١٧ ج، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- . الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، ٤ مج، دار المعرفة، بيروت، دون ذكر سنة الطبع.
- مصطفى، أحمد أمين. (١٩٩٢). الحياة في القرن الثامن الهجري كما تصورها رحلة ابن بطوطة، القاهرة: مطبعة السعادة.
- مطلوب، أحمد. (١٩٩٩). الملامح الاقتصادية في رحلة ابن بطوطة، بغداد: دار الشؤون الثقافية.
- المعروف، ناجي. (١٩٧٣). علماء النظميات ومدارس المشرق الإسلامي، ط ١، بغداد: مطبعة الإرشاد.
- مقابلة، جمال. (١٩٩٦). الإسراء وامتعراج وتجلياتها في النثر العربي، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

- المقدسي، أنيس. (١٩٦٣). الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، بيروت: دار الكتاب العربي.
- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، (٢٨٠هـ). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق غازي طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٠.
- المقرري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، (ت ١٤١٥هـ). أزهار الرياض في أخبار عياض، ج٥، صندوق إحياء التراث الإسلامي، الرباط، ١٩٧٨.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ط١، ج٨، (تحقيق إحسان عباس)، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨.
- المقرizi، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، (ت ٨٤٥هـ). المواقع والاعتبار بذكر الخطط والأثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة، وما يتعلق بها وإقليمها، ج٣، مطبعة النيل، دار التحرير، القاهرة، مصر، ١٣٢٤هـ.
- مكتبة الملك عبد العزيز العامة. (١٩٩٦). السجل العلمي لندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، ط١، القسم الثاني: الموريسيكيون - الكتابات - الإستشرافية - الجغرافية والرحلات، الرياض.
- المكتاني، محمد بن عثمان. الأكسير في فكاك الأسير، (حقيقه وعلق عليه، محمد الفاسي)، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ١٩٦٥.
- مكي، الطاهر أحمد. (١٩٩٣). دراسات عن ابن حزم وكتابه "طوق الحمامنة". ط٤، القاهرة: دار المعارف.
- مكي، محمود علي. (بدون ذكر سنة الطبع). مدريد العربية، القاهرة: دار الكاتب العربي.
- المنجد، صلاح الدين. (١٩٦٣). المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى، ط١، بيروت: دار الكتاب الجديد.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (ت ٧١١هـ). لسان العرب، ج١٥، دار صادر، بيروت.
- المنوفي، محمد. (١٩٧١). التيات الفكرية في المغرب المريني، فاس، المغرب: مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعة.
- مهران، رشيدة. (١٩٧٩). طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية، ط١، الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة.
- (مؤلف مراكشي مجهول من القرن السادس الهجري): الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاط المغرب، تعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد، العراق، ١٩٨٥.
- (مؤلف من القرن الثامن الهجري): الحل الموشية، (تحقيق سهيل زكار، وعبد القادر زمامه)، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩.

- مؤنس، حسين. (١٩٦٧). تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط١، مدرید: معهد الدراسات الإسلامية.
- (١٩٥٩). فجر الأندلس، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى الدولة الأموية، ط١، القاهرة: الشرکة العربية.
- (بدون ذكر سنة الطبع). معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة: دار ومطابع المستقبل.
- موافي، عثمان. (١٩٧٣). لون من أدب الرحلات، الإسكندرية.
- موافي، ناصر عبد الرزاق. (١٩٩٥). الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ط١، جامعة القاهرة: دار النشر للجامعات المصرية.
- مورينو، مانويل جوميث. (١٩٠٠). الفن الإسلامي ترجمة لطفي عبد البديع، القاهرة: الدار المصرية.
- مویر، إدوین. (دون ذكر سنة الطبع). بناء الرواية، ترجمة إبراهيم الصيرفي، ومراجعة عبد القادر القبط: دار الجبل والدار المصرية للتاليف.
- الميداني، أبو الفضل، أحمد بن محمد النيسابوري، (ت ٥١٨هـ). مجمع الأمثال، ٢، ج، ضبط وتعليق سعيد محمد اللحام، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٩٢.
- النابغة الذبياني، زياد بن معاوية بن ضباب. ديوان النابغة، جمعه وشرحه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، والشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ١٩٧٦.
- نصار، حسين. (١٩٩١). أدب الرحلة، ط١، الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان: مكتبة لبنان.
- نواب، عواطف محمد يوسف. (١٩٩٦). الرحلات المغاربية والأندلسية، مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، الرياض: مكتبة املاك فهد الوطنية.
- نور الدين، صدوق. (٢٠٠٠). سير المفكرين الذاتية: زيكي نجيب، لويس عوض، إحسان عباس، محمد عابد الجابري، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- النووي، محيي الدين أبو ذكري، يحيى بن شرف، (ت ٦٧٦هـ). تهذيب الأسماء واللغات، ٢، ج، إدارة الطباعة المعنوية، القاهرة، ١٩٠٠.
- النويري، شهاب الدين بن أحمد بن عبد الوهاب، (٧٣٣هـ). نهاية الأرب في فنون الأدب، (تحقيق حسين نصار)، يصدرها المجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣.
- هونكة، زينغرید. (٢٠٠٢). شمس العرب تسقط على الغرب، ط١٠، نقله عن الألمانية فاروق بيضون، وكمال دسوقي، راجعه، مارون عيسى الخوري، بيروت: دار صادر، ودار الآفاق الجديدة.
- وهبة، مجدي، المهندس، كامل. (١٩٨٤). معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط٢، بيروت: مكتبة لبنان، لبنان.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، (ت ٦٢٦ هـ). معجم البلدان، ٥ ج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٧٩.

يقطين، سعيد. (١٩٨٨). "صيغ الخطاب الرواقي وأبعادها النصية". مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت، العدد (٤٨-٤٩): ص ٣٧-٤٥.

ب. باللغة الإنجليزية:

- Ianrich, Aronetton, (١٩٩١), **Basic Structuralism and signs of Alienation in the Rihla of Ibn Jubayr**, Journal of Arabic Literature, NO. xxll. ٢١-٣٤.
- International Copyright Union (١٩٧٤), **The New Encyclopedia Britamnica**. USA. Vol. ll.
- Nicholson, R.A, (١٩٩٧), **A Literary History of the Arabs**. India: S. Sajed.
- Watt, W.m, (١٩٦٧). **A History of Islamic Spain. Islamic Surveys**, Edinbrugh: Edinburgh University.



ANDALUSIAN AND MORROCAN LITERATURE OF TRAVELS UNTIL THE END OF THE NINTH CENTURY OF HIJRA

This study follows up the Andalusian and Moroccan Travels until the end of the Ninth century of Hijra. It follows the cultural and epistemic contexts of these travels. It also shows the travels role in the cultural interaction, their relations with the other literary forms and decide their artistic features which strengthen them.

This study includes an introduction and four chapters:

The Introduction included the definition of the travel, its establishment, motives and importance. Then it presented the most famous travelers and their travels and the role these travels play in the Arabic culture.

The first chapter presented the cultural, epistemic, religious and social contexts included in the travels. It showed the picture of women and men in different societies that travelers visited.

The second chapter discussed the travels and their cultural interaction. It showed the factors of that interaction and forms of coordination and exchange among different races and denominations.

The third chapter presented the relationship between the travels and the forms of writing a C.V, diaries, memoris and confessions.

The fourth chapter was concerned with studing the artistic structure, the methodes that travelers used to describe their views and express their feelings and studying the narrative structure of these travels.

Some of the most important results of this stody were:

- The main purpose of Andalusian and Morrocan travelers' travel was for, pilgrimage, visiting holistic places and asking for knowledge. Then they became famous because of their knowledge and travels, so they became qualified for holding religious and scientific positions when they came back. They were given the chance to work in teaching, in the judiciary or in writing for some Morrocan and Andalusian princes.
- The travels observed the variety of civilized land marks in different aspects of life in the countries that the travelers went to. The travels reflected clear picture of nations' cases i.e. Their food, colthes, physiological and psychological features, customs and traditions, imports, exports and architetionc arts,

In that way the travels formed a comprehinsive maps: Geographic, plant, animal and human.

What travelers reported of certain news, views or descriptions may paue the way for establishing sciences which search in the social studies.

- Some travels formed a literary art like embassy, travels, diaries, memoris, of C.V. These forms had the same essence of the travels which was describing travelling from one place to another.
- The views that travelers saw, and what theyreported such as news and stories.
- To Investigate belonging to oneself's culture, understand the other culture and to become opened to them.

The role of travels in the cultural interaction exchanging and coordinating among all cultures and human elements in the conutries the travelers visited. These travels showed the extent of traveler's interaction with others in scientific meeting, debated and literary oppositions.

أدب الرحلات الأندلسية والمغربية

حتى نهاية القرن التاسع الهجري



دار المامون للنشر والتوزيع

العبدلي - عمارة جوهرة القدس

تلفاكس: ٩٦٤٥٧٥٧

ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن

E-mail: da@almamoun@maktoob.com